العثمانية

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

عونك اللهم

ثم إنا مُخْبِرُون عن مقالة العُثْمانية ، وبالله نستهدى وإيّاه نستعين ، وعليه نتوكّل ، وما توفيقنا إلّا به .

(* رووا[1] أنّ أفضلَ هذه الأُمّة وأولاها بالإمامة أبو بكر بن أبى قُحافة ، وكان أوّلَ ما دلّهم عند أنفُسهم على فضيلتهِ وخاصّة منزلته ، وشِدّة استحقاقِه ، إسلامُه على الوجه الذى لم يُسلم عليه أحدٌ من عالَه وفى عصره . وذلك أنّ الناس اختلفوا فى أوّلِ النّاس إسلاماً ، فقال قوم : أبو بكر بن أبى قحافة ، وقال آخرون : زيدُ بن حارثة ، وقال نَفَرٌ : خبّاب بن الأرَتّ .

على أنّه إذا تفقّدنا أخبارَهم ، وأحصينا أحاديثَهم وعدد رجالِهم[2] ، و [نظرنا فى[3]] صحّة أسانيدهم ، كان الخبر فى تقديم أبى بكرٍ أعمّ ، ورجالُه أكثر ، وإسناده أصحّ ، وهم بذلك أشهر ، واللفظ به أظهر ، مع الأشعار الصحيحة والأخبار المستفيضة[4] فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته . وليس بين الأشعار وبين الأخبار فرقٌ إذا امتنع فى مجيئها وأصلِ مخرجها التّباعُد[5] والاتّفاق والتّواطؤ ، ولكنّا ندع هذا

(١) ب : « زعمت العثمانية » وفى ح : « قالت العثمانية » .
(٢) ب ، ح : « وعددنا رجالهم » .
(٣) التكملة من ح .
(٤) فى الأصل وب : « والأمثال المستفيضة » ، ووجهه من ح .
(٥) فى الأصل وب : « التشاعر » ، وصوابه من ح .

ذلك من باطله بأن تُحصِيَ سِنيهِ التى ولى فيها ، وسِنِى عثمان ، وسِنِى عمر وسنى أبى بكر ، وسنى الهجرة ، ومُقامِ النبى صلى الله عليه بمكة بعد أنْ دعا إلى الله وإلى رسالته إلى أن هاجر إلى المدينة ، ثم تنظرَ فى أقاويل الناس فى عُمره ، وفى قول المُقَلِّل والمكثِّر ، فتأخذَ أوسطَها وهو أعدلُها ، وتطرحَ قول المقَصِّر والغالى ، ثم تطرح ما حصل فى يديك من أوسطِ ما رُوى من عُمرِه [و] سِنيه ، وسِنِى عثمان وسنى عمر وسنى أبى بكر ، والهجرةِ ومُقامِ النبى صلى الله عليه وسلم بمكّة إلى وقت إسلامه ، فإذا فعلتَ ذلك وجدتَ الأمر على ما قُلْنا وعلى ما فسَّرنا .

وهذه التأريخات والأعمار معروفةٌ لا يستطيعُ أحدٌ جهلَها والخلافَ عليها ؛ لأنَّ الذين نقلوا التاريخ لم يعتمدوا(١) تفضيلَ بعضٍ على بعض ، وليس يمكن ذلك مع اختلاف عللهم وأسبابهم ، فإذا ثبت عندك بالذى أوضحنا وشرحنا أنَّه كان يومئذ ابنَ سبعِ سنينَ أقلَّ بسنة أو أكثر بسنة ، علمت بذلك أنَّه لو كان أيضاً ابنَ أكثرَ من ذلك بسنتين وثلاثٍ وأربع لا يكون إسلامُه إسلامَ المكلَّف العارفِ بفضيلة ما دخلَ فيه ، ونقصان ما خرج منه .

والتاريخُ المجتمع عليه أنَّ علياً قُتِلَ سنة أربعين فى شهر رمضان *) .

وقالوا : (* فإنْ قالوا فلعلَّه وهو ابن سبع سنين وثمان(٢) سنين قد بلغ من فِطنته وذكائه وصحّة لُبّه وصدق حسِّه وانكشاف العواقب له وإن لم يكن

---

(١) هذا ما فى ب . وفى الأصل : « إن الذين نقلوا التاريخ لم يتعمدوا » .

*) الكلام من مبدأ الكتاب إلى هنا موضع مناقضة للاسكافى . انظر الرد رقم (١) فى ملحقات الكتاب .

(٢) ح : « أو ثمان » .

جَرَّبَ الأمور ، ولا فاتَحَ الرِّجال ، ولا نازع الخصوم ، ما يعرفُ جميعَ ما يجب على البالغ معرفتُه والإقرار به .

قلنا : إنَّما نتكلَّم على ظاهر الأحكام وما شاهدنا عليه طباعَ الأطفال . وجَدْنا حكم ابن سبع سنين ، وثمان سنين وتسع سنين ، حيث قرأْناه[١] وبلغَنَا خبره — مالم يُعلم مغيَّب أمره ، وخاصّة طباعه — حُكمَ الأطفال ، وليس لنا أن نُزِيلَ[٢] ظاهر حكمه والذى نعرف مِن شكله[٣] بلعلَّ وعسى ؛ لأنّا كنا لا ندرى لعلّه قد كان ذا فضيلةٍ فى الفِطنة ، فلعله أن يكون ذا نقص فيها . أجاب منهم بهذا الجواب من يجوِّز أن يكون علىٌّ فى المغيَّب قد أسلم إسلام البالغ المختار ، غير أنَّ الحكم فيه عندَه على مَجرى أمثاله وأشكاله الذين إذا أسلموا وهم فى مثل سنّه كان إسلامهم على تربية الحاضن ، وتلقين القيِّم ، ورياضة السائس .

فصل[٤] : فأمَّا علماء (العثمانية) ومتكلِّموهم ، وأهل القِدَم والرِّياسة منهم ، فإنَّهم قالوا : إنَّ عليًّا لو كان وهو ابنُ ستّ سنين وسبع سنين ، وثمانِ سنين وتسع سنين ، يعرف فصْل ما بين الأنبياء والكهنة ، وفَرْقَ مابين الرسل والسحرة وفرق ما بين خبر المنجِّم[٥] والنبيّ ، وحتّى يعرف الحجَّة من الحيلة[٦] ، وقهر

---

(١) ب : « رأيناه » .
(٢) فى الأصل : «أن نتكلم نزيل» ، وكلمة «نتكلم» مقحمة ، كما يفهم من ب ، ح .
(٣) ح : « والذى نعرف من حال أبناء جنسه » .
(٤) كلمة « فصل » ليست فى ب ، كما سبق التنبيه .
(٥) فى الأصل : « المنجمين » ووجهه من ب ، ح .
(٦) فى الأصل : « من أجله » ، صوابه فى ب .

الغلبة من قهر المعرفة ، ويعرف كيد المُرِيب وبُعْدَ غور المتنسِّي ، وكيف يَلبِس على العقلاء ، ويستميل عقول الدَّهماء[1] ، ويعرف الممكن فى الطَّبائع من الممتنع فيها ، وما يحدث بالاتِّفاق وما يحدث[2] بالأسباب ، ويعرف أقدار القُوى فى مبلغ الحيلة ومُنتهى البطش ، ومالا يحتمل إحداثَه إلاَّ الخالق ، وما يجوز على الله ممَّا لا يجوز فى توحيده وعدله ، وكيف التحفُّظ من الهوى ، وكيف الاحتراس من تقدُّم الخادع فى الحيلة — كان كونُه بهذه الحال وعلى هذه الصِّفة مع فرط الصِّبا والحداثة ، وقِلَّة التجارب والممارسة ، خروجاً من نشوء العادة ، والمعروفِ مما عليه تَركيبُ الأمة[3] . ولو كان على هذه الصِّفة ومعه هذه الخاصّية ، كان حجّةً على العامّة ، وآيةً تدلُّ على المباينة . ولم يكن الله ليخُصَّه بمثل هذه الآية وبمثل هذه الأُعجوبة إلاَّ وهو يريد أن يحتجَّ بها له ، ويخبر بها عنه ، ويجعلَها قاطعةً لعذر الشَّاهد ، وحُجَّةً على الغائب ، ولا يضيِّعها هَدَراً ، ولا يكتمها[4] باطلاً .

ولو أراد الاحتجاجَ بها شَهَرَ أمرَها وكشَفَ قِناعها ، وحملَ النُّفوسَ على معرفتها ، وسَخَّر الألسنة لنقلها ، والأسماعَ لإدراكها ، لئلاَّ يكون لغواً ساقطا ، ونَسْياً منسيّا ، لأنَّ الله لا يبتدع أُعجوبةً ولا يخترع آيةً ولا ينقضُ العادةَ إلاَّ للتعريف والإعذار ، والمصلحة والاستبصار[5] . ولولا

---

(١) دهماء الناس : جماعتهم وكثرتهم . وفى الأصل : « الدهم » ، صوابه فى ب ، ح .

(٢) ب ، ح : « مما يحدث » .

(٣) هذا ما فى ب ، ح . وفى الأصل : « تركيبت الأمة » .

(٤) ب : « ولا يكتبها » .

(٥) هذا ما فى ب ، وهو الأشبه بلغة الجاحظ . وفى الأصل : « الاستنفاذ » .

ذلك لم يكن لفعلها معنًى ، ولا لرسالته حجّة . والله يتعالى(١) أن يَترُكَ الأمورَ سُدًى ، والتّدبير نَشَراً . ولا يصلُ أحد إلى معرفةِ صدق نبيٍّ وكذب متنبّئٍ حتّى تجتمع له هذه المعارفُ التى ذكرنا ، وهذه الأسبابُ التى فصّلنا .

ولولا أنّ الله سبحانه خبّر عن يحيى بن زكريا أنّه(٢) آتاه الحكم صبيًّا ، وأنّه أنطقَ عيسى فى المهد رضيعاً ، ما كانا فى الْحُكم ولا فى المغيَّب إلاّ كسائر الرُّسل ، وما عليه طبع البشر(٣) .

فإذْ(٤) لم ينطقْ لعليٍّ بذلك قرآن ، ولا جاء الخبرُ به مجيءَ الحجّة القاطعة ، والشّهادة الصادقة ، فالمعلومُ عندنا فى الحكم وفى المغيَّب جميعاً أنّ طباعَه كطباع عمّيهِ حمزةَ والعباس(٥) وهما أمَسُّ بمعدِن جِمَاع الخير منه ، وكطباع جعفرٍ وعَقيلٍ أخوَيه ، وكطباع أبوَيه ورجال عصرِه وسادةِ رهطه . ولو أنّ إنساناً ادّعى مثل ذلك لأخيه جعفرٍ أو لعمّه حمزةَ أو لعمّه العباس — وهو حليمُ قريش — ما كان عندنا فى أمره إلاّ مِثلُ ما عندنا فيه*) .

فصل(٦) : (*ولو لم تعرف الرّوافضُ ومَن ذهب مذهَبها فى هذا باطلَ

---

(١) ب : « تبارك اسمه وتعالى » .

(٢) فى الأصل : « إذ » صوابه فى ب ، ح .

(٣) وما عليه طبع البشر ، ساقط من ب . وفى ح : « وما عليه جميع البشر » .

(٤) فى الأصل ، ح : « فإذا » ، ووجهه من ب .

(٥) كذا فى ح ، ب . وفى الأصل : « طباع حمزة والعباس عميه » .

*) الكلام من « فإن قالوا » ص ٦ س ١٧ إلى هنا موضع رد للاسكافى . انظر رقم (٢) من نصوصه الملحقة بالكتاب .

(٦) ليست فى ب .

هذه الدعوى ، وفسادَ هذا المعنى إذا صَدَقَتْ أنفُسَها ولم تقلِّد رجالَها ، وتحفَّظت من الهوى وآثرت التقْوى ، [إلاَّ بتركِ(١)] علىّ ذِكْرَ ذلك لنفسه والاحتجاجَ به على خَصمِه وأهلِ دهره ، منذُ نازعَ الرجال ، وخاصَمَ(٢) الأكْفاء ، وجامَعَ أهلَ الشورى ووَلِيَ ووُلِيَ عليه ، والنَّاسُ بين معاندٍ يحتاج إلى التقريع ، ومُرْتادٍ(٣) يحتاج إلى الإرشاد ، ووليّ يحتاج إلى المادّة ، وغُفْلٍ يحتاج إلى أن يُكْثَر له من الحجّة ، ويُتابَعَ له بين الأمارات والدّلالات(٤) مع حاجة القرن الثانى إلى معرفة الحقّ ومعدن الأمر ، لأنَّ الحجة إذا لم تصحَّ لعليٍّ فى نفسه ، ولم يَقْوَ على أهل دهره ، فهى عن ولده أعجز ، وعنهم أضعف .

ثمَّ لم ينقل ناقلٌ واحدٌ أنَّ عليًّا احتجَّ بذلك فى موقف ، ولا ذكَرَه فى مجلِس ، ولا قام به خطيباً ، ولا أدلى به واثقا ، ولا همس به إلى موافق ، ولا احتجَّ به على مخالف .

فصل(٥) : وقد ذكر فضائلَه وفَخَر بقرابته وسابقته ، وكاثَرَ بمحاسنه ومَواقفه ، منذ جامع الشُّورى وناضَلَهم ، إلى أن ابتُلِى بمُساورة معاوية له ، وطمعِه فيه ، وجلوس أكثر أصحاب رسول الله عن عَونه ، والشَّدِّ على عضده ، كما قال عامرٌ الشَّعبى : لقد وقعت الفتنة وبالمدينة عشرون ألفاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما خفَّ فيها منهم

---

(١) التكملة من ب .
(٢) هذا ما فى ب . وفى الأصل : « وخاير » .
(٣) ب : « ومرتاد » .
(٤) هذا ما فى ب . وفى الأصل : « والدلالة » .
(٥) هذه الكلمة ليست فى ب .

عشرون . ومَن زعَمَ أنَّه شهد الجملَ ممَّن شهد بدراً أكثرُ من أربعةٍ فقد كذَب . كان علىٌّ وعمَّار فى شِقٍّ ، وطلحةُ والزُّبير فى شِقٍّ .

وكيف يجوز عليه تركُ الاحتجاج على المخالِف وتشجيع الموافِق وقد نَصبَ نفسَه للخاصّة والعامّة ، وللخاذل والعادى[(١)] ، ومن لا يحلّ[(٢)] له فى دينه تَرْكُ الإعذار إليهم ، إذْ كان يرى أنَّ قتالَهم كان واجباً ، وقد نصَبهُ الرّسولُ مَفزعاً ومَعْلَما ، ونصَّ عليه قائماً ، وجعلَه للناس إماما ، وأوجب طاعته ، وجعَلَه حجّةً فى الناس يقوم مقامه .

فصل[(٣)] : وأعجبُ من ذلك أنَّه لم يدَّعِ هذا له أحدٌ فى دهره كما لم يدَّعِهِ لنفسه ، مع عظيمِ ما قالوا فيه فى عَسكره وبعدَ وفاته ، حتّى يقول إنسانٌ واحد إنّ الدَّليل على إمامته أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الإسلام ، فكلَّفَ التَّصديق[(٤)] قَبلَ بلوغه وإدراكه ، ليكون ذلك آيةً له فى عصره ، وحجّةً له ولولده على مَن بعده . وقد كان علىٌّ أعلَمَ بالأمور مِن أن يدَعَ ذِكرَ أكبرِ حُججِهِ والذى بانَ به من شكله ، ويذكر أصغر حُجَجِهِ والذى يشاركه فيه غيرُه ، وقد كان فى عسكره مَنْ لا يألو فى الإفراط ، ومَن يحسب أن الإفراط زيادةٌ فى القدر .

والعجبُ له ، إن كان الأمر كما ذكرتم ، كيف لم يقف يوم الجمل ويوم صِفِّينَ أو يوم النَّهر فى موقفٍ يكون من عدوّه بمرأًى ومسمع ،

(١) ب : « وللمولى وللمعادى » .
(٢) فى الأصل : « ولا يحمل » صوابه فى ب .
(٣) ليست فى ب .
(٤) فى الأصل : « وكفه التصديق » ، صوابه فى ب .

فيقول : « تبًّا لكم وتعساً ، كيف تقاتلونى وتجحدون فضلى[١] وقد خصِصتُ بآيةٍ حتّى كنتُ كيحيي بن زكريا وعيسى بن مريم » ولا يمتنع النّاسُ من أن يقولوا ويعوجوا ؛ فإذا ماجوا تكلَّموا على أقدارِ عِلَلهم ، وعِللُهم مختلفة ، ولا ينشَب أمرُهم أن يعود إلى فُرقة ، فمِن ذاكرٍ قد كان ناسياً ، ومِن نازعٍ قد كان مُصِرًّا ، وكم مترنّحٍ قد كان غالطا ، مع ما كان يَشِيع[٢] من الحُجَّة فى الآفاق ، ويستفيض فى الأطراف ، ويحتمله الرُّكبان ويُتهادَى فى المجالس .

فهذا كان أشدَّ على طلحةَ والزُّبير ، وعائشة * ومعاوية ، وعبد الله بن وهب ، من مائةِ ألف سنانٍ طريرٍ ، وسيفٍ مشهور .

فصل[٣] : ومعلوم عند ذَوِى التّجربة والعارفين بطبائع الأتباع[٤] ، وعِلَل الأجناد ، أنّ العساكر تنتقض مرائرُها وينتشر أمرها ، وتنقلب على قادتها[٥] بأيسَرَ من هذه الحجّة ، وأخفَى من هذه الشّهادة .

فصل : وقد علمتم ما صنعت المصاحفُ فى طبائع أصحاب علىّ ، حين رفعها عمرُو بن العاص أشدَّ ما كان أصحاب علىٍّ استبصارا فى قتالهم ،

---

(١) ب : « فضيلتى » .

*) الكلام من قوله « ولو لم تعرف الروافض » س ١٥ من ص ٩ إلى هنا موضع مناقضة للاسكافى ستأتى برقم (٣) . وقد نقل الإسكافى عبارة الجاحظ موجزة متصرفا فيها . انظر ابن أبى الحديد ٣ : ٢٦٣ .

(٢) فى الأصل : « يسمع » .

(٣) هذه الكلمة ليست فى ب .

(٤) فى الأصل : « بصنائع الأتباع » ، صوابه فى ب .

(٥) ب : « قائدها » .

ثم لم ينتقضْ على علىٍّ من أصحابه إلاَّ أهلُ الجِدِّ والنَّجدة ، وأصحاب البرانس والبصيرة[١] .

وكما علمتم من تحوُّل شَطر عسكر عبد الله بن وهبٍ حين اعتزلوا مع فروةَ بن نوفل ، لكلمةٍ سمعوها من عبد الله بن وهب كانت تدلُّ عندهم على ضعف الاستبصار والوهن[٢] فى اليقين .

وهذا الباب أكثر من أن يحتاج مع ظهوره ومعرفةِ النَّاس به إلى أن نحشوَ به كتابنا .

فصل[٣] : فأمَّا إسلامه وهو حدثٌ غرير وغلام صغير ، فهذا مالا ندفعه ، غير أنه إسلام تلقينٍ وتأديب وتربية . وبين إسلام التَّكليف والامتحان وبين التَّلقين والتربية فرقٌ عظيم ، ومحجّةٌ واضحة .

وقالت (العثمانية) : إن قالت الشِّيَع : إنَّ الأمور ليس كما حكيتم ، ولا كما هيَّأتموه لأنفسكم ، بل نزعم أنَّه قد كانت هناك[٤] فى أيَّام صباه وحَداثته فضيلةُ فطنـــةٍ ، ومزيَّةُ[٥] ذكاء ، ولم يبلغ الأمرُ قدرَ الأُعجوبة والآية .

قلنا : إنَّ الذى ذهبتم إليه أيضا لابدَّ فيه من أحد وجهين : إمَّا أن يكون قد كان لا يزال يُوجَد فى الصِّبيان مثلُه فى الفطنة

---

(١) انظر العقد ٤ : ٣٥١ لجنة التأليف . ب « المراس » ، تحريف .
(٢) فى الأصل : « والوهم » ووجهه من ب .
(٣) هذه الكلمة ليست فى ب .
(٤) ب : « هنالك » .
(٥) ب : « ومزيد » .

والذّكاء وإن كان ذلك عزيزاً قليلا ، أو كان وجودُ ذلك ممتنعاً ، ومن العادة خارجا . فإذا[1] كان قد كان يُوجَد مثلُه على عِزّته وقلته فما كان إلاَّ كبعض مَن نرى اليوم ممن يُتعجَّب من حسّه وفطنته ، وحفظه وحكايته وسُرعة قَبوله على صغر سنّهِ وقلة تجريبه[2] . وإن كانت حالُه هذه الحالَ ، وطبيعته على هذا المثال ، فإنا[3] لم نجد صبياً قطُّ وإن أفرط كَيْسه وحسُنَت فطنته وأُعجب [به[4]] أهلُه يحتمل وِلايةَ الله سبحانَه وعداوتَه ، والتَّمييز بين الأمور التى ذكرنا . مع أنَّه ما جاءنا ولا صحَّ عند أحدٍ منا بخبرٍ صادق ، ولا كتاب ناطق ، أنَّه كان لعلىٍّ خاصّةً دون قريشٍ عامّةً فى صباه من إتقان الأُمور وصِحّة المعارف وجَودة المخارج ، ما لم يكنْ لأحدٍ من إخوته وأعمامه وآبائِه .

وإن كان القدر الذى كان عليه علىٌّ من الذكاء والمعرفة القَدرَ الذى لم نجدْ له [فيه[4]] مِثلاً ، ولا رأينا له شِكلا — وهذا هو البديع الذى به يُحتجُّ على المنكرين ، ويُفلج[5] على المعارضين ، ويُبيَّن للمسترشدين — فهذا بابٌ قد فرَغْنا منه مرّة .

فصل : ولو كان الأمر فى علىّ على ما يقولون[6] لكانت فى ذلك حُجّةٌ للرسول فى رسالته ، ولعلىٍّ فى إمامته . والآيةُ إذا كانت للرسول وخليفة

---

(١) فى الأصل : « وإن » ، والوجه من ب .
(٢) ب : « تجربته » .
(٣) فى الأصل : « وإنا » ، صوابه فى ب .
(٤) التكملة من ب .
(٥) فلج غيره وفلج عليه وأفلج : فاز وظفر . وفى النسختين : « يفلح » ، تحريف .
(٦) ب : « كما يقولون » .

الرسول كان أشهرَ لها ؛ لأن وضوح أمرِ الرسول يزيد[١] على ما للإمام ويزيده إشراقاً واستنارة[٢] وبياناً . ولا يجوز أن يكون الله قد عرّف أهلَ عصرِهما ذلك ، وهمُ الشُّهداء على مَن بعدَهم من القرون ثم يسقِط[٣] حجته ؛ فلا تخلو تلك الحجةُ وتلك الشَّهادةُ من ضربين : إمّا أن تكون ضاعت وضلت ، وإمَّا أن تكون قد قامت وظهرت .

فإنْ كانت قد ضاعت فلعلَّ كثيراً من حُجَج الرسول صلى الله عليه وسلم قد ضاع معها ، وما جُعِلَ الباقى منها أولى بالتَّمام من السَّاقط ، والساقط من شكل الثَّابت . على أنَّ مع الساقط خاصّةً ليست مع الثابت ، لأنَّه حجة على شيئين ، والثابت حجة على شىء . ولا يخلو أمرُ السَّاقط من ضربين : إمَّا أن يكون الله لم يُرِدْ تمامه ، أو يكون قد أراده .

وأىَّ ذيْنِ [كان[٤]] ففَسادُه واضحٌ عند قارئ الكتاب .

وإن كانت الآية قد تمت إذْ كانت الشهادة قد قامت علينا بها كما كانت شهادةُ العِيان قائمةً عليهم[٥] [فيها[٦]] فليس فى الأرض عثمانىٌّ إلاَّ وهو يكابر عقلَه ويجحَد علمه .

ولعمرى إنَّا لنجد فى الصِّبيان من لو لقَّنته وسدَّدته أو كتبتَ له أغمضَ المعانى وألطفَها ، وأغوَصَ الحجج وأبعدَها ، وأكثرها لفظاً

---

(١) ب : « يرى » .
(٢) فى الأصل : « استثارة » ، صوابه فى ب .
(٣) ب : « أسقط » .
(٤) التكملة من ب .
(٥) فى الأصل : « عليها » صوابه فى ب
(٦) التكملة من ب

وألطفها ، وأطولها ، ثم أخذته بدرسه وحِفْظه لحِفظَه حِفظًا عجيباً ، ولهذه هذًّا ذَليقا(١) . فأمَّا معرفتُه صحيحَه من سقيمه ، وحقَّه من باطله ، وفَصْلَ ما بين المقرِّب والدليل ، والاحتراسَ من حيثُ يؤتى المخدوعون ، والتحفُّظَ من مكر الخادعين ، وتأتِّي(٢) المجرِّب ، ورِفْقِ السَّاحر ، وخِلابة المتنبِّيء ، وزَجْرِ الكاهن(٣) ، وإخبار المنجِّمين ، وفَرْقَ ما بين نَظْم القرآن وتأليفه ونَظْمِ سائر الكلام وتأليفه — فليس يعرف فُروقَ النَّظْر واختلافَ البحث(٤) ، إلاَّ مَن عرف القصيدَ من الرَّجْز(٥) ، والمخمَّس من الأسجاع ، والمُزاوَج من المنثور ، والخطب من الرَّسائل ، وحتّى يعرف العجزَ العارضَ الذى يجوز ارتفاعُه من العجز الذى هو صفةٌ فى الذّات .

فإذا عرفَ صُنُوفَ التّأليف عرف مباينة نظمِ القرآن لسائر الكلام ، ثم لم يكتفِ بذلك حتّى يعرف عجزَه وعجزَ أمثالِه عن مثله ، وأنَّ حكمَ البشر حكمٌ واحد فى العجز الطَّبيعى وإن تفاوتوا فى العَجْز العارض . وهذا ما لا يوجد عند صبيٍّ ابنِ سبع سنين وثمان سنين وتسع سنين أبداً ، عرَفَ ذلك عارف أو جهِله جاهل . ولا يجوز أن يعرف عارفٌ معنى الرسالة إلاَّ بعد الفراغ من هذه الوجوه ، إلاَّ أن يجهل جاهلٌ

---

(١) الذليق : الفصيح . وفى النسختين : « لهذه هذا » ، تحريف . يقال هذ القرآن والحديث هذا : سرده . وفى حديث ابن عباس ، قال له رجل : قرأت المفصل الليلة . فقال : أهذا كهذ الشعر .

(٢) فى الأصل : « ماتى » بإهمال أوله ، وفى ب « ويأتى » ووجههما ، ما أثبت . قال الأصمعى : تأتّى فلان لحاجته ، إذا ترفق لها وأتاها من وجهها .

(٣) ب : « الكهان » .

(٤) ب : « فروق النظم واختلاف البحث والنثر » .

(٥) الزجر ، واضحة فى النسختين . يعنى زجر الكاهن . انظر طرفا منه فى صدر سيرة ابن هشام . والزجر يلتبس على من لم يعرفه بالشعر .

التَّقليدَ والنَّشوَّ والإلفَ لما عليه الآباء وتعظيم الكبراء ، معرفةً ويقيناً . وليس بيقينٍ ما اضطرب ودخله الخِلاج عند ورود معانى لعلّ وعسى ، وما لا يُمْكِنُ[1] فى المقول إلاّ بحجة تُخرِج القلبَ إلى اليقين عن التجويز .

ولقد أعيانا أن نجد هذه المعرفة إلاّ فى الخاصّ من الرِّجال وأهلِ الكمال فى الأدب ، فكيفَ بالطِّفل الصغير والحدث الغرير ؟ ! مع أنّك لو أدرت[2] معانىَ بعضِ ما وصفتُ لك على أذكَى صبيٍّ فى الأرض وأسرعِه قَبولاً وأحسنِه حكايةً وبياناً[3] ، وقد سَوَّيته [له[4]] ودلّلته ، وقرّبتَه [منه] وكفَيته مَؤونة الرَّوِيَّة ووحشة[5] الفكرة ، لم يعرفْ قدرَه ولا فَصَلَ بين حقِّه من باطله ، ولا فرّق بينَ الدّلالة وشبيهِ الدّلالة ، فكيف له بأن يكون هو المتولّى لتجربته[6] وحلّ عقده ، وتخليص مُتشابهه ، واستثارته من معدنه ؟ !

وكلّ كلامٍ خرج من التَّعارُفِ فهو رجيعٌ بَهرج ، ولغوٌ ساقط .

فصل[7] : وقد نجد الصبىّ الذّكىّ يعرف من العَروض وجهاً ، ومن النحو صدراً ، ومن الفرائض أبواباً ، ومن الغِناء أصواتاً ، فأمّا العلمُ بأصول الأديان ومخارج المِلَل ، وتأويل الدِّين ، والتحفّظ من البِدَع ، وقبْلَ ذلك الكلامُ فى حُجَج العقول ، والتّعديل والتّجوير ، والعلمُ بالأخبار وتقدير

(١) هذا الصواب من ب . وفى الأصل : « ومما لا ينكر » .

(٢) فى الأصل ، ب : « أردت » ، والوجه ما أثبت .

(٣) الكلمة مبهمة فى الأصل ، وتوضيحها من ب .

(٤) التكملة من ب .

(٥) فى الأصل : « وحشيته » صوابه فى ب .

(٦) فى الأصل : « لحرثه » وصوابه فى ب .

(٧) ليست فى ب .

الأشكال(١) فليس هذا موجوداً إلاَّ عند العلماء . فأمّا الحشْوةُ والطَّغَام(٢) فإنّما هم أداةٌ للقادة ، وجوارحُ للسَّادة . وإنّما يَعرِف شِدَّةَ الكلام فى أصول الأديان من قد صَلِىَ به وعَجَمه ، وسلَك(٣) فى مَضَايقه ، وجَاثَى الأضداد(٤) ، ونازعَ الأكْفاء(٥) .

فإنْ قالت (الشِّيَع) : الدَّليل على أنَّ إسلام علىٍّ كان اختياراً ولم يكن تلقيناً ، أنَّ عليّاً(٦) أسلَمَ بدُعاء النبىِّ صلى الله عليه وسلم له ، وفى ذِكر الدُّعاء والإقرار به دليلٌ على أنَّ الإجابة اختيار ، لأنَّ المُسْلِمَ بالدُّعاء مجيبٌ للدُّعاء . ولا نُسلِّمُ الدُّعاءَ يكونُ من حكيم لمدعُوٍّ(٧) لا يَختار ولا تحتمل فطرتُه تمييز الأمور وفَصْلَ ما بين ما دعا إليه وبين ما دعا إليه غيرُه . وليس بينَ قول القائل : دعَا النبى صلى الله عليه فلاناً إلى الإسلام(٨) وبين قولِه : كلّف النبى صلّى الله عليه وسلم فلاناً الإسلامَ فرق . وقولُ المسلمين : دعا النبىُّ صلّى اللهُ عليه وسلم عليًّا كقولهم :(٩) دعا جميعَ العربِ فمِن مجيبٍ طائعٍ كعلىٍّ ، ومن ممتنع عاصٍ كفلان وفلان .

---

(١) فى الأصل : « وتقرير الشكال » ، صوابه فى ب .

(٢) حشوة الناس ، بالضم : رذالتهم ، ومثله الطغام ، بالفتح .

(٣) ب : « وسال » .

(٤) فى الأصل ، ب : « وحاثى » ، تحريف . جاثاه : جلس معه على ركبتيه للخصومة .

(٥) إلى هنا ينتهى الاختيار الأول فى نسخة ب وتنفرد نسخة الأصل إلى حيث المنبه فيما بعد .

(٦) فى الأصل : « أن الإمامة أن عليا » .

(٧) فى الأصل : « يدعو » .

(٨) بعده فى الأصل : كلمة « فرق » ، وهى مقحمة .

(٩) فى الأصل : « وقوله المسلمين ... كقوله لهم » تحريف .

قالت (العثمانية) عِند ذلك : قد عرَفْنا أنَّ بعضَهم قد نقَلَ أنَّ عليّاً كانَ أوّلَ من أسلم ، وقد نقلوا بأجمعهم أنّه كان أوّلَ مَن أسلم . وبينَ قولِ القائل أسلم فلانٌ أوّلَ النّاس وبين أن يقول أسلَمَ فى أوائل الناس فرقٌ . فأمَّا أنْ يكون واحدٌ من جميع الصِّنفين من البعض والجميع فسَّر مع روايتِهِ ومَخرج خبره كيف كان إسلامُه ، أعَلَى وجهِ الدُّعاء والتَّكليف أم علَى وجه التَّلقين والتَّربية ، فلم نر أحداً منهم ميَّز ذلك ولا فرَقَه فى مَخرج الخبر . ونحنُ لم ندَّع أنَّ إسلامَه كان إسلامَ تلقين مِنْ قِبَل تفسير النَّاقلين وتمييز المحدِّثين ، ولكنَّا نظرنا فى التاريخ فعرَفْنا عُمرَه وابنَ كمْ كان يومَ تُوفِّى ، وعرَفْنا موضعَ اختلافِهم واجتماعهم ، فأخَذْنا أوسطَه إذ كان أعدَلَ ما فيه ، وأسقَطْنا قولَ من كثَّر وقلّل ، ثم ألقينا منه سِنيه إلى عام إسلامِه فوجَدْنا ذلك يوجبُ أنَّه كان ابنَ سبع . ولو أخَذْنا أيضاً بقول المكثِّر فجعلناه ابنَ تسع ، وترَكْنا قولَ مَن قلَّل وقولَ المقتصد ، علِمْنا بذلك أيضاً أن إسلامه كان إسلام تربيةٍ وتأديب وتلقين ، كما أخَذَ الله على المسلمين أن يأخُذوا به أولادَهم .

وقالت (العُثمانيّة) للعلويّة : إنا لم نَدَّع أنَّه أسلَمَ وهو ابنُ سبع فإنَّا وجدنا ذلك قائما فى خبرهم مُفسَّراً فى شهادتهم ، ولكنّه عِلمٌ مستنبَطٌ من أخبارهم ، ومُستخرَجٌ من آثارهم عِندَ المُقابلة والموازنة . ومثلُ ذلك لو أنَّ رجلاً قال لرجل : خُذْ عشرةً فى عشرة ، كان ذلك فى المعنى كقوله : « خُذْ مائة » ، وإنْ لم يكن سمَّاها له ولا ذكَرها بلسانه .

وقالوا : ولولا أنَّ مِنْ شأنِنا الأخْذَ بالقِسْط ، والحكْمَ بالعدل لأخَذْنا الشِّيَع بقولهم فى عُمره وبقَولِ ولدِه ، فإنَّ أحدها يزعمُ أنَّ عليًّا تُوفِّى وهو ابنُ سبع وخمسين . وقال الآخرون : بلْ تُوفِّى وهو ابنُ ثمان

وخمسين . ولو كان(١) كما تقول الرّافضةُ وولَدُه ما كان أسلمَ إلاّ وهو ابنُ خمسٍ أو ابنُ ست ، وهم لا يَألون ، ما نقَصُوا من عمره وصَغّروا من سِنّه لـكى يجعلوا إسلامَه آيةً له وحجّةً على إمامته .

ولعمرى لو كان الذين نقَلُوا أنّه كان أوّلَ مَن أسلمَ نقَلُوا مع خبرهم أنّه أسلمَ بالدُّعاء والتّـكليف ، لقد كان ما ذهبتم إليه مذهبا ، وما اعتصمتُم به متعلّقًا ، ولـكنْ ما فى الأرض كلّها حامل خبر(٢) ولا صاحبُ أثرٍ كان فى خَبرِه أنّه أسلمَ بدُعاء ، ولا أنّه أسلمَ بتلقين ، وإنّما هذا مستخرجٌ من الأخبار .

فإنْ قالت (الرّوافض) : بل الدّليل على أنّ إسلامه كان طاعةً ولم يكن تلقيناً قولُ جميع الأمّة إنّ عليًّا كان من أوّل من أسلم ، فنفسُ قولِهم أسلمَ هو كقولهم أطاع واختار ، وكذلك قولُهم إذا قالوا : كفَرَ فلان ، فهو كقولهم : عصَا واختار ، وإنْ لم يفسّروا . وليس بينَ قولهم أسلم فلانٌ وكَفَر فلانٌ فرق ، لأنّ المخبرَ الصّادق إذا قال كفرَ فلان فحكمُه عند السامع العداوةُ والبراءة . ولو قال(٣) أسلَمَ فلانٌ كان حكمه المحبّةَ والولاية : فإذا كانوا كلّهم قد قالوا : أسلم علىٌّ ، وحُكم « أسلَمَ » يثبت الاختيارَ وإجابة الولاية ، قبلَ أن يُجمعوا على أنّه كان على التّلقين والتّربية ، فعلىٌّ على هذا القياس مطيعٌ فى إسلامِه ، مختارٌ له على غيره . وكذلك لو قالوا : كفر فلان ، كان حكمُه حكمَ العاصِى المختار حتّى

---

(١) لعلها : « ولو كان الأمر » .

(٢) فى الأصل : « خبره » .

(٣) فى الأصل : « قالوا » .

يُجمعوا أنّ كفره كان عن إكراهٍ أو غَلَط أو هَيْج مِرَّة ، أو هَجْر النَّائم[1] ، أو تلقين المؤدِّب . فلمَّا كان هذا قياساً مُوجباً صحيحا ، لم يكن لأحد أن يجعلَ إسلامَ عليٍّ إسلامَ تلقينٍ إلاَّ بمثل الحُجَّة التى جعلَه بها مسلماً ، لأنَّهم قد أطبَقُوا بأجمعهم على إسلامِه واختلفوا فى السَّنَة . فيجب ألاَّ نُزِيل حكم « أسلَمَ » إلاَّ بإجماع منهم أنّه كان عن تلقين وتربية .

قلنا لهم : لعمرى لو لم يكن ها هنا إجماعٌ يُخبِر أنَّ إسلامَه كان إسلامَ تلقين ونشُوٍّ ، كان حكمُ قولهم أسلم عليٌّ على ما قلتم ، لا تُجحَدون حُكمَه ولا تُظلَمون مَمْنا كم فيه ، ولكن الذين قالوا إنّه توفِّىَ وهو ابنُ كذا وكذا فأخذْنا بأوسطها نقصوا[2] من سِنِيه فإذا هو قد أسلمَ وهو ابنُ سبع سنين . ولو أخَذْنا بقول المكثِّر وبخَسْنا القياسَ حَظَّه كان أيضاً إسلامُه وهو ابن تسع سنينَ إسلامَ تلقينٍ . فبِهِم عرَفنا تقدُّمه فى الإسلام ، وبهم عرفنا صِغَرَ سنِّه وحداثته ، إذْ كان الصبىُّ إذا كان ابنَ خمسٍ سنينَ إلى عشر سنين لا يُستتاب إنْ كفر ، ولا يُلام إن جَهِل ، ولا يعذَّب إن ضَيَّع . فإذا كانوا بأجمعهم قد قالوا إنّه أسلم وهو ابن خمسٍ أو ستٍّ أو ثمان أو سبع ، فقد قالوا بأجمعهم إنَّه أسلمَ إسلام تلقين وإن لم يقولوا بأفواههم ، كما قلتم إنّ قول القائل كفر فلانٌ وأسلم فلان — وإن لم يذكره — [حكمٌ[3]] بالطَّاعة والمعصية .

قلنا : فكذلك إذا قال رجلٌ أسلم فلانٌ وهو ابن سبع سنين أو ثمانٍ

(١) هجر النائم هجرا : حلم وهذى .
(٢) فى الأصل : « نفلوا »
(٣) ليست فى الأصل ، وبمثلها يستقيم الكلام .

أو تسع ، فقد قال إنّ إسلامَه كان إسلام تلقين وإن لم يذكرْه ولم يتفوَّهْ به كما قلتم ، حَذْوَ القُذّة بالقُذّة ، والنَّعلِ بالنَّعل . فإذا ثبت أن إسلامَ عليٍّ إسلامُ تلقين فى ذلك الدَّهر فإسلام زيدٍ وخبّاب أفضلُ من إسلامه . ولو أن عليًا كان أيضاً بالغاً كان إسلامُ زيدٍ وخبّاب أفضلَ من إسلامه ، لأن إسلامَ المقتضِب[١] الذى لم يُغذَ به[٢] ولم يُعَوَّدْه ولم يُمَرَّنْ عليه ، أفضلُ من إسلام النَّاشئ الذى قد رَبِىَ فيه ونشأ عليه وحُبِّبَ إليه ؛ لأنَّ خبَّاباً وزيداً يعانيان من الفِكر ويتخلَّصان إلى أمور ، وصاحب التَّربية يبلغُ حين يبلغ وقد أَسقَطَ إلفُه عنه مَؤونة الرويَّةِ ، والخِطارَ بالجهالةِ ، وقد أورثه الإلفُ السُّكونَ ، وكفاهُ اختلاجَ الشَّكِّ[٣] ، واضطرابَ النَّفْس وجَوَلانَ القَلْب .

فصل : (* ولو كان علىٌّ أيضاً بالغاً وكان مقتضباً[٤] كزيد وخبّاب لم يكن إسلامُه ليبلغَ قدرَ إسلامِهما ، لأنَّ إسلام التَّربية يكفى مؤونتَين : إحداهما الخِطار والتغْرير ، والأُخرى شِدَّةُ فراق الإلف ومكابدة العادة ، ونِزاع الطَّبيعة ، مع أنَّ من كان بِحَضْرةِ الأعلام وفى منزلِ الوحى ، وفى رِحال الرُّسل فالأعلامُ له أشدُّ انكشافاً ، والخواطرُ على قَلْبِه أقلُّ اعتلاجاً . وعلى قَدْر الكُلْفة فى دَفْع الشُّبهة والإقرارِ بخلاف الإلف والعادة ، والمخاطرةِ باعتقاد الجهالة ، يعظُم الفضْل ، ويكثُر الأجْر *) .

(١) المقتضب : غير المتهيِّء المعد للشىء .

(٢) لم ينقط من هاتين الكلمتين فى الأصل إلا الغين فقط .

(٣) الاختلاج : الاضطراب . وفى الأصل : « الخلاج الشك » وفى ح « علاج القلب » .

(٤) انظر ما مضى فى الحاشية الأولى .

*) الكلام من « ولو كان على » إلى هنا موضع مناقضة للاسكافى ستأتى برقم (٤) .

ولو كان أيضاً عليٌّ أسلَمَ بالغاً مدرِكاً ، وكان مع إدراكه وبلوغه كهلاً ، وكان مع كهولته مُقْتَضَباً كان إسلامُ زيدٍ وخبّاب أفضلَ من إسلامهِ ، لأنَّ مَن أسلَمَ وهو يعلم أنَّ له ظهراً كأبى طالب ، وردءاً كبنى هاشم ، ومَوضِعاً فى بنى عبد المطَّلب ، ليس كالحليف ولا المولَى ، والنزِّيل والتَّابع والعَسيف ، وكالرَّجل من عُرْضِ قريش(١) وقاطِنِى مكّة . [أ] وَما علمت أن قريشاً خاصّة وأهل مكّة عامّةً لم يقدروا على أذَى النبى صلى الله عليه ما كان أبو طالبٍ حيًّا قائماً ؟! ولقد منع أبو طالبٍ أبا سَلمة بن عبد الأسَد المخزومىّ لأنه كان ابن أُختِه ، فما قدَرَت بنو مخزومٍ مع خُيلائها(٢) وعُرامِ شبابها ، ومع عِزِّها وشدّة عداوتها أن تَحُصَّ منه شعرة(٣) ولا تُسمعه كلمة حتّى مشت إليه بأجمعها ، لِلَّذى(٤) تَرى له فى أنفسِها ، فكان من قولهم له : هذا ابنُ أخيك قد فرّق جماعتَنا وسفَّهَ أحلامنا وشتَم آلهتنا وقد منعتَه منّا ، فما بال صاحبنا(٥) ؟ قال : من لم يمنع ابن أُخته لم يمنع ابن أخيه !

فإذا كانت قريشٌ وأهلُ مكّة لا يقدرون على ابن أخيه وابن أخته معه فهم عن ابنهِ أعجز ، وعنه أقعد ، وله أعنَى(٦) ، وهو لابنِه أحضَرُ نَصراً وأشدُّ غضباً ، وأحمى أنفاً ، وليس الممنوع كالمخذول ، ولا الضّعيف

(١) من عرضهم ، أى من معظمهم وجمهورهم ، ليس فى موضع رآسة .

(٢) الخيلاء : الكبر . وبنو مخزوم معروفون بالكبر والتيه . انظر الحيوان ٦ : ٧٠ ، ٧٢ . وفى الأصل : « حملائها » بإهمال الحرفين الأولين .

(٣) حص الشعر : أذهبه أو حلقه .

(٤) فى الأصل : « الذى » .

(٥) فى الأصل : « ما بال صاحبنا » . وفى السيرة ٢٤٤ : « فمالك ولصاحبنا تمنعه منا » .

(٦) رسمها فى الأصل « اعفا » .

كالقوىّ ، ولا الآمِنُ كالخائف . فإذا كان إسلام زيد وخبّاب أفضلَ من إسلامه فى ذلك الدّهر كما عدّدنا من الطّبقات ، ورتّبنا من المنازل ، ونزّلنا من الحالات ، فإسلام أبى بكر أفضل من إسلامهما ، فقد سقطت المنازعة ، وارتفعت الخصومة عند مَن فهم كتابنا ولم يمنع نَفْسَه الحظّ بصُحبتنا ، لفرط التّباين وعظم الفرق .

فصل : والدّليل على أن إسلام أبى بكر كان أفضل من إسلام زيد وخبّاب أنّ زيداً كان رجلاً غير مذكور بعلم ، ولا مُزَنّ بمال[1] ، ولا مغشىّ المجلس ، ولا مَزُور الرَّحْل ، وكذلك كان خبّاب . وكان أبو بكر رضى الله عنه أعلمَ العرب بالعرب كلِّهم ، وأرواها لمناقبها ومثالبها ، وأعرفَها بخيرها وشرّها ، ولذلك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم لحسّان مع سِنّ حسّان وعلمه وتحاكُم الشعراء إليه ، حيث أمره النبىّ عليه السلام أن يهجو أبا سفيان بن الحارث ، وحيث قال له : « اهجُهُمْ ومعك روح القدس » . وحيث قال له : هيِّج الغطاريف على بنى عبد مناف — فى قتل أبى أُزَيْهِرٍ[2] — والقَ أبا بكر فإنّه أعلمُ النّاس بهم .

---

(١) فى اللسان : « قال اللحيانى : أزننته بمال وبعلم وبخير ، أى ظننته » .

(٢) الغطاريف : السادة الأشراف «هيج الغطاريف» : يراد بالغطاريف القصائد الجياد البارعة ، وهو تحريض على هجوهم وأصل معنى الغطريف السيد الشريف ، وفى رواية بعض نسخ البيان (١ : ٢٧٣) : « اهج الغطاريف من بنى عبد مناف » وفى بعضها وهى نسخة (هـ) مطابق لما هنا . والذى فى العمدة ١ : ١٢ « وقال لحسان بن ثابت : اهجهم — يعنى قريشاً — فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام . اهجهم ومعك جبريل روح القدس ، والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات » .

وأما ما كان من أمر أبى أزيهر الدوسى ، فإن الوليد بن المغيرة كان قد تزوج ابنته ، ثم أمسكها أبو أزيهر عنه فلم يدخلها عليه حتى مات ، وكان الوليد قد أوصى ولده قبل أن يموت أن يطلبوا أبا أزيهر بعقره — والعقر : دية الفرج المغصوب — وكانت بنته قد تزوجها أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، فعدا هشام بن الوليد بن المغيرة على =

فصل : ولذلك كان جُبَير بن مُطعِم أعلمَ قريش بالعرب بعد أبى بكر ؛ لأنّه كان المتولِّىَ لتأديبه وتثقيفه ، وقد كان أبو بكر قد سمَّى عائشةَ له[1] ، للذى رأى من حُسْن أثره عليه .

(* وكان أبو بكرٍ ، مع علمه بالناس وحُسن معرفته ، ذا مالٍ كثير ووجه عريض[2] ، وتجارةٍ واسعة ، وكان جبلاً عتيقاً[3] ، ومَزوراً مغشيًّا ، ومحبَباً أديباً صاحب ضيافات[4] ، ويُمين فى الحَمَالات ، ويجتمع إلى مجاسه كُبَراء أهل مكة ، لما يَجِدون عنده من طريف الحديث وغريب الشِّعر ، حتَّى كان مثلُ عُتبة وشَيبةَ[5] يجلسان إليه ، ويُعجَبان بحديثه ، ثم يتّخذ لهم ما يتحدّثون عليه ويطاول مجالسُهم به ، من شراب العَسَل والزبيب

= أبى أزيهر وهو بسوق ذى المجاز فقتله . السيرة ٢٧٣ — ٢٧٥ . وكان يزيد بن أبي سفيان قد خرج فجمع بنى هاشم ليثأر لأبى أزيهر جار أبيه ، فمنعه أبو سفيان وضربه ، فعير بذلك ، وكان نهزة لحسان بن ثابت يحرض فى دم أبى أزيهر ويعير أبا سفيان خفرته وتجبنه فقال :

غدا أهل ضوجى ذى المجاز كليهما   وجار ابن حرب بالمغمس ما يغدو
كساك هشام بن الوليد ثيابه   فأبل وأخلق مثلها جدداً بعد
قضى وطراً منه فأصبح ماجداً   وأصبحت رخواً ما تخب وما تعدو
ولو أن أشياخاً ببدر تشاهدوا   لبل نعال القوم معتبط ورد

وانظر كتاب نسب قريش ٣٢٣ .

(١) أى سماها لتكون زوجة له ، ووعده بذلك . وفى الإصابة ٧٠١ قسم النساء : « كانت تذكر لجبير بن مطعم وتسمى له » و « قال أبو بكر : كنت أعطيتها مطعماً لابنه جبير » .

(٢) الوجه : الجاه . ويقال رجل موجه ووجيه : ذو جاه .

(٣) العتيق : الكريم الرائع من كل شىء .

(٤) فى الأصل : « صافات » تحريف .

(٥) عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف . أما عتبة فقتل يوم بدر ، قتله حمزة . وأما شيبة فقتله عبيدة بن الحارث . وذفف عليه حمزة وعلى . مغازى الواقدى ١١٣ .

واللبن(١) ، فكانت قريشٌ بعد إسلام أبى بكر وكثرةِ مستجيبيه بمكة تريد تنفير عتبة بنِ ربيعة من مجلسِه وإيحاشَه منه ، مخافةَ أن يستميلَه بحسن دعائه ، وتأتِّيه ورِفقه ، ورقَّة دموعه وشدّة خشوعه فتقول له : أمَا إنّك ما تأتى ابنَ أبى قُحافة إلاَّ لطيب عسَلِه وإلاَّ لِمَذْقَته(٢) ، وإنّما نفرّوه بهذا وشِبهه لأنه كان ذا عيالٍ مُملقاً ثقيل المؤونة ، خفيفَ ذات اليد ، مع سِنِّه وسؤدده وحِلمِه ورأيه .

ولا سواءٌ إسلامُ ذى اليسر والمال الدَّثْر ، المنفقِ حَريرةَ كسبِه وعَقيلة مِلْكه ، والمفرِّقِ عنه جمعُه والموحِش منه أنيسُه ، الخارج من عزِّ الغنى وكثرة الصَّديق ، إلى ذل القِلّة وعَجْز الفاقة ، وإسلام مَن لا حَرَاكَ به ولا جِدَا عِنده ، تابعٍ غير متبوع ، ومستجدٍ غير مُجْدٍ ؛ لأن مِن أشدّ ما يُبتلَى به الكريمُ السبَّ بعدالتحيّة ، والضّربَ بعدالهيبة ، والعُسرَ بعد اليسر .

ولا سواءٌ إسلام العالم الأديب الأريب ، ذى الرّأى السديد ، وإسلامُ غيره .

ثم كانَ داعية من دعاة الرّسول مقبولَ القَول ، متبوعَ الرّأى . ومَن كان فى صفة أبى بكرٍ فالخوفُ عليه أشدّ ، والمكروه إليه أسرع ، لأنه لم يكن على ظهرها عدوٌّ للنبى صلى الله عليه وسلم إلاَّ وأبو بكرٍ يتلوه عندَه فى العداوة .

ولا سواءٌ إسلامُ من أسلم على أن يَمُون ويكلف ، وإسلامُ من كان يُمانُ قبل إسلامه ويكلَّف بعد إسلامه .

---

(١) فى الأصل : « والبن » . وانظر الحاشية التالية .

(٢) المذقة : الطائفة من اللبن المذيق ، وهو الممزوج بالماء .

ولا سواءٌ إسلام الـكهل النَّبيه الذى يَحسُن عند قريش مطالبتُه ، ولا يستَحَى من طلب الثأر عنده ، وإسلامُ الحدَث الذى لا يَفِى بمداوة الجِلّة ، ولا تستجيز مجازاته العِلية*) .

ثمّ كان الذى يلقى أبو بكر فى الله ورسوله ببطن مكّة ، وعلىٌّ خلِىّ الروع[1] ، آمِن السِّرب رخىٌّ البال ، كما لقِىَ يومَ دعا طلحةَ إلى الإسلام فأسلم ومضى به إلى النبي صلى عليه وسلم وخذلتهما تَيْم ، وأخذَهما نوفل بن خويلد بن أسد[2] — فأمّا ابن إسحاق[3] فزعم أنّه كان من شياطين قُريش . وأمّا الواقدىُّ[4] وغيرُه فزعموا أنّه كان يلقَّب أسد[5] قريش ،

---

*) الـكلام من « وكان أبو بكر مع علمه » س ٢٥ س ٤ إلى هنا موضع رد الاسكافى سيأتى برقم (٥) . وقد تصرف الإسكافى فى كلام الجاحظ بالإيجاز الشديد . انظر ابن أبى الحديد ٣ : ٢٦٦ .

(١) الروع : القلب والعقل والبال . فى الأصل : « الذرع » تحريف .

(٢) نوفل بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى . وفيه يقول أبو طالب :

كما قد لقينا من سبيع ونوفل وكل تولى معرضا لم يجامل

السيرة ١٧٥ — ١٧٧ . وقد قتل مشركا فى وقعة بدر ، قتله على بن أبى طالب . السيرة ٥٠٨ ومغازى الواقدى ١١٤ . وقال ابن حزم فى الجمهرة ١١١ : « قتله ابن أخيه الزبير بن العوام » .

(٣) هو محمد بن إسحاق شيخ أهل المغازى ، المتوفى سنة ١٥١ . تهذيب التهذيب وعيون الأثر لابن سيد الناس ١ : ٨ — ١٧ .

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدى . ولد سنة ١٣٠ وولاه المأمون القضاء بالعسكر ، وتوفى سنة ٢٠٧ تهذيب التهذيب ، وعيون الأثر ١ : ١٢ — ٢١ .

(٥) لم يظهر من هذه الـكلمة فى الأصل إلا الألف وإحدى أسنان السين ، وإثباتها من جمهرة أنساب العرب لابن حزم ١١١ ، قال : « وكان يقال لنوفل بن خويلد : أسد قريش ، وأسد المطيبين . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر : اللهم اكفنا ابن العدوية ! يعنى نوفلا » .

وهو الذى يقال له ابن العَدَوية — فقرنهُما فى حبلٍ ، وفتنهما عن دينهما وعذّبهما ، فلذلك سمِّى أبو بكر وطلحةُ « القَرِينَين » .

وأبو بكر الذى قام دون النبى صلى الله عليه وسلم بمكّة وقد اعتوَره المشركون حين قال : « أمَا والله لقد جئتكم بالذَّبح ! »[١] قال أبو بكر ويلكم ، أتقتُلون رجلاً أن يقول ربِّىَ الله ! فصدَعوا فَوْدَىْ رأسِه .

[**] ثم الذى لقِى فى مسجده الذى كان بناه على بابِه فى بنى جُمَح ، وحيث ردَّ الجوار وقال : لا أريد جاراً سوى الله . وقد كان بنى مسجداً يصلِّى فيه ويدعو النّاس إلى الإسلام ، وله صوتٌ رقيق ووجه عتيق ، فكان إذا قرأ وبكى ، وقعت عليه[٢] المارّةُ والنِّساء والصبيان والعبيد ، فلمَّا أُوذِىَ فى الله حتّى بلغ جُهده استأْذَنَ النبىَّ صلى الله عليه فى الهجرة ، فأذِن له ، فأقبَلَ يريد المدينة فتلقَّاه الكِنانىُّ سيِّد الأحابيش[٣] ، فعقد له

---

(١) إنذار بالعذاب والهلاك . جاء فى السيرة ١٨٣ فى رواية عبد الله بن عمرو بن العاص : « فأقبل يمشى حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول . قال : فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : ثم مضى فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح ! قال : فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا لكأنما على رأسه طير واقع » .

وفى عيون الأثر ١ : ١٠٤ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال بعد ذلك فى خطابه للمؤمنين : « أبشروا فإن الله عز وجل مظهر دينه ، ومتم كلمته ، وناصر نبيه . إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله بأيديكم عاجلا » . قال عثمان بن عفان : « ثم انصرفنا إلى بيوتنا ، فوالله لقد رأيتهم قد ذبحهم الله بأيدينا » .

(٢) فى الأصل : « ووقعت » .

(٣) الكنانى هو مالك بن الدغنة ، أحد بنى الحارث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة . والأحابيش ، هم بنو الحارث بن بكر بن عبد مناة ، والهون بن خزيمة بن مدركة ، وبنو =

جواراً وقال : والله لا أَدَع مثلَك يخرج من بين أخشبَىْ مكّة . فرجع وقد عقَدَ له الـكِنانىّ جِوارا ، كلّ ذلك رغبةً فى قُرب النبى صلى الله عليه ، فلما رجَع إلى مكّة عاد إلى مسجده وصنيعه ، فمشت قريشٌ إلى جارِه وعظّموا الأمرَ عنده وأجلَبوا عليه فقالوا : قد أفسد أحداثَنا ، وعبيدَنا وإماءنا ونساءنا ، فى منازلنا ! ! فمشى إليه الـكنانىُّ وقال : ليس على هذا أعطيتك الِجوار ، ادخُل بيتَك واصنَعْ فيه ما بدا لك(**) ! قال له أبو بكر : أو أردُّ عليك جوارَك وأرضى بجوار الله ؟ فلما قَطَع الِجوار وترادّا العهد وتَبَاريا(١) لقى أبو بكر رضى الله عنه من الأذى والذُّلّ والضَّرب والاستخفاف ما بلغَك ، وهو أمرٌ موجود فى جميع السِّيَر . وليس المفتون كالوادع ، قال الله سبحانه : « والفِتنةُ أشدُّ من القتل » . وذلك أنَّ المشركين كانوا قد صاروا إلى أن يَفتِنوا النَّاسَ عن دينهم بالتَّعذيبِ ، والمسلمون نفرٌ يسير ، قد خذلتهم عشائرهم ، وأسلمتهم أهلوهم ، فألقَوْا خبّاباً على الرَّضْف(٢) حتّى ذهب ماء متْنِه . وكان أبو ذَرٍّ حليفاً مستضعفاً فكان يدخُل بالنهار فى خلال أستار الـكعبة ويخرج باللَّيل مستخفياً ، وكانت بنو مخزومٍ تعذّب عمّاراً وأباه وأمَّه برَمْضاء مكّة ، فيمرُّ بهم النبىُّ صلى الله عليه وسلم فيقول :

=المصطلق من خزاعة . السيرة ٢٤٥ والروض الأنف ١ : ٢٣١ .

وفى العرب آخر يسمى « ابن الدغنة » وهو ربيعة بن رفيع بن أهبان بن ثعلبة بن ربيعة بن يربوع . السيرة ٢٨٥ .

(**) الـكلام من « ثم الذى لق فى مسجده » ص ٢٨ س ٦ إلى هنا موضع رد للاسكافى سيأتى برقم (٧) .

(١) تباريا : صنع كل منهما مثل صاحبه ، وقد تـكون مسهل « تبارءا » .

(٢) الرضف : الحجارة التى أحميت بالشمس أو النار ، واحدتها رضفة .

« صبراً آل ياسر ، فإنّ موعدَكم الجنّة ! » فذكر عمّار عند ذلك عِياذ أبي بكر لبلال حين أعتقه من العذاب فيمن أعتق ، فقال :

جزَى اللهُ خيراً عن بلال ودينِه   عتيقاً وأخزَى فا كِهاً وأبا جهلِ[1]

وقال سعيد بن جُبير : قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه من العذاب ما يُعذَرون به فى ترك دينهم ؟ قال : والله إنْ كانوا لَيضربون أحدَهم ويُعطِّشونه حتّى لا يقدر أن يستوى جالساً من الْجَهْد ، حتّى إنْ كان أحدُهم لَيعطيهم الذى سألوه ، من الفتنة ، وحتّى يقال له : اللات والعُزّى إلٰهك مِنْ دُون الله ؟ فيقول : نعم . وحتّى إنّ الُجعَل ليمرّ بهم فيقال[2] له : هذا إلٰهك ؟ فيقول : نعم .

فلو كان علىٌّ بن أبى طالبٍ قد ساوَى أبا بكر فى الإسلام لقد كان فَضَله أبو بكر بأنْ أعتق من المعذّبين المفتونين بمكّة ، وحتّى [لو[3]] لم يكن غير ذلك لـكان لحَاقه عسيراً[4] ، ولو كان ذلك يوماً واحداً لـكان عظيما ، فـكيف وكان بين ظهور النبى عليه السلام ودعائه إلى أن هاجر إلى المدينة ثلاث عشرة سنة ، فى كلّ ذلك أبو بكر وخبّابٌ وأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يتجرّعون المَرَارَ وعلىٌّ وادعٌ رافه ، غير طالبٍ ولا مطلوب وليس أنّه لم يكن فى طباعه[5] النّجدة والشهامة ، وفى غريزته الدّفع والحماية ،

(١) فى الأصل : « وأخرى » ، تحريف . وعتيق : لقب أبى بكر .

(٢) فى الأصل : « فيقول » .

(٣) ليست فى الأصل .

(٤) ابن أبى الحديد : « ولو لم يكن له غير ذلك لـكان لحاقه عسيرا وبلوغ منزلته شديدا » .

(٥) فى الأصل : « لمن يكون فى طباع » صوابه عند ابن أبى الحديد ٢ : ٢٦٧ .

ومن أكرم عنصرٍ وأطيب مَغْرِس ، ولكن لم تكنْ تمّت له أداتُه ، ولم تستجمع له قُواه ولم تتكامل آدابه ، لأنّ العقل وإن اشتدّ مَغرِزه وثَبتت أواخيُّه وجاد نَحتُه[1] فإنّه لا يبلغ بنفْسه دَرْكَ الغاية ، دونَ كثرةِ السّماع والتّجربة ، ولأنّ رجال الطّلَب وأصحاب الثأر وأهل السِّن والقَدْر يَغمِطُون ذا الحداثة ، ويُزْرُون على [ذي[2]] الصِّبا والغَرارة إلى أن يلحق بالرِّجال ويصير من الأكْفاء*) . (**حتّى كان آخر[3] ما لَقِيَ هو وأهله في أمر الغار ، وقد طلبته قريشٌ وجعلت فيه مائة بعير كما جعلت في النبي صلى الله عليه وسلم ، فلقي أبو جهل أسماء بنت أبي بكر — وهي ذات النِّطاقين — مُنصرَفها من الغار ، فسألها فكتمتْه فلطمها ، فقالت أسماء : لقد لطمني لطمةً أندرَ منها قُرطاً كان في أذني**) .

فصل : (*** ثم الذي كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجاجه حتّى أسلم على يديه طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وعثمان ، لأنّه ساعةَ ما أسلَمَ دعا إلى الله ورسوله***) ، وكان مَألفاً ، لأدبِهِ وعِلمه ورُحْب عَطَنه .

(**** وقالت أسماء : « ما عرفتُ أبي إلاّ وهو يدين بالدِّين ، ولقد رجع إلينا يوم أسلَمَ فدعانا إلى الإسلام فما رِمْنا حتّى أسلمنا وأسلم أكثر جلسائه » ، ولذلك قالوا : لَمَنْ أسلَمَ بدعاء أبي بكر أكثرُ ممّن أسلم

---

(١) النحت : الأصل .

(٢) ليست في الأصل . وعند ابن أبي الحديد : « ويزدرون بذي الصبا » .

*) الكلام من « ثم الذي كان يلقى أبو بكر » إلى هنا مع الإيجاز وإفراد بعض العبارات بالرد رقم (٧) موضع رد للاسكافي سيأتي في رقم (٦) .

(٣) في الأصل « حتى أن أحر » ، صوابه في ح .

**) انظر رد الإسكافي رقم (٨) .

***) انظر رد الإسكافي رقم (٩) .

بالسَّيف . ولم يذهبوا من قولهم إلى العدد بل عنَوا الكثرةَ فى القدر ، لأنَّ من أسلم على يده خمسةٌ من الشُّورى ، كلُّهم يَفِي بالخلافة ، وهم أكفاء علىٍّ ومنازِعوه الرِّياسة والإمامة ، فقد أسلم على يده أكثرُ ممن أسلم بالسَّيف ، لأنَّ هؤلاء أكثر من جميع الناس****» .

فصل : وممّن أسلَم على يده بلال ، وهو الذى يقول فيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « بلالٌ سيِّدنا ومولى سيِّدنا » . ورووا أنَّه قال : « أبو بَكر سيِّدنا وأعتقَ سيِّدنا » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : بلالٌ سابقُ الحَبَش ، وبلال « مولى أبى بكر » ثلاث مرات . أسلم على يده فأعتقَه من رقّ الكفر ، وأعتقَه من رقّ العذاب حيثُ كان يُفتَن فى الله ورسوله ، وأعتقه من رقِّ العبوديّة .

وكان من قصَّة بلالٍ أنَّه كان عبداً لبنى جُمَح وكانت دارُ أبى بكر ومسجدُه فى حىٍّ جمح ، ولم يكن ببطن مكّةَ مسجدٌ سواه ، فلمَّا سمع دُعاء أبى بكر أسلَمَ وحدَه[1] فلمَّا سمعَ[2] أميّةُ بن خَلَف فكان يخرجه إذا حميت الظَّهيرة فيطرحُه على ظَهْره ببطحاء مكّة ، ثم يضع صخرةً على صدره ، ثم يحلف بإلٰهه لا ينزِعها عن صدره أو يكفُرَ بمحمَّد وإلٰهه ويؤمنَ باللَّاتِ والعزَّى ! وبلالٌ يأبى وهو يقول : أَحَدٌ أحد ! وكان يمرُّ به ورقةُ بن نوفل فيقول : نَعَمْ يا بلال ، أَحد أحد ! ! فمرَّ به أبو بكر وهو يريد دارَه فى بنى جُمَح ، فرأى أميّةَ وما يصنع ببلال ، فقال : ألا تتَّقى الله ؟

****) الكلام من « وقالت أسماء » إلى هنا موضوع رد الإسكافى رقم (١٠) .

(١) فى الأصل : « واحدة » .

(٢) لعلها « وسمع » .

إلى مـتى تعذِّب هذا المسكين ؟ ! قال : أنت أفسدتَه ! يعنى أنت دعوتَه حـتّى أسلم — فأنقِذْه ! قال أبو بكر : عندى غلامٌ أسود جَلْدٌ ، على دينك ، أُعطيكه وآخذُه . فأعتقَه . فهو عتيقه ثلاثَ مرّات[١] .

(* ثم أعتق بعدَ ذلك من المعذّبين فى الله ستّ رقاب ، منهم عامر بن فُهيرة ، شهد بدراً وهاجر مع رسول الله عليه السلام وأبى بكر ، لأنّه كان فى موضع الثِّقة ، حيثُ خرجا إلى الغار هاربَين من المشركين متوجّهَين إلى المدينة . واستُشهدَ يوم بئر مَعُونة .

وأعتق زِنِّيرة[٢] ثلاثَ مرات ، فلمّا اشتراها وأعتقَها ذهب بَصرُها ، وكانت تُعذَّب فى الله فيمن يُعذَّب بمكّة ، فقال المشركون : ما أذهَبَ بصَرَها إلاَّ اللّاتُ والعزّى ! قالت : كذبُوا ما يَضُرّانِ ولا ينفعان ! فرد الله عليها بصَرَها . فزعم الزُّهرى[٣] أنّ مولَيَين لابن الغَيطلة[٤] أسلما حِينَ ردَّ الله عليها بصرها . وقالا : هذا بلاَ شَكٍّ[٥] من إله محمّدٍ وابن أبى قحافة !

ثم أعتق النَّهديّة وابنتَها وقد كانتا تعذَّبان فى الله ، وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار ، ومرّ بهما أبو بكر وقد بعثت العَبْدريّة[٦] معهما بطَحينٍ وهى

(١) إشارة إلى ما سبق من أنه أعتقه من رق الكفر ، ومن رق العذاب ، ومن رق العبودية . انظر ما سبق فى ص ٣٢ س ٩ — ١٠ .

(٢) زنيرة ، بكسر الزاى وتشديد النون المكسورة ، كما ضبط الحافظ فى الفتح ٤٦٣ قسم النساء ، والسهيلى فى الروض الأنف ١ : ٢٠٣ . وكانت رومية .

(٣) فى الأصل : « الزهرقى » .

(٤) كان ابن الغيطلة من أشد أعداء الرسول — والغيطلة أمه ، كانت كاهنة من بنى سهم فى الجاهلية — واسمه الحارث بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم السهمى . انظر إمتاع الأسماع ١ : ٢٢ وحواشيه .

(٥) فى الأصل : « هذا بك شك »

(٦) هى مولاتهما ، نسبة إلى بنى عبد الدار .

تقول : والله لا أعتقكما أبداً . قال أبو بكر : حِلًّا[1] يا أمَّ فلانٍ ؟ قالت : حِلاً ! أنتَ أفسدتَهما فأعتِقْهما . قال : فبكأيِّن هما[2] يا أمَّ فلان ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : فقد أخذتُهما ، وهما حُرَّتان ، أرجِعا إليها طحينَها . قالت : أوَ نُفرِغ منه يا أبا بكر[3] ؟ قال : وذاك إن شئتما .

ومرَّ بجاريةِ بنى مؤمّل — حىٍّ من بنى عدىِّ بن كعب — وعمرُ بن الخطّاب يعذّبها لتترك الإسلام ، وهو يضربها فإذا مَلَّ قال : أعتذر إليك إنّى لم أتركك إلاَّ مَلالة[4] ! فابتاعها فأعتقها .

وأعتَقَ أمَّ عُبَيس[5] .

فقال له أبو قُحافة : أى بُنَىَّ ، أراك تعتِق رقاباً ضعافاً ، فلو أنّك إذ فعلتَ أعتقتَ رجالا جُلْدًا[6] منعُوك وقامُوا دونَك ؟! قال : يا أبتِ

(١) فى السيرة ٢٠٦ جوتنجن وهامش الروض ١ : ٢٠٣ : « حل» بالرفع فى الموضعين ولكل وجه . حلا ، أى تحللى من يمينك . انظر الرياض النضرة ١ : ٨٩ .

(٢) أى بكم هما . وفى السيرة : « فبكم هما » . قال ابن هشام فى المغنى عند الكلام على « كأين » : « لا تقع مجرورة ، خلافاً لابن قتيبة وابن عصفور ، أجازا : بكأين تبيع هذا الثوب » . فما أورد الجاحظ شاهد لمذهبهما .

(٣) فى السيرة : « أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها » ، كأنهما أرادتا أن تتخففا من ثقل الحمل .

(٤) بعده فى السيرة : « فتقول : كذلك فعل الله بك ! ! » .

(٥) فى الأصل : « أم عبسى » تحريف ، صوابه فى السيرة وإمتاع الأسماع ١٩ . ويقال فيها أيضاً « أم عبس » وكانت فتاة من بنى تيم بن مرة ، وهى أم عبيس بن كريز بن ربيعة ابن حبيب بن عبد شمس بن مناف .

(٦) الجلد ، بالتحريك : الشدة والقوة ، وهو جلد وجليد ، من أجلاد وجلداء وجلاد وجلد .

إنّما أعتِقُ المعذَّبين ! فأنزل الله : « أمَّا مَنْ أعطى واتّقى[١] . وصدَّق بالحُسْنى » إلى قوله : « وما لأحَدٍ عِنده مِنْ نِعمةٍ تُجزَى . إلا ابتغاء وَجْهِ رَبِّه الأعلى . ولسَوْفَ يرضَى *) » . فتفهَّمْ معنى قوله : « وما لأحدٍ عنده من نعمة تُجزَى . إلاَّ ابتغاء وجهِ ربِّه الأعلى » وتفهَّمْ معنى قوله: « ولسوف يَرْضَى » .

وقد سمعتَ قول الله سبحانَه حيثُ خاطب جماعةَ المسلمين وذَكَرَ الأموالَ وعظم قدرِها فى عُيونهم ، وشدة إخراجها عليهم ، وأنَّه لو كلَّفهم ذلك لأخرجَهم ثِقَل التَّكليف إلى غاية البُخل بها والشُّحّ عليها ، والإيثار لحبسها فقال : « لا تَهِنوا[٣] وتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وأنتم الأعلَوْن واللهُ معكم ولَنْ يَترَكم أعمالَكُم . إنَّما الحياةُ الدُّنيا لعبٌ ولهو ، وإنْ تُؤمِنوا وتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أجوركم » ثم قال : « ولا يَسْألْكمْ أموالَكم . إنْ يَسألْكموها فيُحفِكُم تَبْخَلُوا ويُخرِجْ أضْغانَكم » . فتفهَّمْ معنى هذا الكلام وأنَّ الله لم يُنزِله عَبَثًا[٤] . ثم قال : « ها أنتم هؤُلاء تُدْعَوْنَ لتُنفِقوا فِى سَبيلِ اللهِ فمِنكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ومَنْ يَبخلْ فإنَّما يبخلُ عن نَفْسِه واللهُ الغَنِيُّ وأنتم الفقَراء » . ألا تراه خاطَبَ جميع المسلمين فقال : « ولا يسألْكم أموالَكم إن يسألْكموها فيُحْفِكُم تَبْخَلُوا وَيخْرِجْ أصغانَكُم[٥] » .

(* ثم قد علمتم ما قد صنع أبو بكرٍ بماله[٦] ، وكان المالُ أربعين ألفًا

---

(١) التلاوة : « فأما من أعطى واتق » . وحذف الواو والفاء ونحوهما فى مواضع الاقتباس من القرآن الكريم جائز . انظر ما كتبت فى حواشى الحيوان ٤ : ٥٧ .

*) الكلام مع إيجاز شديد من قوله « ثم أعتق بعد ذلك من المعذبين » س ٣٣ س ٤ إلى هنا موضع رد الاسكافى ، وسيأتى برقم (١١) .

(٣) التلاوة : « فلا تهنوا » . سورة محمد ٣٥ . وانظر التنبيه السابق رقم (١) .

(٤) فى الأصل : « عتبا » .

(٥) بعده يبدأ الاختيار الثانى من نسخة المتحف البريطانى المرموز إليها بالرمز (ب) .

(٦) ب : « فى ماله » .

فأنفقَه على نوائب الإسلام وحقوقِه ، ولم يكن مالُه ميراثاً لم يكدّ فيه فهو غَزيرٌ(١) لا يشعر بعُسر اجتهادِه(٢) وامتناعِ رجوعه ، ولا كان هبةَ ملِكٍ فيكونَ أسمحَ لطبيعته وأخرقَ فى إنفاقه ، بل كان ثمرةَ كدِّه وكَسْب جَوَلانه وتعرُّضه . ثم لم يكنْ خفيفَ الظَّهر قَليل النَّسل قليل العيال ، فيكونَ قد جمع اليَسارَين ؛ [لأن المثل الصحيح السائر : قلّة العيال أحد اليسارَين(٣) !] بل كان ذا بنينَ وبناتٍ وزوجة وخدم وأحشام(٤) ، يعُول مع ذلك أبوَيه وما ولدا ، ولم يكن فتًى حَدَثاً فتهزّه أريحيّةُ الشّباب وغَرارة الحدَاثة ، ولم يكن بحذاء إنفاقه طمعٌ يدعوه ، ولا رغبة تحدوه ، ولم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك عنده يدٌ مشهورة فيخاف العار فى ترك مواساته(٥) وإنفاقه عليه ، ولا كان من رهطه دُنيا(٦) فيُسَبّ بترك مكانفته ومعاونته وإرفاقه . فكان [إنفاقُه(٧)] على الوجه الذى لا نجد أبلغَ فى غاية الفَضْل منه* ، ولا أدلّ على غاية الصِّدق والبصيرة منه .

---

(١) فى النسختين : « عزيز » .

(٢) فى الأصل : « احتماله » ، صوابه فى ب .

(٣) التكملة من ب .

(٤) أحشام : جمع حشم ، وهم خاصة المرء الذين يغضبون له من عبيد أو أهل أو جيرة . ب : « وحشم » .

(٥) هذا ما فى ب . وفى الأصل : « مواساته كعلى » . والكلمة الأخيرة مقحمة .

(٦) يقال هو ابن عمه دنيا ، بكسر الدال مع التنوين وعدمه ، وبضمها مع ترك الإجراء إذا كان ابن عمه لحا لاصق النسب .

(٧) التكملة من ب .

*) الكلام من « ثم قد علمتم ما قد صنع » ص ٣٥ س ١٦ إلى هنا موضوع الرد رقم (١٢) .

(* وقد تعلمون ما كان يلقى أصحابُ النبيّ عليه السلام ببطن مكّة من المشركين ، وقد تعلمون حُسْنَ صنيعِ كثيرٍ منهم ، كصنيع حمزة حين ضَرَبَ أبا جهلٍ بقوسه ، فبلغ فى هامته ، فى نصرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو جهلٍ يومئذ أمنَعُ البطحاء ، وهو رأس الكفر .

ثم صَنيعِ عمرَ حيث يقول يوم أسلم : « والله لا يُعبَد[1] اللهُ سرًّا بعد اليوم ! » حتّى قال بعد موته عبدُ الله بنُ مسعود : « ما صلَّينا ظاهرِينَ حتّى أسلم عمر[2] » .

ثم كان الذى لقىَ فى ذلك اليوم بعينِه من المشركين ، ثم مضيُّه من فَوره حتّى يقرع على أبى جهل الباب ، فلمّا حَسَّ به أبو جهل خرجَ إليه وهو يقول : مرحباً بابن أختِنا — وكانت أمُّه حَنْتمة بنت هاشمِ ذِى الرُّمحين ابنِ المُغيرة — قال : أتدرى ما صرتُ بعدك يا أبا الحكم ! قال : خير ، فليكن . قال : إنّه خير ، إنّى آمنت بالله وبرسوله وخلعت الأنداد ، وجعلت[3] اللات والعزّى ، وصدّقت محمداً . قال : فلا قرّب الله قرابتَك !!

ألاَ ترى إلى قوّة[4] شهامته وجَلَده ، وصدقِ نيّته فى كشف القِناع ، والمبادأة لرأس الكفر وسيِّد البطحاء عِند نفسه ورهطه .

وقوله بعد ذلك لجميع المشركين : أمَا والله لو قد[5] صرنا مائة لتركتموها لنا أو تركناها لكم — يعنى مكة .

---

(١) ب : « لا نعبد » بالنون .
(٢) إلى هنا ينتهى هذا الاختيار فى ب الذى بدأ فى ص ٣٥ س ١٦ .
(٣) كذا فى الأصل .
(٤) فى الأصل : « قوله » .
(٥) فى الأصل : « لقد » .

ثم صنيع [الزُّبير(١)] فى سلِّه السَّيفَ شاذًّا به مستقبلَ المشركين ، يريد خَبْط من لقيه منهم ، فتلقَّاه النبىُّ صلى الله عليه مقبلا فقال : مالك يا زُبَير ؟! قال : بأبى أنت وأمِّى ، سمعت قائلا يقول : قد أُخذ محمدٌ وأوذِىَ ! فكان أوَّلَ من شَهَر سيفاً فى الإسلام .

ثم صنيعُ سعدٍ(٢) وضَربُه عظياً من عظمائهم على أمِّ رأسِه بلَحْى بعير ، فكان أوَّلَ من أراق دماً فى الإسلام . وهو الذى يقول لرُسلِ علىٍّ حين أتَوه يدعُونه إلى بَيعته : ثَكِلَتْنى أمِّى ، لئن كنت معَ رسول الله صلى الله عليه سادس ستّةٍ(٣) ما لنا طعامٌ إلاّ وَرَق البَشَام ، ثمَّ جاءنى أعرابُ الأوس تعلِّمنى دينَ الله ؟!

وإنما ذكرت لك هذا لتعلَمَ أقدارَ القوم والذى لَقُوا من الجَهْد والخوف والذلّ والتَّطراد والضرب . ولم نسمَعْ لعلىٍّ فى جميع ذلك ذكراً .

ولم يكن ذلك المكروهُ سنةً ولا سنتين ، ولكن ثلاثَ عشرةَ سنة ، وهذا أمرٌ لا يُلحَق ولا يُدرك الفائت منه ، كما قال الله : « لا يَستوى منكمْ مَنْ أنفقَ مِن قبل الفَتح وقاتَلَ أولئك أعظمُ درجةً مِنَ الَّذينَ أنفقُوا من بعْدُ وقَاتَلُوا وكلاًّ وعَدَ اللهُ الْحُسْنَى(٤) » .

---

(١) تكملة يقتضيها السياق . وانظر الإصابة ٢٧٨٣ .

(٢) هو سعد بن أبى وقاص ، أحد العشرة المبشرين بالجنة وآخرهم موتا ، وأحد الستة أهل الشورى . الإصابة ٣١٨٧ . وفيها : « فبينا سعد فى شعب من شعاب مكة فى نفر من الصحابة إذ ظهر عليهم المشركون فنافروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم . فضرب سعد رجلا من المشركين بلحى جمل فشجه » . وذكر فى السيرة ١٦٦ أنهم كانوا يصلون حينئذ .

(٣) فى الإصابة : وقع فى صحيح البخارى عنه أنه قال : « لقد مكثت سبعة أيام وإنى لثالث الإسلام » . وانظر فتح البارى ٧ : ٦٦ — ٦٧ .

(٤) الآية ١٠ من سورة الحديد .

فإذا كانَ مَن أنفقَ وقاتل قبل الفتح أعظَمَ درجةً ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا هِجرةَ بعد الفتح » ، فما ظنُّك بمن قاتَلَ وأنفق قبل الهجرة . ومن لدن[1] مبعث النبي صلى الله عليه إلى الهجرة أعظَمُ من القيامِ بأمر الإسلام بعد الهجرة ، [و] أفضَلُ من القيامِ بأمر الإسلام بعد الفتح .

فإنْ قالوا : قد عرفنا أنَّ أبا بكرٍ قد أنفقَ قبل الهجرة ولا نعرفُه قاتَلَ قبل الهجرة ، فقتالُ عليٍّ بعد الهجرة أفضل من إنفاق أبي بكر قبل الهجرة .

(* قلنا : إنَّ أبا بكر وإن لم يقاتل قبل الهجرة فقد قتِلَ مراراً وإن لم يمت قبلَ الهجرة ، ولأنَّه لو جُمع جميعُ المكروه الذى لَقِيَ أبو بكر ثلاث عشرة سنة لكان أكثر من عشرين قتلة[2] .

ولو كان فى ذلك الزمانِ القتالُ ممكناً والوثوب مُطمِعاً لقاتَلَ أبو بكرٍ ونهض كما نهض فى الرِّدّة . وإنما قاتلَ عليٌّ فى الزَّمان الذى [قد[3]] أقرن [فيه[3]] أهلُ الإسلام لأهل الشرك[4] ، فطمعوا أن تكون الحربُ

---

(١) فى الأصل : « وبين إذن » ، صوابه فى ح ٣ : ٢٧٥ .

*) بعده فى ح : « وإلى بعد الهجرة » . والكلام من أول قوله : « وقد تعلمون ما كان يلقى » فى ص ٣٧ س ١ إلى هنا موضع الرد رقم (١٣) .

(٢) يبدأ بعده اقتباس جديد فى نسخة (ب) سننبه على نهايته .

(٣) التكملة من ب .

(٤) يقال أقرن له ، أى أطاقه وقدر عليه ، وأقرنت فلاناً ، أى صرت له قرناً . وفى ح : « فى الزمان الذى استوى فيه أهل الإسلام وأهل الشرك » . والنصوص التى فى ح يكثر فيها التصرف .

سجالاً ، وقد أعلمهم اللهُ أنّ العاقبة للمتّقين ، وأبو بكر مفتون مفرد[1] [ومطرود مشرّد ، ومضروب معذّب[2]] ، فى الزّمان الذى ليس بالإسلام وأهلِه نهوضٌ ولا حَرَكة . ولذلك قال أبو بكرٍ بعد أن استفاض الإسلام وضَرَبَ بجرانه وظهرَ أمرُه : « طُوبَى لمن ماتَ فى نَأْنَأة الإسلام » ، يقول : فى أيّام ضعفِه وقلّته* ، حيث كانت الطّاعةُ أعظمَ ، لفرط الاحتمال ، والبلاء أغلظ ، لشدّة الجهد ، لأنّ الاحتمال كلّما كان أشدّ وأدومَ كانت الطّاعةُ أفضلَ ، والعزم فيه أقوى .

ولا سواء مفتونٌ مشرّد لا حِيلةَ عنده ، ومضروب معذّب لا انتصارَ به ولا دَفْعَ عنده ، ومُبَاطِشٌ مُقْرِن[3] [يَشفى غيظَه ويَروِى غليله ، وله مقدم يكنفُه ويشجّعه .

ولا سواء مقهور[4]] لا يُغَاث[5] ، ولم يَنزِل القرآنُ بمَدْ بظَفَرِه ،

(١) فى الأصل : « مقتول » صوابه فى ب . وبدل « مفرد » فى ب « معذب » .

(٢) التكملة من ب . و « معذب » هى فى أصلها هنا « ومغرب » .

*) ساق الإسكافى الكلام من « قلنا إن أبا بكر » ص ٣٩ س ٩ إلى هنا على هذا الوجه : « قال الجاحظ : ولأبى بكر مراتب لا يشركه فيها على ولا غيره وذلك قبل الهجرة فقد علم الناس أن علياً عليه السلام إنما ظهر فضله وانتشر صيته وامتحن ولقى المشاق منذ يوم بدر ، وأنه إنما قاتل فى الزمان الذى استوى فيه أهل الإسلام وأهل الشرك وطمعوا فى أن تكون الحرب بينهم سجالا ، وأعلمهم الله تعالى أن العاقبة للمتقين . وأبو بكر كان قبل الهجرة معذباً ومطروداً مشرداً ، فى الزمان الذى ليس بالإسلام وأهله نهوض ولا حركة ، ولذلك قال أبو بكر فى خلافته : طوبى لمن مات فى نأنأة الإسلام . يقول : فى ضعفه » . ثم عقب عليه بالرد رقم (١٤) فى ملحقات الكتاب .

(٣) المباطشة : مفاعلة من البطش وهو السطوة والأخذ بالعنف . والمقرن : المطيق القادر . ب : « مفرق » .

(٤) التكملة من ب .

(٥) فى الأصل : « لا يعاب » صوابه فى ب .

وقد هتك اليَأْسُ لِطُول ما لقِيَ حجابَ قلبه ، ونقَضَ قوَى طمعه حتّى بقى وليس معه إلاّ احتسابه ، ومقاتِلٌ فى عسكرٍ معه عِزُّ الرَّجاء[١] وقوَّة الطمع ، وطِيب نَفْس الآمِل[٢] .

فليس لعلىٍّ موقفٌ من المواقف إلاّ ولأبى بكرٍ أفضلُ منه إمّا فى ذلك الموقفِ وإمّا فى غيره . ولأبى بكر مواقفُ لا يَشْرَكه فيها علىٌّ ولا غيره .

وإنّما مُحِّص علىٌّ وامتُحِن من لدنْ يومِ بدر إلى آخر غزَوات النبى صلى الله عليه وسلم * وبينَ المحنة فى الدّهر الذى كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيه مُقْرِنِين لأهل مكّة ومشركى العرب ومعهم أهل يثْرب أصحاب النَّخيل والآطام ، والإرْب والإقدام ، والصَّبر والمواساة ، والإيثار والمحاماة ، والعدد الدَّثْر والفعل الجزْل ، وبين الدهر الذى كانوا فيه بمكّة يُفتَنون ويُشْتمون ويُضْرَبون ويشرَّدون ، ويجوَّعون ويعطَّشون ، مقهورين لا حَرَاك بهم ، وأذِلاّء لا دفْع عندهم ، وفقراء لا مال لهم ، ومغيَّظين لا يُمكنهم السُّفهاء[٣] ، ومستَخْفين لا يمكنهم اللّقاء[٤] — فرقٌ بيِّن .

ولقد كانوا فى حالٍ أخرجت لوطاً — وهو نبىٌّ ، والنبىُّ خيرٌ من جميع الناس — إلى أن قال لقومِه حينَ لقى منهم مالقى : « لو أنَّ لى بكُمْ قُوَّةً أوْ آوِى إلى رُكنٍ شَديد » . [وقال النبى صلى الله عليه وآله : « عجبت من أخى لوطٍ كيف قال : أو آوى إلى ركنٍ شديد[٥]] وهو يأوى إلى الله سبحانه !

---

(١) فى الأصل : « غير الرجا » ، وفى ب : « عز الرجال » ووجههما ما أثبت .

(٢) هذا نهاية الاختيار الذى بدأ فى ص ٣٩ س ١٢ .

(٣) كذا . ولعل قبلها كلمة ساقطة .

(٤) عند ابن أبى الحديد : « لا يمكنهم إظهار دعوتهم » .

(٥) التكملة من ح .

ثم لم يكن ذلك يوماً ولا يومَين ، ولا شهراً ولا شهرين ، ولا عاماً ولا عامين ، ولكن السِّنين بعد السنين .

وكان أغلظَ القومِ مِحنةً وأشدَّهم احتمالاً بعد رسول الله صلى الله عليه أبو بكر الصِّدِّيق ، لأنَّه أقام ما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكّة ، وذلك ثلاث عشرة سنة . وإنَّما قلنا ذلك من أجلِ أنَّ النـاسَ اختلفوا في مقدار مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى هجرته ، فقال قائل : خمس عشرة سنة ، وقال آخرون : ثلاث عشرة سنة ، وقال قوم : عشر سنين ، فكان أعدلُ الأمور وأقسطها طرحَ الطَّرفين ، والأخذَ بأوسط الرِّوايات*) ، كما صنعنا في عُمْرِ عليّ بن أبي طالب ، حيث وجدْنا ولدَه جعفرَ بن محمّدٍ [و] هو دونَه ، يخبر أنَّ عليًّا استُشهِد وهو ابنُ سبع وخمسين . وقالت (علماء الرّافضة) : نحن أعلمُ به من ولده إلّا الأئمّـة منهم . ولم يقل هذا القولَ إمامٌ منهم قطُّ ، ولكن عليٌّ استُشهِد وهو ابنُ ثمانٍ وخمسين سنة ، ثم روى النَّاس بعـدُ أنّه استُشهِد وهو ابنُ ستِّين وابن ثلاث وستِّين وابن أربع وستين ، أخذْنا بأوسطِ ما قالوا فطرحنا سِنِيه وسِنِي عُمر وعثمان وأبي بكر والهجرةِ ومُقام النبيِّ صلى الله عليه بمكّة ؛ فحصل العددُ الذي أثبتناه في صدر ذكرنا القضيَّة .

*(فإن قالوا : قد صنع عليٌّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بمكّةَ أفضلَ من جميع ما ذكرتم ، ولقي أشدَّ مما لقي أفضلُهم ، وذلك أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أبَاته في مضجعه وعلى فراشه والمشركون يَرصُدونه ، وقد سَقَط إليهم أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم يُريد المدينة ، فقد تحزّموا واجتمعوا وقلّبوا

---

*) الـكلام من « وبين المحنة » ص ٤١ س ٧ إلى هنا موضع الرد رقم (١٥) .

الرأى فرأوا أن يبيِّتوه على فِراشه إن لم يظهرْ لهم . فقال لعلىّ : « نَمْ على فراشي وتَغَشَّ بِبُرْدِى الحضرَمىّ ، فإنّهم إن رأوا حجمَك فوقَ الفِراش ودُونَ البُرْد لم يَستَرِيبوا ، وخفى لهم[1] أمرى ، ولم يتبعوا أثَرى » . فنام علىٌّ على فراشه ينتظر وقْع السُّيوف ، ويتوقَّع رضْخ الحجارة ، باذلاً نفسَه مصطبراً . وليس فوقَ بذل النَّفس درجةٌ يلتمسها صابر ، ولا يبلغها طالب .

وإنْ كان أبو بكرٍ قد أحسنَ فى خروجه وهِجرته وصحبته ، وهربه مع النبي صلى الله عليه وسلم ، واستخفائه فى الغار ، فإن ذلك لن يبلغَ من الاحتمال والخِطار والخوف ، قَدْرَ ما كان فيه علىٌّ رضى الله عنه ، لأنَّ طمع النَّجاة فى أحدهما أقوى ، والنَّفْس له أرجى .

قيل لهم : لو كان الأمرُ كما تقولون فى هذين الخوفين لم يَقُمْ صَرْفُ ما بينهما[2] بقدرِ عُشر ما لقى أبو بكرٍ من جميع ما وصَفْنا وما صنع أبو بكر فى ثلاثَ عشرةَ سنة ، من كثرة الإنفاق ، وإيثار الفقر على الغنى ، والوحدة على الأَنَسَة ، والهوَانِ بعد الكرامة ، والخوف بعد الأمن ، والضَّرب والافتتان بعد الإكرام والتعظيم ، مع عِتْق المعذَّبين وكثرة المستجيبين ؛ ومع صرف وَزْنِ ما بين الطَّاعتَين ؛ لأنَّ طاعةَ الشّابّ الغَرير أو الحدث الصغير ، الذى فى عِزِّ صاحبِهِ عِزُّه ، ليس كطاعة الحكيم المحتَنِك الأريب ، الذى لا يرجع تسويدُه لمن سوَّده [و] إلى رهطه[*] .

---

(١) فى الأصل : « لى » .

(٢) صرف ما بينهما ، أى فضل ما بينهما . يقال : بين الدرهمين صرف ، أى فضل ، لجودة فضة أحدهما .

(*) الكلام من « فإن قالوا قد صنع » ص ٤٢ س ١٧ إلى هنا موضع رد للاسكافى سيأتى برقم (١٦) .

(* وفرقٌ آخر : أنّ أمر الغار وقصة أبي بكر وصحبته مع النبي صلى الله عليه وسلم وكونِه معه فيه ، نطَقَ [به] القرآنُ وصَحَّ به الإجماع ، كالصلوات الخمس ، والزّكاة المفروضة ، والغُسل من الجنابة ، حتى إنّ مَن أنكر ذلك عند الأُمّة مجنونٌ أو كافر . وأمْر عليٍّ ونومِه على الفِراش أنّما جاء مجيء الحديث ، وكما تجيء روايات السِّيَر وأشعارُها . وهذا لا يُوازِنُ ذا ولا يكايلُه *) .

وأوّلُ مَراتِب العالم أن يعرف المعارضة والمقابلة ، والمنقوص والمتساوِى .

ولو أنّ رجلاً من أوساط الناس أظهرَ شكًّا فى قِصّةِ علىٍّ ومَبيته ، وقال : قد سمعتُ ذلك ولعَلَّه ، ولكنّى مشفقٌ للذى[1] أعرِف من أكاذيب الشّيَع ، وتوليد حُمّال السِّيَر ، لم يكنْ عليه بأسٌ من الإمام .

ولو قال رجلٌ لك ، وهو رجلٌ من أوسَط النّاس : والله ما أدرِى والله ، لعلّ الله إنّما عَنَى بقوله : « ثانِىَ اثْنَيْنِ إذْ هما فى الغار » علىّ بن أبى طالبٍ ، لوجدَ عند الإمام غايةَ التّكير .

(* وفرق آخر : أنّه لو كان مبيتُ علىٍّ علَى فِراش النبىّ صلى الله عليه وسلم جاء مجىء كونِ أبى بكرٍ فى الغار مع النبىّ ، لم يكن فى ذلك كبيرُ طاعة ، فضلاً عن أن يساوىَ أبا بكرٍ أو يبرّز عليه ، لأنّ الذين نقلوا — كاذبينَ كانوا أو صادقين — أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم أباتَ علياً على فِراشِه ، هم الذين نَقَلوا أنّ النبىّ عليه السلام قال : « تَغَشَّ بِبُردى ،

---

*) الكلام من « وفرق آخر أن أمر الغار » فى أول هذه الصفحة إلى هنا موضوع الرد رقم (١٧) .

(١) فى الأصل : « الذى » .

ونم فى مضجعى ، فإنّه لن يخلُص إليك شىء تكرهه » ؛ وهكذا لفظُ هذا الحديث ، لا يشكُّ فى ذلك أحد . ولم يُنقَل إلينا أنَّ النبى صلى الله عليه قال لأبى بكر : أنفِقْ واحتمل ، ولن تَعطَبَ ولن يصلَ إليك مكروه*) .

(* فإنْ قالوا : إنَّ عليا وإنْ كان حدَثاً — كما تزعمون — أيّامَ مكّة فإنه قد لحق السّابق له ثمَّ برّز عليه بصنيعه يومَ بدرٍ وأُحد والخندق ، ويوم خَيبر ، وفى حروب النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى أنْ قبضَه اللهُ سبحانه إلى جنْبه ، لجمع أمرين : كثرة التعرض للمنايا ، وعِظَم الغَنَاء بقتل الأقران والفُرسان ، والقادة والسّادة ، لأنَّ مَن له مِنْ قتل الأنجاد والأمجاد ما ليس لغيره ، فله من التعرُّض والاحتمال والصبر والاحتساب ما ليس لغيره .

قلنا : إنَّ كثرةَ القَتْل وكثرةَ المَشْى بالسّيف لو كان أشدَّ المحن وأعظم الغَنَاء ، وأدلَّ على الرّياسة ، كان ينبغى أن يكون لعلىٍّ والزّبير ، وأبى دُجَانة(١) ، ومحمد بن مسلمة ، وابن عَفراء(٢) ، والبَرَاء بن مالك من عِظَم الغَنَاء واحتمال المكروه بالقَدْر العظيم ما ليس للنبىِّ صلى الله عليه وسلم ،

*) الكلام من قوله « وفرق آخر أنه لو كان » ص ٤٤ س ١٤ إلى هنا موضع الرد رقم (١٨) .

(١) بضم الدال . واسمه سماك بن خرشة . الإصابة ٣٧١ من قسم الكنى .

(٢) لم يذكر لنا الجاحظ من يعنيه بابن عفراء ، وهم ثلاثة : عوف ، ومعاذ ، ومعوذ ، بنو الحارث بن رفاعة ، وأمهم عفراء بنت عبيد بن ثعلبة . السيرة ٥٠٣ . وكلهم شهد بدراً ، واستشهد منهم فيها عوف ومعوذ ابنا عفراء . السيرة ٥٠٧ والإصابة ٦٠٨٧ ، ٨١٥٧ وإمتاع الأسماع ٩١ . وشهد العقبة منهم معاذ . الإصابة ٨٠٣٤ ، وأظهرهم شجاعة فى تلك الحروب هو عوف ، قال ابن إسحاق : « وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن عوف بن الحارث وهو ابن عفراء قال : يا رسول الله ، ما يضحك الرب من عبده ؟ قال : غمسه يده فى العدو حاسراً . فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل » . السيرة ٤٤٥ .

لأنَّ النبيَّ لم يقتل بيده إلاَّ رجلا واحدا(١) ، وقد علمْنا أنَّه ليس أحدٌ أشدَّ احتمالا ولا أعظمَ غَناءً ، ولا أظهر فضْلاً مِنه صلّى الله عليه .

وقد تجد الرَّجلَ يقتل الأقران والفُرسان وهو لا يستطيع أن يرفع طرْفَه فى ذلك العسكر إلى رجلٍ آخر ليس فيه مِنْ قتل الأقران قليلٌ ولا كثير ، لمعانٍ هى عندهم أكثر من مَشْىٍ ذلك المقاتِل بسيفه ، وقتله لقِرنه .

وإذا ثَبتَ أنَّ رئيس العسكر وأشباهَه قد ثبتت لهم الرِّياسة واستحقُّوا التقديم بغير التقدُّم والمباشرة ، ثَبتَ أنَّ قتل الأقران ليس بدليلٍ على الفضيلة والرِّياسة . أوَما تعلم أنَّ مع الرئيس من الاكتراث والاهتمام وشغْل البال ، والعناية والتفقُّد ، ما ليس لغيره ، لأنَّه المخصوصُ بالمطالبة ، وعليه مَدار الأمر ، وبه يستنصر المُقاتِل وباسمه ينهزم العدوّ ، وبتعبيته ورايته ومعرفته يُفَلّ الحدّ ، ولأنَّ اختيارَ الحكيم دليل على احتمال طبيعته واستقلال نفسه ، ولأن فرَّته أو عَردته أعظم فى المأثم والعار من عَردةِ غيرِه وفرَّة غيره(٢) . [و] لو لم يكن من بليته وشِدّة ما مُحِّص به(٣) إلاَّ أنَّ القوم لو ضيَّعوا

---

(١) هذا الرجل هو أبى بن خلف . قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد . السيرة ٥٧٥ ، وعيون الأثر ٢ : ١٤ — ١٥ وإمتاع الأسماع ١٣٩ . وأما أبو عزة الجمحى فلم يقتله بيده ، بل أمر عاصم بن ثابت أن يقتله ، فضرب عنقه وقتله صبراً . إمتاع الأسماع ١٦٠

(٢) فى الأصل : « ولأن قرنه أو عورته أعظم من المأثم والعار من عورة غيره وقرنه غيره » . والعردة : اسم المرة من عرد الرجل ، إذا هرب . اللسان (عرد ٢٧٩) .

(٣) التمحيص : الابتلاء . قال ابن عرفة : ليمحص الله الذين آمنوا ، أى ليبتليهم . اللسان (محص) . والكلمتان قبلها مهملتان فى الأصل .

جميعاً وحَفِظ ما أضيفت الهزيمةُ إلاَّ إليه*) ، ولا كان المطلوبُ غيرَه ، ولا كان الذّليلُ المهان غيره . ولهذا وأشباهه يكون الرّئيسُ أعظَمَ غناءً ، وأشدّ احتمالاً ، لأنّك [لو] قذفتَ فَضْلَ صبرِ المقاتل الواحد فى خِصاله لم تجد له أثراً ولم تُحِسّ له حِسّاً(١) .

(* واعلم أنّ المشىَ إلى القِرْن بالسّيف ليس هو على ما يتوهّمه الغِمر من الشّدّة والفضل وإن كان شديداً فاضلا . ولو كان كما يظنُّون ويتوهّمون ما انقادت النفس ولا استصحبت للقتال ، (** لأنّ النّفس المستطيعة المختارة التى قتالُها طاعة وفرارها معصية قد عُدّلت كالميزان فى استقامة لسانه وكِفّتيه ، فإذا لم يكن بحذاء سيفِه إلى السّيف ومكروهِ ما يأتى به ، ما يُعادله ويُوازِنه لم يمكن النّفْسَ أن تختار الإقدام على الكفّ ، ولكنْ معه فى وقت مشيه إلى القِرْن أمور تَنفَحه مشجِّعة(٢) ، وإن لم يُبصرها الناس وقَضَوْا على ظاهر ما أبصروا من إقدام . والسبب المشجِّع ربّما كان الغضبَ ، وربّما كان الشّرابَ(٣) ، وربّما كان الغَرارة والحداثة ، وربّما كان الإحراج ، وربّما كان الغَيرة ، وربّما كان الحميّة وحُبّ الأُحدوثة(٤) ، وربّما كان طِباعا كطباع القاسِى والرّحيم ، والسّخى**) والبَخيل ، والجَزُوع من وَقْع السّوط

*) بعده فى ح : « فضل أبى بكر بمقامه فى العريش مع رسول الله يوم بدر أعظم من جهاد على عليه السلام ذلك اليوم وقتله الأبطال » . والكلام من « فإن قالوا إن علياً » ص ٤٥ س ٤ إلى هنا هو موضوع الرد (١٩) .

(١) يعنى بذلك أن الصبر أضعف الخصال عند المقاتل . وكلمة « قذفت » مهملة فى الأصل .

(٢) تنفحه : تدفعه . ولم يعجم من تلك الكلمة فى الأصل إلا الفاء . وكلمة « مشجعة » رسمت فى أصلها « مسحز » . وانظر سياق الكلام .

(٣) كذا جاءت الكلمة واضحة فى الأصل .

(٤) ح ٣ : ٢٧٨ : « وربما كان لمحبة النفخ والأحدوثة » .

*) الكلام من « واعلم أن المشى » س ٤ إلى هنا موضع الرد رقم (٢٠) .

والصَّبور ، وربَّما كان السَّببُ الدِّين ، ولكنْ لا يَبلُغ الرَّجلُ بقوَّة الدِّين في قلبه ما لم يشيِّعْه بعضُ ما ذكرناه أن يمشي إلى السَّيف ؛ لأنَّ الدِّين مكتسَب مجتلَب ، وليس بأصليٍّ ولا طبيعيّ ، ولأنَّ ثوابَه مؤجَّل ، والخصال التي ذكرناها طبيعيّة أصليّة ، وثوابها معجَّل .

وقد يكون مع الإنسان أسباب محذِّرة مجبِّنة ، فيكون رُكونُه[1] وجلوسُه طِباعاً لا يمتنع منه . وربَّما كانت الأسباب من المشجِّعات والمجبِّنات سواءً ، فيكون جلوسُه عن الحرب وقتالُه فيها اختياراً . وربَّما فَضلت قُوَى مشجِّعاته حتَّى يكونَ إقدامُه أشَراً ومرحا ، واهتزازاً وطِباعا ، ولا يكون ذلك طاعةً وإن كان في الحكم طاعة . وكذلك الجُبْن إذا أفرطَ على صاحبه حتَّى يكون فِرارُه[**] طباعا لا يكون معصيةً وإن كان في الحُكم معصية .

ولم نردْ بهذا الكلام تنقُّصَ عليٍّ رحمه الله ولا إخراجَه من الغَناء واحتمال المكروه ، كما لم نرد تنقُّص الزُّبير وأبي دُجَانة وابن عَفْراء ومحمد ابن مسلمة ، ولكن هكذا صفةُ المستطيع المكلَّف ، والمطيع والعاصي .

وإذا كان مع صاحب الإقدام من الأمور المشجِّعة أمورٌ فاضلة على أسباب جُبْنِه وجلوسه ، كان عندَ الله غيرَ مأجور وإن كان في الحكم الظَّاهر مأجورا .

---

(١) في الأصل : « ركوبه » ، تحريف .

**) أوجز الإسكافي هذه العبارة وما ورد في صفحة ٤٧ س ٧ من قوله « لأن النفس المستطيعة » على هذه الصورة ، كما ورد عند ابن أبي الحديد ٣ : ٢٧٨ — ٢٧٩ : « قال الجاحظ : فصاحب النفس المختارة المعتدلة يكون قتاله طاعة وفراره معصية ، لأن نفسه معتدلة كالميزان في استقامة لسانه وكفتيه ، فإذا لم يكن كذلك كان إقدامه طباعاً وفراره طباعاً » . ثم رد عليها بالرد رقم (٢١) .

وإن كانت الأسباب المشجِّعة فى وزن الأسباب المجبِّنة كان مطيعاً ولم يكن حيثُ وضعَه القوم ، لأنهم توهَّموا مع مشْيه بالسَّيف إلى القِرن احتمالَ المكروهِ كلِّه ، ورفعُوا من أوهامهم الأسبابَ التى لولاهَا لم يمكنْه المشْى إلى القِرن بالسَّيف[1] .

(* ووجه آخر : أنَّ عليًّا لو كان كما يقول شيعته ، ما كان له بكثرة المشْى إلى القِرن بالسَّيف وبقتْـلِه له كثيرُ طاعة ، ولا احتمال مشقَّة ؛ لأنَّ الشِّيعة [تزعُم[2]] أنَّ رسول الله صلى الله عليه قال لعلىٍّ : « إنَّك ستُقَاتِل من بعدى النَّاكثين والقاسطين والمارقين » . والناكثون : طلحةُ والزُّبير وأصحابهما ، والقاسطون معاوية وأصحابه ، والمارقون : عبد الله بن وهب وأصحابه .

فإنْ كانوا قد [صدقوا وما[3]] كذَبوا فما عسَى أن يبلغ مِن احتمال مَن هو من البقاء والسَّلامة على ثقـة . فالزُّبير وطلحةُ وأبو دُجانة وابنُ عفراء ومحمد بن مَسلمة أعظم طاعةً منه ، لأنَّهم أشدُّ احتمالاً منه ، لأنهم يُقْدمون والمنايا شارعةٌ وهم يَرْجُون وَيخافون ، وعلىٌّ عَلَى ثقةٍ من أمره ، ويقينٍ من بقائه وسلامته . إلا أن يزعموا أن النبى ﷺ لم يقلْ هذا القولَ إلَّا قُبيلَ وفاته . ولا سبيلَ لهم إلى علم ذلك . فيقال لهم : فكذلك خصومكم يمكنهم أن يقولوا لكم : إنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال هـذه الكلمة بُمَيْد إسلامه ، وإذا لم يكن فى قولكم إنَّ النبى صلى الله عليه وسلم قالها له قبيلَ وفاته دليلٌ ، ولا فى قول خصومكم إنَّ

(١) فى الأصل : « المشى إلى السيف » . وانظر س ٦ .

(٢) تكملة يقتضيها السياق ، وموضعها فى الأصل علامة إلحاق .

(٣) بمثلها يستقيم الكلام .

النبيّ قالها بُعَيْد إسلامه دليل ، فأعدلُ الأمور وأنصفُها بينكم وبينَهم أن تجعلوا الخبر فى النِّصف ممَّا بين إسلامه إلى وفاة النبي صلى الله عليه . فإذا كان ذلك كذلك فقد صار الزُّبير وطلحة وأبو دُجانة ومحمد بن مسلمة وابن عفراء أفضلَ منه*) ، لأنَّ الفضلَ فى احتمال المكروه .

وقد لزِمكم أن تزعُموا أنَّ النبي صلى الله عليه قال هذا الكلام لعليٍّ قبلَ وقعة بدر ، وأنتم إنَّما تفخرون بوقعة بدرٍ وقتاله بعد ذلك ، فما عسى يبلُغ مِن قتال رجل قد وثق بالسَّلامة والبقاء إلى أن يقاتل النَّاكثين والقاسطين والمارقين بعدَ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بدهر .

فإذا كان رئيسُ الجيش أعظم غَناء وأشدَّ احتمالاً ، للذى وصفنا ، فأشبه القوم حالاً به أعظم غَناء وأشدُّهم احتمالاً ، على قياسٍ فى الرَّئيس والكثير المَشْى بالسَّيف ولا أحدَ أشبَهُ بالرئيس ممَّن اختاره الرئيس وزيراً وصاحباً ، ومُكانفاً ومُعينا ، لأنَّ الرجل إذا كان فى رأى العَين صاحبَ أمْرِ الرَّئيس والمتولِّىَ على الخاصَّة والقُرْبة منه فى ظَعْنه ومُقامه ، وخَلَواته ، وهرَبه واستخفائه ، وكان هو المبتدئُ بالكلامِ عنده ، والمَفْزَعَ فى الحوائج بعدَه والثَّانىَ فى الدُّعاء إلى الله ودينه ، ولا نعلمُ هذه الخصالَ اجتمعت فى غير أبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه ، لأنَّه صاحِبُه فى كتاب الله سبحانه ،

*) الكلام من قوله « ووجه آخر » فى ص ٤٩ س ٥ إلى هنا قد أوجزه الإسكافى على هذا الوجه عند ابن أبى الحديد (٣ : ٢٧٩) : « قال الجاحظ : ووجه آخر أن علياً لو كان كما يزعم شيعته ما كان له بقتل الأقران كبير فضيلة ولا عظيم طاعة ، لأنه قد روى عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال له : ستقاتل بعدى الناكثين والقاسطين والمارقين . فإذا كان قد وعده بالبقاء بعده فقد وثق بالسلامة من الأقران ، وعلم أنه منصور عليهم وقاتلهم ، فعلى هذا يكون جهاد طلحة والزبير أعظم طاعة منه » . ورد عليه بالرد رقم (٢٢) .

قال الله عزَّ وجلَّ : « إلَّا تَنْصُروه فقد نَصَره الله إذْ أخرَجَه الذين كَفَرُوا ثانِيَ اثنينِ إذْ هما فى الغار إذ يَقُولُ لصاحِبِهِ لا تَحزَنْ إنَّ الله معنا » ؛ فسمَّاه الله صاحباً فى كتابه ثم سمَّاه النبي صلى الله عليه صِدِّيقه من بين خلق الله ، حتّى غلب على اسمه واسم أبيه ولقبِه ونَسبه ، حتّى كان النّاسُ أيّامَ رسولِ الله وبعدَ وَفاته يقولون : قال علىٌّ وفعل علىّ ، وقال عثمانُ وفعل عثمان ، وقال عُمر وفعل عمر ، وقال طَلْحةُ وفعل طلحة ، وقال الزُّبير وفعل ، وجميع العَشَرة الذين هم فى الجنّة ، حتّى إذا صاروا إليه قالوا : قال الصِّدِّيق وقال أبو بكرٍ الصِّدِّيق ، وفعل أبو بكرٍ الصِّدِّيق . ثم قول النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، وهو القول الذى كان يُعيدُه فى كلِّ دارٍ ومنزل : « ما أحدٌ أمَنَّ علينا بصُحبته وماله من أبى بكر » وفى قوله : « ما أحد أمنَّ علينا بصحبته وماله من أبى بكر » معانٍ كثيرةٌ ، فهمه الناس أمْ ذهَبوا عنه . فهذا هذا .

ثُمَّ كان النبي عليه السلام بمكَّة ثلاثَ عشْرةَ سنة ، فى كلِّ يوم ذرَّ شارقُه يأتى منزلَ أبى بكر إمَّا صباحاً وإمّا مَساء ، حتّى كان اليومُ الذى أَذِنَ الله سبحانه له فى الهجرة . وإنَّه أتاه مهجِّراً(1) فقال له أبو بكر : بأبى أنتَ وأمّى ، كيف جئتَ اليومَ فى هذا الوقت ؟! ونزل عن سريره وجلسَ النبيُّ صلى الله عليا وسلم وجلس أبو بكرٍ بين يديه ، قال النبيُّ : هل عندَك أحد ؟ قال : لا ، يارسول الله ، إلَّا أسماء وعائشة . قال : « فإنَّ ربِّى قد أذِنَ لى فى الهجرة » . فصانَ صُحبتَه من خلْق الله غيرَه . ثم لم يُعلِمْ بخُروجه غيرَ ابنتَيه أسماء وعائشة ، وغير ابنِه عبدِ الله ابن أبى بكر قتيل يوم الطَّائف ، وكان هو الذى يتجسَّس لهما الأخبار ويأتى بها إليهما فى الغار ، لأنَّهما استخفيا فى الغار ثلاثاً ولم يُطلِما على

(1) التهجير : السير فى الهاجرة ، وهى نصف النهار عند زوال الشمس .

أمرهما غير عامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، بدرىّ استُشهد يوم بئر معونة ، فإنّه كان يُؤْنسهما ويحدّثها ويخدُمهما فى تلك السَّفرة كلّها . وكانت أسماء هى التى تأتيهم بأقواتهم فى الغار ، فكان صاحبَه فى الغار ، وبمكّة فى طريقه إلى المدينة ، وعلَى ظَهرِه ركب النبىُّ صلى الله عليـه وسلم(١) ، والنُّفَاثىُّ أجيره(٢) ، وعامر بن فُهيرة خادمُ النبى صلى الله عليه ومُؤْنسه عتيقُه ثلاثَ مرات(٣) ومولاه ، والظّهر ظَهرُهُ ، والمؤونة مؤونته ، وصحبة النبى صلى الله عليه وسلم مقصورة عليه ، محبوسة له ، مصونة عن سواه ، يُطلَبانِ معاً ، وتجعل فيهما قريشٌ شيئاً سَواء .

وقالت الأنصار : لمَّـا سمِعْنا بمخرج النبىِّ صلى الله عليه وسلم وقُدُومِه كنَّا نخرُج إلى ظاهر حَرّتنا ننتظره ، حتّى إذا لم نجـدْ ظِلاً دخَلْنا ، وذلك فى أيّامٍ حارّة ، حتّى إذا كان فى اليـوم الذى قدم فيه النبىُّ صلى الله عليه وسلم فعلْنا ذلك ثم دخلْنا منازلَنا ، فكان أوّلَ من أبصَرَه رجلٌ من يهود ، فصاح : يابنى قَيْلة(٤) !! فخرجْنا إلى النّبى صلى الله عليه

(١) كان لأبى بكر راحلتان أعدهما للهجرة ، ركب إحداهما رسول الله . قال ابن إسحاق : « فلما قرب أبو بكر الراحلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم له أفضلهما ثم قال له : اركب ، فداك أبى وأمى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لا أركب بعيراً ليس لى . قال : فهى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمى . قال : لا ، ولكن بالثمن الذى ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا . قال : أخذتها به . قال : هى لك يارسول الله » . السيرة ٣٢٩ .

(٢) النفاثى : نسبة إلى نفاثة بن عدى بن الديل بن بكر . واسمه عبد الله بن أريقط ، وكان مشركا يدلهما على الطريق . قال ابن حجر فى الإصابة ٤٥١٧ : « ولم أر من ذكره فى الصحابة إلا الذهبى فى التجريد . وقد جزم ابن عبد الغنى المقدسى فى السيرة له بأنه لم يعرف له إسلاما » .

(٣) انظر ما سبق فى ص ٣٢ س ٩ — ١٠ وص ٣٣ س ٣ .

(٤) قيلة هى أم الأوس والخزرج ، وهى قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة . السيرة ١٤٠ . وفى السيرة ٣٣٤ : « يابنى قيلة هذا جدكم قد جاء » . وفى إمتاع الأسماع ٤٥ : « هذا جدكم الذى تنتظرون » .

وسلم وهو فى ظلِّ نخلة ، ومعه أبو بكرٍ ، فى مثل سِنّه وهيئته ، وأكثرُنا لم يكن رآه ، وركِبَهُ الناس وما نعرفه من أبى بكرٍ حتّى زالَ الظلُّ عن النبىِّ عليه السلام ، فقام أبو بكرٍ فأظلّه بردائه ، فعرفناه عند ذلك . فهذا هذا .

ثم لمّا كان بعدَ ذلك فى يوم بدر . وذلك أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم لمّا عزم على محاربة قُريشٍ قال له سعدٌ : يا نَبىَّ الله ، لنَبْنِ لك عريشاً فتكونَ فيه ونقاتلَ بين يديك . فأذِن لهم فبنَوه له ، فعدَل إليه بعد أن عَبّأهم وأقامهم على مَصافِّهم وعلى مراتبهم ، فدخَله وأدخل معه أبا بكرٍ وحدَه ، فلما استقرَّ فى العريش قال له أبو بكر : بعضَ مُناشَدتِكَ يا رسولَ الله(١) فإن الله منجزٌ لك ما وعَدَك . فخفَق النبى صلى الله عليه خفقةً فى العريش فانتبهَ وهو يقول : أبشِرْ يا أبا بكر ، أتاك نَصرُ الله ، هذا جبريلُ آخذٌ بعِنان فرسِه يقودُه ، على ثناياهُ النَّقع(٢) !

فكان النبىُّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر من بين يديه خَلْقَ اللهِ فى العريش ، والناس موقوفون على مراتبهم ، فكانت هذه مرتبةَ أبى بكر . ورتّب لسَعد بن معاذ بَعْدُ أن كانَ قائماً على رأسه على باب العريش متوشّحاً السيفَ فى نفرٍ من الأنصار يَحرسون العريشَ ومَن فيه مخافةَ كَرِّ العدُوِّ والجولة .

فإذا كان النبى صلى الله عليه فى ذلك اليوم فى العريش ، وغيرَ ماشٍ

(١) فى السيرة ٤٤٤ : « بعض مناشدتك ربك » .

(٢) النقع : الغبار . وفى الروض الأنف ٢ : ٦٩ : « وفى حديث آخر أنه قال : رأيته على فرس له شقراء وعليه عمامة حمراء ، وقد عصم بثنيته الغبار » .

إلى السَّيف ومعه صاحبُه وصِـدّيقُه ، وسيِّدُ الأنصار وأفضلُهم على بابِ العريش ، عُرِف أنَّ عِظَم الغَناء وشدّة الاحتمال والسَّبب الدّالَّ على الرِّياسة غيرُ الذى خَصَّه القومُ وجعلوه دليلاً . فمَنْ أولى أن يكون أشبَهَهم برسول الله صلى الله عليه وسلم فى عِظَم الغَناء واحتمال المـكروه ، والحالِ الرَّفيعة ، ممَّن كان ثانىَ اثنين فى التقدُّم فى الإسلام ، وثانى اثنين فى الدُّعاء إلى الله ورسـوله ، وثانىَ اثنين فى كثْرة المستجيبين والأتباع ، وثانىَ اثنين فى الغار ، وثانى اثنين فى الهجرة ، وثانى اثنين فى العريش ، وفى أشباهٍ لهذا كثيرة .

وأمَّا ما ذكرتم من يومِ بدر وقتـلِ علىّ الأقرانَ وفضلِه على مَن سواه بذلك ، فقد قلنا فى ذلك بما قد سمعتم .

ونحن ذاكرون وجهاً آخَر ليزيد فى الُحجَّة ويَـكشِف من الدَّلالة . نَزعم أنه لم يشهد بدراً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم [من له[1]] مثـلُ غَناء أبى بكر ونباهته وكرمِ موضعه ، لأنَّ مَن شهد بدراً مثل الزُّبير ، وطلحة ، وسعد ، وعبد الرحمن ، وعثمان ، وبلال ، ومِسطَح ابن أثاثة ، وعامر بن فهيرة . وكان فى العَريش ، فلا أحـدَ يَعدِلُه فى النَّباهة ، ولا فى الغَناء والرِّفعة ، والاحتمالِ لقَـدْر الخلافة ؛ لأن الذين عدَّدنا على ثلاثة أصناف : رجل أسلم على يده وبدُعائه وشَرْحه فهو سببُ حضورِه وحُسنِ بلائه ، ورجلٌ أسلم على يدِه وأعتَقَه بعد ذلك من رقِّ العذاب ورقّ العُبودية وشهد بدراً وقبِـل ذلك بمؤُونته وكُلْفته ، وإمَّا ربيبٌ

(١) بمثلها يلتئم الـكلام .

ونسيبٌ وابن خالةٍ كمِسطح بن أُثاثة ، فقد كان ربيبَه وابنَ خالته[١] وعلى يده أسلم ، وبه استبصر ، ولم يَزَل فى مؤونته قبلَ بدر وبعدَ ذلك وفى أيَّامه ، إلَّا ما كان مِن يمينِه أيَّامَ حلَفَ ألَّا يقْرَبه ولا يُنفقَ عليه ولا يطأَ رحلَه ، لِلَّذى كان كَبَّرَ[٢] على عائشة مع حسّان بن ثابت ، حتى أنزل الله سبحانه على رسوله براءة عائشة ، وأمر أبا بكرٍ بالإنفاق على مِسطحٍ وعِياله ، وبالعفو عنه ، وأن يعيده إلى رحْله وتحتَ جَناحه ، فأنزَلَ الله فى محكم كتابه على نبيّه يريد أبا بكر — وبينَ أن[٣] يُفرِدُ الله الآىَ ويخصُّه بمخاطبته وبينَ أن يريدَه فى الجمهور فرقٌ عظيم ، كما أثنى على جملة المهاجرين والأنصار — فقال الله وهو يريد أبا بكر : « ولا يأتلِ أُولُو الفَضْلِ مِنكم والسَّعَةِ أن يُؤتُوا أُولِي القُربَى والمَسَاكِينَ والمهاجرينَ فى سَبيل الله ولْيَعفُوا ولْيَصْفَحُوا ألَا تُحِبُّون أنْ يغفِر اللهُ لكم » . قال أبو بكر : بلى يا ربّ . فردَّه إلى رَحْله وعفا عنهُ كما أمره الله ، وأجرَى عليه وعلى عِياله مثلَ الذى كان يُجريه .

وإنَّما ذكر اللهُ فى هــذه الآيةِ القُرْبَى لأنَّه كان ابنَ خالته[٤] ، وجعلَ أهلَه وعيالَه مساكينَ أبى بكر ، وهو أحد بنى المطَّلب بن عبد مناف[٥] ، وشأنُه عظيم .

---

(١) التحقيق أنه ابن بنت خالته . الإصابة ٧٩٢٩ والسيرة ٧٣٣ وإمتاع الأسماع ٢٠٧ . ومسطح لقب له ، واسمه عوف .

(٢) كبر من الكبر بالكسر ، وهو الإثم . وفى الكتاب الكريم : « والذى تولى كبره » ، قيل الكبر الإثم . وفى الحديث أيضا : « أن حسان كان ممن كبر عليها » . اللسان (كبر) . فى الأصل : « كان كثر » .

(٣) فى الأصل : « وبين مؤمن » .

(٤) انظر ما سبق فى الحاشية الأولى .

(٥) فى الأصل : « بنى عبد مناف » ، تحريف . انظر المعارف ٣٣ والإنباه على قبائل الرواة ٧٠ مع السيرة ٧٣٣ .

وكان أوَّلَ مَن حثَّ على قتال المشركينَ ببدرٍ وتكلَّم فيه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر .

فإذا شهِدَ بنَفْسه ورأيه وماله ومستجيبيه وأتباعه الذين هم أكْفاءُ ضدِّه عندَكم ، مع أنَّ بعضهم قد اختير عليه وهو عُثْمان ، والباقون لم يخايرهم ويُوازِ[نْهم] فيُعرف موضع أفضلهم ، وقد فخر عليه سعدٌ فلم يعارضْه ، فأينَ مبلغُ ما ذكرتُم ممَّا ذكرنا ، إذا كان[1] مثلُ سعدٍ من مستجيبيه — وهو المستجابُ الدعوة ، وأوَّل مَن أراق دماً في الإسلام ، وأوَّلُ مَن رمَى بسهمٍ يومَ بدر ، وله يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أرمِ فِداكَ أبي وأمّي » ، فجمعَ له أبويه ولم يَجمعْهما لأحدٍ قبله . وفيه يقول النبي صلى الله عليه : « هذا خالِي أُباهي فيهِ فليأتِ كلُّ امرئٍ بخَالِه[2] » . وهو أزال كِسرى عن قصره ومُلكِه وعن مستقرِّه — ومثلُ حَوَارِيِّ رسول الله صلى الله عليه وابنِ عَمّته[3] ، مع فروسيَّته وشدَّة بأسه والذى عظَّم اللهُ من شأنه ببدرٍ حين نزلت الملائكةُ فى زِيِّه ، عليها عمائم صُفْر .

ثم الذى كان منه ببدرٍ حين أتَى الخبرُ النبيَّ صلى الله عليه عن قريش بمسيرِهم ، فاستشار النبيُّ صلى الله عليه ، فكان أوَّلَ من قام أبو بكر ،

---

(١) فى الأصل : « وإذا كان » .

(٢) فى رواية الترمذى من حديث جابر : « هذا خالى فليرنى امرؤ خاله » . الإصابة ٣١٨٧ فى ترجمة سعد بن أبى وقاص . ووجه خؤولته أنه سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، وأم الرسول صلوات الله عليه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة . قال ابن قتيبة فى المعارف ٥٧ : « ولا يعلم أنه كان لآمنة أخ فيكون خال النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن بنى زهرة يقولون : نحن أخوال النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن آمنة منهم » .

(٣) يعنى الزبير بن العوام ، أمه صفية بنت عبد المطلب . الإصابة ٢٧٨٣ .

فتكلّم وحثّ على الجهاد والنُّصْرة ، ثمّ قام عمرُ ، ثم قام المِقداد[1] فقال : يا رسولَ الله ، امضِ لِمَا أراكَ الله ، فوالله لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « اذْهَبْ أنتَ وربُّك فقاتِلاَ إنَّا هاهنا قاعِدُون » ، ولكن اذهب أنتَ وربُّك فقاتلا إنَّا معكم مُقاتِلون . فوالّذى بعثَكَ بالحقّ أنْ لو سرتَ بنا إلى بِرْكِ ذات الغِماد[2] لجالَدْنا مَنْ دونَه حتَّى نبلغَه .

فإنْ قالوا : إنَّ أبا بكر لم يُشهِدْ [له] احتمالٌ كاحتمال عليٍّ ، لأنَّ عليًّا كان يمشِى إلى السَّيف وأبو بكرٍ وادعٌ رافِهٌ فى العريش ، ودونه الحرسُ سعد بن مُعاذ وأصحابُه ، والرِّكاب له مُناخة .

قلنا : قد طعنتم على النبي صلى الله عليه ، لأنَّ الشَّأن لو كان كما تقولون لكان النبي صلى الله عليه وادعاً وكان عليٌّ محتمِلاً صابراً . وهذا كلامٌ قد فرَغْنا منه مرّة[3] .

أوَما علمتَ أنَّ صاحب اللّواء وإن كان لا يُبارِز ولا يَمشِى بالسَّيف أنَّه يحتاج من المعرِفة بالحرب وعَوْرتها ، وإقبال أمرها وإدباره ، ويحتاج مع اجتماع القَلب واليَقَظة وقِلّة الحَيرة ، والثَّباتِ عند الجولة ، والعلم

---

(١) السيرة ٤٣٣ . وهو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك ، تبناه الأسود بن عبد يغوث الزهرى فنسب إليه فقيل المقداد بن الأسود ، فلما نزلت : « ادعوهم لآبائهم » قيل له المقداد بن عمرو . الإصابة ٨١٧٩ .

(٢) فى الأصل : « برك ذات الماد » ، تحريف . وبرك بفتح الباء فى الأكثر وكسرها بعضهم . والغماد بكسر الغين فى الأكثر وضمها بعضهم . وكلمة « ذات » و « ذو » تزاد كثيرا فى أعلام البلدان ، كما قالوا : ذو أثيل ، وذو حسم ، وذو العرجاء ، وذات الملندى ، وذات الإصاد . انظر كتاب أسماء جبال تهامة ٣١ . وبرك الغماد : موضع فى أقاصى هجر . والبرك : حجارة مثل حجارة الحرة خشنة يصعب المسلك عليها وعرة ، كما ذكر ياقوت .

(٣) انظر ما سبق فى ص ٤٥ — ٤٦ .

بموضع الشِّدَّة والانحيازِ[1] إلى أكثرَ مِمَّا يحتاج إليه المبارز ، لأنَّ حفظَ الجميع أشدُّ من حِفظ الواحد ، ولأنَّ كلَّ العدوِّ يطالبه ويريد خَتْله ، وكلُّ ذلك بِعِلْمه وعَيْنه ؛ لأنَّ خطأه وضَعفَه أقربُ إلى هَلَكة الجميع مِن ضعفِ المبارِز وخطئه .

ولو كان الأمرُ كما تقولون ما كان أحدٌ أسقَطَ فى الحرب ولا أصغرَ حَظًّا ولا أقلَّ أجراً ومكاناً من الإمام الأكبر والرَّئيس الأعظم[2] لبُعد ما بين بلادِ عدُوِّه من بلاده ، ولكان عامِلُه أفضلَ منه .

* مع أنَّكم تُزِيدون فى كثرة القتلى وتعظِّمون شأنَهم لتُعظِّموا به من شأن علىٍّ ، كصنيعكم فى أمر علىٍّ ومَرْحَبٍ ، حيث فخَّمتُموه بالأشعار ونفختموه[3] بالبلاغات ، وسكتُّم عن قتيل الزُّبيرِ فى ذلك اليوم . ومرحبٌ وياسرٌ أخَوانِ شهِدا الوقعة ، والنَّباهة لياسر[4] . فقصدتم إلى الأخمل فرفعتموه وشهَرْتموه إذ كان قتيلَ علىٍّ ، وقصدتم إلى الأرفع فأخملتموه[5] وأخفيتموه ، إذْ كان قتيلَ الزُّبير . أو ما علمتَ أنَّ الزُّبير وياسراً التقَيَا فاضطربا بأسيافهما فلم يُغنيا شيئاً مِراراً ، حتَّى لحِجَا فى موضعٍ[6] واعترضَتْ

(١) فى الأصل : « الانحياد » ، تحريف . والانحياز : أن يعدل عن المكان ويتركه إلى آخر . وفى اللسان : « يقال للأولياء انحازوا عن العدو وحاصوا ، وللأعداء انهزموا وولوا مدبرين » .

(٢) بعده فى الأصل : « أقل أجرا وأصغر حظا » ، وهو تكرار .

(٣) فى الأصل : « تفختموه » .

(٤) مرحب اليهودى وأخوه ياسر ، قتلا فى غزوة خيبر . السيرة ٧٦٠ — ٧٦١ . وقد ذكر ابن إسحاق أن الذى قتل مرحبا هو محمد بن مسلمة . قال ابن سيد الناس ٢ : ١٣٤ : « هذه رواية ابن إسحاق فى قتل مرحب . وروينا فى الصحيح من حديث سلمة بن الأكوع أن على بن أبى طالب قتله » .

(٥) فى الأصل : « فاحتملتموه » .

(٦) لحج فى موضع : نشب فيه ولزمه .

بينهما شجرة ، فجذَباها[١] ضرباً وخبطاً ، ثم جمع الزُّبير نفسَه ومكّن سيفَه فضرب رأس ياسرٍ ضربةً قدّ منها البيضةَ ومرّ السَّيفُ حتَّى عَضّ ثَنِيَّتَيه ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، ما أجودَ سيفك ! فغضب[٢] .

وقَصدتُم إلى عمرِو بن عبد وُدّ ، فتركتموه أشدَّ من عامر بن الطُّفيل ، وعُتيبة بن الحارث ، وبِسطام بن قَيس .

وقد سمعنا بأحاديث حروب الفِجار ، والذى كان بين المطيَّبين والأحلاف ، وما كان بين قريش ودَوْس وأمرِ خُزاعةَ وحِلْف الفُضول ، وجميع أمر قُريشٍ من خيرٍ وشرّ ، فما سمعنا لعمرِو بن عبد ودٍّ فى شىء من ذلك ذكراً*) .

(**وكذا قتيلُ[٣] علىٍّ الوليدُ بن عُتْبةَ يوم بدر ، وما علمنا الوليدَ حضَرَ حرباً قطُّ قبلها ولا بَعدها ، ولا ذُكِر فيها بطائل**) .

فلو ذهبتم إلى أنَّ عليًّا قد بارز وقتل ، وأبلى واحتَمَل ، كان ذلك

---

(١) جذب الشىء وجذمه : قطعه .

(٢) فى السيرة ٧٦١ : « كان إذا قيل له : والله إن كان سيفك يومئذ لصارما عضبا ، قال : والله ما كان صارما ولكنى أكرهته » .

*) أوجز الإسكافى — على ما أورده ابن أبى الحديد فى ٤ : ٢٧٩ — عبارة الجاحظ من قوله « مع أنكم تزيدون فى كثرة القتلى » فى ص ٥٨ س ٨ إلى هنا على هذه الصورة « قال الجاحظ : ثم قصد الناصرون لعلى والقائلون بتفضيله إلى الأقران الذين قتلهم فأطروهم وغلوا فيهم وليسوا هناك . فنهم عمرو بن عبد ود ، زكوه أشجع من عامر بن الطفيل ، وعتيبة ابن الحارث ، وبسطام بن قيس . وقد سمعنا بأحاديث حروب الفجار وما كان بين قريش ودوس وحلف الفضول فاسمعت لعمرو بن عبد ود ذكرا فى ذلك » . ورد عليه بالمناقضة رقم (٢٣) .

(٣) فى الأصل : « ولو قيل » بالإهمال . وعند ابن أبى الحديد ٤ : ٢٨١ : « وقد أكثروا فى الوليد بن عتبة بن ربيعة قتيله يوم بدر » .

**) هذه الفقرة موضع الرد رقم (٢٤) .

جميلاً ، وكان قصداً مقبولا ، ولـكنّـكم أخرجتموه من حدّ الشجاعة ، وظننتم أنّ السَّرَف أمثَلُ وأجلّ .

وزعمتم أنّ الذى(١) مَنعَ العربَ وقريشاً أن تجعله الخليفةَ بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم أنّه كان قتَلَ أبناءها وإخوتَها وأعمامها ، وما يُعلَمُ موضعُ رجلٍ واحد يومَ تُوفِّىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم تَسمع له الخاصّةُ والعامّة وتَرى له طاعةً ، قتَلَ علىٌّ أباه أو ابنــه أو أخاه ، غير أبى سفيان بن حَرب ، فقد كان علىٌّ قتل ابنه حنظلة ، وما كان أحدٌ من عِلْيَة قريشٍ والعربِ أقربَ إلى أن يُخالِفه فى الحقّ والباطل فى ذلك الدّهر من أبى سفيــان ، وقد كان أكرهَ النّاسِ لأبى بكر حينَ قال لبنى هاشم وبنى أميّة : « رضيتم معشَرَ بنى عبد مناف أن يلِىَ أمورَكم رجلٌ من بنى تَيم » . فإذا كان الذى قتَلَ علىٌّ ابنَه هو الذى أظهر كراهيةَ أبى بكرٍ من بين الناس فـكيف حوّلتم القَضِيّة وقَلَبتم المعنى ؟ !

فإن ذكَروا أبا حذيفةَ بنَ عتبة لأنّ عليا قتَل أخاه ، قيلَ : أيَـكونُ أبو حذيفة ممّن أبَى عليًّا بهذه العلّة ، وأبو حذيفةَ شهد بدراً فقاتلَ أباه وأخاه وعمَّه ، واحتملت نَفْسُه وعزمُه وصحّةُ إسلامه هذا الصّنيعَ ثمّ يجزعُ مِن أقلّ منه بعــدَ الزّيادة فى الاستبصار ، وبعد طُول الدّهر ومَوت الأحقاد ؟ ! وهذا ما لا يُشبِه ولا يجوز . وكيف يجوزُ ذلك عليه وهو من المهاجرين الأوّلين ، والسابقين الأوّلين ، وشهد بدراً والمشاهدَ كلَّها ، وقُبِض النبىُّ صلى الله عليه وهو عنه راضٍ ، واستُشهِـدَ يومَ اليمـامة ولواء المهاجرين فى يده .

---

(١) فى الأصل : « النبى » تحريف .

وكيف يُظَنُّ هذا بأبى حذيفة ولم يُروَ عنه فى كراهية علىٍّ حرفٌ قطُّ ، ولا قَبضَ لذلك وجهاً ولا أظهرَ تعجُّبا ؟ !

وكيف يُظَنُّ هـذا بالبَدريِّين والمهاجرين الأوَّلينَ وَمنعُ علىٍّ القيامَ بأمر النَّاس على هذا الوجهِ وعلى هذا المعنى كُفرٌ بالله ورسوله . وكيف يَضْطغِنُ امرؤٌ على علىٍّ ويُسلِمَ قلبُه لرسول الله صلى الله عليه ؟ ! لأنَّه إن كان يعتدُّ صنيعَ علىٍّ ذَنْباً حـتّى يولِّد له حقداً والذى تفرد[1] على بذلك أعظم ذَنْباً وأجدرُ أن يولِّد حقدا . وهذا أفحش قُبحاً ، وأبيَنُ خطأً من أن يُحوِجَنا إلى[2] كشفه وتبيينه .

وكيف يجوز هذا على أبى حذيفة ولا نعلم رجلاً فى الأرض أبعدَ من حمِيّة الجاهليّة منه ، ولا أسمحَ نفساً بما وافق كتابَ الله منه . ولقد بلغ من إخلاصه ورسوخ الإسلام فى قلبه ، وحُبِّه علَيه وبِغْضَته فيه أنْ طرحَ كلَّ ما سواه ، وأحرجَه ذلك إلى أنْ زوَّج أختـه فاطمة بنتَ عُتبة ابن عبد شمس[3] ، بن سـالم مولى أبى حذيفة ، وقال له : واللهِ إنِّى لأزوِّجُـكَها وأعلم أنّك خيرٌ منها ! ! فعاتبه على ذلك بعضُ مَن نـكْرَهُ ذِكره فقال : أفِى سالمٍ تعاتبنى وقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَن أراد أنْ ينظر إلى رجلٍ يحبُّ اللهَ بكلِّ قلبه فلينظر إلى سالمٍ .

---

(١) كذا وردت هذه العبارة .

(٢) فى الأصل : « على » .

(٣) هذا اختصار فى النسب ، وإنما هى فاطمة بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . على أن فى الـكلام خطأً تاريخيا ، فإن أبا حذيفة إنما زوج سالما ابنة أخيه فاطمة الوليد بن عتبة ، كما فى ترجمة سالم فى الإصابة ٣٠٤٦ وترجمة فاطمة فى الإصابة ٨٥٢ من قسم النساء . وكان أبو حذيفة قد تبنى سالما يرى أنه ابنه . وأما فاطمة بنت عتبة أخت أبى حذيفة بن عتبة فهى عمتها .

(*) مع أنَّ لأبى بكر من حُسن الأثر فى حروب النبى صلى الله عليه ومن احتمال المكروه وتجرُّع المُرار ماليس لأحدٍ .

(* من ذلك أنَّ أبا بكر خرجَ إلى ابنه عبد الرحمن بن أبى بكر ليبارزَه يوم أُحد ، لأنَّ عبد الرحمن طلَع يومَ أُحد على فرس وهو مُكفَّر فى السِّلاح لا يُرى منه إلَّا عيناه وهو يقول : [هل[1]] مِن مبارز ! ! ثلاثاً ، كلَّ ذلك يقولُ : أنا عبد الرحمن بن عتيق . فنهض أبو بكر يَسعَى إليه بسَيفه ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم حين رأى غضبَه وحِدَّته ، وعرف الذى عليه من الشِّدَّة فى قتل ابنه : « شِمْ سيفَك وارجِع إلى مكانك ومتِّعنا بنَفْسك*) » .

(** وإنَّما يمكن أبا بكرٍ بذلُ الجهد ، فإذا فعل ذلك فلا حالَ أفضلُ من حاله**) .

فاجتمع له فى ذلك أمران : أحدهما الثَّواب على شدَّة الاحتمال ، والثانى صيانة النبى صلى الله عليه وإشفاقه عليه .

(*) نقل ابن أبى الحديد فى ٣ : ٢٨١ نصا من العثمانية لعل موقعه قبل هذا . وهو : « قال الجاحظ : وقد ثبت أبو بكر يوم أحد كما ثبت على ، فلا فخر لأحدهما على صاحبه فى ذلك اليوم » .
ثم رد عليه بالرد رقم (٢٥) .

(١) التكملة من ابن أبى الحديد ٣ : ٢٨١ .

*) شام سيفه يشيمه : رده إلى قرابه . وانظر رد الإسكافى على هذه الفقرة فى رقم (٢٦) .

**) أورد الإسكافى هذه العبارة بهذه الصورة كما نقل ابن أبى الحديد ٣ : ٢٨١ . « قال الجاحظ : على أن أبا بكر وإن لم تكن آثاره فى الحرب كآثار غيره فقد بذل الجهد وفعل ما يستطيعه وتبلغه قوته . وإذا بذل المجهود فلا حال أشرف من حاله » .
ثم رد عليها بالرد رقم (٢٧) .

وقولُه « ارجع إلى مكانك ومتِّعنا بنفسك » ، فليس فى الأرض معنًى شريف فاضلٌ من معانى الدِّين والدُّنيا إلَّا وهو فى هذه الكلمة .

وأبو بكر الذى لمَّا رُمِىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم فى يومِ أُحد أقبل يسعَى وإذا إنسانٌ قِبَلَ المشرق يطير طيراناً ، فلما رآه أبو بكر قال : اللَّهمَّ اجعلْه طلحة ! فلما تَوافيا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذا هو أبو عبيدة ابن الجراح ، فبدره أبو عُبيدة وقال : أسألك بالله يا أبا بكرٍ إلَّا تركتَنى فولَّيتنى نَزْعَها — يعنى حدائد الزَّرَد اللواتى نَشِبْن فى وَجْهه [و] جبينه من المِغفر — فقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : عليكُم صاحِبَكم ! يعنى طلحة .

وثَرِم أبو عبيدة يومئذٍ من نزع حلْقةٍ امتنعَتْ عليه .

ولِصنيع طلحةَ وأبى بكر وموقفِهما قالوا : « يومُ أُحد لبنى تَيم ! » ؛ لأنَّ الذين صَبَروا مع النبىِّ صلى الله عليه من المهاجرين والأنصار سبعةٌ : أبو بكر وطلحةُ من تَيم ، وعبد الرحمن بن عوف من بنى زُهرة ، وعلىٌّ من بنى هاشم ، والزُّبير من بنى أسد ، وأبو عبيدة من بنى عامر . وإنما قالوا « يومُ أُحد لبنى تيم » لأنَّه لم يكن من كل قبيلةٍ إلَّا رجلٌ واحد من المهاجرين ، وكان فيه رجلان من بنى تيم كما ذكرنا .

وكان من الأنصار سبعة : الُحبَاب بن المُنذر بن الجموح ، وأبو دُجَانة ، وعاصم بن ثابت بن أبى الأقلح ، والحارث بن الصِّمَّة ، وسَهلْ بن حُنيف وأُسَيْد بن حُضَيْر ، وسعد بن مُعاذ .

وأبو بكرٍ أوّلُ من تكلَّم يوم بدرٍ وحثَّ الناس على الجهاد .

وأبو بكر الذى لمَّا قال النبىُّ صلى الله عليه يوم الحديبية : « كيف تَرونَ

يا معشر المسلمين فى هؤلاء الذين قد[١]... إلينا مَنْ أطاعَهم ليصُدُّونا عن المسجد الحرام » قام أوَّلَ النَّاس فقال : نرى — والله ورسولُه أعلم — أن نمضىَ لوجهنا ، فمَنْ صدَّنا عن البيت الحرام قتلناه .

وأبو بكر الذى لما أتى بُدَيْل بن ورقاء الُخزاعىّ يوم الحديبية فى نفرٍ من أصحابه ، فأقبل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، لقد اغتررتَ بقتال قومك وإنَّ قريشاً ستقاتلكم عن ذَرَاريهم وأموالهم ، قد استَنفروا الأحابيش وخرجوا إلى بَلْدَح[٢] ، معهم العُوذُ المطَافيل ، والله ما أرى مَعك أحداً له وجه ، مع أنِّى أراكم قوماً لا سِلاح لكم ، ولو قد عَضَّ هؤلاء الحديدُ لقد أسلموكم . قال أبو بكر : عضَضْتَ ببَظْر اللّات ، أنحن نُسلِمه ؟! قال له بُدَيْل : أمَا واللهِ لولا يدٌ لك عندى لأجبتك ، والله إنِّى وقومى لنحبُّ أنْ يَظْهَرَ محمَّد !

وأقبل عُروةُ بن مسعودٍ فى نفَر من قَومه حتَّى أناخ راحلتَه عند النبىِّ صلى الله عليه وسلم وقال : إنى تركتُ كعباً وعامراً على أعداد الحُدَيبية[٣] معهم العُوذ المطَافيل ، وما أرى معك أحداً أعرِفُ وجهَه ونسبَه ، وإنَّهم لَخُلقاء أن يَخذُلوك — والقومُ سُكوت — فغضِب أبو بكر وقال : امصَصْ ببَظْر اللّات[٤] ، أنحن نخذله ؟! قال عُروة : أمَا والله لولا يَدٌ لكَ عندى

---

(١) كذا ورد فى الأصل .

(٢) بلدح : واد قبل مكة من جهة المغرب . وانظر إمتاع الأسماع ٢٧٩ — ٢٨٠ .

(٣) أعداد : جمع عد بالكسر . وفى اللسان : « وفى الحديث : نزلوا أعداد مياه الحديبية ، أى ذوات المادة كالعيون والآبار » . فى الأصل : « عداد » تحريف .

(٤) فى السيرة ٧٤٤ وعيون الأثر ٢ : ١١٦ : « بظر اللات » .

لأجبتُك ! وكان عروةُ قد استعملان فى حَمَالةٍ ، فكان الرّجلُ يُعينهُ بالفريضتين والثلاث ، فمشى إلى أبى بكرٍ فأعطاه عشر فرائض[١] .

ألا ترى كثرةَ أياديه ونُبلَه وامنما[٢] ، وحَدَّه وشهامته ورياسته ؟! فبهذا وأشباهه يعرف قدرَ الرجُل بمكّة وفى قومِهِ ، وعند النبيّ صلى الله عليه وسلم وجماعةِ أصحابهِ .

ولو لم يُعلَم من شدّة قلبه وصواب رأيه وقوّة عزْمه وقلّة وَحْشته ويُمْن بركَته إلّا أنّ كبار المهاجرين دخلُوا عليه ، منهم عمر وعثمانُ وأبو عبيدة ، وسعد بن أبى وقّاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل فى جمعٍ كثيفٍ من المهاجرين ، فقالوا بأجمعهم : ياخليفةَ رسول الله ، إنّ العرب قد انتقضت عليك ، وإنك لن تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً ، اجعلْهم عُدّةً لأهل الرِّدّة ترمى بهم نُحورَهم ، وأخرى أنّا لا نأمن على المدينة أن يُغارَ عليها وفيها الذّراريُّ والنِّساء ، فلو استأنيت بغزْو الرُّوم حتّى يَضرِب الإسلامُ بجرانه ويعودَ أهلُ الرِّدّة إلى ما خرجوا منه [أ]وْ يفْنيَهم السّيف ، ثم تبعثَ أسامةَ حينئذٍ ، فتكونَ قد أنفذتَ الجيش كما أمَرَ النبيّ صلى الله وعليه وسلم وقد دفعتَ بهم أهلَ الرِّدّة ، ولأنّا نخاف الرومَ أن تزحف إلينا يومَنا هذا .

فلما استوعَبَ أبو بكرٍ كلامَهم قال : هل منكم أحدٌ يريد أن يقول شيئاً ؟ قالوا : قد سمعتَ مقالتنا . قال : والذى نفسِى بيده لو ظننتُ أنّ السِّباعَ تأكلُنى لأنفذتُ هذا البعث ، ولا بدأت بأَوْلَى منه ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم ينزلُ عليه الوحيُ من السّماء وهو يقول : أنفذُوا جيش أُسامة .

(١) أصل الفريضة البعير المأخوذ فى الزكاة ، ثم اتسع فيه فسمى كل بعير فريضة .
(٢) كذا وردت هذه الكلمة .

فلمّا رأى إبطاءهم عن ذلك وتلكؤهم خرجَ وحده مغضَباً نحو أهلِ الرِّدّة حتّى لحِقه المهاجرونَ والأنصارُ فى المسلمين ، فقالوا : تُكفَى ياخليفة رسولِ الله ، ونَنفذُ لأمرِك ، والصّوابُ ما رأيت .

فلو لم تعلم من شدّة قلبه واجتماعِ رأيه وقلّة وحشته إلّا هذا كان كافياً .

وأبو بكرٍ الذى ولّاه النبيُّ صلى الله عليه يومَ حُنينٍ مَيمنتَه ، وولّى عُمرَ ميسرتَه . فلم يكن النبيُّ صلى الله عليه ليستكفِيَهما أهمَّ المواضع إليه وهما لا يكفيانه .

ولقد انكشَفَ النّاس وثبتا فى مواضعهما ، وكان أقربَ القوم إلى النبى صلى الله عليه وسلم يومئذ — إذ كان لابدّ لصاحب الميمنة والميسرة من أن يكون أبعدَ ممّن يكون فى القلب — أبو سفيان بن الحارث ، والعبّاس بن عبد المطّلب ، والفضل بن عباس ، وربيعة بن الحارث ، وأيمَن بن عُبَيد[1] أخو أسامةَ بنِ زيدٍ لأمّه وصَبَرَ مع النبى صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء مائةٌ وثلاثة وثلاثون من المهاجرين ، وسبعةٌ وستّون من الأنصار .

وممّا نعرف به شدّةَ شكيمته وصدقَ وصرامةَ رأيهِ قولُه للمسلمين يومَ توفّى النبى صلى الله عليه وسلم حيث قامَ خطيباً وبالمدينة منافقون لا يألُونهم خَبالاً يَعَضُّون عليهم الأناملَ من الغيظ ، وقد انتقض ما حولَ المدينة ، فكان ممّا قال فى خُطبته :

---

(١) فى الأصل : « أيمن بن عبد الله » ، صوابه فى السيرة ٨٤٥ والإصابة ٣٩١ وامتاع الأسماع ٤٠٧ .ويسمى أيضا « أيمن بن أم أيمن » .

مَن كان يعبدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت ، فليعبده . ومَن كان يعبدُ محمداً أو يراهُ إلهاً فقد هلَكَ إلٰهه . فاتَّقوا الله أيُّها النّاس ، واعتصموا بدينكم ، وتوكّلوا على ربِّكم ، فإنَّ دينَ الله قائم ، وكلمة الله قائمة ، واللهُ ناصرٌ مَنْ نَصَره ، ومعزٌّ دينَه . وإنَّ كتابَ الله بين أظهُرِكم ، وهو النُّور والشِّفاء ، وبه هَدَى الله محمداً ، وفيه حَلَال الله وحرامُه .

ثم قال : واللهِ ما نُبالِي مَن أجلَبَ علينا مِن خلْق الله . إنَّ سيوفَ الله المسلولةَ ما وضَعْناها عن عواتقنا ، ولنُجاهدَنَّ مَنْ خالَفَنا ، فقدْ جاهَدْنا مع رسول الله صلى الله عليه ؛ فلا يُبقِيَنَّ مُبقٍ إلَّا على نَفْسه .

وإنّما قال : « من كان يعبدُ محمداً أو يراه إلها فقد هلك إلهُهُ » لأنّه كان سمِعَ من عثمانَ بن عفّان وعمرَ بنِ الخطاب فى ذلك كلاماً قبيحا حتّى ماجَ النّاسُ فى ذلك وقالوا : والله مامات ، ولكنَّ الله رفَعه كما رفع عيسى بنَ مريم ، فى كلامٍ سنذكره بعدَ هذا إنْ شاء الله[1] .

ومما يدلُّ على خاصَّةِ مكانِه وتقديم النّاسِ له ، ومعرفةِ الجميع لفضْله ، الذى كان مِن صنيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومِن صنيع جميع المسلمين ، ومِن صنيع كُفّار قريش به ، حيثُ فزِعَتْ إليه فى أمر أسارى بدرٍ دون غيره ، لأنّهم لما حُبِسوا ببدر واقترع المسلمون عليهم طمِعوا فى الحياة ؛ فقالوا بأجمعهم : لو بعثْنا إلى أبى بكر فإنّه أوصَلُ قريشٍ لأرحامنا ، ولا نعلم أحداً آثَرَ عند محمدٍ منه ! فبعثوا إلى أبى بكر فأتاهم فقالوا : ياأبا بكر ، إنَّ فينا الآباء والأبناء ، والإخوان والعمومة ، وبنى العَمّ ، وأبعَدُنا قريب ، فكلِّم صاحبَك يمُنُّ علينا أو يُفادينا . قال : نَعَم لا آلُوكم إن شاء اللهُ خيرا ! ثم انصرف إلى النبىِّ صلى الله عليه .

(١) انظر ص ٧٩ — ٨١ .

فقالوا : ولو بعثنا إلى عمر ، فإنّا لا نأمن أن يُفسِد علينا ، فلعلّه أنْ يَكُفّ عنا شرّه ! فأرسَلُوا إليه فجاءهم ، فقالوا مثلَ قولِهم لأبى بكر ، فقال : لا آلُوكم إن شاء الله شرًّا ! ثم انصرف إلى النبىّ صلى الله عليه ، وإذا النّاسُ حولَ النبىّ ، وأبو بكر يفثؤه[1] ويلينّه وهو يقول : يارسولَ الله ، بأبى أنتَ وأمّى ، قومُك فيهم الآباء والأبناء ، والعمومة والإخوان ، وبنو العمّ ، وأبعدُهم منك قريب ، فامنُن عليهم مَنّ اللهُ عليك ، أو فادِهم يستنقذْهم الله بكَ من النّار ، فما أَخَذْتَ منهم فهو قوّةٌ للمسلمين ، ولعلّ الله أن يُقبل بقلوبهم !! ثمّ قام فتنحّى ناحيةً وسكتَ النبىُّ صلّى الله عليه وجاء عمرُ فجلسَ مجلسَ أبى بكر فقال : يا نبىّ الله ، هم أعداء الله كَذّبوك وقاتلوك وأخرجوك ، اضرِبْ أعناقَهم فإنّهم رءوس الكفر ، وأئمّة الضّلالة ، يعزّ الله بذلك الإسلامَ ويذلّ الشّرك !! فسكت النبىُّ صلى الله عليه وسلم وعادَ أبو بكرٍ إلى مجلسه وإلى مثلِ ذلك الكلام ، ثمّ تنحّى وقام عمرُ فجلس مجلسَه وأعاد مثلَ الكلامِ الأوّل ، ثمّ تنحّى عمر وجلس أبو بكر ، ثلاثَ مرّات . فسكتَ النبىُّ عليه السلام ، ثمّ قام فدخَلَ قُبّتَه فمكث ساعةً وخرجَ والنّاسُ يخوضون ، يقولُ بعضُهم : القولُ ما قال أبو بكر ، وبعضهم يقول : القول ما قال عمر . فخرجَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم فقال : ما تقولون فى صاحبيكم ؟ دعُوهما فإنّ لهما مثلاً : مثلُ أبى بكر فى الملائكة مثلُ ميكائيل ينزِل بالرّضا والعَفو ، ومثَلُه فى الأنبياء مثلُ إبراهيمَ كان أليَنَ على قومه من العسل ، أوقَدَ له قومُه النّار فطرحوه فيها ، فما زاد على أن قال : «أفٍّ لكُمْ

---

(1) يفثؤه : يسكن غضبه . ورسمت فى الأصل « يفثاؤه » .

وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ » . وقال : « فَمَنْ تَبِعَنِى فإنه مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيم » . ومثلُه كَمَثل عيسى إذ يقول : « إنْ تعذِّبْهم فإنَّهم عِبادُك وإنْ تَغْفِرْ لهم فإنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيم » . ومَثَلُ عمرَ فى الملائكة مثَلُ جبريلَ يَنزِل بالسُّخط من الله والنِّقْمة . ومثَله فى الأنبياء مثلُ نوحٍ كان أشدَّ على قومه من الحجارة إذْ يقول : « ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيَّارا » . فدَعَا عليهم دَعوةً أغرَقَ اللهُ بها الأرضَ جميعا . ومثَلُه مثلُ موسى إذ يقول : « ربَّنَا اطمسْ عَلَى أموالهم واشدُد على قُلوبِهِمْ فلا يُؤْمِنوا حَتّى يَرَوُا العذابَ الأليم » . فهذا يدلُّ على أنّه كان المَفْزَعَ والشَّفيع ، والخاصَّةَ والثِّقَةَ وموضعَ الفضيلة .

وقَبْلَ ذلك لمَّا قصَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى أهل مكّة كيف أُسْرِىَ به ، قالت قريشٌ على التكذيب له صلى الله عليه : واللهِ إنَّ العِير لَتَطَّرِد شهراً من مكة إلى الشام ثمّ يكون إقبالُها شهراً[1] ، وزعم محمد أنّه مضَى إلى بيت القدس ورجَعَ من ليلته !! فأتوا بأجمعهم أبا بكرٍ ليحتجُّوا بذلك عليه وليعرِّفوه خطأَه فى اتِّباعِه عند أنفسهم ، وظنُّوا أنَّ الجواب فى ذلك يمتنعُ إذْ كان قد امتنَعَ عليهم . فأتَوا أبا بكرٍ فقالوا : هلَك صاحبُك ! — ألاَ ترى أنّه المذكور بالصُّحبة ، وموضعُ الحاجة ، وأنّه المُبتدأ والمَفْزَع — زعَم أنّه أتى بيتَ القدس فى ليلةٍ وغدَا علينا !! قال أبو بكر : إنّكم تكْذبون عليه ، ولئن كان قالَه لقد صدَق ، فما تَعجَبون من ذلك ؟ ! فواللهِ إنّه ليُخبرنا أنَّ الخبر يأتيه من السّماء

---

(١) فى السيرة ٢٦٤ : « إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهرا مقبلة » .

إلى الأرض فى ساعةٍ من ليلٍ أو نهار فأصدِّقه . فهذا أبعد من مِصر[١] . ثم نهضَ أبو بكرٍ إلى النبيِّ صلى الله عليه ليسألَه عن القضيّة ، فأقبلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يصِف له وهو يقول : صدقتَ صدقتَ ! أشهد أنك رسول الله ! قال النبي صلى الله عليه : وأنت الصِّدِّيق ! وقد كان أبو بكرٍ الصِّدِّيق أتى الشامَ وعرفَ طرقَها وأمورها ، وقلَّبَها وعرفَ جميع مافيها .

ثم الذى كان مِن تقديم النبي صلى الله عليه له والمسلمين فى قَضِيَّة الحديبِية . وذلك أنَّهم كتبوا كتاباً :

هذا ما اصطلَحَ عليه محمّدُ بنُ عبد الله وسهيلُ بن عمرو . اصطلحا على وَضْع الحرب عَشْرَ حججٍ يأمَنُ فيها النّاسُ ويكفُّ بعضهم عن بعض . على أنه لا إسلالَ ولا إغلال[٢] ، وعلى أنَّ مَن أحبَّ أن يدخُلَ فى عَقْد محمد وعهده فعَلَ ، ومن أحبَّ أن يدخل فى عَقد قريش وعهدِها فعل ، وعلى أنّه من أتى منهم محمداً بغير إذْنِ ردَّه ، ومن أتَى قريشاً من أصحاب محمد لم تردَّه ، وعلى أنَّ محمداً يرجِعُ عامَهُ هذا بأصحابه ، ويدخُل عليهم قابلاً[٣] فى أصحابه فيقيم ثلاثاً ، لا يُدخِل علينا السِّلاحَ إلّا سلاحَ المسافر ، السُّيوف فى القُرُب . شهد أبو بكر بن أبى قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عُبيدة بن الجرّاح ، ومحمد بن مَسلَمة[٤] . وشهد حُوَيطب بن عبد العُزّى ومِكْرَزُ بن حَفْص بن الأَخْيف .

---

(١) فى الأصل : « أنفد من مصر » . وفى السيرة : « أبعد مما تعجبون منه » .

(٢) الإسلال : الغارة الظاهرة بسل السيوف . والإغلال : الخيانة والغدر .

(٣) أى فى العام القابل .

(٤) وكذا فى إمتاع الأسماع ٢٩٨ . وفى السيرة ٧٤٩ وعيون الأثر ٢ : ١٢٠ « محمود ابن مسلمة » . وهما أخوان .

ألا تَرَى أنَّه كانَ أولَ شاهدٍ من المسلمين فى صَدْر الكِتاب ، والناس كلُّهم بَعده .

ونَحَر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجَمَل عن سَبْعة[(١)] . فأوَّل خلق الله سمِّى أبو بكر ، ثم عمر ، ثم فلان ثم فلان . فهذا هذا .

ثم لمَّا تحاجَزَ النَّاسُ يوم أُحدٍ وأراد أبو سفيان الانصرافَ أقبلَ يسير على فرسٍ له أنثى قد أشرفَ على أصحاب النبىِّ صلى الله عليه فى عُرْض الجبل يُنادِى بأعلَى صوته : أينَ ابنُ أبى كَبْشة ؟ يعنى النبىَّ صلى الله عليه وسلم . أينَ ابنُ أبى قُحافة ؟ أين ابنُ الخطَّاب ؟ يوم بيوم بدر . ألاَ إنَّ الايَّام دُوَلٌ والحرب سِجال ، وحنظلةُ بحنظلةَ ! ![(٢)] قال عمر : ألا أجيبُه يارسول الله ؟ قال : بلى . قال أبو سفيان : أعْلِ هُبَل[(٣)] ! قال عمر : الله أعلى وأجلّ . قال أبو سفيان : لنا عُزَّى ولا عُزَّى لكم ! قال عُمر : الله مولانا ولا مولَى لكم .

فلو لم يكن أبو بكرٍ أفضلَ مَن شهد أحداً وأنبهَ ، أو أغيَظَ لأبى سفيانَ والمشركينِ ، ما جعلَه أبو سفيانَ — وهو رئيس القوم — ثانياً ، والذى يتلو النبى صلى الله عليه فى النِّداء والمخاطبة ، حين يقول : أين ابنُ أبى كبشة ؟ ثم يقول : أين ابن أبى قحافة . فهذا هذا .

---

(١) هذا الجمل هو جمل أبى جهل ، كان قد غنمه يوم بدر . إمتاع الأسماع ٢٧٥ ، ٢٩٩ — ٣٠٠ والسيرة ٧٤٩ وعيون الأثر ٢ : ١٢١ .

(٢) يشير إلى ما كان من مقتل ولده حنظلة بن أبى سفيان فى وقعة بدر ، ومصرع حنظلة ابن أبى عامر غسيل الملائكة حين لقيه فى غزاة أحد ، فلما استعلاه حنظلة بن أبى عامر لحقه شداد ابن الأسود فضربه شداد فقتله . فهو يذكر ثأره لولده . انظر السيرة ٥٠٧ ، ٥٦٧ — ٥٦٨ وإمتاع الأسماع ١٥٨ ، ١٤٩ .

(٣) هبل : صنم مشهور . أعل هبل ، أى أظهر دينك . السيرة ٥٨٢ والميسر والأزلام لمحقق العثمانية ص ٦٨ .

وفى نزول أبى بكر قبر حمزةَ قبل كلِّ نازلٍ بأمر رسول الله صلى الله عليه دليلٌ على الفضيلة والنَّباهة ، والقَدْر والوزارة .

ولمَّا دخل أبو سفيانَ المدينةَ أتى النبيَّ صلى الله عليه وقال : يا محمد إنِّى كنتُ غائباً فى صُلح الحديبية فاشدُد العَهدَ وزِدْنا فى المُدّة . قال أو لذلك قدمتَ يا أبا سفيان ؟ قال : نعم . قال : فهل كان فيكم من حَدَث ؟ قال : مَعاذ الله . قال النبى صلى الله عليه وسلم : فنحن على مُدَّتنا وصُلْحنا ، لا نبدِّلُ ولا نَغدِر . فلما خرجَ من عنده بدأ بأبى بكر(١) فقال له : هل لك إلى أن تُجيرَ بين النَّاس ؟ قال أبو بكر : جِوارى فى جِوار رسول الله . ثمَّ خرجَ مِن عِنده فأتى عُمرَ فكلَّمه بمثل ذلك ، قال عمر : إنِّى لو وجدت الذَّرَّ تُقاتِلكم لأعَنْتُها عليكم ! قال أبو سفيان : جُزِيتَ مِن ذى رَحمٍ شرّاً ! ثم أتى عثمان ، ثم أتى فاطمة ، ثم أتى عليّا .

ألاَ تَرى كيف جعلوه المَقْصِد والمعتمد قبلَ الناسِ وبعدَ رسول الله صلى الله عليه . ولو لم يكن حالُ عند أبى سفيان من النبىِّ صلى الله عليه فوق كلِّ حالٍ ما بدأ به قبل جميع مَن نزع إليه . فهذا هذا .

ثم الذى كان مِن تقريب النبىِّ عليه السلام ، وإكرامه له يومَ فتح مكَّة ، وهى الدَّارُ التى خَرجا منها هاربَين معاً ثمَّ رجعا إليها آمنَين معاً ، يتسايران ويتحدَّثان ، حيثُ طلَع النبى صلى الله عليه وسلم على العبَّاس وأبى سفيان ، والنبىُّ عليه السلام بين أبى بكرٍ وأُسَيْد بن حُضَير ، أبو بكر عن يمينه . وقبلَ ذلك فى الطريق كان بين أبى بكر وعمر ، أبو بكر عن يمينه

---

(١) كان قد دخل قبل ذلك على ابنته أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول طوته دونه . إمتاع الأسماع ٣٥٨ . وفى السيرة ٨٠٧ أنه دخل أول الأمر على ابنته ، ثم ثنى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بأبى بكر .

وعمر عن يساره . فلمّا صارت الخيلُ بذِى طُوًى بين الخَندَمة إلى الحَجُون ، مرّ النبي صلى الله عليه وأبو بكر يُسايِره وَحْدَهُ ، وإذا بناتُ أبى أحيحة قد نَشَرن شُعورهنّ يَلطمن وجوهَ الخيل بالْخُمُر ، فنظر النبي صلى الله عليه إلى أبى بكر وتبسّم وقال : كيف كان قال حسّان :

* يُلَطِّمُهنّ بالخُمُرِ النّساء *

قال أبو بكر :

* تَظَلُّ جِيادُنا متمطِّراتٍ *

فهذه حالُه وخاصّتُه ومكانُه وارتفاعُ قدره . ألا تَراهما خرجا من مكّةَ هاربَين مستخفِيَين مصطحبَين ، ثمّ رجعا آمنَين ظافرين مُمِلَّين مصطحبين .

وصعِد أبو قُحافَةَ الجبلَ بصُغرى بناته وهو يومئذٍ مكفوف ، فبكت بنته فقال لها : لا تخافى فإنّ أخاكِ عتيقاً أكبر النّاسِ عنده ! فلمّا دخلوا مكّة أقبل أبو بكر بأبيه وهو يومئذ شيخٌ مكفوف له غَديرتانِ ، كأنّ رأسَه ثَغَامة[١] حتّى هجَمَ به على النبي صلى الله عليه وقال : أتيتك بأبى يا رسولَ الله ليُسلِم . قال النبي صلى الله عليه : هلاّ تركتَ الشّيخ فى رحلِه حتّى آتيَه . فمسحَ النبيُّ صلى الله عليه يدَه على صدره ، ودعاه إلى الإسلام فأسلم .

وهذا كلّه يدلُّ على تقديم النبي صلى الله عليه له .

كما نقلَ الفقهاء أنّ النبي صلى الله عليه أُتِيَ بِعُسٍّ من لبَنٍ وهو فى أصحابه ، وأبو بكر عن يساره ورجلٌ من الأعراب عن يمينه ، وأصحابه قد أحبُّوا سُؤره[٢] ، فشرِب النبيُّ وأهوى بالقَدح نحو الأعرابىّ . قال عمر :

---

(١) الغديرة : الذؤابة . والثغام ، بالفتح : نبت أبيض يشبه به الشيب .

(٢) رسمت فى الأصل : « قد أحبو سورة » .

أبو بكر يا رسول الله ! قال النبي صلى الله عليه : الأيمنَ فالأيمنَ[١] .

ولم ينقلوا هذا الحديثَ ليُخبروا عن فضيلةِ أبى بكر ولا عن قُرْب مَقعده ولا عن تقديم عمرَ له ، ولا أنّ عادة النبي صلى الله عليه وسلم كانت التّقديمَ له ، ولا قال عمر ذلك على التّذكير له ، وإنّما أرادوا أن يخبروا عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم فى الشّرب ، وعن فضيلة اليمين على اليسار ، وعن التّعريف لحرمة المجلس .

ولو كان هذا الخبر فى علىٍّ وعثمانَ ما كان الأمر إلاّ كما أخبروا أنّهم لم يَقصِدوا فى الحديث إلاّ تفضيلَ اليمين على اليَسار .

فإنْ قالوا : فإنّ عليّا كان أفقهَ من أبى بكرٍ وأعلمَ بالحرام والحلالِ منه . والدّليل على ذلك أنّ كثرةَ ما نقلوا إلينا من اختياراته وأقاويله فى الحادثات ، من الحلال والحرام ، وأبواب الفقه والفُتْيا والتّأويل ، مع كثْرة الرّواية المسنَدة ، وكان يُسأل ولا يَسأل ، ولم يرجع عن شىء قطّ وليسَ أحدٌ من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إلاّ وله رجعةٌ وأكثرُ من ذلك ، ولم يُسمَع لأبى بكرٍ بفُتْيا كثيرٍ ولا كثيرِ رواية ، ورأسُ الدّين الفقهُ فيه والعلمُ به . فلمّا كان أبو بكرٍ وعلىٌّ بن أبى طالبٍ على ما وصفنا وذكرنا ، علمنا أنّ أفقههما أفضلُ فضلاً وأولى بالإمامة ، لأنّ عملَ الفقهِ أفضلُ من غيره ، لأنّ أوْلَى الناس بالمسلمين أعلمُهم بدينهم ، لأنّ من علمَ الدّين لم يجهلْ أمرَ الدّنيا ، لأنّ أمور الدّنيا مياسَرة أو شبيه بعلم المياسرة ، وعلم الدّين مستنبَط ، وتأويلُه غامض .

قالت (العثمانيةُ) عند ذلك : أمّا العدل والقسط فأنْ ننظرَ يومَ تُوفّى النبي صلى عليه وسلم ، وأبو بكرٍ وعلىٌّ حيّانِ ظاهرٌ أمرُهما ، معروفٌ قدرُهما

(١) روى من حديث أنس بن مالك فى صحيح البخارى فتح البارى ١٠ : ٦٦ ، ٧٥ .

واحتمالها للعلم والعمل . فلعمرى لئن كان لعلىٍّ من طُول الصُّحبة وكثرةِ السّماع ومفاوضة الرّسول الأ [مر] ، والمعرفة ، وكثرةِ الإرشادِ للأُمة وصحّة الرأى وكثرة الصّواب ، وكان النّاسُ إليه أشدَّ فزعاً ، [و] ظَهرَ من روايته وحاجة الناس إلى فقهه فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيّام وفاته وأيام أبى بكر ، أكثرُ ممّا ظهر من أبى بكر فى ذلك الدهر ، إنّهُ لأفقهُ منه فى الدّينِ وأعلم بأبواب الدُّنيا .

[و] لئن كان إنّما كثُر ممّا نقل الناسُ عنه لأنه عاش والحادثاتُ تحدُث ، وبقى حتّى كان يُستفتَى ويُفتى ويُسأل ويُجيب ، ويَروى عنه فى الزمان الذى كان يُستفتَى فيه مثلُ أبى هريرة ، وأنسِ بن مالك ، وابنِ عُمَر ، وابن الزُّبير ، وعبد الله بن عَمرو ، فكان ذلك منه أيام أبى بكر وهى سنتان ، وأيّامَ عُمر وهى عشر سنين ، وأيّام عثمان وهى اثنتا عشرة سنة ، وأيّام نفسه وهى خمس سنين ، فليس فى ذلك حُجّةٌ ولا دليل ؛ لأنّك تُحصى ما يقول الرّجلُ فى الدّهر الطويل مع كثرة الحادثات ، وما يقول الرجل فى الدّهر القصير مع قلّة الحادثات ؛ وإنّما ينبغى أن ننظر يومَ توفّى النبىُّ صلى الله عليه مَنْ كان أفضلَ المسلمين وأفقهَ فى الدّين ، وأعرفَ بالأمور ، وأصوبَ رأياً وأشدَّ احتمالا ، فى ذلك الوقتِ الذى اختير فيه للخلافةِ . ونحن نعلم أنَّ عليًّا لو عاش إلى دهر الحسن وابن سيرينَ لكان قد ازداد فقهاً وعلماً وتجربةً على قَدْره يوم استُشهدَ رضى الله عنه .

ولا يجوز أن نقدِّر الرّجل بقَدْر[1] طُول الزّمان وكثرة الحادثات ، وبقَدْرِ قِصَر الزّمان وقلّة الحادثات . فلئن صحّ[2] عندنا وعندكم أنَّ أمورا

---

(١) فى الأصل : « وإنما يجوز أن نقول الرجل بعد » .

(٢) فى الأصل : « فليس صح » .

حدثت ، وبلايا نزلت فى زمن أبى بكر وأيّام وفاةِ النبى صلى الله عليه ، مِن حلالٍ وحرام أو سياسةِ جندٍ أو سدِّ ثغرٍ أو تدبير حرب ، أو استصلاح عوامَّ ، أو ترتيب خواصَّ ، فظهرَ فيه من رأى علىٍّ وصوابه وحُسن نظرِه وإرشاده ما لم يظهر من أبى بكر — فقد أفلحَ من زعَم أنَّ عليًّا كان أفقه منه فقهاً ، وأصوبَ رأيا ، وأشدَّ للأمور احتمالاً ! مع أنا قد نجد عنده مِن دقائق الفُتيا وغامضِه وعويصه(١) ما لم يُبْتَـلَ به أحدٌ ولا يبتلى به أحد أبداً . ولعلَّ ذلك لا يُصاب عند الإمام إلاَّ فى جملة الأمور وأصولها ، ثمَّ لو دَهِمَ النَّاسَ عدوٌّ ، أو حَزَبهم أمرٌ ، أو أعضَلَ بهم ملمٌّ من فاتقٍ يختطب المُلكَ بتأويلٍ قد زَخْرَفَه ، ومن انتشارِ(٢) جُنْدٍ أو اضطراب عوامّ ، أو بدعةٍ شاملة ، لم يكن عندهُ من الغَناء والاحتمال والمعرفة بعلاج أدوائها والتأتّى لاستصلاحها قليل وكثير . وإنَّما مدار الأمور على أصالة الرَّأى ، واتِّساع الصَّدر ، وقوَّة العزم .

فإنْ كنا لم نجدْ لعلىٍّ ممَّا ذكرنا شيئاً يفضُل به أبا بكرٍ فى ذلك الدهر فإنَّا نستدلُّ على صواب رأيه واتِّساع صدره ، وأنَّه كان المَفْزَع والمُرشدَ بعد رسول الله فى المعضلات وعند الشُّبُهات والحادثات ، والنَّاسُ فى ذلك الدَّهر بين مستمعٍ مرشِدٍ وبين مستمِعٍ مسلِم ، وبين مُطرِقٍ واجم وبين خائضٍ قد رنَّحه(٣) الحادثات ، واستبهَم عليه وجهُ الصَّواب ، كالذى كان مِن المسلمين لمَّا اصطلحوا على القضيَّة يوم الحديبية ، لأنَّهم لمَّا صارُوا إلى الكتاب وتراضَى النبىُّ صلى الله عليه وسلم وسُهيلُ بن عمرٍو

---

(١) أى غامض ذلك وعويصه .

(٢) أى تفرقهم وخروجهم على القواد ؛ وأصله فى الإبل والغنم أن تتفرق عن عزة من راعيها . فى الأصل : « استشار » تحريف ، وانظر ص ٦٥ س ١٠ .

(٣) الكلمة خالية من النقط فى الأصل . رنحته : دارت به وميلته .

على أن يُكتَب فى الكتاب : « وعلى [أنَّ] من أتى قريشاً ممن كان على دين محمد بغير إذنٍ لم تَرُدَّه إليه » ، فبلغ من أمر الناس والذى دخل عليهم أن اضطربت قلوبُهم ، حتَّى إنَّ النبىَّ صلى الله عليه قال لأصحابه بعد انصراف سُهيل بن عمرو : « قومُوا فانْحروا وأَحِلُّوا واحلِقُوا » ، يقولها ثلاثاً ، كلٌّ ذلك ينظُرُون فى وجهه ويَسمعون قولَه ولا يُطيعون أمرَه ، حتَّى غضبَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم فدخَلَ على أمِّ سَلمة فأخبرها بذلك متعجِّباً ، وكانت معه فى تلك السَّفْرة ، قالت أمُّ سَلَمة : « انطلِقْ أنتَ يا رسول الله إلى الهَدْى فانحره ، فإنَّهم سيَقْتدون بك » . فكان أوَّلَ مَن وثَبَ عند الكِتاب عُمرُ وهو يقول : يا رسولَ الله ، ألسْنا بالمسلمين ؟ قال النبىُّ صلى الله عليه : بلَى . قال : فعلامَ نُعطِى الدَّنيةَ فى ديننا ؟ قال النبى عليه السلام : أنا عبدُ الله ورسولُه ، ولن أخالفَ أمره » . فأقبل أبو بكرٍ على عمر فقال : يا عُمر ، الزَمْ غَرْزَه[1] فإنِّى أشهد أنَّه رسول الله ، وأن الحقَّ ما أُمِر [به[2]] ، ولن يضيِّعه الله !

ثمَّ إنَّ عمرَ بن الخطاب عاد إلى أبى بكرٍ فسأله فقال أبو بكر : سلِّم لله ولرسولِه واتَّهِمْ رأيك .

وقال أبو عُبيدة : لا نُعطِى الدَّنيةَ أبدا ! فقال أبو بكر ، يا عمُّ إنَّها ليست بدَنيّة ، ولو كانت دنيَّةً ما أعطاها النبىُّ صلى عليه وتأباها أنت ، وما كان الله ليرضى بذلك .

---

(١) يقول : اعتلق به وأمسكه واتبع قوله وفعله ، ولا تخالفه . وأصل الغرز للجمل مثل الركاب للفرس .

(٢) التكملة من إمتاع الأسماع ٢٩٣ .

أوَ ما علمتَ أنّه لم يكن فى الجميع أشدُّ فى ذلك من علىّ بن أبى طالب وعمرَ بنِ الخطّاب !؟ وذلك أنّ عليا هو كانَ كاتب كِتاب القضيّة ، فلمّا كتب : « هذا ما قاضَى عليه محمدٌ رسول الله » قال المشركون : لو نعلم أنّك رسولهُ ما حارَبناك ، ولكن اكتب : « محمد بن عبد الله » ، فقال النبىُّ لعلىّ : امْحُها يا على . فقال علىّ : والله لا مَحَوتُها أبداً ! قال النبى صلى الله عليه وسلم : أرِنِى مكانها . فأراها فمحاها وكتب « محمد بن عبد الله » . قال أبو بكر : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، إنّ هذا كلّه حدَبٌ على الإسلام وغَضَبٌ له ، ولكنّهم لم يطّلعوا من الأمور ما تَطّلعه الرسل . فهذا موقفٌ لأبى بكرٍ مشهور .

وإنّما عَظُمت الفتنة على أصحاب النبى صلى الله عليه لأنّهم خرجوا لا يشُكّون فى الفَتح ، لرؤيا النبى صلى الله عليه أنّه حلَق رأسَه ودخل البيت وأخذ مفتاح الكعبة وعرّف مع المعرّفين[١] ، ثم تجهّز فى تلك الأيام وهو يريد مكّة عندهم وقد كان تلَا عليهم : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسجدَ الحرَامَ إنْ شَاء الله آمنينَ محلِّقين رءوسَكم » الآية . فلمّا رأَوا الصُّلْحَ والشّرط ، وعاينُوا الرُّجوع اضطربوا لذلك ، مع الذى كان فى نفوسهم من قوله : « إن أتى قريشاً أحدٌ ممن كان على دين محمدٍ لم تردّه ، ومَن أتى محمّدًا ممن هو على دين قريش رَدّه » . فأخرجَهم ما ذكرتُ لك إلى ما ذكرت قبل .

وأقبل عمر على أبى بكر فقال : يا أبا بكرٍ ، أليس قد أخبَرنا النبىُّ صلى الله عليه عن الله وتلا علينا القرآن : « لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنين محلِّقينَ رءوسَكم ومُقصِّرين » ؟ قال أبو بكر : نعَم .

(١) التعريف : الوقوف بعرفات .

قال عمر : فما بالُه رجَع بنا ولم نَدخُلْها ؟ قال له أبو بكر : وهل قال لك مَـتى ؟ إنَّما قال : لتدخُلنَّ ؛ وأنتم داخِلُوها لا مَحالة . وإنما كان لك مقالاً لو ضَرَب لك أجلاً فرأيتَ خلافَه . واعلم أنَّ الحقَّ ما قال وصنع .

فلم يُبقِ في قلبٍ مخلصٍ جهلاً بموضع الحجَّة في ذلك ، ولا في قلبٍ مستريبٍ دخلَه الشَّك شيئاً إلا أصلحه . فبهذا وشبهه نعرف إخلاصَ الرَّجُل وقَدره ، وسعةَ صدره ، وكثرةَ علمه .

ثم أخرى ، أنقذ اللهُ به من الضلالة ، والناسُ بين ساكتٍ لاغَناء عنده ، أو خائضٍ مستريب يحتاج إلى التَّعريف ، أو موقن يحتاج إلى المادَّة وتلقين الحجَّة .

من ذلك أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لـمـا تُوفِّي اقتحم الناسُ عليه في منزل عائشة ، فلما نظَروا إليه مسجَّى دخلهم أمر عظيم أذهلهم وحَيَّرَ عامَّتهم ، حـتَّى قالوا : لم يمت ، وكيف يموتُ وهو شهيدٌ علينا ونحنُ شُهداء على النَّاس ؟! وكيف يموت وقد قال الله : « لِيُظهره عَلَى الدِّين كُلِّه » ولم يُظْهَر بعد ؟!

وكان عثمان بن عفَّانَ وعمر بن الخطاب يردِّدان هذه الآيات ، وتَوَعَّدَا أصحابَ النبي صلى الله عليه : مَنْ قال إنَّه مات . وثاروا في حُجرة عائشة وعلى الباب : لم يمت !

وكان أوَّلَ مَن رآه مسجَّى فأنـكَرَ موتَه عثمان ، وقال : إنَّه والله ما مات ، ولـكنَّ الله رفعه إليه كما رفع عيسى بن مريم ! والله لا نسمعُ أحداً يقول ماتَ إلَّا قطعنا لسانَه !

واضطرب النَّاس وماجُوا وقام عمر في الناس خطيباً فقال :

لا أسمعنَّ أحداً يقول إنَّ محمداً مات ! وإنَّ محمداً لم يمت ، ولكنَّ اللهَ رفَعه . أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عليه السلام فلبث عند قومه أربعين ليلة(١) . وإنى لأرجو أن يقطع الله أيدىَ رجال وأرجلَهم يَزْعُمون أنَّ محمداً مات !

فبينما الناس هكذا إذْ أقبلَ أبو بكرٍ ، على فرسٍ له ، من السُّنْح(٢) فسمِع مقالةَ عمر وما يقولهُ الناس وما خاضُوا فيه ، فبدأ بالنبى صلى الله عليه وسلم فدخلَ عليه وهو مسجًّى ، فكشَفَ عن وجهِهِ فقبَّله ، ثم أقبَلَ نحو المنبر وقال : أيُّها . . . الحالف(٣) على رِسلِك ! فلمَّا رآه عمر قعد ، وقام أبو بكر خطيباً ثمَّ قال : أيها الناس اجلِسوا وأنصِتوا ، ثمَّ حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

أيُّها الناس ، إنَّ الله قد نَعى نبيَّكم إلى نَفْسِه وهو حىٌّ بين أظهركم ونعاكم إلى أنفُسكم ، فهو الموتُ حتَّى لا يَبقَى أحد . ألم تعلموا أنَّ الله قال « إنَّكَ ميِّتٌ وإنَّهم ميِّتُون » .

قال عمر : بأبى أنت وأمِّى ! فسكت النَّاسُ وأظهروا التَّسليم ، وعرفوا الحق وبكَوا ، كأنَّهم لم يكونوا سمعوا بهذه الآية قطُّ .

ثم تلا : « وما مُحمدٌ إلاَّ رسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفإنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعقابكم » ثم تلا : « كُلُّ نفْسٍ ذائقةُ

(١) فى السيرة ١٠١٢ : « ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات » . ونحوه فى سيرة ابن سيد الناس ٢ : ٣٣٩ .

(٢) السنح ، بالضم : إحدى محال المدينة فى طرف من أطرافها . كان بها منزل أبى بكر حين تزوج مليكة ، وقيل حبيبة بنت خارجة .

(٣) بين هذه الكلمة وسابقتها فى الأصل بياض بقدر كلمة ، لعلها « أيهاذا » .

الموت » ثم تلا : « كُلُّ شيء هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَه » ، ثم مرَّ فى خُطبته المشهورة المعروفة[١] . فهذا هذا .

ثم أقبل على عُمر وعثمانَ فقال : قال الله : « وكذلكَ جَعَلْنَا كُمْ أُمَّةً وسَطاً لتَكونُوا شُهدَاءَ عَلَى النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكم شَهيدا » ، يقول . إنَّكُم شُهداء على مَنْ تَلقَوْن مِمَّن لم يَلق النبيَّ صلى الله عليه ، كما كان النبيُّ صلى الله عليه عليكم شهيدا . وقال الله : « ليُظهِرَهُ عَلَى الدِّين كلِّه » ، وإنَّما أراد دينه ، واللهُ مُتِمُّ نورَه ومظهرُ دينه . فإذا أظهر دينَه فقد أظهره[٢] .

فهذا عِلمُه وقدرُه وفهمه وحاجةُ النَّاس إليه .

ثم الذى كان مِن مَشْى المهاجرين والأنصار إليه وكلامِهم له ، ليَقبل الصَّلاةَ من العرب ويَترك الزَّكاة ، وقالوا : إنَّهم لو قد صَلَّوْا لقد زكَّوْا . قال : واللهِ لو مَنعُونى عِقالاً ممَّا أعطَوه النبيَّ صلى الله عليه لجاهدتُهم عليه ! فقال له المهاجرون والأنصار : أوَ ليس قد قال النبى عليه السلام : « أُمِرتُ أن أُقاتل الناسَ حتَّى يقولوا لا إله إلاَّ الله ، فإذا قالوها حقَنُوا بها دماءهم وأموالَهم » . قال أبو بكر : إنَّ فيها « إلاَّ بِحقِّها[٣] » . قالوا : صدقت . ألا تَرَى إلى أنَّه قد علِّمَ الجميع مالم يَعلموا ، أو صَيَّرهم إلى رأيه بقدر المخالفة له .

---

(١) انظر خطبة أبى بكر فى السيرة ١٠١٢ — ١٠١٣ وابن سعد ٢ : ٥٤ والطبرى ٣ : ١٩٨ وزهر الآداب ١ : ٣٥ .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل : « إلا لحقها » . يشير إلى ما ورد من تتمة الحديث فيما سيأتى فى الصفحة التالية ، وفيما رواه المحب الطبرى ١ : ٩٨ واصه : « فمن قال لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » .

ونقلوا إلينا أن الأنصار قالت : ياخليفة رسول الله ، أليس قد قال النبي صلى الله عليه : « أُمِرتُ أن أقاتل الناسَ حتَّى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها حجبوا بها دماءهم وأموالَهم إلاَّ بحقِّها وحسابهم على الله » قال أبو بكر : فهذا من حقّها ، والله لو كنتُ وحدى لجاهدتُهم حتّى أُقتَلَ أو يُظهرَ اللهُ الحقّ ويُزْهِق الباطل ، إنَّ الباطل كان زهوقا .

ثم مضى نحو أهلِ الرِّدَّة يُريدهم مُغْضَباً حتّى لحقه المهاجرون والأنصار ، فنعوه وكفُّوه وتقدَّموا أمامه .

وهذا خبرٌ نقله أصحاب الأخبار مُرجِئهم وشِيعيُّهم[1] إلّا الرّوافض ، فإنَّهم لا يطاقون ؛ لأنَّ من يجحد المستفيض الشائعَ بالأسانيد المختلفة فى الدهر المتفاوت ، ويوجب على خصمه له تصديق الشّاذّ[2] الذى لا يُعرف ولا يدّعيه إلّا أهلُ الغلُوّ من الروافض ، ممتنع الجانب ، عسير المطلب ، لا يُطاقُ ولا يُجارَى .

ثمَّ رأينا عليًّا يَروِى عنه ، ويزكّيه ويفضِّله ، ولم نسمعْه روى عن علىٍّ شيئاً ولا زكّاه ولا فضَّله . على أنَّ عليًّا قد كان عنده فاضلاً عالياً ، عالماً وجيهاً .

ثم الذى كان مِن قول عثمان بن عفّانَ له . وذلك أنَّ عثمان حَزِنَ على النبي صلى الله عليه حُزناً لم يَحزَنْه أحدٌ ، فأقبل أبو بكرٍ يُعَزِّيه للذى يرى به من عظيم ما قَدَحَه وغَمَره ، فقال عثمان : ما آسى على شىء ، إنّما آسَى على أنّنى لم أسأل النبيَّ صلى الله عليه عما فيه نجاةُ

---

(١) فى الأصل : « مرحهم وسعهم » بدون نقط .
(٢) فى الأصل : « الساد »

هذه الأمّة ! قال أبو بكر : قد سألتُ النبى صلى الله عليه عن ذلك : فقال : « مَنْ قَبِـل الـكلمةَ التى عَرضْتُها على عَمّى فأباها » .

ألا ترى إلى حاجة الجميع إليه واستغنائه عنهم .

ولو لم يُعلَمْ من سعة علمه إلّا قولُه للمهاجرين والأنصار حين أشاروا عليه بأن يَقبل الصلاة وقالوا إنهم لو قد أقاموا الصَّلاة لآتَوُا الزَّكاة . قال أبو بكر : إنّ تميماً إنْ أذِن لها من الإسلام فى نقض عُروةٍ لم تَرضَ بمثلِه بكرُ بنُ وائل ، ولو أعطيتُ كِنانةُ وألفافها وأحابيشها أمراً لم ترض قيسٌ حتّى تزداد ، ولَئِن سمعتُ قولَـكم لأنقضَنّ الإسلامَ عُروةً عُروة .

وفى مشيهم إليه فى تأخير جيش أسامة يشيرون عليه ويقولون ما كتبنا فى صدر الـكتاب[1] ، وفى قوله : « لو بقيتُ وحدى حتّى تأكلنى الـكلابُ ما أخّرتُ جيشاً أمَرَ رسولُ الله صلى الله عليه بإنفاذه والوحىُ ينزلُ عليه » ، فلئن كان ما وصفنا لا يدلُّ على جَودة الرأى وصِحّة العزم وكثرة العلم ، وعلى الشّهامة والصّرامة ، واليُمْن والبركة ، فما فى الأرض دليلٌ على فضيلة رجلٍ ونَقْصِه .

ومما يدلُّ على سَعة علمه وأنّه كان المَفْزَعَ دون غيره أنّ المهاجرين عامّة وبنى هاشمٍ خاصةً اختلفوا فى موضعِ دَفْنِ رسول الله صلى الله عليه ، فقال قائل : خير المدافن البَقيع ، لأنّه كان كثيراً مايستغفر لأهله[2] . وقال آخرون : خير المواضع موضعُ مصلّاه . وقال آخرون : عندَ المنبر . قال لهم أبو بكر : إنّ عندى فيما تختلفون فيه علماً . قالوا : فقُلْ يا أبا بكر . قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه يقول : « ما مات

(١) انظر ما مضى فى ص ٦٥ .

(٢) انظر السيرة ٩٩٩ — ١٠٠٠ وإمتاع الأسماع ١ : ٥٤١ .

نبيٌّ قطُّ إلّا دُفِنَ حيث يُقبَض » . فخطُّوا حولَ فِراشه ثم حوّلوا رأسَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بالفراش فى ناحيــة البيت . فلم نجد النّاسَ احتاجوا مع خبره إلى شاهد ، ولم يختلف عليه فى ذلك رجلان ، ولا أظهرَ الشَّكَّ فى خبره إنسانٌ واحدٌ قريب ولا بعيد . هــذا والمنزل منزل ابنته ، وهو فى موضع جرِّ منفعةٍ وكما تــكون المنفعة ، وهى المأثُرة العظمى والشرف الأعلى .

فمن لم يُتَّهم فى خبرِه على هذه الحال ومع هذه العِلّة حتى قُبِلت شهادتُه وَحْدَه ، لجديرٌ ألّا يتقدّمَه أحدٌ فى القدر والعلم ، والأمانة والصِّدق .

ومما يدلُّ على أنه كان ثابتاً عندهم قولُ على بن أبى طالب رضى الله عنه وروايته عنه ، وذلك أنَّ عليًّا قال : كنتُ إذا سمعتُ من النبى عليه الســلام حديثاً ينفعنى الله بمــا شاء منــه ، فإذا حدّثنى غيرُه استحلفْتُه[1] ، فإذا حلَفَ لى صدّقتُه ، وإنَّ أبا بكر حدّثنى — وصدَق أبو بكر — أنَّ النبى صلى الله عليــه قال : « ما مِن رجلٍ يُذنِب ذنباً فيتوضّأ فيحسن الوضوء ثم يصلِّى ركعتَين ويستغفر الله إلّا غُفِر له[2] » .

وهذا حديثٌ ماسمعت له رادٍّ إلّا أهلَ الغلوّ من الروافض . وقد قال قومٌ منهم : إنّما كان هذا من علىٍّ عَلَى التّقيّة للعوامّ[3] ، لطاعة العَوامِّ لأبى بكر وعمر . وما فى هذا من التّقية ؟ أن يصدِّق رجلاً على خبره وأن يكذّبَ غيره[4] أو يؤمّن غيره . وإنَّ هــذا من أخلاق الناس

---

(١) فى الرياض النضرة ١ : ١٤٣ : « ينفعنى الله بما شاء ، فإذا حدثنى عنه غيره استحلفته » .

(٢) قال المحب الطبرى فى الرياض : « خرجه النسائى والحافظ فى الأربعين البلدانية » .

(٣) فى الأصل : « للغرام » .

(٤) فى الأصل : « وأن يكون عنده » .

لموجودٌ : أن يزكّيَ بعضٌ بعضاً ويفضّل . فنرى عليًّا يحمل عنه ويروى عنه ويزكّيه ويفضّله ، ولم نرَه صنع بعليٍّ من ذلك شيئاً .

ولقد بلغ من تبطُّنه[1] لأمر النبي صلى الله عليه أنّ النبي صلى الله عليه لما حاصر أهلَ الطائف قال عمر لأبي مِحجَنٍ : إنّما أنت ثعلبٌ في جُحْر يُوشِك أن يَخرُج ! قال أبو مِحجن : هل هو إلّا أنْ قَطعتم حَبَلاتِ عِنَب[2] ، وفي الماء والتّراب ما يُعيده . قال عمر : لا تقدر أن تخرج إلى ماء وتراب ، ولا تبرح باب جُحرك حتّى تَموت جوعا . قال أبو بكر : يا عمر لا تقلْ هذا فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يُؤْذَنْ له في فتح الطّائف . فسأل عمر النبي صلى الله عليه فقال : نَعَمْ لم يؤذن لي .

قالوا : ولم يكن عِلمَ ذلك من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أبي بكر . ولو علمهُ أحدٌ غيره لكان عمر .

قالوا : في خطبة النبي صلى الله عليه في شَكاته التي توفّي فيها والمسلمون شهود ، وفي معرفته بالذى أراد النبي صلى الله عليه وسلم بكلامِه دون جميع الناس ، دليلٌ على أنه المخصوص بحُسْن المعرفة ، وفضيلة الدِّراية .

وذلك أنّ أوّلَ ما تكلّم به النبي صلى الله عليه على المنبر أن قال : « والذى نفسي بيده ، إني لقائمٌ على الحوض الساعة » . ثم تشهّد فلما قَضى تشهُّدَه كان أوّلُ ما تكلّم به أن استغفرَ للشُّهداء الذين قُتلوا بأُحُد ، ثم قال « إنّ عبداً مِن عباد الله خُيِّر بين الدُّنيا والآخرة فاختار ما عند الله » . فبكى أبو بكر . قالوا : فتعجّبْنا من بكائه . وقال : بأبي أنتَ وأمّى وبآبائنا

---

(١) في اللسان : « تبطنت الأمر : علمت باطنه » .

(٢) الحبلة ، بالتحريك وبالفتح : شجرة العنب . وكان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقطع أعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون . السيرة ٨٧٣ وعيون الأثر ٢ : ٢٠١ .

وأمَّهاتنا وأنفسنا وأموالنا . قالوا : فتعجَّب الناسُ من كلام أبي بكر وبكائه وقالوا : أخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن رجل !

قالوا : وكان أبو بكرٍ أعلمَنا[1] برسول الله .

ولو لم يكنْ من صَواب رأيه وصِحّة فِراسته ، وتوفيق الله إياه إلّا توليتُه خالدَ بنَ الوليد حربَ مُسَيلِمة وطُلَيحة وأهلِ الرِّدَّة ، وقد عُوتِبَ فيه من كلِّ جانب — وعمر تناوَلَه — وهو يقول : لا أَشِيم سيفاً سلَّه الله على أعدائه

ثمَّ اختيارُه عمرَ وفِراستُه فيه ، حيثُ حمَلَ له الأمرَ من بَعدِه ، وعُوتِبَ فيه ونُوزِعَ في أمره .

وكذلك قالَ عبد الله بنُ مسعودٍ ، الذى قال فيه النبيُّ صلى الله عليه « رَضيت لأُمَّتى مارضِيَ لها ابنُ أمِّ عبد ، وكرِهتُ لها ما كرِه لها ابنُ أمِّ عبد » ، قال : أفرسُ النَّاس ثلاثة : المرأةُ التى جاءت على استحياء حين قالتْ لأبيها فى موسى : « ياأبتِ استأْجِرْه إنَّ خَيْرَ مَنِ استأْجَرتَ القوىُّ الأمين » وامرأةُ العزيز ، وأبو بكر فى عمر .

فهل رأيتهُ ضَامَّ قوماً قطُّ وجامَعهم[2] فكان لهم الرَّأْى دونَه ، وهل عوتِب فى شيء قطُّ إلاّ والصواب ما عَمِلَ به دون رأى المعاتِب له . وهل أشير عليه برأيٍ قطُّ إلّا وهو المصيب دون المشيرين عليه ؟!

فأىُّ فقهٍ وأىُّ علمٍ أصحّ وأىُّ مذهبٍ أحمَدَ ممَّا عدَّدنا وكثَّرنا ثم أنتم لا تستطيعون أن تُخبروا عن علىِّ بن أبى طالب بموقف واحد من هذه الآراء ، وكلمةٍ واحدةٍ من هذا الكلامِ ومن الصَّوابِ الذى حكينا

---

(١) فى الأصل : « وكان أبو علمنا » . وانظر صفة الصفوة ١ : ٩١ .

(٢) فى الاصل : « وجاء معهم » .

عن أبي بكر في حياة النبي صلى الله عليه، وعند وفاته، وفي أيّام خلافته، حتى كأنّ عليًّا ورجلاً من عُرْض المسلمين في ذلك الدّهر سواء.

وما يُخَيَّلُ إلينا إلا أنّ الذى قطعَه عن كثير من ذلك حداثةُ سنِّه، ونقديمُه للمَشْيَخة على نفسه.

فإن قالوا: إنّ عليًّا قد أشار على عُمَرَ بكذا، وقال له يوم كذا وكذا: كذا.

قلنا: إنّا لم نَكُنْ في عُمرَ وعليّ، ولو قد صرنا إلى الإخبار عنهما تقدَّمْنا بالذى يُعَرِّفكم فضيلةَ عمر، كما حكَيْنا ووصفْنا وتقدَّمْنا في الإخبار عن فضيلة أبي بكر.

ولقد بلغَ من صِحّة فكرِه وصِدق ظنِّه وقُوّة حِسِّه أنّه كان يظُنُّ الأمرَ فيقع به أو قريباً منه. ولذلك قال عمر: إنّك لن تنتفع بعقل المرء حتّى تنتفع بظَنِّه.

فممّا يدلُّ على صِدق ظنِّ أبي بكر وحِسِّ نفْسه أنّ عائشة لما دخلَتْ عليه في شَكاته التي قبضَه الله إليه فيها، أنشدَتْ عنده شعراً تذكر فيه ما رأَتْ في أبيها. قال أبو بكر: لا تقولي هذا يا بُنَيَّة، ولكن قولي: «وجاءتْ سَكْرةُ المَوتِ بالحقّ ذلك ما كنتَ منه تَحِيد»، أىْ بنيَّةُ إنّي كنتُ نَحَلْتُكِ جِدادَ عشرين وَسْقاً من مالي بالعالية، وإنّك لم تحوزيه ولم تَقْبضيه، وإنّما هو مال الوارث، وإنّما هما أخواكِ وأختاكِ. قالت عائشة: إنّما هي أسماء[1]! قال: إنّه أُلقِيَ في رُوعِي أنّ ذا[2] بَطْنِ بنتِ

(١) في الحيوان ٦: ٥٠ - ٥١: «قالت: ما أعرف لي أختا غير أسماء».
(٢) في الأصل: «أردا» صوابه في الحيوان.

خارجةَ [جاريةً[1]] . فوضعت جاريةً فسمِّيت أمَّ كلثوم .

وله مما كان يقع فى خَلَدِه ويَصْدُق فيه ظنُّه وتصحُّ فيه فِراسته أمورٌ عجيبة .

ولو قالوا : إنّ عليًّا كان من فقهاء أصحاب النبى صلى الله عليه لقد كان ذلك عَدلاً وقَصْدا ، وحَسَناً جميلاً ، كما قال إبراهيمُ[2] والشَّعبى : الفِقهُ من أصحاب النبى صلى الله عليه فى سِتَّة : فى عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبىّ بن كعب ، ومُعاذ بن جَبَل ، وزيد بن ثابت .

وقد زاد قومٌ أبا الدرداء ، وأبا موسى . وقد قال مسروقٌ : انتهى علمُ أصحابِ رسول الله إلى هؤلاء الستة : عمر ، وعلى ، وعبد الله ، وأبىّ ، ومعاذ ، وزيد .

وقال الشعبى : كانت القضاة أربعة : عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرىّ .

فلو أنهم كانوا يرضون بقَول الفقهاء ورأى التّابعين ، ولم يُسرِفوا وقَصدوا ، كان ذلك قَصْداً . ولقد تعدَّوا فيه الحقّ حتى قالوا : لم يقل قطُّ قولاً يُمكن أحسَنُ منه ، ولا قال قولاً قطُّ فرجَعَ عنه . وقد علِمنا أن له غَيرَ رجْعة ، لا اثنتين ولا ثلاثاً[3] ، وأقاويلَ لا يجوِّزها أصحاب الفُتْيا . وما كان إلاّ كبعض فقهائهم الذين يكثُر صوابهم ويقلُّ خَطاؤهم . ولم تكن لِتجتمع جميعَ هفواتِ إنسان وأخطاءه حتّى نقرأه[4] مجموعاً إلّا ظَنَنتَ به

---

(١) التكملة من الحيوان . وبنت خارجة هى حبيبة بنت خارجة زوج أبى بكر . انظر حواشى الحيوان فى الموضع السابق وانظر الرياض النضرة ١ : ١٢٩ وصفة الصفوة ١ : ١٠١ .

(٢) هو إبراهيم بن يزيد النخعى .

(٣) أى بل أكثر من ذلك . فى الأصل : « ولا اثنين ولا ثلاث » .

(٤) فى الأصل : « ولم يكن ليجمع جميع هفوا إنسان وخطأه فيقرأه » .

العجز . وليس ذلك كذلك ، لأنك لو قذفتَ بجميع ذلك فى محاسنه لخفِىَ عليك موضعُه ، ولصغُر خطَره وقَدْره .

وإنّما حكينا هذا لأنّهم جمعوا لعمرَ وعثمانَ أموراً أرادوا بها عَيْبَهم ونَقْصهم ، ولعمرى إنّ الخطأ لَخَطأ حيث وقَع ، ولكن ربّما كان خطأً لا يخرج صاحبَه من الحكمة . والخطأ[1] أمرٌ لكلّ بنى آدم فيه حظٌّ ونَصيب ، وهو أمرٌ لم يَسلَمْ منه نبىٌّ ولا صِدّيق ولا شهيد ولا أحدٌ من العالمين .

ومما نقرِّرهم به مما رَوَاه حُمّال الآثار من رُجوعه وما لا يجوز من فُتياه ، قوله : أجمع رأيى ورأىُ عمر على عِتْق أمّهات الأولاد ، ثم رأيتُ أن أرُبّهن[2] .

ونقلوا جميعاً أن عُمَر وعليًّا اختلفوا فى الجدّ ، فقال علىٌّ بقول ، وقال عمرُ بقول ، ثم رجع عمرُ إلى قول على ورجع علىٌّ إلى قول عمر .

ونقلوا جميعاً أنّ زيدَ بن ثابتٍ قال لعلىٍّ وهو يحاجُّه فى المكاتَب : أرأيتَ إنْ زنَى أكنتَ راجِمَه ، قال : لا . قال : أرأيت إنْ شهد أتقبل شهادتَه ؟ قال : لا . قال زيد : فهو إذنْ عبدٌ ما بَقِىَ عليه دِرهم . فسكَت علىٌّ .

وزعم أصحابُ داودَ بنِ أبى هِند[3] ، عن داودَ عن الشَّعبى ، أنَّ عليًّا رجَع عن قوله : « فى الحَرَام ثلاثٌ[4] » .

---

(١) فى الأصل : « والخطابة » .

(٢) ربه يربه ربا : ملكه وصار سيده . والباء مهملة فى الأصل .

(٣) داود بن أبى هند — واسمه دينار — بن عذافر القشيرى البصرى ، كان ثقة من الحفاظ . توفى سنة ١٤٠ تهذيب التهذيب .

(٤) ورد نحوه فى اللسان (حرم) قول عمر : « فى الحرام كفارة يمين » . قال : « هو أن يقول : حرام الله لا أفعل ، كما يقول يمين الله لا أفعل » . ثلاث ، أى صيام ثلاثة أيام . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم » .

وكلم عليٌّ عثمانَ أن يَحجُر عَلَى عبد الله بن جعفر فى شىء كان اشتراه ، وقد كان الزُّبير قال لعبد الله : خُذْه فأنا شريكُك . فقال له عثمان : كيف أحجُر على إنسانٍ شريكُه الزُّبير ؟! فسكت علىٌّ .

وقال فى المُكاتَب ، إذا أدَّى من ثمنه شيئاً : إنَّه يُسترَقُّ بحسابٍ ويُعتَق بحساب .

وقال فى النَّصرانيّة تُسلِمُ وهى تحتَ النصرانىّ قال : هو أحقُّ بها ما لم يُخرِجْها من دار الهجرة .

وقال فى رجلٍ قال لامرأته : « اختارى » واختارتْه ، ثم قال : « اختارى » فاختارتْه ، ثم قال الثالثة : « اختارى » فاختارتْه ؟ قال : أفرِّق بينهما ، فإنْ(1) أنا فعلت كذا وكذا .

وقال فى أعورَ فقأ عين صحيح ، فأرادَ الصحيحُ أن يفقأ عينَ الأعور الذى فقأ ؟ قال : لا يفقؤها إلّا أن يؤدِّى نِصفَ الدّية .

وقال فى الجَدّ : إنَّه سادس ستّة ، وسابع سبعة . وكتب إلى عبد الله بذلك ، وقال : قطِّع الكتابَ واجعلْه سابيا .

وقال فى جاريةٍ وثبت عليها امرأةُ رجلٍ غائب فافتضّت عُذرتَها بإصبعها ، ثم قذفتها لتُسقطَها من عين بعلها ، وكانت خافت أن يتزوَّجها ، فرُفعَ ذلك إليه فقال لبعض بنيه : قُلْ فى هذه المسألة . قال : عليها صَدَاق مثلها . قال : لو كلفت الإبلَ الطَّحنَ(2) طحنَتْ ! فاشتدَّ تعجُّب أصحاب عبد الله من هذه المقالة .

وكان يرى حكَّ أصابعِ الصِّبيان إذا سرَقُوا .

(1) كذا فى الأصل .

(2) فى الأصل : « الطحين » .

وكان إذا قَطَعَ الرِّجلَ قَطَعَ القدمَ وتركَ العَقِب ليمشىَ عليه المقطوع ، وليعتمدَ به . وكان يَقطع اليَدَ من أصول الأصابع ويدعُ الكفَّ .

وزعم عبدُ الله بنُ سَلَمة[1] وغيرُه ، عن الأعمش ، عن الشَّعبى أو عن غيره ، أنَّه سُئل عن رجل قال لامرأته : أنتِ طالقٌ ألفَ تطليقة ، وله أربعُ نسوة ؟ قال : تَبِينُ بثلاثٍ وتُقَسَّم الباقيةُ على نسائه .

ويقال لهم : هل تعلمون أنَّ الله ذكَرَ آدمَ وهو أوَّلُ النبيِّين فقال : « فنَسِىَ ولم نَجِدْ له عَزْماً[2] » .

وذكَرَ موسى وقَتْلَه النَّفْس . وذكَر يُونس بنَ مَتّى فقال : « وذا النون إذ ذَهَب مُغاضِباً فظَنَّ أنْ لَنْ نَقدِرَ عليه » . فالدَّليل على أنَّ يُونس قد كان ضَيَّعَ وأساء قولُه : « سُبْحانَكَ إنِّى كُنْتُ من الظّالمين » وقولُ الله : « فالتَقَمه الُحوتُ وهو مُلِيمٌ » .

وذكروا داودَ وسُليمانَ فى قصّةٍ واحدة ذهَبَ عنها داودُ وأصابَها سليمانُ ، حيث يقول الله : « ففهَّمْناها سُليمانَ » فلم يكن ذَهابُ دوادَ بمُخْرِجهِ من قول الله : « وآتَيْناهُ الحِكْمةَ وفَصْلَ الخطاب » . وقد كانَ منه ما قد علمت ، حتّى أنزَلَ الله عليه الملَكين يَكْنِيان عن

---

(١) عبد الله بن سلمة البصرى الأفطس ، يروى عن الأعمش وغيره ، وليس بثقة . لسان الميزان . وفى الرواة عبد الله بن سلِمة بكسر اللام — المرادى الكوفى . وهذا تابعى من الثقات . تهذيب التهذيب .

(٢) الآية ١١٥ من سورة طه . فى الأصل : « فلم نجد له » ، تحريف . انظر كتاب تحقيق النصوص من تأليفنا ص ٣٨ — ٣٩ .

قِصَّته ، ويَزِيدان وعْظَه فى قِصَّةٍ : « وهَلْ أتاكَ نَبأُ الخَصْمِ إذ تسوَّرُوا المحراب » .

وقد عاتَبَ الله جل ثناؤه نبيّه فى غير موضع فقال : « عَبَسَ وتوَلّى » ، وقال : « لقَدْ كِدْتَ ترْكَنُ إليهمْ شَيْئاً قليلا » ، وقال : « ليَغفِرَ لك اللهُ ما تقدَّم مِنْ ذَنبِكَ وما تأخَّر » .

وعاتبهُ فى الأسرى وأخبره أنّه قد تقدم أمرُه فى إطلاقهم حتّى قال : « لولا كتابٌ من اللهِ سبَقَ لمسَّكُم فيما أخَذْتُم عذابٌ عظيم[1] » .

وقال الله وهو يريد جَمْع المأمورين والمنهيِّين : « ولو يُؤاخِذُ الله النّاسَ بما كَسَبُوا ما ترَكَ على ظَهْرها مِن دابّة[2] » .

فإذا كان الله قد أخبَرَ بما ترى عن المعصومين فلِمَ يتتبّع قومٌ على عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفّان خطاياهم وهفواتهم ، وللعُمرية والعُثمانيّة أن يعودوا عليهم بمثلِ ذلك وأكثرَ منه ؟!

ومَنْ أجهلُ مِن رجلٍ زعَم أن عليّاً لم يُخطِ قطُّ ولم يَعصِ قطّ ، ولم يضيِّعْ شيئاً قطّ ، وقد سمِعَ اللهَ يحكِى أمورَ أنبيائه ، ويذكر أحوالَ رُسُلِه ؟! ولسنا نحتاج فى هذا الباب إلى أكثرَ مِن هذا .

وكيف يقولون : علىٌّ فوقَ الناس كلِّهم فى صَواب الرأى ، والفقْه فى الدين ، ولا يكون كالرَّجُل من عُظماء السَّلَف لضَربٍ يخصُّه فيهما ، ونحن إذا سألنا الفقُهاء وأصحابَ الآثار والعلماء ، عن أصحاب القرآن الذين كانوا مخصوصين بحفظه على عهد رسول الله صلى الله عليه ، قالوا : زيد بن ثابت

---

(١) الآية ٦٨ من سورة الأنفال .
(٢) من الآية ٤٥ فى سورة فاطر .

وأبو زيد[١] ، وفلان وفلان . ولم يذكروه فى باب المخصوصين بحفظ القرآن أيَّامَ حياة رسول الله صلى الله عليه .

فإن سألناهم عن أصحاب الحروف والقراءات والوجُوه ، الذين بقراءتهم يقرأ الناس ، وبقدر اختلافهم اختلف الناس ، قالوا : زيد بن ثابت ، وأُبَىّ بن كعب ، وعبدُ الله بن مسعود . ولم يُذكر مَعَهم . لأنَّا شاهدنا النَّاسَ يقولون : هذا فى قراءة عبد الله بن مسعود[٢] ، وهكذا هو فى مصحف عبد الله . وهذا فى قراءة أُبىّ ، وهكذا هو فى مصحف أُبَىّ . وهذا فى قراءة زيد ، وهكذا هو فى مصحف زيد . ولم نَرَهم يقولون : هذا فى قراءة على ، وهكذا هو فى مصحف علىّ .

وإنْ سألناهم عن أصحاب التّأويل والتفسير قالوا : عبد الله بن عباس ، والحسن ، وفلان وفلان . ولم يذكروه فى هذا الباب .

وإن سألناهم عن أصحاب الرِّواية ، والمشهورين بكثرة الإسناد عن رسول الله صلى الله عليه قالوا : ابن عمر ، وعبد الله بن عَمرو ، وجابر بن عبد الله ، وعائشة ، وأبو هُريرة . ولم يُذكر معهم فى هذا الباب .

وإنْ كان الدليل على فقه المتبوع فِقه أتباعه فعبدُ الله بن مسعود وعائشة أفقه منه ، لأنَّ أصحاب عبد الله وعائشة أفقه من أصحابه ، فكيف صار أفقَهَ خلق الله كلِّهم والقِصَّةُ على ما أنبأناكم ووصَفْنا لكم .

على أنه كان فقيها عالماً ، قد أَخَذَ من كلّ بابٍ بنصيب ، ولا نقول

---

(١) فى الإصابة ٤٥٨ من باب الكنى : « أبو زيد الذى جمع القرآن ، وقع فى حديث أنس فى صحيح البخارى غير مسمى . وقال أنس : هو أحد عمومتى . واختلفوا فى اسمه ، فقيل : أوس ، وقيل : ثابت بن زيد ، وقيل : معاذ ، وقيل : سعد بن عبيد ، وقيل : قيس بن السكن وهذا هو الراجح » . وانظر الإصابة ٧١٧٥ .

(٢) فى الأصل : « هذا فى قراءة أبى بن كعب وعبد الله بن مسعود » .

فيه — إذْ كنا عثمانيةً وعمريّةً — قولَكم فى عمر وعثمان. أوما تعلم أنّ الخبر مستفيضٌ بأنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أقرؤُكم أُبَىّ » ؟! فترى أُبيًّا[1] كان أقرأ منه . وقال : « أفرضكم زيد » فترى زيداً كان أفرضَ منه . وقال : « وأعلمكم بالحلال والحرام مُعاذ » فترى مُعاذاً كان عند النبى صلى الله عليه أعلمَ منه . وقال : « وأقضاكم علىّ » فينبغى أن يكون علىٌّ أقضى منهم . وأنتم لا تَرضون أن يكون زيدٌ أفرض منه ، ولا أُبىٌّ أقرأ منه ، مع أنّ « أقضاكم على » ليس هو فى حديث البصريِّين ، فإن كان كما رواه البصريُّون فهؤلاء النفَر أعلم منه . وإن كان كما رواه غيرُهم فكلٌّ واحد أفقه من الآخَرين فيما ذكرته . فهذا هذا .

فإن صرتَ إلى أن تسأل النّاس عن الاختيار ، وجودة الرأى ، والقُوّة فى السُّلطان ، والضّبط للعدُوّ والعوامّ قالوا : أبو بكر وعمر .

وإنْ سألتَ عن الفُتوح قالوا : أبو بكر وعمر وعثمان ، لأنّ أبا بكر ردّ الإسلامَ فى نصابه بردّ أهل الرِّدةِ ، وهو الفتح الأكبر ، وقَتلَ مُسَيلِمة ، وأسر طُلَيحة ، وغزا[2] العدوّ ومنَع الحوزة .

ولأنّ عمرَ دوّنَ الدّواوين ، وفرَض الأعطية وجنّد الأجناد ، ومصّر الأمصار ، وجبى الفَىء[3] ، وبلغَتْ خيلُه إفريقية ، وأوطأ خيلَه خُراسان وأقصى كَرْمان ، وأزال مُلكَ بنى ساسان .

ولأنّ عثمانَ هو الذى افتتح الثُّغور كلّها : افتتح إرمينيَة ، افتتحها حبيب بن مَسلَمة الفِهْرى وافتتح أذْرَبيجان ، افتتحها المغيرةُ بن شُعبة ، وقد

---

(١) فى الأصل : « أبى » .

(٢) فى الأصل : « وعدا » .

(٣) فى الأصل : « وحبا الفىء » . والفىء : الغنيمة والخراج .

كان الأشعث معه فيها . وافتتح إفريقية ، افتتحها له عبد الله بن سعد بن أبي سَرح . وافتتح سجِسْتان ، افتتحها له عبد الله بن سَمُرة .

فهذا باب المخصوصين بالفتوح .

وإنْ سألتَ عن الدُّهاة وأصحاب الإرْب[1] والمكايد قالوا : عمرو ابن العاص ، والمغيرة بن شُعبة ، ومعاوية بن أبي سفيان . ولم نذكر فيهم زياداً لأنّ زياداً لا صُحبة له . فهذا باب الدُّهاة .

ورَوَى النّاسُ عن قَبيصة بن جابرٍ الأسدىّ[2] وكان عَلاّمة داهيةً حَكَما ، أنّه قال : « ما رأيتَ رجلاً قطُّ أخْوفَ لله من أبي بكر ، ولا أقوى فى دين الله من عُمر ، ولا أصدقَ حياءً من عثمان ، ولا أوصَلَ لرحم ولا أعطى من تِلاد مال مِن طلحة ، ولا أكثر مَخارجَ فى الأمور من معاوية ولا أحْضَرَ جواباً ، ولا أكثر صواباً من عَمرو » . ولم نَرَه ذكره .

ثم الذى كان من أسماء بنتِ عُمَيس ، ومن قولها — وعلىٌّ بن أبي طالبٍ شاهدٌ ، لمّا تفاخر عندها بنوها من جعفر وأبي بكر وعلىّ ، قال لها علىّ : اقضى بينهم — قالت : ما رأيتُ شابًّا أطهرَ من جعفر ، ولا رأيتُ شيخاً أفضلَ من أبي بكر ، وإنّ ثلاثة أنتَ أخسُّهم لفضلاء .

فهذه قضيّتها[3] ؛ ولم يُروَ عن علىّ فى ذلك إنكار .

فإن قلتم : إنّ قولَها ليس بحجة . قلنا : قد صدَقتم لو كان ليس بحجّة إلاّ قولها فقط ، ولكنّ الأمورَ إذا جاءت من هاهنا وهاهنا كان اجتماعُها دليلا على أنّه لم يكن عندها مع فَضْله وصلاحه وسابقته وقرابته ذا رأى .

---

(١) الإرب ، بالكسر : الدهاء والفكر .
(٢) مما يذكر أنه كان أخا معاوية من الرضاع . تهذيب التهذيب .
(٣) القضية : الحكم والقضاء .

ولقد بَلَغَه ذلك عن قُرَيش حتّى قام خطيباً معتذرا فقال فى خطبته : « حتّى قالت قريشٌ : ابن أبى طالب شُجاعٌ ولـكنْ لاعلمَ له بالحرب ، لله أبوهم ! وهل منهم[1] أحدٌ أشدُّ مراساً لها ولا أطولُ تجربة مِـنّى . لقد نهضْتَ فيها وما بلغتُ العِشرين ، فها أنا الآنَ[2] قد ذَرّفتُ عَلَى السِّتِّين ، ولـكنّه لا رأىَ لمن لا يُطاع » .

وقال الأحنف بن قيس لمَّا قدِم عُبَيد الله[3] بن علىّ بن أبى طالب — وهو قتيل[4] المختار بن أبى عبيدٌ فى أيام فتنة ابن مُخَرِّبة العَبْدى[5] : ما هذا الذى أنتم فيه ؟ قالوا : قدِم عبيد الله بن علىّ يدعو النّاس . قال : إن كان لابُدّ فجنِّبُوها حَسَناً وأبا حسن ، فإنّا لم نجدْ عندهم علماً بالحرب ، ولا إنالة للمال .

وقيل لأبى بَرزَة الأسلمى[6] : لمَ آثرتَ صاحب الشام على صاحب العراق ؟ قال : وجدته أطوَى لسِرِّه ، وأملَكَ لِعنان جيشه[7] ، وأنظَرَ لما فى نفْسه .

وفى قول العباس بن عبد المطّلب ، وهو حليمُ قريش — وإذا كان حليمَ

---

(١) فى الأصل : « وهم امنهم » ، صوابه من البيان ٢ : ٥٥ حيث تجد مراجع الخطبة .

(٢) فى البيان وابن أبى الحديد ١ : ١٤١ : « فهأنذا » .

(٣) فى الأصل : « عبد الله » ، تحريف ، انظر الطبرى ٦ : ٨٩ / ٧ : ١٠٣ ومقاتل الطالبيين ٨٧ . وفى الطبرى : « إنما قتله من يزعم أنه لأبيه شيعة . أما إنهم قتلوه وهم يعرفونه » .

(٤) فى الأصل : « قتل » .

(٥) هو المثنى بن مخربة . الطبرى ٧ : ٩٣ والقاموس (خرب) .

(٦) فى الأصل : « أبو بردة » ، تحريف . وهو نضلة بن عبيد أبو برزة الأسلمى ، صاحب رسول الله . الإصابة وتهذيب التهذيب ١٠ : ٤٤٦ والمعارف ١٤٦ . وفى تاريخ الإسلام للذهبى ٢ : ٣٢٨ : « وكان مع معاوية بالشام ، وقيل : شهد صفين مع على رضى الله » ويبدو أنه كان مرة مع على ، ومرة مع معاوية . انظر أيضاً وقعة صفين ٢٤٦ .

(٧) وردت الـكلمة مهملة فى الأصل هكذا : « حىسه » .

قريش فهو حلم العرب ، والحلم اسمٌ جامع للعِلم والحزْم — وذلك أنه لما قُبض عمر وصَلّى صُهيبٌ بالنّاس دعا العباسُ عليًّا فقال : هل أحدثتم شيئاً ؟ فقال : فاحفَظ عنى ، فإنى لم أقدِّمْك فى شىء إلاّ رأيتك مُستأخراً . مِن ذلك أنى قلتُ لك ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثقيل[١] : ادْخُل عليه فَسَلْه ، فإن يكن هذا الأمر فينا أعلَمَه النّاسَ ، وإن يكن فى غيرنا أوصَى بنا فتركتَ ذلك وقد مُنيتَ[٢] بدهاة قريش ، وقد حِيلَ دونى ، فلا يَعْرِضَنَّ عليك شىء إلاّ قلت : لا لا ، ولا يا أبتى ، تعصر عَينَيك وتحكُّ قفاك ، بعد فوْتِ الأمر .

ففيما ذكرْنا دليلٌ أنّه كان لايساوى أبا بكر ولا يجاريه ، ولا يدانيه ولا يقاربه ، وأنّه فى طبقة أمثالِه طلحة والزّبير ، وعبد الرحمن وسعد .

فإنْ قالوا : فإنّ عليًّا كان أزهد فيما تناحرَ النّاسُ عليه ، ولأنّ أزهَدَ الناسِ فى الدُّنيا أرغبُهم فى الآخرة ، ولأنّ أرغبَهم فى الآخرة أعلمُهم بأحوال الآخرة .

قلنا : قد صدقتم فى صفة الزُّهد ، ولكنّ أبا بكر كانَ أزهدَ منه . وسندُلُّكم على ذلك .

فِمن ذلك أنّ أبا بكر كان ذا مال كثير ، ووجهٍ عريض ، وتجارةٍ واسعة ، فأنفق ذلك فى سبيل الخير وعلى أهله ، إيثاراً لله ولرسوله ، وطلب ما عنده ، حتّى لقِيَ[٣] [اللّهَ] ، وما كانت تركتُه يوم مات غير بعير ناضح ، وعبدٍ صَيقَل[٤] ، مع الخلافةِ وكثرةِ الفتوح والغنائم والخرْج والصّدَقة .

---

(١) أى أثقله المرض وأشرف على الوفاة .

(٢) فى الأصل : « عنيت » بالإهمال .

(٣) فى الأصل : « بقى » بإهمال الحرف الأول .

(٤) الصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها .

وكان علىٌّ بنُ أبى طالبٍ مُقِلاًّ مُخْفِقاً(١) يُمال ولا يعول ، فاستفاد الرِّباع(٢) والمزارع ، والعيون والنَّخيـل ، ومات ذا مالٍ وأوقاف ، وما يُحسَب مالُه ووَقفُه بيَنْبُع(٣) إلّا مثلَ كلِّ شىء ملـكه أبو بكر مذْ كان فى الدُّنيا إلى أن فارقها . وتزوَّجَ فأكثر ، وطلَّق فأكثر ، حتّى عابهُ بذلك معاويةُ ، وجعله طريقاً إلى تنقُّصه ، وسبيلاً إلى الطَّعن عليه ، فقال وهو يكنى عن ذكره ويُريده ؛ ليَكونَ أسَدَّ لسهمه ، وأوقعَ فى(٤) قلب مَن سمعه : « إنِّى والله ما أنا بنُـكَحَةٍ ولا طُلَقَة » .

والآثارُ أنَّ عليًّا رحمةُ الله عليه ، استُشهِدَ وعنده تِسعَ عشْرةَ سُرِّيَّةً مطهَّمةً(٥) وأربعُ نسوةٍ عقائل .

ولا سواءٌ مَن كان ذا مال فأنفقَه ، ومن كان مُقِلاًّ فـكَسَبه .

ولم يتزوَّجْ أبو بكر فى خلافته امرأة ولا اتَّخَذ سُرِّيَّة ، ولا تَفكّه بشىء ، ولا آثرَ لذَّةً(٦) إن كان له طِلْقاً مباحاً .

ثم الذى كان من أبى بكر فى عمالته(٧) : أنَّه كلَّف بنى تيم ومَن عِنده أياديه ومِنَنُه أنْ يردُّوا ما أخَذ من بيت المال فيه ، لـكى يجعل عُمالته لله . وعلى ذلك احتذَى عمر . وقد كان علىٌّ يأخُذ عُمالته ، ولم يُخبرنا أصحابُ الآثار أنَّه ردَّها فى بيتِ المال ، ولا كلَّف ذلك بنى هاشم

---

(١) أخفق الرجل : قل ماله .

(٢) الرباع : المنازل ، جمع ربع .

(٣) مهملة فى الأصل « سبع » . وانظر معجم البلدان .

(٤) فى الأصل : « فأوقع من » .

(٥) السرية : الجارية المتسراة . المطهمة : الحسناء الجميلة .

(٦) فى الأصل : « امرله » بالإهمال .

(٧) العمالة ، بتثليث العين : أجر العامل .

فى وصيَّة . وهذا ما لا يختلف فيـه رجلان من أصحاب الآثار ، وحُمَّال الأخبار .

وقد كان أخَذَ لَقُوحاً وَحَبشيَّةً لرضـاع بعض ولده فردَّ ذلك(١) فى بيت المال .

ولـما بايعَ النَّاس أبا بكر غدا على سُوقِهِ كما كان يفعل ، فقالوا : فلابدَّ أن نجعلَ لخليفة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم شيئاً يُقيمه . قالوا : بُرديْه إذا أخلقَهما وضَعَهما وأخَذ مكانَهما ، وظَهرَه إذا سافر ، ونفقته على أهله كما كان يُنفق قبلَ خلافته . قال : رضيت . فجمع ذلك كلَّه وحَفِظه ، ثمَّ أمَرَ بنى تَيمٍ فردُّوه فى بيت المال . فخرج من الدُّنيا خفيفَ الظَّهر ، خميصَ البطن . فلمَّا فعل ذلك قال عمر : رحم الله أبا بكر ، لقد شَقَّ على مَنْ بعده !

فإن قالوا : أوليس قد كان علىٌّ ينْضَح بيتَ المال فى كلِّ جُمعةٍ ويصلى فيه ركعتين ؟

قلنا : إنَّا لم نـكُنْ فى ذكر الأمانة والخِيانة ؛ لأنَّ أبا بكرٍ وعليا يرتفعان عن هذا الضَّرب من المديح ، وعن هذا الضَّرب من الثناء ، وإنَّما كُنَّا فى ذكر الزُّهد فى المباح ، وفى الإيثار والرَّفض للفُضول ، لأنَّ بينَ الرَّجُل يُعطى مالَه وعليه ، وبين مَنْ يُعطِى ما عليه ولا يعطى مالَه فرقٌ .

ومما يدلُّ على فضله أنَّ الله أنزَلَ فيه من القرآن ما لم يُنزِلْه فى أحد

---

(١) فى الأصل : « فى ذلك » .

من المهاجرين والأنصار . كلٌّ ذلك يخبر عن فَضْله ، ويدل فيه على مكانهِ منه ، ويُثنى عليه ويزكّيه ويعظّمه . وليس مَنْ أفردَ اللهُ فيه الآىَ ، وأفردَه بالذِّكر كمن ذكره فى جملة المؤمنين ، وجمهور الأنصار والمهاجرين .

ولا سبيل إلى المعرفة بأنّ الله عَنَى بآيةِ كذا وآية كذا فلاناً دون غيره إلّا بضربَين : إما أن يكون اسمُه وخاصّةُ نسبه ونعته(١) مسطوراً فى الآية ، كما ذكر فرعونَ وأبا لهب ، وفلاناً وفلاناً ، وكما ذكر آدمَ ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلى الله عليه وعليهم .

أو يكون المرادَ بالآية وإن لم يذكر اسمُه ، كما ذُكر لقمان ، وزيدٌ(٢) . [وزيدٌ] مشهور النسب معروف القِصّة أنّه المراد بالآية ، وبشهرة القصّة والنّسبة حتّى لا يكون بين أهل ذلك الدّهر فى ذلك تنازع ، ولا بين أصحاب التأويل والأخبار فى دهرنا هذا ؛ فيكون كأنّه مُسمّى وإن لم يُسَمَّ .

وقد كانت تحدُث بين الناس أمورٌ فيَنزل القرآنُ عقِب ذلك ، فيعلم المهاجرون والأنصار مَن المرادُ بهذا التنزيل . كالذى كان من شأن عائشة وما قُرِفت به ، حتى أنزل الله لذلك السبب آياً كثيراً ، وإن لم يكن الله سمّى عائشة ولا مَن قرَفها . وكالذى نزَل من القرآن فى قصّة الغار وهجرة النبي صلى الله عليه وأبى بكر ، وهرَبهما من قُريش ، ونُصرة الله لهما .

فكان ممّا أنزل الله فى أبى بكر من تفضيله وتزكيته وإنْ لم يُسمّه قولُه لجميع المؤمنين : « إلاّ تَنصُروهُ فقدْ نصرَه اللهُ إذْ أخرجه الذين

(١) فى الأصل : « اسمه » .

(٢) أي ولو لم يذكر اسمهما في القرآن لكان معروفاً أيضاً أنهما المرادان .

كَفروا ثانىَ اثنين إذْ هما فى الغَار إذْ يقولُ لصاحبهِ لا تحزنْ إنّ اللّهَ مَعنا فأنزلَ اللّهُ سَكينتَهُ عليه وأيَّده بجُنود لم تَرَوْها وجعَلَ كلمة الذينَ كفَرُوا السُّفْلى وكلمةُ اللّهِ هىَ العُلْيا ، واللّه عزيزٌ حكيم(١) » .

فلا يخلو قولهُ : « إلاّ تَنصُروه » من أحد وجوه : إمَّا أن يكون خاطبَ به المشركين عامّةً ، أو خصّ به الخاذلين العادين والباغين ، أو يكون خاطب به المؤمنين .

ولا يجوز أن يكون عَنى به المشركين ، لأنّه لا يجوز فى الحكمة وفى المعروف من البيان أنْ يقول الرجل الحكيمُ المبين ، للعدوّ المكاشِف بعداوته ، المظهر لِضغنه ، الباذل لرأيه وماله ، المعاند فى فعله : إلاّ تنصرنى فقد نصرنى فلان ! لأنّ النصرَ لا يُلتَمس من العدوّ المكاشِف ، وإنما يُلتَمس من الولىّ أو من الخاذل .

وكيف يقول هذا وإنّما غايته الانتصارُ منه بغيره .

وفى قول اللّه عز وجلّ : « إذ أخرَجه الذين كفروا » دليلٌ أنّ المخاطَبَ بالكلام غيرُ الذين كفروا به وجَحَدوه وأخرجوه . ولا يجوز أن يكون عَنى الخاذلين له من قُريش ومُشركى مكّةَ إلاّ والخاذلون قد كانوا هناك معروفين ، بائنِين من العادين المتوثّبين المُبادين بالعداوة ، المظهرين للمحاربة . ولا نعلمهم كانوا ببطن مَكّة صِنفَين متمايزَين ، [و] فريقين متباينين ، حتّى يكون كلُّ حزبٍ مشهوراً بالذى هو عليه من الخِذْلان والعداوة . وليس بطنٌ من بطون قريش إلا وقد لقى النبى صلى اللّه عليه وسلم منه أعظمَ المكروه وإنْ كانوا فى ذلك على طبقات : من مجتهدٍ لا يُبقِى ، ولا يَفتر ولا يسأم ، ومِن رجلٍ مائل معهم بضَلَعه(٢)

(١) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٢) الضلع ، بالفتح : الميل .

مُبْدٍ معهم لضرّه[١] وإن كان لا يبلغ غلوّ الآخَرَ وتصميمه وقلة إغفاله .

ولقد كانت خُزاعةُ وثَقيفٌ على بعد أنسابها وأرحامها أحسَنَ تقيّةً من قريش فى إظهار المداوة ، والإرصاد بالمكروه ، والثّبات على البغى ، كالذى بلغَك عن الأخنس بن شَريق وعُروةَ بن مسعود ، وبُدَيْل بن ورقاء ، مِن رُكونهم إلى الصُّلح وحبِّهم للسلامة ، مع قلّة التسرُّع والتوثُّب . على أنّهم قد أجلبوا وطعنوا ، وكفروا وكذّبوا ، بعد الإفصاح لهم بالحجّة ، والإبانة لهم عن المحجّة .

ولقد كان أبو لهب على قربه وقرابته ، شبيهاً بأبى جهل فى الغِلظة والقسوة والجفاء ، وكثرة التّدرّى[٢] ، وقلّة السآمة .

ولم يكن أبو طالبٍ يوم نزلت هذه الآيةُ حيًّا مقيما فيكونَ الله جلّ ذكرُه عناه فيمن أطاعه من رهطه بهذا الكلام . على أنّه لو كان حيًّا لقد كان معلوماً أنّه لم يكن هناك أحدٌ أحسنَ ذبًّا ، ولا أشدّ نصراً ، ولا أظهرَ مَعونةً ، ولا أشدّ حمايةً منه .

ولم يكن اللهُ ليُعرِّف قوماً موضعَ الخلّة فى النُّصرة ، والتقصير فى المدافعة ، إلاّ وأدنى منازِلهم أن يكونوا مُقْرِنين[٣] لمن ناوَأهم ، مضطلعين بدفع من شاقّهم[٤] .

ولا نعلم يومَ كانت هذه القصّة ، ونزلت هذه الآية ، وبمكّة رجلٌ

---

(١) فى الأصل : « لنصره » .

(٢) التدرى : الختل .

(٣) المقرن : المطيق . وفى الكتاب : « وما كنا له مقرنين » .

(٤) فى الأصل : « مصلعين » . يقال هو مضطلع بالشىء ، أى قوى عليه قادر .

من بنى هاشم مطاعٌ متبوعٌ غير العبّاس بن عبد المطلب . ولا يجوز أن يقول الله للعباس ومَن كان فى ذَرَاه ممّن يسمعُ له ويَنْفذ لأمره : « إلاّ تَنصُروه فقدْ نصَرَه الله » ، وقد علم أنّ العباس وأشباهَه من مشْيَخة بنى عبد مناف لا أعوانَ لهم يومئذ من بنى عبد مناف ، لأنّ بنى عبد مناف دِنيا[1] على قربهم وقرابتهم ، كانوا أشدّ الخلق على رسول الله ، كأبى سفيان بن حرب ، وعُقْبة بن أبى مُعَيط ، والحكم بن أبى العاص ، وأبى أحيحة ، وعُتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وفلان وفلان . ولم تكن أميّةُ انمازت فى ذلك الدهر من هاشم ، وكان يقال للحيَّين : عبد مناف . [و] كان من أمر عُثمان الذى بَلغك .

فقد دلّ الكلامُ على أنّ الله إنّما عَنى بالآية المؤمنينَ دون الكافرين ؛ إذ كانت مخاطبةُ العادى والخاذل على ما وصفنا . وليس أنّه أراد تأنيب المؤمنين وتقريع المهاجرين ، ولكنّه أخبر عن تقصيرهم عن فضيلة أبى بكر إذ ظعنوا وأقام . وليس النّقص فى الفضل كالنّقْص فى الفرض . فكأنّه تعالى وعزّ قال : لو كنتم صبَرتم مع نبيِّكم ، ما أقام ، إلى وقت الإذن[2] كصبر أبى بكر معه ، ولم تخرجوا هاربين جازعين ، ولدار نبيّكم مهاجرين ، كانَ أشدَّ لصبركم ، وأكملَ لرغبتكم ، وأتمّ لتقيَّتكم . وليس أنّكم عَصَيتم فى خروجكم ، ولكن بعض الصَّبر والاحتمال أفضلُ من بعض ، وكذلك الطّاعة تطوّعها وفرضُها . كما قد علمتم أنّ بلالاً وخبّاباً وعماراً حين فضّهم[3] المشركون عن دينهم جزعَ عمّارٌ وأعطاهم الرِّضا ، مع انطواء قلبه

(١) يقال هو ابن عمه دنيا ، أى لحا . (٢) أى الإذن بالخروج والهجرة .

(٣) كذا فى الأصل مع شدة فوق الضاد . و « فتنهم » أولى بهذا المقام .

على الإخلاص ، وثَلَج صدرِه بالإيمان ، ولكنّ عزْمَه كان منقوصاً عن التمام ، من غير أن يكون ذلك عِصياناً ولا خِلافاً . ويدلك على ذلك قول الله : « إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقلبُه مُطمَئنٌّ بالإيمَان » . ولذلك قال النبى صلى الله عليه لعمّار : « إنْ عادُوا فعُدْ » ، يريد به التَّوسِعَة والرُّخصة والإطلاق ، وليس على الأمر والترغيب .

وكما بلغَكَ عن الرّجُلين الواردَيْن على مُسَيْلِمة ، حين قال لأحدهما : أتعلم أنِّى رسولُ الله ؟ قال : نعَم . قال : أفتعلم أنَّ محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فأمَرَ به فقُتِل . وقال للآخَر : أتعلم أنِّى رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فتعلَم أنَّ محمداً رسولُ الله ؟ قال : نعم . فأمر بتخلية سبيله . فلما بلغ ذلك النبى صلى الله عليه قال : أمّا الأوّل فمضَى على عَزْمه ويقينه فهنيئاً له ، وأمّا الثّانى فأخذ برُخصة الله فلا تَبِعةَ عليه .

فعلى هذا المثالِ كان تقصير القوم ، لا على وجه الخِلاف والمعصية .

وذلك أنَّ أبا بكرٍ أقام بمكة ما أقام النبى صلى الله عليه وسلم ، وهاجَرَ الناسُ الأوّلَ فالأوّلَ ، فبعضٌ أتى المدينة ، وبعضٌ أتى الحبشة ، حينَ اشتدَّ عليهم البلاء وطالَ الذُّل وقَلَّ الناصر ، وقَوِيتِ الضَّغائن ، فكان النَّفَر بعد النفر ، والرّجل بعد الرجل ، يستأذن النبىَّ صلى الله عليه وسلم فى الهجرة فيأذَن له . وأقام أبو بكرٍ وحيداً لا أنيسَ له ، وذليلا لا ناصر له ، وخائفاً لا أمانَ معه ، فى كلِّ يومٍ يزدادون عليه قوّة ويزداد عنهم ضعفا فإذا بلَّحَ (١) وبلغ المجهود ، ولم يبق فى قُواهُ فَضلٌ يستعين به على الصَّبر ، استأذن النبىَّ صلى الله عليه وسلم فى المضىّ إلى إخوانه واللَّحاق بهم ،

---

(١) الكلمة مهملة فى الأصل . وبلح تبليحاً : أعيا .

فيقول له : « لعلَّ الله أن يجعَل لك صاحباً » فيزداد بها أبو بكر قوّةً ، وتحدثُ له بها هِمّة . وهذه كلمةٌ ما قالها النبيُّ صلى الله عليه لمستأذِنٍ قبلَه ، فيعلم أبو بكر عند ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم إنّما عناه ؛ فيُشجِّعُ من نفسه ، ويشُدُّ من مُنَّتِه ، طمعُه في شرف الصُّحبة ، وإكرامِه إيّاه بفضيلة المرافقة .

وقد استأذنَ النبيَّ صلى الله عليهِ الناسُ [قبله(١)] بِسِنِين ، فكان أوَّلهم أبو سلمةَ بن عبد الأسد(٢) ، وآخرهم عمر بن الخطاب ، لقُرب حالِ عمر في الفضل والصَّبر من حال أبي بكر . فكأنَّه خاطَبَ المهاجرين ، على التعريف لهم بفضيلة(٣) صبر أبي بكر على صبرهم ، مَشْحَذةً لهم على إعطاء الُجهد ، وترغيباً لهم في غاية الصَّبر في مستقبل الأمور وحوادث الامتحان . فكأنَّه قال : إذا لم تستتمُّوا الصبر ، ولم تبلغوا غاية الجهد ، ولم تصبروا ما أقامَ ، فقد نصرتُه أنا إذ أخرجتُه ثانيَ اثنين .

والدليل على ما قُلنا قولُ عمر لقريشٍ حين بادأهم المداوة ، ونَصَب لهم الحرب ، وأحسَّ من نفسه بالَجلَد وشدّة الشَّكيمة ، وقوّة العزيمة : « أمَا واللهِ أنْ لو قد صِرنا مائةً لتركتموها لنا إن تركناها لكم » يعني مكّة .

فلو كان جميعُ من هَاجر إلى الحبشة وأتى المدينة على مِثل هذا العزْم

(١) تكملة يفتقر إليها الكلام .
(٢) اسمه عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي ، أسلم بعد عشرة أنفس ؛ وكان أخا النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاع . الإصابة ٤٧٧٤ .
(٣) في الأصل : « فضيلة » .

والاحتمال والدَّفع ، وهم جميعٌ ، لـكانَ ذُلُّ من أقام ووَحشتُه أقلَّ ، ونفوسُهم أطيَب .

والدَّليل على فضيلة مُقامِ أبى بكرٍ على ظَعْنهم أنَّهم حيثُ هاجروا ونزَلوا بالنَّجاشىّ والأنصار فنزلوا بأكرمِ مَنزولٍ به ، فـكانوا فى ذَرَاهُ آمنين ، رافهين وادعين ، إلَّا ما كان من قِصَّة جعفرٍ ، وسعاية عمرو ، وإحماش النَّجاشىِّ وتهييجه[1] . فما كان ذاك إلاّ صَدْرَ نَهار حتَّى جعلَ اللهُ العاقبة للمتَّقين . وأبو بكر والنبي من الوَحدة والقِلّة ، والجفْوة والوَحْشة ، وخِفَّة ذات اليد ، والسَّبِّ والإهانة ، والخوف بالقدر الذى لايأتى عليه قولٌ وإن كثُر ، ولا يبلغه وهمٌ وإن اتَّسع .

وهكذا روينا عن الضَّحَّاك وقَتادة وأبى بكر الهُذَلىّ فى تأويل هذه الآية : أنَّ الله عاتَبَ جميعَ المؤمنين بها غير أبى بكر . ولو لم يَكُنْ رواية[2] ولم يفسِّر ذلك صاحبُ تأويل ، لم يجُزْ أن يكون تأويلُه غيرَ الذى قلنا ؛ للذى شَرحْنا وفصَّلنا .

ولو كانت هذه المخاطبةُ وقعَتْ على الخاذلين والمادين ، أو على الخاذلين دون العادين والمؤمنين ، لقد كان لأبى بكر فى الآية ماليس لأحد ، فـكيف بها

(١) أما جعفر بن أبى طالب ، فـكان سبباً فى إسلام النجاشى حين أبان له حقيقة الدين وشرح له ما يدعو إليه . وأما عمرو بن العاص — وهو أحد رجلين كانت قريش أرسلتهما إلى النجاشى ليرد عليهم المؤمنين المهاجرين ليفتنوهم كما فتنوهم من قبل . والآخر هو عبد الله ابن أبى ربيعة — فإنه سعى سعياً حثيثاً لدى النجاشى فى ذلك ، وحاول أن يفسد نجاحهما فى دعوة النجاشى إلى الدين ، وكان مما قاله فى تهييج النجاشى : « أيهـا الملك إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما » . ولـكنه أخفق فى ذلك وتم إسلام النجاشى . السيرة ٢١٥ — ٢٢٥ .

(٢) فى الأصل : « ولم كان يكن » مع خط على « كان » .

إن كانت فى المهاجرين ؛ لأنَّ فى قوله « ثانىَ اثنين » معنًى عظيما ، وفى قوله : « فأنْزَلَ الله سَكِينَتَه » معنًى عظيم .

فإن قالوا : كلُّ ماعظَّمتم فعظيم ، ولكنَّ بعضَه لا يجوز إلا للنبىّ صلى الله عليه دون أبى بكر ، وهو قوله : « فأنْزَلَ الله سَكينته عليه » .

قيل لهم : استكرهتم التَّأويل ، وصَرفتم الكلامَ عن سَنَنِه ، وغيرُ تأويلكم أشبهُ بكلام العرب ، وأظهر فى بيان الخُطباء ، ومراجعة الحكماء . وذلك أن النبىَّ صلى الله عليه كان هو الرَّابطَ الجأش ، الثَّابت الجنَان ، السَّاكن النَّفْس ، وهو المعزِّى لأبى بكر ، والمسهِّلُ عليه شدّة حُزنه ، والمطيِّب لِنفسه ، والمسكِّن لحركة قلْبه ، للذى[1] رأى وعايَنَ من اكترائه ومن اضطرابه ، وقِلّة سكينته . وهذه الحالُ التى فيها قُلِّبَ النبى صلى الله عليه وخليفته ، وأبو بكر على ما وصَفْنا وفرَقْنا ، هى الفاصلة بين النبىّ صلى الله عليه وبين خليفته ، إذْ كان الخليفة قد شارك النبىّ صلى الله عليه فى حضوره واحتماله ، وبان منه النبى صلى الله عليه بشدّة عزمه وسَعَة صَدْره ، وسُكون قلبه ، كالفصل الذى بين الخليفة وولىّ عهده .

وكذلك[2] تعجَّل عمرُ الهجرةَ قبل أبى بكر ، فكان بذلك أنقصَ فضلا منه . وتأخَّر بعد المهاجرين ، فكان بذلك أتمَّ فضلا منهم .

(*) وفى قول الله : « إذ يَقُول لصاحِبِهِ لا تحزَنْ إنَّ الله مَعَنا فأنزَلَ اللهُ سكينَتَه عليه » دليلٌ على أنَّ السَّكينة نزَلَتْ على صاحبه ، وأنَّ الهاء التى فى « عليه » مضمرٌ فيها صاحبُه . ولا يشبه أن تكون

---

(١) فى الأصل : « الذى » .
(٢) فى الأصل : « ولذلك » .

السّكينة نزلَتْ على مَنْ لم يَخْلُ من السَّكينة وقِلّة الاضطراب ، وعلى المسّهل على صاحبه والمطيِّب لنفسه[1] والمبشِّر له بالنّصر ، حين يقول : « لا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ معنا » . وهو كما أخبر أبو معاويةَ الضّريرُ ، عن عبد العزيز بن سِياهْ ، عن حبيب بن أبى ثابت : فى قول الله : « فأنْزَل اللهُ سَكِينتَه عَلَيه » قال : عَلى أبى بكر ؛ فأمّا النبى صلى الله عليه فقد كانت السكينةُ عليه من قبل ذلك[*] .

فإن قالوا : فكيف وقد قال الله على نَسَق الكلام : « وأيَّدَهُ بجنودٍ لم تَرَوْها » ، والمؤيَّد بالجنود فى هذا الموضع لا يجوز أن يكون إلاّ النبى صلى الله عليه ، لأنّ الجنودَ الذين عَنَى اللهُ ملائكتُه .

قيل لهم : وما تنكرون أن يكون الله أيّدَ رجلاً بالملائكة ، بشفاعة النبى صلى الله عليه وبِشارته وبحقِّ صُحبته ، كما أيّد اللهُ جميعَ أهلِ بدرٍ بالملائكة ، وكما زعموا أنَّ الملائكةَ نزلت فى زِيِّ الزُّبير ، وليس أنَّ الله حين أيّد أبا بكر بالملائكة أنّه أراه جبريلَ وميكائيل ، ولكن

---

(١) فى الأصل : « والمطيع لنفسه » . انظر ما مضى فى الصفحة السابقة س ٩ .

*) الكلام من « وفى قول الله » س ١٠٧ س ١٧ إلى هنا هو موضوع الرد (٢٨) الذى سيأتى فى نهاية الكتاب . والنص عند ابن أبى الحديد ٣ : ٢٧١ :

« قال الجاحظ : ومن جحد كون أبى بكر صاحب رسول الله فقد كفر ، لأنه جحد نص الكتاب . ثم انظر إلى ما فى قوله تعالى : « إن الله معنا » ، من الفضيلة لأبى بكر ، لأنه شريك رسول الله صلى الله عليه وآله فى كون الله تعالى معه ، وإنزال السكينة . قال كثير من الناس : إنه فى الآية مخصوص بأبى بكر ؛ لأنه كان محتاجاً إلى السكينة لما تداخله من رقة الطبع البشرى والنبى صلى الله عليه وآله كان غير محتاج إليها ، لأنه يعلم أنه محروس من الله تعالى ؛ فلا معنى لنزول السكينة عليه . وهذه فضيلة ثالثة لأبى بكر » . وقد جمع فى هذا النص بين ما ورد فى ص ٤٤ ، ٥٠ — ٥١ .

ليعلمه[١] النبي صلى الله عليه أنَّ بحضرته ملائكةً قد أرسلهم الله ليمنعوه من المشركين ، ليَسكُن بذلك رُوعه ، وتهدأَ نفسُه ، وليثقَ بحضور النَّصر وتعجيل الدَّفْع .

وقد علِمْنا أنَّ الله لم يجعل مع كلِّ مؤمنٍ ملَكين يكتبان خيرَه وشرَّه استذكاراً ، ولكنَّ المؤمن إذا شعَر بمكانهما كان أقطعَ له عن ركوب الأدناس ، وأدعَى له إلى الاستحياء ، وليعلمَ أنَّ الأمر جِدٌّ وليس بهزل .

فكذلك إحضار الملائكة لأبي بكرٍ ، ليكون بِشارةُ النبي صلى الله عليه له بذلك تسكيناً لنفْسه ، وتعجيلا لبعض ما استحقّ بالاحتمال والمواساة والصبر ، من الثَّواب المعجّل دون المؤجّل .

ولقد بلغَ من ظهور قصة أبي بكر وصُحبته ومُرافقته وكَونِه مع النبي صلى الله عليه في الغار ، أنَّ الرَّوافض مع شدة الإقدام ، والجُرأة على تكذيب النَّاقلين ، لم تقدر على دفْعه وردّه ، حتَّى قال منهم قائلون : إنَّما أخرجَه النبيُّ صلى الله عليه خوفاً من أن يَدلَّ عليه ويسعى بأمره إلى أعدائه ، لأنَّه كان حَسَّ من النبي بالهجرة ، وعرَف مِيقاته الذى عزَم عليه .

وكيف يجوزُ أنْ يخاطبَ الله الناسَ فيقول : « إلاَّ تنصروه فقَدْ نَصره الله إذْ أخرجَه الذين كفروا ثانيَ اثنين » والذى به كان النبي صلى الله عليه بائناً قد أَبَرَّ على الأعداء[٢] وأربَى على الكُفّار ، لأنَّ النفّاق أعظم من التَّصريح .

---

(١) في الأصل : « يعلمه » .

(٢) أبر عليهم : غلبهم . وكلمة « أبر » مهملة في الأصل .

وهذا ما لا يجوز فى عَقل ، ولا يَسنَح فى فكر ، ولا يجوز فى التّعارف ، ولا يليق بالبيَان .

وكيف والله يقول على اتّصال اللّفظ باللفظ والمعنى بالمعنى ، وتركيب الآية الأخرى على الأولى : « وجَعَلَ كلمةَ الّذِين كفَرُوا السُّفْلَى وكلمةُ الله هى العُلْيا » .

ولا كافرَ أعظمُ كفراً ، ولا أشدُّ عنوداً مِن ثانِيه وصاحِبه فى الغار ، ورفيقه فى الطريق ، والمعَزّى لشدة حُزْنه ، إنْ كان الشأنُ على ما قالوا وكما وصَفُوا .

وإنما المنافقة[1] أن يكون الرجل معتقدًا لجحد الرسول وعداوته ولكن الرسولَ هو الغالب على داره القاطع لمن باداه بالعداوة ، وناوأه فى الفضيلة ، فإنما يستبقى نَفسَه بنفاقه ، وبتزميل حقده ، وإخفاء ضِغْنه . فأمّا رجلٌ مقيم بمكّة قَليلٌ مُفْرد ، وذليل مطرَّد ، وخائف مشرَّد ، بين استخفاء يَعْدِل الموت ، أو هرب يقطع الأحشاء ، والذى هرب معه مقهور مخذول ، والغالب على داره عدوُّه ، فكيف كان أبو بكر منافقاً والحال على ما وصفنا ؟!

ولولا كثرةُ الفساد وما عمّ النّاسَ من الغلط وفُحْش الخطإ ما كان لذكر هذا وشِبهه معنى .

والأثر المجتمَع عليه من أصحاب السِّير والأشعار والأخبار ، أنّ النبى صلى الله عليه قال لحسّان : أمَا قلتَ فى أبى بكر شيئا[2] ؟ فأنشأ يقول :

---

(١) فى الأصل : « المنافقون » .

(٢) فى البيان ٣ : ٣٦١ أن الأبيات رثاء فى أبى بكر . وانظر ما كتبت هناك فى حواشيه وكذا جمهرة أشعار العرب ص ١٣ وصفة الصفوة ١ : ٨٩ .

إذا تذكرتَ شَجْوًا من أخى ثقةٍ   فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
التَّالىَ الثانىَ المحمودَ مشهدُه   وأوَّلُ النَّاسِ منهم صدَّق الرُسلا
وثانىَ اثنينِ فى الغارِ المنيفِ وقد   طاف العُداةُ به إذْ صعَّد الجبلا
خيرَ البرّية أتقاها وأطهرها   إلاَّ النبىّ وأوفاها بما حملا

فجعله تالياً ، وثانيا ، وصاحباً .

وقال أبو مِحجَن :

وسمِّيتَ صدّيقاً وكلُّ مهاجر   سِواكَ يسمَّى باسمِهِ غير منكر[١]
سبَقْتَ إلى الإسلام واللهُ شاهدٌ   وكنتَ جليساً بالعريش المشهَّرِ
وبالغار إذْ سمِّيت بالغارِ صاحباً   وكنتَ رفيقاً للنبىِّ المطهَّرِ

فجعله سابقاً وصدِّيقا ، وجليساً وصاحبا .

وقال كعب بنُ مالك :

بقتَ ، أخا تَيم ، إلى دينِ أحمد   وكنتَ لدى الغِيران فى الكهف صاحبا

فجعله سابقا ، وجعله صاحباً .

وقال النَّجاشى :

داةَ أتى بدراً وحَرَّ جِلادُهم   وكان جليساً بالعريش مُؤازرا[٢]

فلو لم تكن له مأْثرةٌ إلاَّ ما دلَّت عليه هذه الآية ، وإلَّا شرفَ هذه الصُّحبة ، ومَوقع هذه الخاصة ، ونُبل هذه المرافقة ، ومَشاهدِه الثّقة ، لكان فوقَ الجميع فى المكانة والفضيلة ، وفى مُرافقة النبى صلى الله عليه .

---

(١) هذه الأبيات مما لم يرو فى ديوان أبى محجن .
(٢) حر يحر ، من باب ضرب وقعد وعلم : اشتد حره .

سمعَ أهلُ مكة الهاتفَ بالليل على قَرْن الجبل(١) وهو رافعٌ عقيرته ، يقول :

جزَى اللهُ ربُّ الناس خيرَ جزائه ... خليلَيْ صَفَاءٍ طَرَّدا كلَّ مطردِ
هُما نزَلا فى الصُّبْح ثُمَّتَ هَجَّرا ... وأفلحَ مَنْ أمسَى رفيقَ محمَّدِ
ليَهْنِى بنى كعبٍ مكانُ فتاتِهم ... ومَقعدُها للمؤمنين بمَرصدِ(٢)

وقال الحارث بن هشام :

رفيقان فى المحيَا وفى الموت ضُمِّنا ... بأكرم مَثوى منزل ومكانِ

فهذا هذا .

ثم الذى كان مِن قِصَّة مِسْطَح بن أُثاثة وقَضيّته(٣) ، وكان ربيبه وابن خالته(٤) ، وفى مَؤُونته وتحتَ جناحه ، فلما قُرِفت عائشة بالذى قُرِفت به وبَلَغَك ، آلى أبو بكر ألاَّ ينظرَ فى وجهه ، ولا يُنفقَ عليه ولا يَكفُلَه ولا يَمُونَ عِياله ، فلمَّا أنزل اللهُ عذرَ عائشة وبراءتَها ، ولم يَرضَ لها بالطَّهارة والعِفَّة حتَّى جعلَها غافلة ، فضلا على أن يكون خطَرَ ذلك على بالها فتَنفِيَه ، إيثاراً للحلال على الحرام . وأنزل الله على رسوله صلَّى الله عليه فى آية(٥) يأمر أبا بكر بالصَّفح عن مِسْطح ، والتَّجاوزِ عن ذنْبه ، وتغمُّدِ ما كان منه ، وأن يُعيدَه فى كنَفه وعياله ، فقال : « ولا يأتلِ أولُو الفَضل مِنكم والسَّعة » . فما ظنُّك بأمرئٍ يقول الله له وفيه هذا القولَ ، ويصفُه بهذه الصِّفة حتَّى يقول : « ولا يأتلِ أولُو الفَضل مِنكم والسَّعة أن يُؤتوا أُولِى القُربَى والمساكينَ والمهاجرينَ فى سبيل الله وليَعفُوا وليَصْفحوا ألاَ تحبُّون أن يَغفِر

(١) هو جبل أبى قبيس ، كما فى عيون الأثر ١ : ١٨٨ .

(٢) انظر السيرة ٣٣٠ وابن سيد الناس ١ : ١٨٧ — ١٨٩ والرياض النضرة ١ : ٧٧ . والفتاة هى أم معبد بنت كعب ، من بنى كعب بن خزاعة .

(٣) فى الأصل : « وقصته » .

(٤) الصواب أنه ابن بنت خالته ، كما فى الإصابة والسيرة ٧٣٣ .

(٥) فى الأصل : « عن آية » .

اللهُ لـكم والله غفورٌ رحيم[١] » ، فتلاها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على أبى بكر ، فلمّا انتهى إلى قوله : « ألَا تحبُّون أن يغفر الله لـكم » قال أبو بكر : بلى يا ربِّ ! فعفا عنه ، فوجبت له المغفرة ، وأعاده إلى نعمته ، وجمَل عيالَه فى حَشاه وتحتَ ظلِّه .

فمَنْ أعظمُ قدراً منْ رجُل يفرِد الله له الآىَ فيه معظِّما لشأنه ، ذاكراً لفضله على لسان جبريل ومحمد عليهما السلام . فهذا هذا .

وقد أجمع أهـلُ التّأويل على أنّ الله عَنَى بقوله : « والذى قَالَ لوالديهِ أفٍّ لـكما أتعدانِنى أنْ أُخْرَجَ وقد خَلَت القرُونُ مِنْ قبلى وهما يَسْتَغيثان الله ويلكَ آمِنْ إنّ وعدَ الله حقٌّ فيقولُ ما هذا إلاّ أساطير الأولين[٢] » أبا بكرٍ ، وعبدَ الرحمن بن أبى بكر ، وأمّه .

وكان أبو بكر وأهلُ بيته أهلَ بيتِ إسلام : كان هو مسلماً ، وامرأتهُ مسلمة ، وأبواه مسلمان ، وبناته مسلمات . وليس فى العشَرة الذين قال لهم النبى صلى الله عليه إنّهم فى الجنة ، ولا فى قريش قاطبةً رجلٌ مؤمنٌ مؤمنُ الأبوين غيرَ أبى بكرٍ الصّديق ، ولا فى قريشٍ خاصّة والمهاجرين عامة صاحبٌ ابن صاحبٍ ابن صاحبٍ غير عبد الله قتيل الطائف ابن أبى بكرٍ الصِّدِّيق ، ابن أبى قُحافةَ المسلمِ يوم مكّة[٣] ، والقائل فيه رسـول الله صلى الله عليه لأبى بكر : « فهلاّ تركت الشّيخَ فى منزله فأتيناه ! » . وله صحبة .

واجتمع أهل التأويل على أن قوله : « أفَمَنْ يمشى مُكِبًّا على وَجْهه

---

(١) الآية ٢٢ من سورة النور .

(٢) الآية ١٧ من سورة الأحقاف .

(٣) انظر خبر إسلام أبى قحافة فى السيرة ٨١٥ — ٨١٦ .

أهْـدَى أمْ مَنْ يَمْشِى سَوِيًّا على صراطٍ مُستقيم » نزلت فى أبى بكر وأبى جهلٍ . ألا ترى أن أبا جهل رأسُ الكفر فلم يُقْرَنْ به ولم يُوضَع بإزائه من المسلمين إلاّ رأسٌ مثله .

وقال الله : « فأمَّا مَنْ أعْطَى واتَّقَى وصَدَّق بالحُسْنَى » الآية ، يعنى أبا بكرٍ فى إنفاقه المالَ وعتْقِه الرِّقابَ والمعذَّبين وقوله : « كذَّب وتولَّى » يعنى أبا جهـل . وليس فى الأرض صاحبُ تأويلٍ خالفَ تأويلنا[1] ولا ردّ قولنا إنّ هذه الآية نزلت فى أبى بكر .

وأما قوله : « قُلْ للمخلَّفين مِن الأعراب سَتُدْعَوْن إلى قومٍ أُولِى بأسٍ شديدٍ تُقاتِلونَهم أوْ يُسلِمون فإنْ تُطِيعوا يُؤْتِكم اللهُ أجْراً حَسَناً وإنْ تتولَّوْا كما تولَّيْتُم مِن قَبلُ يعذِّبْكم عذاباً أليما[2] » . فزعمَ ابنُ عبّاسٍ أنّ القومَ الذين ذكرهم بنو حنيفة ، وأبو بكر استنفر إليهم العربَ ، وضمَّهم إلى المهاجرين والأنصار ، حتّى أظفرَ اللهُ يدَه وأظهر حُكمَه .

وأمّا غير ابنِ عبّاسٍ فزعم أنّهم فارسُ والرُّوم .

فإنْ كان [ذلك[3]] كذلك فإنّ أبا بكرٍ هو المستنفر إلى قتال الرُّوم . وإن كان عمر هو القاتل لكسرى فإنّ ذلك راجعٌ إلى أبى بكرٍ بتأسيسه لعمر واختياره له .

وقد زعم جُوَيْبِر[4] عن الضَّحَّاك فى قوله : « يا أيُّها الذين آمَنُوا اتَّقُوا الله وكُونُوا مع الصَّادقين » . قال : أبو بكرٍ وعمر .

(١) فى الأصل : « تأويلا » .
(٢) الآية ١٦ من سورة الفتح .
(٣) زدتها مساوقة لأسلوب الجاحظ الذى يلتزم هذا التعبير .
(٤) جويبر بن سعيد الأزدى البلخى ، مات مابين ١٤٠ و ١٥٠ . تهذيب التهذيب .

وقد زعم وَكيعٌ عن الفضل بن دَلْهَم[١] ، عن الحسَن فى قوله : « فَسَوفَ يأتِى اللهُ بقومٍ يحبُّهم وَيُحبُّونه » ، قال : هم والله أبو بكر وأصحابه .

ومثل هذا كثير ، ولم يجىء المجىء الذى يحتجُّ به المنصف والمرشد ، ولكن الحجة القاطعة فى إجماع[٢] المفسِّرينَ فى الآيات التى ذكرناها قبل فى قصّة الغار ، والنُّصرة ، وفى قصّة مِسطَح ، والعفوِ عنه والإنفاق عليه ، وفى قصّة عبد الرحمن بن أبى بكر وأبويه ودعائهما له إلى الإسلام وردِّه عليهما ، وقصّة أبى بكر وأبى جهل .

وقالت (العثمانية) : فإنْ زعمت الرّافضةُ أنّ الله أنزلَ فى علىٍّ آياً كثيراً ، فكان ممّا أنزل فيه وفى ولده قولُه : « أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرّسولَ وأولِى الأمرِ منكم[٣] » . فأولى الأمر علىٌّ وولده . فلَعمرى لئن كان أصحاب الأخبار قد أطبَقُوا على أنّها نزلت فى علىٍّ وولده إنَّ طاعتهم لَواجبة . وإن كان هذا شيئاً تقوَّله متقوِّل ، أو جاء من وجه ضعيف ، فهو مع ضَعْفه شاذٌّ ، وليس فى ذلك لكم حُجّة ؛ لأنَّ الحديثَ قد يحتمله الرجلُ الواحد الثِّقةُ عن مثله ، فيكون شاذًّا ، ما لم يكن مستفيضاً شائعا قد نُقِل عن المستفيض الشائع وقد يكون الحديث يحتمله الرجلان والثّلاثةُ وهم ضعفاء عند أهل الأثر فيكونُ الحديث ضعيفاً لضعف ناقليه ، ولا يسمُّونه شاذًّا ، إذا كان قد جاء من

(١) الفضل بن دلهم البصرى ، كان قصاباً شاعراً معتزلياً . ذكره فى تهذيب التهذيب .
(٢) فى الأصل : « إجماع » :
(٣) الآية ٥٩ من سورة النساء .

ثلاثة أوجه . وإنَّما الحجة فى المجىء الذى يمتنع فيه العَمْد والاتِّفاق . وهذا الجنس من الخبر هو الإجماع .

وليس يكون الخبر إجماعاً من قِبَل كثرة عدد الناقلين ، ولا من قبَل عَدالةَ المحدِّثين ، وإنَّما هو العددُ الذى نعلم أنَّهم لم يتلاقَوْا ولم يتراسَلُوا ولا تتفَّق ألسنتهم على خبرٍ موضوع ، مع اختلاف عللهم وأسبابهم ، ثمّ يكون معلوماً عند سامع ذلك الخبر من ذلك العدد ، أنهم قد نقلوه عن مثلهم فى مثل أسبابهم وعِلَلهم .

فإذا كان معلوماً أن فرعه كأصله كان ذلك موجباً لليقين ، ونافيا لعُرُوِّ الشّكِّ واستِرابة التقليد .

وهو كنحوِ ما نقلوا من قصَّة الغار ، وقصَّةِ مِسطح .

فأمَّا ما قالوا وادَّعوا أنَّ الله عنى بقوله : « أطيعُوا الله وأطِيعُوا الرَّسولَ وأُولِي الأمر منكم » عليًّا وولدَه دونَ جميع المهاجرين ، فليس من شكل ما اشتَرطْنا ، ولا من فَنِّ ما بيَّنَّا ؛ لأنَّ أصحاب التأويل زعموا أنَّها نزلت فى عُمَّال النبى صلى عليـه وسلم ووُلاته ، وفى المسلمين ، وفى أصحاب سَراياه وأجنادهم كالعلاء بن الحضرمىِّ ، وأبى موسى الأشعرىِّ ، وعَتَّاب بن أَسِيد ، وخالد بن الوليد ، ومُعاذ بن جَبَل ، يأمُر النَّاسَ بطاعة الأُمراء والتَّسليم لوُلاة أمورهم .

حديث عيسى بن يونس بن أبى إسحاق السَّبيعى قال : حـدثنا عبد الملك بن أبى سليان قال : سألت أبا جعفرٍ محمد بن على عن تأويل قول الله : « أطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأمرِ منكم » فقلت : من أُولو الأمر ؟ فقال : هم أصحاب محمد . قلت : إنَّهم يزعمون أنّه على . فقال : علىٌّ منهم .

وهذا مِن أثبت وأحسن ما يَروُون فى تأويل هـذه الآية ، ومِنْ أحْرَى ما تَجمع الفريقين على تقبُّله[1] والرِّضا به ، إذ قائلهُ العـالم المقبول عند الفريقين ، والرئيس الذى لا أحَدَ فوقَه فى عصره عند الرَّوافض .

وزعم محمد بن السَّائب الـكلبى ، عن أبى صالح[2] ، عن ابن عبّاس ، أنَّ الله أنزلَها فى عبد الله بن حُذافةَ السَّهمى[3] .

فإذا كان تأويلُها مشهوراً بما ذكرنا من الاختلاف ، فليس فيها للمتشيِّع حُجّة .

وزعموا أيضاً أنَّ الله أنزلَ فى علىٍّ : « يا أيُّها الذين آمَنوا ادْخلوا فى السِّلْم كافَّةً[4] » يقول : فى طاعة على .

والـكلام فى هذا كالـكلام فيما قَبْله ؛ لأنَّ أصحاب الأخبار والتأويل لا يعرفون ذلك .

والخبر المشهور عن الـكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عبّاسٍ وغيره أنَّ الله أنزلها فى ناسٍ من مُسلمى أهلِ الـكتاب ، كانوا بَعد إسلامهم يُقيمون السَّبْت[5] ، ويَعافون الذَّبيحة ، لرسُوخ العادة ، وغَلَبة الإلْف[6] ، فأنزل الله فيهم : « يا أيُّها الذين آمَنُوا ادخُلوا فى السِّلْم كافّة » يقول : ادخلُوا فى جميع الشريعة ، « ولا تتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيطان » وزينتَه لـكم الحـكم بإلْفِـكُم له ، ونُشُوِّكم كان فيه.

(١) فى الأصل : « نقله » .

(٢) هو أبو صالح باذام ، أو باذان ، مولى أم هانئ بنت أبى طالب . تهذيب التهذيب ١ : ٤١٦ / ٩ : ١٧٨ .

(٣) ورد فى صحيح البخارى . الإصابة ٤٦١٣ .

(٤) الآية ٢٠٨ من سورة البقرة .

(٥) فى الأصل : « السيب » . والمراد سنة اليهود فى سبتهم .

(٦) فى الأصل : « وعليه الألف » .

وزعموا أنَّ الله أنزل : « إنَّما وليُّكُمُ اللهُ ورَسُولُه والَّذِين آمَنوا الذين يُقيمون الصَّلاةَ ويُؤْتُون الزَّكاة وهُمْ راكعون[١] » .

قيل لهم : أمَّا ظاهر الكلام فيدلُّ على ماقال أصحابُ التأويل ، كابن عباسٍ وغيره ، حين زعموا أنَّها نزلت فى عبد الله بن سَلَام[٢] ، ورهطٍ من مشركى أهل الكتاب ، وذلك أنَّهم أتَوا النبيَّ صلى الله عليه عند الظُّهر فقالوا : يارسولَ الله ، إنَّ بيوتنا قاصيةٌ ولا نجد مسجداً دونَ هذا المسجد ، وإنَّ قومنا لمَّا صدَّقنا اللهَ ورسولَه عادَوْنا وتركوا مُخَالَطتنا ، وأقسَموا ألَّا يُكلِّموننا .

فبينا هُمْ يشْكُون عداوةَ قومِهم لهم إذْ نزلت : « إنَّما وليُّكم الله ورسولُه والَّذِين آمَنوا الذين يُقِيمونَ الصَّلاةَ ويُؤْتون الزَّكاةَ وهُمْ راكعون » . فلمَّا قرأها النبيُّ صلى الله عليه قالوا : رضينا بولاية الله ورسوله والمؤمنين . وأذَّن بلالٌ للصلاة[٣] ، فخرج النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المسجد وهم معه ، والناس مِن بينِ راكع وساجد ، وقائمٍ وقاعد ، فتلا النبي صلى الله عليه : « ومَنْ يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمَنُوا فإنَّ حِزْبَ الله هُم الغالبون[٤] » الآية . فإن تكنْ هذه الآية كما قال ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ ، فليس لعليٍّ فيها ذكر . وإنْ يكن الأمرُ ليس على ما قال ابنُ عباسٍ فليس تأويلُ الرَّافضة بأقربِ التأويل .

---

(١) الآية ٥٥ من سورة المائدة . كذا فى الأصل ، والظن أن فى الكلام بعده سقطا .

(٢) سلام ، بتخفيف اللام . أسلم عبد الله قبل وفاة الرسول بعامين ، وكان قبل من أحبار يهود . توفى سنة ٤٣ . الإصابة ٤٧١٦ .

(٣) فى الأصل : « الصلاة » .

(٤) هى الآية ٥٦ من سورة المائدة .

وقد عرفْنا أنَّ تأويل ظاهرِ هذا الكلام يُشبه غير الذى قالوا ، وليس لنا أن نجعله كما قالوا إلّا بخبرٍ عن النبى صلى الله عليه ، أو بإجماعٍ من أصحاب التأويل على تفسيره . وذلك أنَّ قوله . « إنَّما وليُّكم الله ورسولُه والذين آمنوا الذين يُقيمون الصَّلاة ويُؤْتون الزَّكاةَ وهُم راكعون » يدلُّ على العدد الكبير وأنتم تزعمون أنَّه عَنَى عليًّا وحدَه ؛ وليس لأحدٍ أن يجعل « الذين » لواحدٍ إلّا بخبرٍ يُجمَعُ عليه ، فإنْ لم يَقْدر على ذلك فليس له أنْ يحوِّل معنى الكلامِ عن ظاهر لفظه ، والذى عليه التَّعامُل والتَّعارُف . ولفظ الجميع معروف من لفظ المفرد . لأنَّ الرافضة تزعمُ أنَّ سائلاً دخل المسجد فسأل النَّاسَ وعلىٌّ راكع ، فلم يُعْطَ شيئاً ، فنزعَ علىٌّ خاتمَه فأعطاه ، فأنزل الله فيه : « إنما وليُّكُمُ اللهُ ورسولُه والَّذين آمَنُوا الذين يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُون الزَّكاةَ وهُمْ راكعون » . وأنتَ إذا سمعتَ بتأويلِ ابن عباسٍ وتأويلهم علمتَ أنَّ تأويلَهم بعيدٌ من لفظ التنزيل ، قُرْبَ[1] تأويل ابن عباس منه .

ولو كان الأمر كما قالوا ما كان أحدٌ أعلمَ به من ابن عبّاسٍ ولا أشعَرَ[2] به منه .

وأنتم تزعمون أنَّ عليًّا كان أزهد من أنْ يَحُولَ عليه الحولُ وعنده مالٌ راهنٌ يجبُ عليه فيه الزكاة .

ولو كان ذلك كذلك ما كان بلغ من قدر صنيع رجل فى إعطاء دِرهم ودرهمين من زكاته الواجبة ما إنْ يبلُغ به إلى هذا القدر الذى ليس فوقه قدْر ، أو يكون كان علىٌّ مشهوراً بإعطاء الزَّكاة وهو يصلِّى .

(١) فى الأصل : « وقرب » . (٢) فى الأصل : « أسعد » .

ولو كان هذا هكذا لـكان مشهوراً مستفيضا . وكيف اتّفق له ألّا يزكّيَ إلاّ وهو يصلى ؟!

وإنْ كان تطوّعَ بإعطاء الخاتَم على جهة الإيثار والمواساة فليس بمعروفٍ فى الـكلام أنْ يكونَ الرجلُ إن تصدّق بالدِّرهم والدرهمين مُتنفِّلاً ومتطوِّعا أنّه معطٍ زكاة ، لأنّ الزكاة عندنا ما وَجَب إخراجُه وكان تطهيراً لسائر ماله ، وسبباً للنَّماء والبقاء . إلّا أن يُحمَل الـكلامُ على الشّاذّ ، وعلى أبعد المجاز . وليس هكذا كلامَ الحـكيمِ يريد أن يدُلّ الأمّةَ على إمامته ، ويوجِبَ عليهم طاعَته .

ولابد فى هذه الآية من أحد ضربين : إمّا أن يكون لفظُها يدل على ماقالوا دونَ ما قال غيرهم ، وإمّا أن تكون قد نزلت فى قصّةٍ مشهورة لعلىٍّ كقصّة الغار حين كانت لأبى بكر .

فإنْ لم تجدوا إلى واحد من هذين سبيلاً فلم يبق إلاّ أن تزعموا أنّ الرسول صلى الله عليـه قال للناس : إنّ هذه فى علىٍّ فاعرفوا له حقّه وفضيلته . ولو كان ذلك كذلك ما اختلف فيه أصحاب التأويل ، ولا قال فيه ابن عباسٍ الذى قال .

قالت (العثمانية) : قد زعمت الرّوافض أنّ الله أنزَلَ هذه الآية فى علىٍّ فاعرفوا له حقّه وفضيلته .

ولو كان ذلك كذلك ما اختلف فيه أصحاب التأويل ، ولا قال فيه ابن عباس الذى قال[1] .

قالت (العثمانية) : وقد زعمت الرّوافض أن الله أنزَلَ فيه : « قُلْ كَفَى

---

(١) كذا وردت هذه العبارة . ولعلها تكرار لما سبق .

باللهِ شَهيداً بَيْني وَبَيْنَكم ومَن عِنْدَهُ عِلمُ الكِتاب[١] » .

ولا يجوز أن يقول : « ومن عنده علمُ الكتاب » وهو يعني عليًّا إلاّ وعليٌّ قد كان أشهر مَنْ هُناكَ بعلم الكتاب .

وكيف يكون ذلك وقد تُوُفِّيَ النبيُّ صلى الله عليه وهو لم يَجمَع الكتابَ بعد ؟! وقد زَعم الشَّعبيُّ أنه لم يجمعْه إلى أنْ مات .

وكيف يكون من المشتهِرين بعلم الكتاب وأنت إذا سألتَ أصحابَ الأخبار والتّأويل عن أسماء أصحاب التأويل ذكروا ابنَ عبّاس ومَنْ دونَ ابن عبّاس بطبقاتٍ كالحسن البَصْرى ، ومُجاهد ، والضَّحّاك ، وعِكرمة ، وفلان وفلان وفلان ، ولا يذكرونه في هذا الصِّنف ، كما لا يذكرون فيه أبا بكر وعُمرَ وعثمان ؛ لأنّهم لم يكونوا بالمشْتهِرين بالتّأويل وحِفْظ القرآن ومَعرفة معانيه ؛ لأنّ غير ذلك كان أغلبَ عليهم منه ، وقد أخَذُوا منه بنصيب . ولم يكونوا كمَنْ تجرَّدَ لمعرفة التّأويل حتّى غلَبَ عليه كما غلب على زيد بن ثابت الفرائض ، وكما غلب علمُ التّأويل على ابن عبّاس ، وكما غلب كثرةُ الأسانيد وعددُ الآثار على ابن عُمر وجابرٍ وعائشة ، وكما غلب على أبيٍّ وعلى عبد الله القراءات .

ولو كان للناس أنْ يقولوا في هذه الآية على الظَّنِّ وما هو أشْبَهُ لكانَ أولَى الناسِ بها عبدَ الله بنَ عباس ، لأنه كان أعلمَ النّاس بالقرآن . ولو لم يكن عرَفْنا فضلَه فيه بالذى ظَهرَ منه ، لعرَفْنا فضلَه وإنْ بَطَنَ وغاب عن العيان لقول النبي صلى الله عليه فيه : « اللهم فَقِّهْهُ في الدِّين وعلِّمْه التّأويل » . فكيف وقد ظهرَ مِن علمه بمعانيه وغريبه ، وإعرابه وقَصَصه

---

(١) الآية ٤٣ من سورة الرعد ، وهي خاتمتها .

ومُحكَمه ومتشابهه ، وخاصّه وعامّه ، وناسخه ومنسوخه ، ومكّيّه ومدنيّه ، مالم تجدْ عند أحد شَطْره ولا قريباً منه .

وقالت (العثمانية) : إنَّه لا يَعجِزُ أحدٌ أن يَعمِد إلى كل آية فى القرآن فيدّعىَ أنّها فى أبى بكر وعُمر كما ادّعيتم ذلك فى على ، وإنما الشّفاء والبَيان فى صحّة الشّهادة ، وظُهورِ الحجّة .

وزعمت العثمانية أنّ من الدّليل على فضيلة أبى بكرٍ على علىٍّ أنّ النبى صلى الله عليه سمّاه « الصِّدِّيق » دونَه ، وليس بَعْدَ اسم النّبىّ اسمٌ أنْبَهُ من الصِّدِّيق ، حتّى كانَ لا يقال قال أبو بكر وفعل أبو بكر إلّا والصدّيق متّصل به ، وحتّى ربّما قالوا قال الصّدِّيق وفعل الصّدِّيق ، استغناءً عن اسمه وكنيته .

ولقد قال النبىُّ صلى الله عليه : « الزُّبير حَوَارِىّ وابنُ عمّتى ، وطلحةُ حوارىّ » وقال : « عثمان ذُو النُّورين » فلم يَقُلِ المسلمون : قال عثمان ذو النورين ، وقال الزُّبير الحَوَارىّ ، وقال ذو النُّورين ؛ استغناءً عن أسمائهما وكناهما .

فإنْ كان المسلمون أشاعُوا اسم أبى بكر وتركوا أن يشيعوا اسم غيرِ أبى بكر ، لفضلٍ رأوه فى أبى بكر ، فهو الذى قلنا وادّعينا . وإن كان ذلك منهم لشىء رأوه فى وجه رسول الله صلى الله عليه وفى صنيعه بأبى بكر ، فلا[1] شىء أدلُّ على الفضيلة والمباينة منه .

ولم يسمِّ النبى صلى الله عليه عليًّا باسم يَنْسُبه به ، لأنّ ذلك لو كان

---

(١) فى الأصل : « ولا » .

لظهر كما ظهر اسم مَن ذكرنا . ولا سمَّاه أحدٌ من أصحاب رسول الله باسمٍ بَان به كما سمَّى أصحابُ رسول الله أبا بكرٍ خليفة رسولِ الله .

ولأبى بكر اسمانِ يدُلَّان على الفضيلة والمباينة : أحدهما لم يسمَّ به قطُّ إلَّا نبيٌّ أو مَن يتلوه ، والآخر لم يُسَمَّ به أحدٌ من الناس .

فأمَّا الاسمُ الذى لم يسمَّ به إلاَّ نبيٌّ فقوله « الصّدّيق » بإجماع من المسلمين على هــذا الاسم أنّه لأبى بكرٍ دون غيره . وأما الاسم الذى لم يُسمَّ به مؤمنٌ قطُّ ، ولا بَعْدَه ، فقولُ جميع الأمّة : يا خليفة رسول الله .

فإنْ كان الذى نُقِل إلينا أنّه [كان] يكتُب فى دَهْرِ النبىّ صلى الله عليه : « من خليفةِ رسول الله » ويُكتَب إليه « إلى خليفة رسول الله » وكما كان الحسن يَحلف بالله أنَّ النبى صلى الله [عليه] هو تولَّى استخلافَه ، فلا منزلةَ أعظمُ منها قدراً ، ولا أرفعُ منها شأنا .

وإن كان المسلمون أجمعوا له على ذلك لخاصّةٍ رأوها فيه ، فـكفَى به شرفاً وقدرا ، ومزيَّة وذِكراً .

وإن زعَم قومٌ أنَّ الأسماء التى ارتضاها الرسول صلى الله عليه وحَبَا بها أصحابَه لا تدلُّ على فضيلةٍ ولا على خاصَّةٍ كرامة ، وجَسَروا على أن يقولوا إنّه ليس فى قول النبى صلى الله عليه لحمزة إنّه أسد الله ، وأسدُ رسولِه ، فضيلة ؛ وليس فى قوله « الزُّبير حوارىٌّ » فضيلة — فليس عندنا فى ذلك إلاَّ مِثلُ مالهم فى صدور أهل القِبلة من الإسقاط والإهانة .

فإنْ قالوا : إنَّ اسم الصدّيق مولَّد موضوعٌ مُحدَث ، أحدَثته العُثمانية والحشويّة(١) .

(١) انظر لهذه الكلمة حواشى الحيوان ٦ : ٦٢ ، وكذا دائرة المعارف الإسلامية ٨ : ٤٢٩ .

قيل لهم ، فلعلَّ قولَهم : إنَّ حمزة أسدُ الله ، وأسد رسوله ، وإن جعفراً الطيَّارَ فى الجنة ، وإنَّ الزُّبير حوارىُّ رسولِ الله ، مولَّدٌ موضوعٌ صنعته الشِّيعة ، وأحدثه أتْباع الزُّبير يوم الجمل ، لافرقَ بين ذلك .

وكيف يكون اسمُ الصِّدِّيق مولَّداً محدثا ، وأكثرُ مَن تكلَّم به ليسوا بذَوِى نِحلةٍ فيتقدَّروا[1] له ، ولا بِذَوِى معرفة فيعرِّفوا فضلَه ، ولا ذوِى قرابة فيطلبوا السَّبْق به ، مع الذى نجده فى الأشعار الصحيحة القديمة . وليس بين الأشعار والأخبار فرق إذا جاءت مجىء الحُجج .

وإنَّما ذكرنا الأشعار مع الأخبار ليعرفوا ظهور أمره ، ووجوهَ دلائله وقهرِ أسبابه ، وليكون آنَسَ للقلوب ، وأسكَنَ للنُّفوس ، وأقطعَ لشغَب الخصم ، ولِجَحْد[2] المنازع .

فممَّا جاء من الأشعار فى ذلك قول شُرَيح بن هانئ الحارثى[3] ، وكان معمَّراً وكان شيعيًّا ، وهو يرتجز فى بعض حُروبه :

أصبحتُ ذا بثٍّ أقاسِى الكِبَرا   قد عِشْتُ بين المشركين أعْصُرا[4]
ثُمَّتَ أدركتُ الرَّسول المُنذِرا[5]   وبَعْـــدَه صِدِّيقَه وعُمَرا

---

(١) فيتقدروا ، مهملة فى الأصل . والتقدر : التقدير ، والتهيؤ .

(٢) فى الأصل : « ويجحد » .

(٣) أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعثه على فى التحكيم على أربعمائة رجل ، وقتل غازياً بسجستان مع عبد الله بن أبى بكرة فى ولاية الحجاج بن يوسف سنة ٧٩ . وعاش مائة وعشر سنين ، أو عشرين ومائة سنة . الإصابة ، وتهذيب التهذيب ، والمعمرين للسجستانى ٣٨ والطبرى ٧ : ٢٨٢ .

(٤) الإصابة : « وعشت » .

(٥) الإصابة والمعمرين والطبرى : « النبى المنذرا » .

ويوم مِهْرانَ ويوم تُستَرا وبابُجَيْراوَاتِ والمشـــقَّرا[١]
والجمعَ من صِفِّينِهم والنَّهَرا[٢] هَيهاتَ ما أطوَلَ هـذا عُمُرا

ألا تَرى أنَّ هذا شُرَيحَ بن هانئٍ سَمّى أبا بكرٍ صدِّيقاً على مالم يَزَلْ يسمَّى به .

وقال العجّاج بن رُؤبة ، وهو أعرابىٌّ ليس بذى نِحلةٍ ولا صاحب خصومة ، وقد أدركَ الجاهلية :

عَهْدَ نَبِىٍّ ما عفَا وما دَثَرْ وعَهدَ عُثمانَ وعهداً من عمر[٣]
وعَهْدَ صِدِّيقٍ رأى بِرًّا فَبَرْ وعَهْدَ إخوانٍ هُم كانوا الوَزَر

وقال الحارثُ بن هشامِ بن المُغيرة ، حين بلغَه وهو بمكّة أنَّ الأنصار قد كانوا اجتمعوا وقالوا لقريشٍ فى سَقيفة بنى ساعدة : مِنّا أمير ومنكم أمير :

* قُبِضَ النبىُّ وبُويِعَ الصِّدِّيقُ *

فى قصيدةٍ له طويلة ، وهو التى يقول فيها :

* وأرادَ أمْراً دونَه العيُّوقُ *

وإنما أردنا منها المعنى .

وقال أبو مِحجنٍ فى ذلك :

سُمِّيتَ صِـدِّيقا وكلُّ مهاجرٍ سِواكَ يُسَمَّى باسمِه غيرَ منكَرِ

(١) باجيراوات ، وهى باجيرى ، وهو موضع دون تكريت ، وسماه أبو النجم « الجبرات » فى قوله :

* بين الجبرات المباركات *

معجم ما استعجم ٢٧٠ . ولم يرد هذا البيت فى المعمرين . وفى الإصابة : « وباجيرارات » وفى الأصل هنا : « وباحبرات » بإهمال الجيم والياء الثانية . وعند الطبرى : « وباجيرات مع المشقرا » .

(٢) الطبرى والإصابة والمعمرين : « فى صفينهم » .

(٣) هذا البيت متأخر عن تاليه فى ديوانه ١٥ .

وقال طريف بن عدىّ بن حاتم :

أبيدوا قُريشاً بالسُّيوف ليظهروا مَعاهدَ دينِ اللهِ بعد محمّـــدِ
وصِدِّيقه التَّالى المبينِ بمـالِهِ طَوِى البَطنِ محمودِ الضَّريبةِ مِذْوَدِ(١)
وأوّلِ مَن صَلّى وصاحِبِ حنكه(٢) أصـاخَ لقـول الصَّـادق المتطرِّد
وبعـد قتيل الهُرمُزانِ ، وباركَتْ يَدُ اللهِ فى ذاكَ الأديم المقــدَّد(٣)
أقاموا طُغاةً حائرين عن الهـدى وليس يَقُومِ الدِّين إلا بمُهْتَـدِ
فلمـا تولَّوْا طامَنَ الحقُّ جأشَـه وثاب إليهـم كلُّ غاوٍ مُطـرَّد

أمّا قوله : « وثاب إليهم كلُّ غاوٍ مطرَّد » فإنّ « الغاوى » مَرْوان ابن الحكم ، « والمطرَّد » : أراد أباه الحكم بن أبى العاص طريد رسول الله صلى الله عليه .

وقال حسَّانُ بن ثابتٍ فى ذلك أيضاً ، وهو يهجو بعض الشعراء(٤) :

لو كنتَ من هاشِمٍ أو من بنى أسدٍ أو عبدِ شمس أوَ اَصحابِ اللِّوا الصِّيدِ
أو فى الذُّؤابةِ من تيم وقعت بهم أو من بنى جُمَحَ الخُضْر الجلاعيد(٥)
أو من سَرارة أقوامٍ أُولِى حسب لم تُصْبِح اليومَ نِـكْساً مائلَ العُود(٦)

---

(١) فى الأصل : « قوى البطن » تحريف . انظر الحماسة بشرح المرزوقى ١٦١٦ — ١٦١٧ .

(٢) حنكه ، كذا وردت مهملة وبكاف مستطيلة « ک » .

(٣) قتيل الهرمزان ، يعنى به عمر بن الخطاب ، وكان الهرمزان متهماً فى قتل عمر ، هو وأبو لؤلؤة ، وجفينة . انظر نسب قريش ٣٥٥ .

(٤) هو مسافع بن عياض التيمى . الكامل ١٤١ ليبسك وديوان حسان ١٣٣ .

(٥) الكامل والديوان : « رضيت بهم » . الجلعد والجلاعد : الصلب الشديد . فى الأصل : « الحلاحيد » صوابه من الديوان والكامل .

(٦) هو من سرارتهم ، أى صميمهم . النكس : الدنىء المقصر .

لولا الرَّسولُ ورُوح القدس يَحفظُه ... وأمرُ ربِّك حتمٌ غـير مردودِ[١]
وأنـى أحفظ الصِّدّيق مجتهـداً ... وطلحةَ بن عُبيـدِ الله ذا الجود
أتتـكم خيلُنـا كاللَّوْذ كالحـةً ... تَطوى السَّباسب بالشُّم المَناجيد[٢]
من كلِّ خَيْفانةٍ طالَ اللِّجامُ بها ... وكلِّ مختطَف الأقراب كالسِّـيد[٣]

وقال طُليحة الأسدىُّ فى ذلك :

ندمتُ عَلَى ما كان من قتـلِ ثابتٍ ... وعُـكَّاشـة الغَنْمىّ يا أمَّ مَعبـدِ[٤]
وأعظمُ من هذين عِندى مُصيبةً ... رُجوعى عن الإسلام رأىَ المُقيَّـد
وتركِى بلادى والخُطوب كثيرةٌ ... طريداً وقِدماً كنتُ غـيرَ مطرَّدِ
فهل يَقْبل الصِّـدّيق أنّى تائب ... ومُعْطٍ بما أحدثْتُ من حدثٍ يَدِى

وقال البارقُّى فى ذلك أيضاً :

بَكَر النَّعِىُّ بخير كنـدةَ كلِّها ... بابن الأشَجِّ وخالِه الصِّـدِّيقِ ا

هؤلاء الذين ذكرنا : شُرَيح بن هانئ ، والعجَّاج بن رؤبة ، والحارث ابن هشام بن المغيرة ، وطريف بن عَدىّ بن حاتم ، وحَسَّان بن ثابت ، وطُليحةُ الأسدىُّ ، ومن أشبههم ، ليسوا بأصحابِ خصوماتٍ ولا نظـرٍ فى الفاضل والمفضول .

---

(١) الـكامل والديوان :
لولا الرسول فإنى لست عاصيه ... حتى يغيبنى فى الرمس ملحودى
(٢) اللوذ : حضن الجبل وجانبه . فى النسختين : « اللود » .
(٣) مختطف ، من الخطف ، وهو الضمر وخفة لحم الجنب . وفى الأصل : « مختلف » ، ولا وجه له . والأقراب : جمع قرب بالضم ، وهو الخاصرة . والسيد : الذئب . وهذا البيت وسابقه لم يرويا فى ديوان حسان .
(٤) هو عكاشة بن محصن بن حرثان بن قيس بن مرة بن بكير بن غنم بن دودان بن أسد . الإصابة ٥٦٢٦ .

وإنَّما قدَّموه وسمَّوْه صديقاً على ما لم يزَلْ يُسمَّى به . وهذا أكثرُ من أن نأتى عليه فى كتابنا ونستقصيَه .

والعجب من الرَّوافض حين ترى ما قال رشيد الهَجَرىّ[(١)] والسيِّد الحِميرىّ ، ومنصور النَّمَرِىّ حجّة فى أشعارها إذَا كان ذلك القولُ فى علىّ بن أبى طالب . وإذا قال حسَّانُ بن ثابت ، والعجاجُ ، والحارث بن هشام ، وأشباهُهم ممَّن ذكرنا فى القَدَم والقَدر ، فى أبى بكر وعثمانَ وعمر وتقديمهم ، لم يكن حجّة .

وفى قول عبد الله بن عبّاس لعائشة بعد الجمل فى دار بنى خَلَف الخزاعىّ حين أرسلَه علىٌّ بن أبى طالب إليها : « لِمَ تقولين إنَّه ليس فى الأرض موضعٌ أبغضَ إلىَّ من موضع أنتم به ، ونحن جعلنا أباكِ صِدِّيقاً وجعلناكِ أمَّ المؤمنين » ، حجّةٌ فى أنّ تسميته بالصِّدِّيق قد كان مستعملاً فى ذلك الدهر .

وإذا أحببت أن تَعلم قدر هذا الاسم الذى سَمَّى به النبىُّ صلى الله عليه أبا بكر فانظرْ فى كتاب الله . قال الله جلّ ثناؤه : « واذكُرْ فى الكتابِ إدْريسَ إنَّه كان صِدِّيقاً نبيًّا . ورَفَعْناه مكاناً علِيًّا[(٢)] » وقال : « واذكُرْ فى الكتاب إسماعيلَ إنَّه كانَ صادقَ الوَعْدِ وكان رسُولاً نبيًّا[(٣)] » ، فذكر صِدِّيقيَّتَهَ[(٤)] قبل أن يذكُرَ نبوَّته .

---

(١) ذكره فى لسان الميزان ٢ : ٤٦٠ والأنساب ٥٨٨ ، وكان ممن يؤمن بالرجعة ، وقد قطع زياد لسانه وصلبه على باب دار عمرو بن حريث .

(٢) الآية ٥٦ ، ٥٧ من سورة مريم .

(٣) الآية ٥٤ من سورة مريم .

(٤) فى الأصل : « صديقه » ، وانظر الرياض النضرة ١ : ٢١ ، ٤٠ .

وقال فى كتابه : « ما المَسِيحُ بنُ مَرْيَمَ إلاَّ رسولٌ قد خَلَتْ مِن قبله الرُّسُل وأُمُّه صِدّيقةٌ كانَا يأْكلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نبيِّن لهمْ الآيات ثم انظر أنَّى يُؤْفَكُون[١] » .

ولكن انظر كيف نُبيِّن للرّوافض الحججَ بالآيات والإجماع ثم انظر أنَّى يؤفكون ، أى يسخرون[٢] بهذه الفضيلة له على علىّ .

ثم الذى كان مِن تأمير النبى صلى الله عليه أبا بكرٍ عليه حين ولاَّه الموسمَ وبعثَهُ أميراً على الحاجّ سنةَ تسع ، وبعث عليًّا يقرأ على الناس آيات من سورة براءة ، وكان أبو بكر الإمام وعلىٌّ المأموم ، وكان أبو بكر الدّافع بالموسم ، ولم يكن لعلىّ أن يندفع حتّى يدفع أبو بكر ، ولا يستطيع خَلقٌ من النّاس أن يزعمَ أنّ سنة تسع دفَعَ بالناس غيرُ أبو بكر ، ولا يستطيع أحدٌ أن يزعم أنّ سنة تسعٍ لم يَبعث[٣] النبى صلى الله عليه بصَدْرِ سورة براءة مع علىّ بن أبى طالب ليقرأه على الناس إذا فرغ أبو بكر .

فإنْ قال قائل : ألا ترى أنّه كان لعلىّ بن أبى طالب فى ذلك الموقف من الفضل ماليس له لخصلتين : إحداها أنّ النبى صلى الله عليه بَعثَ معه بصَدْر براءة ، وقال : « لايبلّغ عَنّى إلاَّ رجلٌ منّى » . والأُخرى فَرط الاحتمال وشِدّة الخِطار الذى احتمله علىٌّ حين يقوم بالبراءة وقَطع العهد وقدْ وافى الموسمَ من قبائل العرب ومن الموتورين والناقمين والحنِقين ، العددُ الذى لا يُحصَى ، والقُوّة التى لا تُدفَع ، فشمّر عن ساقيه وأبدى

(١) الآية ٧٥ من سورة المائدة .

(٢) كذا . وفسرت بمعنى يصرفون ، ويصدون ، ويخدعون .

(٣) فى الأصل ، « لو يبعث » .

صفحته . ففي هاتين الخصلتين دليلٌ على أنّ له في ذلك ماليس لأبي بكر ، والمحنةُ عليه أشدّ .

قيل له : إن كانْ الشّأن في شِدّة الخطار والتغرير والتعرّض على ما قلتم ، فنصيبُ أبي بكر في ذلك أوفر ، والأمر عليه أخوف ، وهو إليه أسرع ؛ لأنّ أبا بكر كان هو الأميرَ والوالي والمتبوع ، وعليٌّ هو المؤتمّ والرعية والسّامع والمطيع . وبين التّابع والمتبوع والآمر والمأمور فرق .

وأمّا قولكم : إنّ النبي صلى الله عليه قال حينَ بعث بصدر سورة براءة مع عليّ بن أبي طالب : « إنّه لا يبلّغ عنّي إلاّ رجلٌ منّي » فإنما[1] قال هذا وليس بحضرته أبو بكرٍ ليكون عليٌّ قد قُدِّم عليه ، لأنّ النبيّ صلى الله عليه قد كان وجّه أبا بكرٍ قبل ذلك ، ثمّ بعثَ عليًّا بعدَه فلحقه في الطّريق .

وقد زعم ناسٌ من (العثمانيّة) أنّ النبي صلى الله عليه لم يقل ذلك لعليٍّ تفضيلاً منه له على غيره في الدّين ، ولكن النبيّ صلى الله عليه عامل العربَ على مِثلِ ما كان بعضهُم يتعرّفه مِن بعض ، وكعادتهم في عقد الحلف وحلِّ العَقد ، فكان السيّد منهم إذا عقَد لقومٍ حِلفًا أو عاهَدَ عهداً لم يَحُلّ ذلك العَقدَ غيرُه ، أو رجلٌ من رهطه دِنْيا كأخٍ أو ابنٍ ، أو عمٍّ ، أو ابن عمّ ، فلذلك قال النبي صلى الله عليه ذلك القَول .

ثم الذى كان من تفضيله عليه وعلى الناس جميعاً أيّامَ شَكاتِه ، حيث أمَرَه أن يؤمَّ النّاسَ ويقوم مقَامَه في صلاته وعلى منبره ، حتّى أنّ عائشةَ وحفصةَ أرادتا صَرْفَ ذلك عَنْه لعلةٍ سنذكرها في

(١) في الأصل : « وإنما »

موضعها إن شاء الله ، فقال النبي صلى الله عليه : « إليكُنَّ عنّى صواحبَ يُوسف ، أبَى اللهُ ورسولهُ إلاَّ أن يصلّىَ أبو بكر » .

ولم يستطع أحدٌ من الناس أن يقولَ إنَّه صلّى بالناس فى تلك الأيّام غَيْرُه ، ولا استطاع أحدٌ أن يقول إنّ الأمورَ بالصلاة كان غيرَه ، حتّى قالوا بأجمعهم : اختارَهُ رسولُ الله لديننا فاخترناه لدُنيانا . وحتى قالوا : ولاّه رسول الله صلاَتنا ، وزكاتُنا تبعٌ لصلاتنا وهما معظما أمر الدين .

ولا يستطيع أحدٌ أن يقول : إنَّه لما تقدم أبو بكر بالناس ليصلّى بهم والنبى صلى الله عليه مُسَجَّى قال له رجلٌ واحد : ومالك تصلّى بنا على غير عَهد ولا سَبب . ولا قال رجلٌ مِن خلفه مثلَ ذلك ، ولا قال رجلٌ من الأنصار : مِنّا مصلٍ ومنكم مصلّ ، كما قالوا : مِنّا أميرٌ ومنكم أمير .

فإنْ كان النّاسُ مع كثرة الخير والشرّ فيهم تركوا مجاراته ومدافعته فى قيامه فى مَقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتبريزه ، كان ، عليهم عند أنفسهم فكَفى بذلك دليلاً على الفضل ، وحجّة على الاستحقاق .

وإنْ كان رضاهم بذلك وتسليمُهم[١] ، للذى ثبَتَ عندهم من أمْر رسول الله صلى الله عليه وتقديمه إيَّاه ، فليس لأحدٍ فى ذلك متكلّم ، ولا لشاغبٍ[٢] فيه متعلّق ، ولا لواقف فيه عُذر ، والقوم جميعٌ ، ومُصلاَّهم واحد ، وتقدُّمه ظاهر .

---

(١) فى الأصل : « وتسليهم » .
(٢) فى الأصل : « ولا ساعب » .

ولم تـكن صلاة واحدة فيـكون خِلْسة[١] . والقومُ كانوا أشدَّ تقديماً لذلك المقام من أن يَدَعُوا رجلا لم يقهرهُم بسيفـه ، ولم يَمتنِع عليهم بعشيرة ، ولم يُفِضْ فيهم الأموال ، وليس معه فضلٌ بائن ، ولا سببٌ من من قرابة ، ولا أمرٌ من النبي صلى الله عليه .

فإن صاروا إلى الاعتلال بالأحاديث وذِكر الآثار قالوا[٢] : إنما نحتاج إلى المقابلة بين أفعالِ علىٍّ وأفعال غيره ، لو كُنَّا لا نجد له غير الأفعال . فإذا كنا قد وجَدْنا له من غير الأفعال ما هو أدلُّ على الفضـيلة من الأفعال ، لم يكن لنا أن نتخطَّى الأفضلَ إلى الأنقص فى دفع المتغلِّب ، وإقامة المستحِقّ عنـد ظهوره وزَوالِ التقيّة فيه . لا أنهم[٣] قابلوا بين جميع المهاجرين فى القُرْب والبعد ، ولا أنَّهم صنَعوا العلم بفَضْله بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولـكنَّهم قومٌ قد كانوا من قبل ذلك بثلاثِ وعشرين سـنةً يرَى بعضهُم بعضاً ويَعرِف بعضُهم أمر بعض ، يَغزُون معاً ويُقيمون معاً ، ويسمعون من النبي صلى الله عليه القولَ بعد القول ، ويرَون أحوالَ الرِّجال عند النبي صلى الله عليه ، وفى المسلمين وفى أنفسهم ، فعلموا بذلك فضل أبى بكر ، فلمَّا توفِّىَ النبيُّ لم يحتاجوا مع علمهم الأوَّل إلى أن يَضعوا علماً ثانياً .

ولو أنَّ رجلاً منَّا شاهَدَ النبي صلى الله عليه وأصحابَه سنةً واحدةً ماخَفِىَ عليـه مَن المقدَّمُ عنده وعنـد المسلمين ، ومَن أشبَهُم به هَدْياً

---

(١) فى الأصل : « حلسه » .

(٢) فى الأصل : « وقالوا » .

(٣) فى الأصل : « ولأنهم » .

وعملاً ، وطريقةً وعزماً . فما ظَنُّك بالسَّلف الطيِّب ، والخِيار المُنْتخَبين ، وأُسِّ الإسلام ومُرَسَّى قواعِده .

وذلك أنَّ أبا بكر لا يخلو حيث أسلَمَ أن يكون أسلم قبل الناس ، أو ثانياً ، أو ثالثاً . فإن كان إسلامُه قبل الناس فقد تبيَّن للثانى تقدُّمهُ ، وللثّالث تقدُّمُهما عليه . فإذا كانوا ثلاثة لم يخْفَ عليهم أيُّهم أفضل . ثم إنْ أسـلمَ بعدهم نفَرٌ لم يخفَ أيضاً قصَّةُ الثلاثة المتقدّمين . وكلَّما أسلمَ قومٌ لم يَخْفَ عليهم حالُ الأفضل بالذى يرون عند من أسلمَ قبلهم . فـكانوا كذلك ثلاثاً وعشرين سنة .

فقد أيقنَّا أنَّ القوم لم يُؤْتَوا فى تقديم أبى بكر من الجهل بموضع الفَضْل ، أطاعُوا الله فى إقامته أم عَصَوه . وكذلك لو كانوا قدَّموا غيرَه ما كانوا إلّا متعمِّدين . وذلك أنَّ الأفعـالَ إنما تدلُّ على ظاهر عدالة الرَّجل وفضيلته ، ولا تدلُّ على باطن طهارته[1] وإخلاصه .

وقولُ الرَّسول صلى الله عليـه فى الرَّجل ومديحُه له وإخبارُه عن فَضْلِهِ ومنزِلته ، والوحْىُ ينزل عليه صَبَاحَ مَسَـاء ، أدلُّ على طهارته وإخلاصه .

وإذا كان العبد كذلك كانت النّفوس إليه أسـكنَ ، وكان من التَّبَذُّل[2] أبعد ، مع السلامة من النّفاق ، والدَّخَل فى الاعتقاد ؛ لأن[3] الغلطَ فى خبر الرَّسول صلى الله عليـه ونَصِّه وتبيينه وإقراره للرَّجل[4]

(١) فى الأصل : « طاهرته » .
(٢) التبذل : ترك التصاون . فى الأصل : « التبذيل » .
(٣) فى الأصل : « ولأن » .
(٤) فى الأصل : « الرجل » .

بالفضيلة والاستحقاق ، أقلُّ من الغَلط فيما بين أقدار النّاس ، من الموازنة بين أفعالهم وعقولهم ، وعلومهم وتجاربهم ، وصلاح النّاس عليهم ، مع كثرة عدد الأفعال المتساوية والمتقاربة ، ومع كثرة عدد المُتساوِين والمتقاربين من الرِّجال .

فما يدلُّ على تفضيل النبى صلى الله عليه له قوله يومَ غَدير خُمٍّ(١) وهو قابضٌ على يده وقد أشخَصَه قائماً لمن بحضرته : « مَن كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه . اللهمَّ عادِ مَن عاداه ، ووال من والاه » . وقوله : « أنت مِنّى بمنزلةِ هارونَ من موسى ، إلّا أنّه لا نبيَّ منْ بعدى » . وقوله : « اللهم آتنى بأحبِّ الناس إليك يأكلُ معى مِن هذا الطَّير » ثلاثاً ، كلَّ ذلك يَحجُبُه أنَسٌ ، طمعاً أن يكونَ أنصاريًّا ، فأبى الله إلاّ أنْ يجعَله الآكلَ ، والآتىَ ، والأحبَّ .

ومن ذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه حين آخَى بين أصحابه فقَرَن بين الأشكال ، وقردَ(٢) بين الأمثال ، جعله أخاً مِن بين جميع أمّته وعِلْية أصحابه .

قيل لهم : إنَّ الأخبارَ لا بدَّ فيها من التَّصادُق كما لا بدَّ فى دَرَك المَعقول من التَّعارف ، فإنَّ فى عدم التعارف فى حجج العقُول ، والتَّصادق فى حُجج السمع ، عدَمَ الإنصاف ، وبُطلانَ الكلام .

وليس لكم أن ترفعوا خبراً له ضرب من الإسناد وتوجبون(٣) تصديقَ مثله ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من الخَصمين لا يُعجزه دفعُ المستفيض بلسانه ،

(١) هكذا وردت العبارة في الأصل . ولعل الكلام : « فإن قالت الرافضة : مما يدل على تفضيل . . . » الخ .

(٢) قرد : جمع . وفى الأصل : « فرد » .

(٣) أى وأنتم توجبون .

فضلاً عن دفع الشاذّ وإنْ كان ناقلُه عدلاً فى ظاهره . فإذا كان ناقلُه ذلك كذلك فأولَى الأمور بكم وبهم الصِّدق . وليس كلُّ مَن أراد الصّدق فى مِثل هذا قدَرَ عليه إلاّ بالتقدُّم فى كثرة السَّماع واتِّساع الرّواية . وليس لأحدٍ ، وإنْ حَسُنَ عقـلُه وصحَّ فِـكره ، أن يقول فيما لا يضاف علمه إلا من طريق الخبر حتّى يكون صاحبَ خبر ، وطالب أثر . فإذا صحّ عقـلُه وكثُرَ سماعه ، خفّت[1] مؤونته على نفسه وعلى خصمه .

أوَ ما علمتم أنّ خصومَكم وهم أكثر منكم عدداً ، وأكثر فقيهاً ومحدّثاً ، يروون أنّ النبي صلى الله عليه قال : « لَيسَ أحدٌ أمَنَّ علينا بصحبته وذاتِ يده من أبى بكر ، ولو كنتُ متّخذاً من هذه الأمة خليلاً لاتّخذت أبا بكر خليلا ، لـكن وُدًّا وإخاءَ إيمانٍ[2] » . فإن كان هـذا الحديثُ كما نقلوا لم يجزْ أن يكون النبي صلى الله عليه أخا أحدٍ إلاّ أن يكون الأخ غير الخليل ، ولا نعلم الخليلَ إلاّ أخصَّ منزلة وأقربَ مودّة. مع أنّ قوله « ولـكن » دليلٌ على أنّه قد كان أخاه .

وأعجب من هذا يرْوون أنّ النبي صلى الله عليه قال فى شَكاتِه وقُبيلَ وفاته : « إنّه لم يكنْ نبيٌّ قبلى فيموت حتّى يتّخذ من أُمّته خليلاً ، وإنّ خليلى منكم ابنُ أبى قُحافة[3] » .

ويَروون أنّ النبي صلى الله عليه قال : « اقتَدُوا بالّذَين مِن بعدى : أبى بكرٍ وعمر » .

---

(١) فى الأصل : « وخفت » .

(٢) فى الأصل : « وذا واخا اسان » صوابه من الرياض النضرة ١ : ٨٥ . وانظر فتح البارى ٧ : ١٥ .

(٣) الرياض النضرة ١ : ٨٤ .

وقد تعلمون أنّ إسنادَه عبد الملك[1] ، عن رِبْعِى[2] عن حذيفة[3] ، والآخر سَلَمة بن كُهَيل ، عن أبى الزّعراء[4] ، عن عبد الله[5] .

ويروون أنّ النبى صلى الله عليه ، نظر إلى أبى بكرٍ وعُمر مُقبلَين . فقال : « هذان سيّدَا كُهولِ أهل الجنّة من الأوّلين والآخرين ، إلاّ الأنبياء والمرسلين . يا علىّ لا تُخْبِرهُما » .

فزعَموا جميعاً أن عليًّا قال : ولو كانا حيّينِ ما حدّثتكم .

ويروون جميعاً أنّ عليًّا قام فى النّاس خطيباً فقال : « ألاَ إنّ خير هذه الأمّةِ بعدَ نبيّها أبو بكر ، والثانى عُمر ، ولو شئْت أن أخبركم بالثّالث فعلت » . فكَنَى عن ذِكر عثمان .

ويروون أنّ النبى صلى الله عليه لمّا أسّس مسجدَ المدينة جاء بحجرٍ فوضَعَه ، ثم جاء أبو بكرٍ بحجرٍ فوضَعَه ، ثم جاء عمر بحجرٍ فوضعه ، ثم جاء عثمانُ بحجرٍ فوضعه ، فسئل النبىُّ صلى الله عليه عن ذلك فقال : « هم الأمر الخلافة[6] مِن بعدى » .

وقالوا : لمّا قدِم المدينةَ رسولُ الله صلى الله عليه خَطّ لأهل قُباء مسجدهم بعَنَزَة[7] ، فوضع النبى صلى الله عليه حَجَرا ، ثمّ قال : يا أبا بكرٍ ضَع

---

(١) فى الأصل : « عند الملك » . وهو عبد الملك بن عمير بن سويد بن حارثة القرشى الكوفى . المتوفى سنة ١٣٦ . تهذيب التهذيب .

(٢) ربعى بن حراش الكوفى . المتوفى سنة ١٠٤ . تهذيب التهذيب .

(٣) حذيفة بن اليمان ، الصحابى الجليل ، وكان صاحب سر رسول الله . توفى سنة ٣٦ . الإصابة وتهذيب التهذيب .

(٤) هو خال سلمة بن كهيل . واسمه عبد الله بن هانئ الكندى الكوفى ، وهو أبو الزعراء الكبير ، كان من كبار التابعين . تهذيب التهذيب .

(٥) عبد الله بن مسعود .

(٦) كذا فى الأصل .

(٧) العنزة ، بالتحريك : عصا فى قدر نصف الرمح فى طرفها الأسفل زج كزج الرمح .

حجراً إلى جَنْب حَجَرى ثم قال : يا عثمان خُذْ حجراً فَضمه إلى جنب عُمر . ثمَّ التفتَ إلى سائر الناس فقال : وَضَع رجلٌ حَجَرَه حيثُ أحبَّ .

ويروون أنَّ النبي صلى الله عليه قال يومَ الُحديبية : « مَثَلُ أبى بكرٍ فى الملائكة مَثَلُ ميكائيلَ ينزل بالرَّحمة ، ومثلُه فى الأنبياء مثلُ إبراهيم ، ومثل عمر فى الملائكة مَثَل جبريل ينزل بالسُّخط ، وفى الأنبياء مثل موسى » . والحديث طويلٌ ولكنِّى اختصرتُه .

ويُروى أنَّ النبي صلى الله عليه وُضِع فى كِفَّةِ الميزان والأُمّةُ فى الكفّة الأخرى ، فرجَحَ بهم ، ثم أخرِجَ النبىُّ صلى الله عليه ووُضِع أبو بكر مكانَه فرجَح بالأمّة ، ثم أخرِج أبو بكر ووضع عمرُ مكانَه فرجَح بالأمة ، ثم أخرِج فرفِع الميزان[1] .

وقالوا : إنَّ النبي صلى الله عليه قال : « أيُّها النّاسُ ، إنَّ الله بعثنى إليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال لى صاحبى : صدقت ، فهل أنتمْ تاركىَّ وصاحبى ؟ » .

وممَّا يؤكد هذا قولُ النبي صلى الله عليه : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلاّ وقد كان له تَرَدُّدٌ وكبْوة ، إلاَّ ما كانَ من أبى بكر فإنَّه لم يتلعثم » .

وقالوا : إنَّ النبي صلى الله عليه قال : « إنَّ أبا بكرٍ لم يَسُؤْنِى قَطُّ ، فاعرِفُوا ذلك له » ، فى كلامٍ طويل .

فإنْ كان ما رويتم فى فضيلة علىٍّ حقًّا ، وما رَوَوا فى فضيلة أبى بكرٍ حقًّا ، فأبو بكرٍ خيرٌ من علىٍّ ، وعلىٌّ خير من أبى بكر . وهذا هو

---

(١) انظر الرياض النضرة ١ : ٣٧ .

التّناقض ، والحقُّ لا يتناقض . وفى هذا دليلٌ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلّمْ بذلك ولا قَالَه ، لأنّ الخبر إذا خَرَجَ مخرج العامّ فى تفضيل أبى بكر ، وكذلك فى تفضيل علىّ ، فليس له وجهٌ إلاّ ما قلنا ، إلاّ أنْ يكونَ النبيُّ صلى الله عليه قد قال أحَدَ القولين وصحّتْ به الشّهادة ، ولم يَقُل الآخَرَ وإنّما ولَّدته الرّجال ، وصنَعتْه حَمَلةُ السِّيَر . ولا سبيل لنا إلى معرفة ذلك إذا كان الإسناد متساوياً ، وعند الرجال مُتقارباً . وليس فى هذه الأحاديث كلِّها حديثٌ يضطَرّ خصمه إلى معرفة صحّته ، أو يكون النبى صلى الله عليه قد تكلم بكثيرٍ من هاتين الروايتين وكان معناه وقصده فيها معروفاً عند من كان بحضرته ، حتّى كان الجميع يعرفون خاصّهُ من عامِّه . ولكنّ النّاقلين احتملوها عن السَّلَف مجرَّدةً[1] بغير تأويل معانيها ، فأدّوها على اللّفظ العامّ ، فصار السامع يتناقض عنده إذا قابَلَ بعضها ببعض ، لجهلهِ بأصول مخارجها ، وكيف كان موقعُها .

والذى فَسَّرتُ لَكَ مثلٌ تَعرِف به سَمْتَ الحجّة ، وقَصْدَ السّبيل .

وهو كما نَقَلوا أنّ النبى صلى الله عليه قال : « ما أقلّتِ الغَبْراء ولا أظَلّت الخضراء على ذِى لهجةٍ أصْدَقَ من أبى ذَرّ » . ولم يكن بالنبى صلى الله عليــه إلى استثناء نَفْسه حاجةٌ ؛ لمعرفته باستغناء النّـاس عن ذلك .

وقد عَرفْنا بوجهٍ آخَرَ أنّ حديث أبى ذرٍّ كان مَخرجه مَخرج العامّ وأنّه خاصٌّ وإن لم تـكن خُصوصيّتُه موجودةً فى لفظ الحديث ؛ لأنّك إذا سألت الشّيَع فقلت : أىُّ الرجلين كان أصدقَ عِند النبى صلى الله عليه :

---

(١) فى الأصل : « مجرد » .

أبو ذَرٍّ أو علىّ ؟ قالوا بأجمعهم : علىّ . وإنَّما تَرَكَ[1] النبىُّ صلى الله عليه لعلمه بمعرفة المسلم بذلك من رأيه .

وكذلك لو سألت العثمانية فقلت : أىُّ الرّجلينِ كان أصدقَ عندَ النبى صلى الله عليه : أبو بكر أو أبو ذَرّ ؟ قالوا : أبو بكر ، كقول الشِّيَع فى علىّ .

فقد أجمَعَ الصِّنْفان جميعاً أنّ غير أبى ذَرٍّ أصدقُ من أبى ذرّ .

ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه : « منّا خَير فارسٍ فى العرب » قالوا : من هو ؟ قال : عكّاشة بن مِحْصن .

وليس بين الأمّة تنازعٌ أنّ زيدَ بن حارثة ، وجعفر بنَ أبى طالب الطّيار ، والزّبير ، خيرٌ من عُكّاشة .

ومن ذلك قولُ النبى صلى الله عليه : « يأتيكم خيْرُ ذى يمَن ، [عليه[2]] مَسْحة مُلْك » . فأتاهم جَرير بن عبد الله .

فلو كان هذ اللّفظ العامُّ عامّاً فى معناه ، ولم يكن النبىُّ صلى الله عليه اتّكل فيه على معرفة القوم ، فترك لذلك الاستثناء والتّفسيرَ ، لكان واجباً أن يكون جريرٌ خيراً من سعد بن مُعاذ ، ومن حَمِىَ الدَّبْر[3] ،

---

(١) فى الأصل : « نزل » .

(٢) انظر اللسان (مسح ٤٣٤) .

(٣) هو عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح الأنصارى ، وكان قد قتل مسافعاً والجلاس ابنى طلحة ، من عظماء المشركين ، يوم أحد ثم قتل ، فأرسلت قريش ليؤتوا بشىء من جسده ، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر ، فحمته منهم فارتدعوا عنه حتى أخذه المسلمون فدفنوه . الإصابة ٤٣٤٨ والسيرة ٦١٠ ، ٦٣٩ واللسان (دبر) . والدبر ، بفتح الدال وكسرها : النحل .

ومن غسيل الملائكة[١] ، ومكلِّم الذّئب[٢] . وهذا ما لا يقوله مسلم .

ومن ذلك قولُ النبي صلى الله عليه لأبي سفيان بن الحارث[٣] : «أبو سفيانَ خير أهلي» . وقد علمْنا أنّ حمزةَ والعبّاسَ وعليًّا وجعفراً خيرٌ من أبي سفيان .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه : « خير أهلِ الله عمر بن الخطاب » وقد أجمعَ المسلمون أنّ غيره خيرٌ منه ؛ لأنّ النّاس إمّا عُمَرِىٌّ وإمّا علَوىٌّ ، فالعلوىُّ يقدّم عليًّا ، والعمرىُّ يقدّم أبا بكر .

والجملة أنّه لم يقل أحدٌ قطُّ : إنّ عمر خيرُ الناس . فهذا بابٌ قد فرغتُ [منه] ، تعرف به أنّ النبي صلى الله عليه قد يتكلّم بالكلام المعروف المعنى عند مَن حَضَره ، فإذا نَقَلُوا الكلامَ وتركوا المعنى التبس على العابرين[٤] وجهُ المعنى فيه .

فمن ذلك ما يُعرَف ، كالذى حكَينا من حديث أبي ذرّ ، وعُكاّشة ابن مِحصَن ، وجرير ؛ ومنه ما يُجهَل كحديث علىٍّ ، وأبي بكر .

وقد نقلوا عن النبي صلى الله عليه فى رجال كلاماً وتفضيلا ما نقِلَ مثله فى أبي بكر وعلىّ ، اللّذَينِ فيهما التّنازع .

---

(١) هو حنظلة بن أبي عامر بن صيفي الأنصارى ، وكان أبوه فى الجاهلية يعرف بالراهب وكان حنظلة استأذن رسول الله فى قتل أبيه فنهاه عن ذلك ، وفيه قال صلى الله عليه وسلم بعدما قتله شداد بن شعوب : « إن صاحبكم لتغسله الملائكة » . الإصابة ١٨٥٩ .

(٢) هو أهبان بن أوس أو ابن الأكوع ، أحد الصحابة ، زعموا أن الذئب كلمه وبشره بالرسول . انظر حواشى الحيوان ٣ : ٥١٣ .

(٣) أبو سفيان ، اسمه المغيرة ، وقيل اسمه كنيته ، وهو أخو الرسول من الرضاع ، وأبوه الحارث بن عبد المطلب عم رسول الله . الإصابة ٥٣٥ باب الكنى .

(٤) العابر : المفسر .

من ذلك أنهم نقلوا عن النبي صلى الله عليه أنَّه قال : « كم مِن ذى طِمْرَين[1] لا يُؤْبَهُ له لو أقسمَ عَلَى الله لأبرَّه ، منهم البرَاء بن مالك » . وهذا كلامٌ عظيمٌ إنْ كان حَقًّا ، وليس عندنا فيه إلاّ أن نردَّه إلى الله ورسوله .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلَّم فى رجال كلاماً لو كان قالَه فى أبى بكر وعلىٍّ لكان أصحابُهما سيجعلونه فى أوّل ما يَحْتجُّون به فى الإمامة والتّفضيل مثل قول النبي صلى الله عليه : « رضيتُ لأمتى ما رضِىَ لها ابنُ أمِّ عَبْد ، وكرِهت لها ما كره[2] » .

ومن ذلك قوله : « لكلِّ أمة أمينٌ وأمينُ هذه الأمة أبو عُبيدة » .

وقوله فى طلحةَ يوم أُحُد ، حين واتاه السَّهم فَوَقَى النبيَّ صلى الله عليه فقال ، حين أصابه السَّهم : حَسِّ[3] ! فقال النبيّ صلى الله عليه : « لو قالَ باسم الله لرفعته الملائكة » .

ومن ذلك دخولُ عثمانَ عليه وهو مكشوف الفَخِذ ؛ فغطَّاها ، فقيل له : يا رسول الله ، لِمْ تُغطِّها من أبى بكرٍ وعمرَ وغطَّيتَها عند دخول عثمان . فقال : « كيف لا أستحيِى ممَّن تستحى منه الملائكة » . وقال : « اهتزَّ العرشُ لموت سَعد بن مُعاذ[4] » .

---

(١) الطمر : الثوب الخلق . يقول : رب ذى ثوبين خلقين أطاع الله حتى لو سأل الله تعالى أجابه . ويروى : « رب أشعث أغبر لا يؤبه له » .

(٢) انظر ما سبق فى ص ٨٦ .

(٣) حس : كلمة تقال عند الوجع .

(٤) وفيه يقول حسان « الكامل ٧٧٨ » :

وما اهتز عرش الله من موت هالك   سمعنا به إلا لسعد أبى عمرو

فهذا أيضاً بابٌ يُعرَف به أنَّ الرَّجل ليس يستحقُّ التَّقديم بالرِّواية والحديث ، إذْ كان هؤلاء دونَ أبى بكرٍ وعلىٍّ فى الفَضْل ، وقد جاء فيهم ما لم يجئْ فيهما .

ولقد روَوْا فى رجل لم يُهاجر ، ولم يَصْحَب ، ولم يشهد المَشاهد ، ولم يُنفق ، ولم يتعرَّضْ ، ولم يَدْعُ إلى الله ورسولهِ ، إلَّا أنَّهم زعموا أنَّه كان يطلب الحنيفيَّة قبل مَبعث النبى صلى الله عليه ، وهو زَيد بن عَمرو ابن نُفَيل . فزَعَموا أنَّ النبى قال : « يُبعَث يومَ القيامة أُمَّةً وَحْدَه » .

وأىُّ شىء أدلُّ على كلِّ فضيلةٍ من قولِ النبى صلى الله عليه لعمَّار : « لا تُؤْذُوا عماراً فإنَّما عمارٌ جِلدةٌ ما بينَ عينىَّ » .

ما أعطَت الرَّافضةُ الطَّاعة أبداً ، ولا رَضُوا من النَّاس بالإنصاف !

وقد علمْنا أنَّ حمزةَ وجعفراً وعليًّا ، كانوا أفضَلَ من سعدِ بن مُعاذ ، ولم يهتزَّ لموتهم عرشُ الرَّحمن ، وقُتِلوا شُهَداء ، ولم تَحْمِ لحُومَهم الدَّبْر ، ولا غَسلتْها الملائكة[1] .

فالله أعلم بمعانى هذه الأحاديث . ولعلَّ النبى صلى الله عليه قال فى كلِّ رجلٍ قولاً عدلا ، وكان ذلك قولاً معروفاً مفهوماً عند الحاضر ، ولكنه أدَّى اللفظ وترَكَ المعنى[2] .

فإذا كانت الأحاديث فى أسلافنا وأئمَّتنا على ما حكيتُ لك لا تمنع من معرفةٍ وتدافعٍ ما وصل إلينا منه ، كان واجباً أن يكون المَفْزع فى أمرهم إلى الخبر الذى يجئُ مجىء الحجة ، وترَكَ ما سِوَى ذلك مما لا يُبرِئُ من

---

(١) انظر ما سبق فى ص ١٣٩ — ١٤٠

(٢) فى الأصل : « أدنى اللفظ وبرك المعنى » وانظر ما سبق فى ص ١٤٠ س ١٠ .

سَقَم ولا يُبرِىء من حَيرة . وإنّما الخبرُ الصّحيح الذى لا يعتمد[1] بضعف الإسناد ، ولا يُترَك لضَعف الأصل ، ولا يُوقَف فيه لكَثْرة المعارض والمُنَاوِى[2] ؛ كنحو ما روَيْنا من مآثرهم فى مقاماتهم ومشاهدهم ، وكصنيع علىٍّ ومؤازرته ببدر ، وككون أبى بكرٍ فى العريش . وهذا مالا يَتدافَعُ ولايتناقض ؛ لأنّ قتْلَ علىٍّ الأقرانَ ببدرٍ ليس بناقِض لكون أبى بكرٍ فى العريش ، ولأنّ موقف علىٍّ بأُحدٍ لايدفع كونَ أبى بكرٍ فى الغار ، ولأنّ صنيع علىٍّ بخيبر لايدفع إنفاق أبى بكرٍ الأموالَ ، وعتْقَه الرّقاب .

فهذا وما أشبَهَه ممّا لا تجد له رادًّا ودافعا ، وليس هذا من شكل ما قالوا : أنّ النبى صلى الله عليه قال : « اقتَدُوا بالّذَين من بعدى بأبى بكر وعُمر » ونَقْلهم أنّ النبى صلى الله عليه قال لعلىّ : « أنتَ منّى بمنزلة هارونَ من موسى » ، وكما نقلوا أنّ النبىّ صلى الله عليه آخَى بين نَفْسه وبين علىٍّ ، وأنّ النبىّ قال : « لو كنتُ مُتّخذاً خليلاً لاتّخذت أبا بكرٍ خليلا » فى أشباهٍ لهذا قد حُكَيتْ لك فى صدر الكتاب ، لتعرف مجْرى الكلام فى السّلَف .

فإنْ قالوا : فلعلّ النبى قال : « اقتدوا بالذَين من بعدى » وقد كان معلوماً فى [ذلك] الوقت أنّ عليًّا كان مستثنًى فى هذا القول .

قيل لهم : ولعلّه قال : « من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه » [و] قد كان معلوماً فى ذلك الوقت أنّ أبا بكر كان مستثنًى .

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل : « المساوى » .

فإنْ قالوا : الفرق فى ذلك أنّكم لا تُنكرون روايتَنا فى علىٍّ ، ونحن ننكر روايتكم فى أبى بكر .

قيل لهم : إنّ العجزَ كلَّ العجز أن تعيبَ على خصمك بشىء لا يُعجزه . فإن أبَوا إلّا جحدَ الأخبار وتكذيبَ الآثار والإيجابَ على النّاس ما لا يُوجبون لهم مثلَه فإنّ الذين نَقَلوا أنّ النبى صلى الله عليه قال : « مَنْ كنتُ مولاهُ فعلىٌّ مولاه » لم ينقلوا معه فى الحديث : « اللّهمّ والِ مَن والاه ، وعادِ مَن عاداه » .

وإنّما سمعنا هذه الزّيادةَ من الشّيع ، ولم نجدْ له أصلاً فى الحديث المحمول .

روى الأعمشُ — وكان رافضيًّا — عن سَعْدبن عُبَيدة ، عن ابن بُرَيدة[(١)] عن أبيه قال : بعثَ النبىُّ صلى الله عليه عليًّا فى سَرِيّة واستعمله عليهم ، فلمّا جاء قال : كيف رأيتم صاحبَكم ؟ قال : فإما شكوتُه وإمّا شكاه غيرى ، وكنت رجلاً مِكباباً[(٢)] ، فرفعتُ رأسى فإذا النبىُّ صلى الله عليه قد احمرّ وجهُه وهو يقول : « مَن كنتُ وليّه فعلىٌّ وليُّه[(٣)] » .

فواحدةٌ أنّ الذى رَوَى هذا الأعمش ، وهو ظنينٌ فى علىٍّ مضعَّفٌ عند أهل الحجاز . وسَعدُ بن عُبيدةَ ليس هناك .

وثانيةٌ[(٤)] أنه لم يقُلْ من كنت مولاه ، وقال : « من كنت وليّه »

(١) هو عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمى . تهذيب التهذيب .

(٢) فى اللسان : الرجل مكب ومكباب : كثير النظر إلى الأرض .

(٣) فى الأصل : « مولاه فعلى مولاه » ثم كتب تحت « مولاه » : « وليه » فى الموضعين ، وهو ما يتطلبه الكلام فيما بعد .

(٤) فى الأصل : « وثالثة » .

فإذا اختلفت الألفاظ دلَّ ذلك على الوَهَن . ولم يقل : « اللهم عادِ من عاداه ووالِ مَن والاه » . ونحن نشهد أنَّ مَن كان النبي صلى الله عليه وليَّه فسعد بن مُعاذ وليُّه . وعلى أنّهم قد رَوَوا فى شكاية أقوام(١) فى تلك الغزَاة لعليٍّ كلاماً قبيحا .

ووجهٌ آخَر مما يدلُّ فى هذا الحديث على الاختلاف والوهَن : أنّهم نقلوا أنَّ هــذا القولَ فى عليٍّ كانَ أنَّ عليًّا جارَى زيدَ بن حارثة(٢) فى بعض الأمر ، ولاحاهُ فيه ، لأنَّه أغلظَ له(٣) ، فردَّ عليه زيدٌ مثلَ مقالته ، فقال له علىّ : تقول هذا القول لمولاك ؟ ! فقال زيد : إنَّما ولائى لرسول الله صلى الله عليه ، ولستَ لى بمولًى . فأتى علىٌّ النبى صلى الله عليه ، فشكا إليــه زيداً ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَن كنتُ مولاه فعلىٌّ مولاه » . وصدق النبى صلى الله عليه أنَّ عليًّا مولى زيد ، إذْ كان النبى صلى الله عليه مولاه ، وكذلك العبّاس والفَضْل ، وعبد الله ، وقُثَم ، وتمَّام ، ومَعْبد .

وإذا كانوا هؤلاء موالىَ زيدٍ لأنَّ النبىَّ صلى الله عليه مولاه ، فلِعلم النبى صلى الله عليه مِن ذلك ماليس لهم جميعا(٤) فإنما أراد النبى صلى الله عليه أنْ يُعلم زيداً غلطَه فى ذلك القول ، حين ظنَّ أنَّ ابنَ عم النبى صلى الله عليه ليس مولاه .

فإذا كان أمرُ عليٍّ وزيدٍ مشهوراً عند أصحاب الآثار ، فإنّما عنى

---

(١) فى الأصل : « أقوم » .

(٢) فى الأصل : « زيد ثم حاربه » ، وهو من عجيب التحريف .

(٣) فى الأصل : « غلط له » .

(٤) فى الأصل : « ما ليس لهم بهم جميعا » .

مولى النّعمة ، وليس فى هـذا إخبارٌ عن فضل علىٍّ فى الدِّين .

ولو كان النبى صلى الله عليه قال كما زعمت الرّوافض : « اللهمَّ عادِ من عاداه ووالِ من والاه » ، كان هذا القول يدلُّ على أنَّ زيداً قد أتى جُرماً عظيماً ؛ فلم(١) يكن ليتخطَّى دعاءُ النبىِّ صلى الله عليه على مَن عادى عليًّا إلى غيرِه إلّا بعد وقوعه به ، لأنَّ زيداً هو المشتكَى ، ومن أجل صنيعه خَرجَ النبىُّ صلى الله عليه إلى مثل هذا القول الشّديد ، وهذا الدُّعاء القاصم ، ومِن قوله ومَذهبه غَضِبَ عليه ، وعليه نَصَّ وإيّاه عَـنَى .

وإنّما يقول هذا ويجوِّزه مَن لا علمَ له بقدْر زيدٍ عند النبى صلى الله عليه . أوَما علمتَ أنَّ زيداً أحدُ مَن روَى النّاس عنه ونقلوا أنّه كان أقدمَ النّاس إسلاما . وقد دَلّلنا على فضيلة إسلامه على إسلام علىٍّ فى صدر كتابنا ، فى كلام العثمانية(٢) .

وقد بلغَ مِن قدرِه عند النبى صلى الله عليه وتفضيله إيّاه أنّه لم يكن فى سَرِيةٍ قط إلاّ كان أميرَها ، ولا أقامَ ببلادٍ إلاّ وهو أميرُها .

ويدلُّك على ذلك أنَّ النبى صلّى الله عليه أمَّرَهُ على جعفرٍ الطّيّار ، وعقد له يومَ مؤْتة ، ثم عقد لابنه أسامة على كبار المهاجرين والأنصار ، منهم عمر بن الخطّاب ، وسعيد بن زيد ، وأبو عُبيدة بنُ الجرّاح ، وسعد ابن أبى وقّاص . حتّى قال رجالٌ من المهاجرين — وكان أشدَّهم فى ذلك عَيّاش بن أبى ربيعة(٣) — : يولّى علينا هذا الغلام ! فغضب عُمَر وردَّ

---

(١) فى الأصل : « ولم » .

(٢) انظر ما سبق فى ص ٢٢ - ٢٤ .

(٣) فى الأصل : « عباس بن أبى ربيعة » تحريف . الإصابة ٦١١٨ وإمتاع الأسماع ٥٣٧ وفتح البارى ٧ : ٦٩ / ٨ : ١١٥ — ١١٦ .

عليهم ، ثم أتى النبيَّ صلى الله عليه فقال : ألاَ أعجِّبك يارسولَ الله من رجالٍ يقولون كذا وكذا ؟ ! فمشَى النبيُّ صلى الله عليه إلى المنبر فى شَكاته التى تُوفِّى فيها فقال :

مامقالةٌ بلغتْنى عن بعضكم فى أسامة وتأميرِه ؟ ! ولئن طعنتم فى إمارته لقد طعنتم فى إمارة أبيه . وايمُ اللهِ إنْ كان لخليقاً للإمارة ، وإنَّ ابنَه لخليقٌ لها ، وإن كان لَمِنْ أحبِّ النـاسِ إلىَّ ، وابنه لَمِنْ أحبِّ النـاس إلىَّ .

فهو الِحبُّ وأبو الحِبّ ، وهكذا يقال بالمدينَة : أسامةُ الِحبُّ .

ولذلك قال عُمر لابنه عبد الله حين زادَ فى فريضة أسامةَ على فريضته ، فقال له عبد الله : لِمَ فضّلتَه علىَّ ونحنُ سيَّانِ ؟ فقال عمر : إنَّ أباه كان أحبَّ إلى النبى صلى الله عليه من أبيك ، وكان هو أحبَّ إلى النبى صلى الله عليه منك .

وقالت عائشةُ عند وفاة النبى صلى الله عليه : لو كان زيدٌ حيًّا لاستخلفَه النبى صلى الله عليه عليكم .

هذا وأبوها الخليفةُ والمجعول إليه الإمامة .

ومما يدلُّك على فضيلةِ أبى بكرٍ ومكانته وخاصَّته من النبى صلى الله عليه وسلم وعِظَم شأنِه عنده ، أنّ النبى صلى الله عليه [لمَّا] آخَى بين المهاجرين والأنصار آخَى بينه وبين حمزة ، وإليه أوصى حمزةُ يوم أحد . وقد تعلمون أنَّ حمزة استُشهِدَ وهو أجلُّ الناس فى صدور المؤمنين ، وأعظمُ فى أنفس المهاجرين . وإن امرأً يكون كُفْئاً لحمزة فى الإخاء ، وحمزةُ على ما وصَفْنا ، لَعظيمُ الشّأن ، رفيع المكان .

ولو لم يُعرَف من قدره إلّا أنْ ذكره اللهُ باسمه فى كتابه ، كما ذكر لُقْمان ، ولم يفعلْ هذا لغيرهِ من هذه الأمّة ، لقد كان ذلك دليلاً على المنْزلة والقُربة ، فكيف يجوز أن يكون فى الحديث : « اللّهم عادِ مَن عاداه ووال من والاه » وحال زيدٍ وصفتهُ علَى ماذكرنا وفسّرنا ؟! مع أنّ اللفظ فى الحديث لو كان : اللّهم عادِ مَن عاداه ووال مَن والاه ، لم يكن فيه دَلالةٌ تضطرُّ إلى إمامته ، وحُجةٌ تقهر العقولَ وتحمِلها على معرفة خاصَّته ، ولكنّه لفظٌ يدلُّ على الفَضْل والقدر ، وليس بالتفضيل الذى لا بَعْدَه ، والتّقديم الذى لا فوقه .

وإنما الكلام الذى لا بَعده قول النبى صلى الله عليه : « ما أحدٌ أمَنّ علينا بصحبته من أبى بكر » ، وقوله : « لو كنتُ متّخِذًا خليلاً لاتّخذت أبا بكر خليلا » ، وقوله : « أبو بكرٍ وعُمر سيّدا كُهولِ أهل الجنّة من الأوّلين والآخرين ، إلّا النبيّين والمرسَلين » .

فإذا كان هذا الحديثُ مختلَفاً فى أصله وفى صِحّة مخرجه ، ومُختلَفاً فى تأويله وفرعه ، والحجّةُ فى أصله متدافِعة ، والحجّة فى فرعه متكافئة ، فكيف يكون جَحْد علىّ إمامتَه واستحقاقَه وفضيلتَه على نُظَرائه .

ولو كان هذا الحديثُ مجتمعاً على أصله وصِحّة مَخرجه ، ثمّ كان لفظُه محتمِلاً لضروب التأويل ، ما كان للرّوافض فيه حُجّة تقطع الخَصْم ، وتُظهِر المُبايَنة .

ولو كان هذا الحديث مجتمَعاً على أصله وصحة مخرجه وكان لا يحتمل من التأويل إلّا معنًى واحداً ما اختلفت فى تأويله العلماء ، ولا اضطربت فيه الفقهاء ، ولكان ذلك ظاهراً لكلِّ مَن صحّ لُبُّه ، وحَسُن بيانُه ،

ولا سيَّما إذا كان الحديثُ ليس مُفْصِحاً عن نفسه ، ومعرِباً عن تأويله ، إلّا عن قصد الرسول وإرادته لأنْ يكفيَهم مَؤُونة الرّواية والأسباب المشكّكة فينبغى على هذا القياس أن يكون علماء العثمانية وفقهاء المُرْجئة تَعرِف من ذلك ما تعرف الرّوافض ، ولكنّها تجحد ما تعرف ، وتنكِر ما تعلَم .

ولو كان هذا الحديثُ مجتمَعاً على أصله ولكنّه غامضُ التأويل ، وعويص المعنى ، لا يكاد يُدركهُ إلاّ الراسخُ فى العلم ، البارعُ فى حُسن الاستخراج ، كان العُذر فى جهل إمامته وفضيلته على غيره واسعاً مبسوطا لأكثر المسلمين ، وجُلِّ الناقلين ، ولِكبراء المتكلّمين .

وإنّما صارت الرّوافض إلى إكفار الأنصار والمهاجرين ، بزَعْمِهم[1] أنّ النبى صلى الله عليه نصّ على إمامته ، ودلّ على فضيلته ، فإنّه لابدّ للناس فى كلِّ عصرٍ من إمام من ولده ، لأنّ ذلك الموضع إذا كان مَقْنعاً ومَمْلَماً كان أخفّ على النّاس فى المِحنة ، وأبعَدَ من الخطأ والزّلَل ، ولأنّ اختيارَ الله لهم لأنفسهم ، لأنّه لو كان ذلك لا يكون إلّا بالنَّظَر دونَ النّصّ لم يَصِلوا إلى إقامته ، لكثرة عدد الناس ، ولكثرة عدد الفضل[2] ولِمَا فى ذلك من الإشكال عند الموازَنة ، والشّغل عن العدوّ .

فإذا كان السّببُ فى الإمامة[3] هو الذى قالوا ، فلابدّ من حديثٍ لا يحتمل التأويل ، ولا يَمنع من معرفة صحّة أصله وصِدق مَخرجه .

فإن قالوا : فإنّا سنأتيكم بمثل اللّفظ الذى أتيتمونا به حتّى لا يكون لفظٌ أدلَّ على الغاية منه . من ذلك قولُ النبى صلى الله عليه عند طائرٍ[4]

---

(١) فى الأصل : « وهو » .

(٢) « عدد الفضل » كذا في الأصل – ويصح أن تقرأ « الفضل » جمع فاضل . أو لعلها عدد ذوي الفضل » .

(٣) فى الأصل : « وزعمهم » . (٤) انظر ما سبق فى ص ١٣٤ س ٩ — ١٠ .

أُتِيَ به فأراد أكله فأحبَّ أن يَشْرَكَه فى أكْله أحبُّ الناس إلى الله فقال : « اللهم آتِـنِى بأحبِّ عِبادك إليك يأكلُ معى هذا الطَّائر » ثم قال لأنس : اخرُجْ فانظرُ مَن ترى بالباب ؟ فخرج فوجدَ عليًّا فلم يَأذَنْ له ، ولم يُعلِم النبي صلى الله عليه مكانه طمعاً أن يكون أنصاريًّا . ففعل النبي صلى الله عليه ذلك ثلاثاً ، كلَّ ذلك يحجُبه أنسٌ ، ثمَّ أدخله ، فلمَّا طلعَ قال : « اللهمَّ وال[1] » .

قيل لهم : أمَّا واحدةً فإنَّ هذا الحديثَ ساقطٌ عند أهل الحديث ، ولو كان صحيحاً عندهم فلَمْ يجِئْ إلا مِن قِبَلِ أنَسٍ فقط ، وأنَسٌ وحدَه ليس بحجّة ، فلم[2] يكن فى ذلك مقالٌ ولا متكلَّم .

وثانيةً : إنَّ أولَى النّاس ألاَّ يَحتجَّ بخبرِ أنسٍ لأَنتم معْشرَ الشيَعِ ، لأنَّ أنسًا عندكم كافرٌ كذّاب .

ولقد بلَغَ من سُوء قولكم فيه أنكم زعمتم أنّه كَذَب على عليٍّ ، كَذبَهُ وبَهَتَه بأمرٍ ، فدعا اللهَ عليه ثم بَصق فى وَجْهه فبَرِصَ من قَرْنه إلى قدَمه . وأنتم تـكفِّرونه بعَمَله للحجّاج ، وتزعمونَ أنّه ليس فى الأرض أكفَرُ بالله ولا أجحَد لإمامة عليٍّ ولا أنقض لأمْرِهِ ، ولا أقتلُ لِشيعته من الحجّاج ولا مَن وَلاَّه ، وأنَّ مَنْ وَلِيَ لهما فى طريقهما وحكمهما .

وأخرى أنّه إنْ كان هذا الحديث كما تقولون وقد صَدَقتم على أنس ، فقد زعم أنسٌ بزعمكم أنّه كَذَبَ النبيَّ صلّى الله عليه فى موقفٍ واحد ثلاثَ مرات . وقد أمسكَ النبيُّ صلى الله عليه عن الطعام وهو يشتهيه ،

---

(١) كذا ورد الحديث مبتوراً فى الأصل .

(٢) فى الأصل : « لم » .

مأحبَّ لشهوته له أن يَشْرَكه فيه أشبَهُ النّاسِ به فدعا ربَّه ؛ وأنّه إذْ دعا ربه ثلاثَ مِرَارٍ كلّ ذلك يَسْتجيب له ، وكلّ ذلك يراه أنسٌ ويَكذِبُ له ويصدُّه عن حاجته ، ويمنعُه سرعةَ الاستجابة ، وتعجيلَ قضاء الحاجة ، وتسويغَه أكْلَ المُشتَهَى من طعامه . كلّما دعا دعوةً قال اخرجْ ياأنس فانظرْ مَن بالباب ، ثقةً منه بربِّه ، واتّكالاً على الذى عنده له ، ويرجع وقد كتَمَه وحجبَه عنه ، ومنعَه سرور تعجيل الدُّعاء ، وأكْلَ شهيِّ الغذاء .

فإنْ كان أنسٌ كما تقولون فقد ركبَ أمراً عظيما ، وذهَبَ مذهباً قبيحاً وكيف يَصْدُق على النبي صلى الله عليه مَن خُلُقه بهذا[1] ، وكَذَبه فى وَجْهه ثم لا تمنعه الأولى من الثانية ، والثانيةُ من الثالثة . هذا والوحْيُ ينزِل بأسرعَ من الطَّرْف بلعْنِ قومٍ ومَدْح آخرين .

وإنَّ امرأً احتملت نَفْسُه وشاع فى طبعه أن يواجهَ النبيَّ صلى الله عليه بالكَذِب ثلاثَ مرات فى أحبِّ الناس وأوجبهم حقًّا عليه ، لحرِيٌّ ألاَّ يصدق عليه فى مُعْظم أمر الدين ، مع أنَّ الحديثَ نفسَه هو أضعفُ حديث عند أصحاب الأثر مِن[2] أن يحوجَنا إلى الإطناب فيه ، والإخْبار عنه .

ومتى ادَّعينا ضَعف حديثٍ وفسادَه فاتَّهمْتم رأينا ، وخِفْتم مَيلَنا أو غلَطنا فاعترِضُوا حُمّال الحديث وأصحاب الأثر ، فإنَّ عندهم الشفاء فيما تنازعْنا فيه ، والعلمَ بما التبَسَ علينا منه .

---

(١) كذا فى الأصل . ولعله وجه .

(٢) كذا ورد الأسلوب ، وفيه استعمال «من التفضيلية» مع أفعل التفضيل المضاف ، كقول قيس بن الخطيم :

نحن بفرس الودى أعلمنا منا بركض الجياد فى السدف

ولقد أنصَفَ كلَّ الإنصاف مَن دعاكم إلى المُقْنِع مع قُرب داره وقلّة جَوره وأصحاب الأثر مِن شأنهم روايةُ كلِّ ما صحَّ عندهم، عليهم كانَ أو لهُمْ. مع أنَّ هذا الأمر ليس يُعْرَف من قِبَل الحديث، وإنما يُعرف من الوجه الذي به يُقْضَى على جميع الدِّين.

وإنّما احتججنا عليكم في أنسٍ بالذي سمعتم، لأنّا وجَدْناكم تكفِّرونه حتّى إذا جرى سببٌ يؤكِّد ما تقولون جعلتم كُفْرَه إيمانا، وكذبه تصديقا، وعَداوَتَه ولاية. ثمَّ لم ترضَوْا بأنْ ألحقتموه بالأولياء وأخرجتموه من حدود الأعداء، حتّى أقمتم خبره وحدَه مقَامَ خَبرٍ من يكذِّبُ آيًا[1] به، أو مقام خبرٍ يمتنع الكذب في مجيئه لاختلاف علَلِ أهْله.

فأمّا نحنُ فإنّا نرى أنّه رجلٌ عظيم الحرْمة واجب الحقّ[2]، إذْ كان قد خدم النبي صلى الله عليه صغيراً واعتصم به كبيراً، وكان من رهط صِدْق.

وأمّا ما حكيتم من ولايته للحجّاج فقد وَلِيَ للحجّاج وصَلَّى خلْفَه مَن كان يرى إكفارَه فضلاً عن من يرى تفسيقَه، وفي البراءة منه وفي التقيّة سَعَة، وفي الخوف عُذْر.

فأمّا الذي حكيتم من البياض الذي أصابه فإنّ المؤمنَ بعَرَض مَصائبَ ما كان في دار الدُّنيا. وما كان الذي أصابَه في جَنْبِ الذي كان فيه أيُّوبُ النبي صلى الله عليه؟! وقد كان شُعيبٌ مكفوفاً!

ولو كان عليٌّ كما يقولون فأرادَ أنّه كان إذا بصَق على إنسانٍ فأراد

---

(١) في الأصل: « مقام حبرن ىلدب اىاىه ».

(٢) في الأصل: « فاحب الحق ».

أنْ يبرص بَرِص ، لَمَا كان بينَه وبين عيسى بنِ مريم صلى الله عليه فرق .

والعجبُ إنْ كان كما تزعمون ، كيف لم يبصُق على أبى موسى فيُجْذِمَه ، أو على جيش صفِّينَ فيهزِمَه ؟! بلْ كان علىٌّ أظهر سلماً ، وأرجَحَ حِلماً وأشدَّ ورعا ، وأكثرَ فِقها ، وأبيَنَ فضلاً ، من أن يَدَّعىَ هذا وشِبهَه .

وليس يمدح عليًّا بما لا يليق به إلاّ هازل أو جاهل .

وأمّا قولكم إنّ النبى صلى الله عليه قال : « أنتَ منّى كهارون من موسى إلاّ أنّه لا نبىّ بعدى » ، وإنّ(٢) النبى صلى الله عليه أراد بهذا أن يُعلِم النّاسَ أنّ عليًّا وصيُّه وخليفتُه ، فإنا سنقول فى ذلك ، وبالله وحده نستعين .

نقول : إنّ خلافة الرّجُل لا تكون إلاّ فى إحدى منزلتين : إمّا فى حياة المستخلِف وإما بعد موته . ولم يقل أحدٌ إنّ النبى صلى الله عليه استَخلف عليًّا فى غَزْوة من غَزَواته ، فى كثرة ما غَزا ، وكثرة ما ولّى .

قالوا بأجمعهم : إنّ النبىّ صلى الله عليه خَلّفه فى غزوة تَبوك ، واستَخلف على المدينة محمّد بن مَسْلمة . وقال قوم : المستخلَف ابن أمّ مكتوم . وهم إن اختلفوا فلم يختلفوا أنّ عليًّا كان مقيماً بالمدينة والأميرُ غيره ، والإمام سِواه .

---

(١) فى الأصل : « فإن » .

ولولا أنّ خلفاء النبي صلى الله عليه فى غزَواته يُصَاب عليهم[١] بكلّ مكان ، وفى كلّ سيرة ، لقد كتبتهُ لك فى كتابى الذى رَدَدْتُ فيه على مَن صغَّر قدرَ الإمامة وزعَمَ أنّها غير واجبة ، وأنّها تَصلُح فى العدد الكثير . وأمّا غير ذلك من كتبى فلم أنتحِلْ فيه قولى ، وجعلتُ الكتاب هو الذى عَبّر عن نفسه ، وقمتُ مقام جميع الخصوم ، وجعلت نفسى عَدلاً بينهم . ولو لم أكن على ثقةٍ من ظُهور الحقّ على الباطل لم أستحلّ كتمانَه مع زوال التّقيّة ، وصلاح الدهر ، وإنصاف القَيِّم .

ثم رجعنا إلى كلامنا الأوّل فقلنا : لابدّ لخلافةِ الرّجل من إحدى منزلتين : إمّا فى الحياة أو بعد الموت : فأمّا فى الحياة فلا يستطيع أحدٌ أن يقول : إنّ النبي صلى الله عليه استخلف عليًّا فى حياته . وليس يضع ذلك من علىّ ؛ لأنّ أبا بكرٍ وعُمَرَ اللّذَين هما عندنا أولَى بالأمر منه لم يستخلفهما النبي صلى الله عليه قَطُّ فى حياته . أو تكون الخلافة بعد الموت فلا يجوز أيضاً أن يكون النبي صلى الله عليه عنَى بقوله « أنتَ منّى بمنزلة هارون من موسى » الخلافةَ لعلىٍّ بعده والذى قد عُلِمَ أنّ هارون قد ماتَ قبل موسى : لأنّ هارون وموسى وأمّهما ماتُوا جميعاً فى شهر واحد ، وكان موسى صلى الله عليه آخِرَهم موتا . ولذلك قالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلتَ هارون[٢] .

فإن قالوا : ومن يقول : إنّ هارونَ مات قبل موسى ؟

قيل لهم : إنْ شئتم فاعترضوا أصحاب التفسير والسّيرة ، والتمسوا عِلْمَ

(١) أى يوقع عليهم . وفى اللسان : « صابوا بهم : وقعوا بهم » .

(٢) انظر كامل ابن الأثير ١ : ١١١ ففيه قصة وفاة هارون . وانظر كذلك سفر العدد ٢٠ : ٢٨ ، ٢٩ .

ذلك من قِبَلِ أصحاب ابنِ عبّاس ، وإن شئتم فأهل الكتاب يهودهم ونصاراهم الذين ليس لهم فى ذلك دَفْعُ مَضَرّة ولا اجتلابُ منفعة ، ولو آثَرُوا أن يجحدوا ما عرَفُوا ، وأن يُطْبِقُوا على إنكار ما علموا ، وكان ذلك ممكناً فى القُدرة ، سائغاً جائزاً ، لجحدوا أنّ بنى إسرائيل أخذَتْ موسى بقَتْل هارونَ تعنُّتاً وبغياً ، أو غلطاً أو جهلا .

وهذا مشهورٌ عند أهل الكتاب وأهل التفسير .

وليس أحدٌ أحقّ بأنْ يُصيب فى الأمثال إذا ضَرَبها ، ولا أولى بحُسْن التّشبيه إذا شبّه ، مِن خِيرة الله وصَفوته مِن رسله ، فكيف يجوزُ أن يقول النبى صلى الله عليه لعلى : « أنت منّى بمنزلة هارونَ من موسى » وهو يريد الخلافة ، وهارونُ لم يكن من موسى خليفةً من بعد موته ، ولم يكن علىٌّ خليفة النبى صلى الله عليه فى حياته . ففى أىّ المنزلتين وعلى أيّة الحالَين يكون علىٌّ خليفةً إذْ لم يكن استخلَفه النبى[1] أيّام حياته . بل كيف يجعلهُ من نفسه بمنزلة هارونَ من موسى وهو يُريد الخلافة من بعده ، وهارونُ لم يكن خليفة موسى بعده .

ولا بدّ للحديث مع سوء تأويلكم واضطراب حُجّتكم من ضربين : إمّا أنْ يكون باطلاً لم يتكلّمْ به النبىُّ صلى الله عليه . وإمّا أن يكون حقّاً ومعناه غير ما قلتم ، وتفسيرُه غير ما ادّعيتم .

ولو أنّ النبى صلى الله عليه أراد أن يجعلَ عليًّا خليفةً من بعده إذْ لم يكن جعَله خليفةً أيّامَ حياته ، لقالَ[2] : أنتَ منّى بمنزلة يُوشعَ بن نُونٍ

---

(١) فى الأصل : « استخلفه موسى » ، وكلمة « موسى » مقحمة .

(٢) فى الأصل : « فقال » .

إلاّ أنّه لا نبيّ بعدى » ، لأن يوشع كان خليفةَ موسى فى بنى إسرائيل بعده ، وكان نبيًّا قبل موت موسى وبعده .

فإنْ قالوا : إنّ النبى صلى الله عليه لم يَقصِد إلى الخلافة ولم يُرد الإمامة ، ولكنّه عنى الوِزارة .

قلنا : إنّ وِزارة هارونَ من موسى لا بدّ فيها من أحد أمرين :

إمّا أنْ يكون موسى هو جعل له ذلك وهو وزيرُه على جهة ما يتّخذ الإمامُ وزيراً والملكُ وزيراً على معنى الاختيار والاستكفاء والثّقة .

أو يكون وزيره على جهة المؤازَرة والمكاتَفة والتعاون ، على أنّ كلّ واحد منهما وزيرُ صاحبه ومعاونُه ومكاتفه ، إذا غابَ عن قومه كان الآخر خليفتَه ، لا على أنّ موسى الجاعلُ ذلك له .

ولا منزلةَ لهارونَ من موسى إلا هاتين المنزلتين فى جهة الخلافة والوِزارة ، لأنّ نبوّة هارونَ لا تكون من قِبَل موسى ، والنبوّة لا تكون إلا من قبَل الله .

وليس يخلو قول موسى لهارونْ : « اخلُفْنى فى قومى » عن ضربين : إمّا أن يكون هو جعَله خليفتَه على جهة الاختيار والاستكفاء والثقة به ، وإما أن يكون خليفةً على أن يكون كلٌّ واحد منهما إذا غاب عن قومه كان الآخر خليفتَه .

فإن كانت وِزارةُ هارون وخلافتُه لموسى إنّما كانت منزلَتين أنزله فيهما موسى ، وليست لهارون من موسى منزلةٌ غيرها ، فقال النبى صلى الله عليه : « أنت منّى بمنزلة هارون من موسى » فكأنّما قال : لك خلافتى

ووزارتى[١] ، فكيف يقول : إلّا أنّه لا نبيّ بعدى . والنبوّةُ منزلةٌ من الله لهارون وليست منزلةً لهارون من موسى . فإذا كان ذلك كذلك فكيف يستثنى الحكيم المرشد الشيء من [غير] شكله ؟ ! وهل يكون بعضٌ من غير كلّه ؟ !

وكيف يقول : قد جعلتك خليفتى ووزيراً ، إلّا أنى لم أجعلْك نبيًّا مثلى ، ومنزلةُ النبوّة ليست إليه كما كانت منزلةُ الخلافة والوزارة إليه . وإنّما قوله : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » يريد به : إن لك منّى مثلَ الذى كان لهارون من موسى ، وهو الخلافة والوزارة . فكيف يقول : « إلا أنّه لا نبيّ بعدى » فيستثنى ما لا يملكه ولا يجوز أن يملكه ، مما قد ملكه ويجوز أن يملكه مَن هو دونَه من خلفائه ومن خلفاء خلفائه .

أو يكون هارون كان وزيرَ موسى على جهة المؤازرة والمعاونة ، وعلى أن يكون كلٌّ واحدٍ منهما وزيرَ صاحبه وخليفتَه عند الغَيبة وحضور الآخر ، ليس أنّه قد كان خليفةً ووزيراً . وإنْ كان ذلك كذلك فليست لهارونَ من موسى منزلةٌ من الوزارة والخلافة إلّا ولموسى من هارون مثلُها . وإذا كان ذلك كذلك فقد صارت خلافتُهما ووزارتُهما كنبوّتهما أو رسالتهما . وإذا كان ذلك كذلك فكيف يجوز أن يقول النبيّ صلى الله عليه لعليٍّ : أنت منِّى بمنزلة هارونَ من موسى ، وليست لهارون من موسى منزلة إلاّ ولموسى مثلُها من هارون ؟! . وكيف يجوز أن يقول النبي صلى الله عليه ذلك لعليٍّ ومنزلةُ هارون من موسى منزلةُ النبيّ من

---

(١) فى الأصل : « فإنما قال ذلك خلافتى ووزارتى » .

النبي ، والشكل من الشكل ، والمِثل من المثل ، وهى مَنزلة من الله كما أن نبوّة موسى منزِلة من الله ؟!

وكيف يقول : إلا أنّه لا نبيّ بعدى ، وسبيل النبوّة سبيلُ منزلة هارون من موسى على ما حكيناه من التعاون والتآزر ؟!

وإذا كان هذا الحديث لو صحّ فى أصله وأوّل مخرجه ، وسلِمَ من الزِّيادة والنُّقصان وجاء مجىء الحجّة ، لم يقدر القومُ على أن يجعلوه دليلاً موجباً وشاهداً صادقاً على(١) خلافته وإمامته دونَ غيره ؛ فما ظنُّك به إن كان قد دخَله من الخلل والضَّعف والاحتمال فى الفساد ما يوجب تكذيبه وردّه .

وأقلُّ ما للعثمانيّة فى هذا الحديث أنْ يُساوُوكم فى تأويلكم ، وفى ذلك الخلاف بُطلانُ حجّتكم .

وقد زعمَ ناسٌ من العثمانيّة أنّ هذا الحديث باطلٌ من أجْل أنّه لا يحتمل من التأويل إلّا ما حكيتُ لك ، وأنّ النبي صلى الله عليه لا يُعلن ولا يُظهر غير ما يُضمر ، ولا يتكلّم بالفاسد ، ولا يَستكْرِه المعانىَ ، ولا يتكلّم بالمُتَمقِّد(٢) ، ولا يضرب مثلا ولا يشبِّه شيئاً بشىء إلاّ وذلك الشىء وَفْقُ ما قال ، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه .

ووجهٌ آخر : أنّ هذا الحديثَ لم يُروَ إلا عن عامر بن سعد(٣) . فواحدةً إنّ عامرَ بن سعد هذا لو كان بالفقه والحديث والفضل معروفاً

---

(١) فى الأصل : « وعلى » .

(٢) يقال عقد كلامه تعقيدا : عوصه وعماه .

(٣) عامر بن سعد بن أبى وقاص ، تابعى ثقة توفى سنة ١٠٤ . تهذيب التهذيب .

وكان كأمثاله من بَنِى الصحابة كعبد الله بن عباس ، وابن عُمر ، وابن الزُّبير ، وأبى سَلَمة بن عبد الرحمن[١] وغيرهم ، ما كان ليكونَ وحدَه حجّةً فى تأخير أبى بكر عن مَقامه ، فكيف وهو فى غير سبيلهم وطريقهم.

ولو سمِعْنا هذا الخبرَ من سعدٍ وحدَه ما كان إلا حجّة على نفسه كالحجّـة على علىٍّ فى روايته أن النبى صلى الله عليه قال فى أبى بكرٍ وعمر : « هذان سيّدا كهول أهل الجنة » .

وكيف يَروى هـذا سعدٌ مع قوله فى الإمامة : « ما أنا بقميصى هـذا أحقّ منّى بها » وهو يدعو عليًّا إلى الشورى والمخايرة والمكاثرة بالمحاسن ، ويقول : « أعيدُوها شُورَى كما كانت » ، ويعيبُ عليًّا بالاستبداد ، ويقول : « كنتُ سابعَ سبعةٍ مع النبى صلى الله عليه ، ما لنا طعامٌ إلاّ ورق الشّجر ، ثمّ جاءنى أعرابىٌّ يعلّمنى دينَ الله ، ما أنا بقميصى هذا بأحقّ منّى بها » .

وإنّما فَخَر بأنّه كان سابعَ سبعةٍ على علىٍّ لأنّ عليًّا لم يكن فيهم عندَه ، وكان إمّا حَدَثاً صغيراً وإما على أمرٍ غير ذلك .

وسعدٌ من العَشَرة ، ومن السِّتّة ، ومن السَّبْعة[٢] ، والمستجابُ

---

(١) أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، قيل اسمه عبد الله ، وقيل إسماعيل ، وقيل اسمه كنيته . تهذيب التهذيب ١٢ : ١١٥ — ١١٨ .

(٢) أى العشرة المبشرين بالجنة ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد ، وأبو عبيدة بن الجراح وفى شأنهم ألف أبو الطيب كتابه « الرياض النضرة ، فى مناقب العشرة » . وأما الستة فهم أهل الشورى ، الذين اختارهم عمر بعد أن طعن ليختاروا من بينهم رجلا للخلافة ، وهم على ، وعثمان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، وطلحة . ثم ضم إليهم عبد الرحمن بن عمر سابعا على ألا يكون له شىء من الأمر . الطبرى —

الدّعوة . وقال له النبي صلى الله عليه : « ارمِ فِداكَ أبي وأمي » . ومن كان لهذه الأمور مستحقًّا لم يَجمع بين طلبِ مخايرةِ رجلٍ ومكاثرته بالمحاسن وهو مُقرٌّ أنَّ النبي صلى الله عليه جَعَلَ خصمه منه بمنزلة هارون من موسى ، إلّا أن يكون تأويلُ الحديث عند سعدٍ وعند من شهد سعداً على غير معناكم .

وحديثُ عامرٍ على غير ما يَروُون ، وإنَّما قال : « أنت منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلّا أنّه ليس معي نبيّ » ، هكذا رَوَوه عن عامر ابن سعدٍ على غير معناكم .

وفي قول النبي صلى الله عليه : « هذا خالي أباهي به فليأت كلُّ امرئٍ بخاله[1] » تفضيل له على كلِّ خالٍ في الأرض ، وقد كان عليٌّ خالَ جعدةَ بن هُبيرة . ولم يستثنِ أحداً .

فإنْ قالوا : الدليل على ماقلنا أن النبي صلى الله عليه لمّا آخَى بين المهاجرين والأنصار آخَى بينه وبينه ، فلولا أنّه كان أشبهَ الناس به هَدْياً ، وعلماً وفضلاً ، لم يجعله عِدْلَ نفْسه دونَ غيره .

قيل لهم : أنتم ليس لكم علمٌ بالأثر ولا بالخبر . وكيف يعرف الآثار والأخبار من يكفِّر الأسلاف ، ويَبرأ من التّابعين ، ويَجحد كلَّ ما لم

— ٥ : ٣٤ — ٣٥ . وأماالسبعة فهم السابقون إلى الإسلام من الرجال : زيد بن حارثة ، وأبو بكر ، وعثمان ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة . الرياض النضرة ٢:٢٩٢ وعيون الأثر . ١: ٩٣ — ٩٥ .

(١) يقول هذا في شأن سعد بن أبي وقاص . الإصابة وصفة الصفوة ١ : ١٤٠ ، والرياض النضرة ٢ : ٢٩٦ . قال أبو الطيب : « وكان سعد من بني زهرة ، وأم النبي صلى الله عليه وسلم من بني زهرة ، فلذلك قال : خالي » .

يوافقْ هواه ، ويدّعى ماوافَقَ هواهُ وإنْ كان باطلا ، بلْ لايرضَى حتَّى يتقوّل الزُّور ويولّد الباطل .

وليس شيء أيسرَ من أنْ يقول قائل : إنَّ النبي صلى الله عليه لما آخَى بين أصحابه آخَى بين نَفْسه وبين أبي بكر . ولكنّ الحقّ أحقُّ ماخُضِع له واحتُمِل مافيه . وهذه الفقهاء وأصحاب الآثار عُرْضةٌ لكم ، فإن لم يقولوا إنَّ النبي صلى الله عليه لما آخى بين المهاجرين والأنصار آخى بين علىٍّ وسهل بن حُنَيف فنحن أولى بجحد المعروف منكم . وقد قال الله : « فاسألُوا أَهْلَ الذِّكر إنْ كنتم لا تَعْلَمون[١] » .

وأنتم لستم[٢] أصحاب آثارٍ ، فاسألوا أصحاب الآثار إن كنتم لا تعلمون ؛ فإن ذلك أمرٌ مشهور لا خَفَاء به ، ولا دافعَ له ، أعنى المؤاخاةَ بين علىٍّ وسَهل بن حُنَيف .

ولثقةِ علىٍّ به استعملَه على المدينة حين خرجَ عنها . ومن أجل سَهل بن حُنَيف امتنع الزُّبير وطلحةُ أن يَركبوا عثمانَ بنَ حُنَيف والِيَ علىٍّ على البصرة بأكثرَ مما كانوا ركبوه به . ولذلك السَّبب صلى أبو أمامة بنُ سهلِ بن حُنَيف بالناس فى مسجد الرّسول صلى الله عليه وعثمانُ مُحاصَر ، لرأيِ علىٍّ كان فى ذلك ، ولغلبته على الدَّار ، وأنّه كان يُطاع بأكثر من طاعة الزُّبير وطلحة وسعد .

وإنّما آخى النبي صلى الله عليه بينه وبين سهل بن حُنَيف الأنصارىّ كما كان آخى بين عثمان بن عفّان وأوس بن ثابت[٣] . ولذلك قال

---

(١) الآية ٤٣ من سورة النحل .

(٢) فى الأصل : « ليس » .

(٣) هو أخو حسان بن ثابت .

حسّان يحامى دونه وينصُرُهُ بالكلام والشعر ، ويُظهر الميل على علىّ حين قال :

يا ليت شِعرى وليتَ الطَّيرَ تُخبرنى ما كان شأنُ علىٍّ وابنِ عفّانا[١]
لَتسمعنّ وشيكاً فى ديارِكمُ الله أكبرُ يا ثاراتِ عُثمانا

ولذلك قال فى كلام له وهو يعتمد رأىَ علىٍّ واختياره : ثكلت أمٌّ نزالِ حَرْب لقى ابن أبى طالب كفاحا ، وسعدت أمّ نزال رأى لقى ابن أبى طالب سهوا . فى كلام كثير ، وشعر كثير .

وكما آخَى النبى صلى الله عليه بين أبى الدَّرداء وسَلْمان ، وبين عبد الرحمن ابن عَوف وسَعد بن الرّبيع ، وبين حُذَيفة وعَمّار[٢] ، وبين حَمْزة وزَيْد[٣] ، وبين أبى بكر وعمر

فإنْ قالوا : فلعلّ النبى صلى الله عليه آخى بين علىّ وبين نَفْسه ، وبين علىٍّ وبين سهل بن حُنَيف ، وهذا مالا يتدافع ، كما كان يؤاخى بين الرَّجُل المهاجرىّ وبين الأنصارى ، وقبلَ ذلك ما آخَى بين المهاجرين بعضِهم فى بعض ، فكان الرّجُل منهم تصير[٤] المؤاخاةُ بينه وبين اثنين : مُهاجرىّ وأنصارىّ .

قلنا لهم : أمّا واحدةً فإنّا[٥] لم نجدْ لقولكم إنّ النبى صلى الله عليه آخى عليًّا إسناداً يثقُ به أصحابُ الحديث فضلاً عن أن يكون جاء مجىء

(١) ديوان حسان ٤١٠ .
(٢) حذيفة بن اليمان ، وعمار بن ياسر .
(٣) زيد بن حارثة . عيون الأثر ١ : ٢٠١ .
(٤) فى الأصل : «يصير» .
(٥) فى الأصل : «فإذا» .

الحديث . ولو كان النبي عليه السلام حيث آخى بين المهاجرين ولم يرض لعليٍّ إلاَّ بنفسه لفضل عليٍّ على غيره وأنه أشبهُ الأمّة به وأقربُهم حالاً من حاله ، ثم آثرَ أن يُؤاخِيَ بينه وبين رجلٍ من الأنصار كفعله بغيره من المهاجرين — كان ينبغي له أن يؤاخِيَ بينه وبين أفضل الأنصار ؛ إذْ كان الذي يمنعُهُ من أن يُؤاخِيَ بينه وبين بعض المهاجرين طلَبَ أفضلِهم ، وكان ينبغي على هـذا المذهب أن يؤاخي بينه وبين سَعد بن مُعـاذ .

فإنْ قالوا : سهل بن حُنَيف أفضلُ من سَعدٍ ومن حَمِيِّ الدَّبْرِ ومن غسيل الملائـكة ، ومن مكلِّم الذِّئب[1] ومِن غيره ، لم يكن هذا منـكراً من مكابَرَتهم وجهلهم .

فإنْ قالوا : إنَّه جائزٌ أن يؤاخي بين غيرِ الأشكال في الفَضْل ، وجائزٌ ألَّا يؤاخيَ بين المتساويَين والمتقاربَين .

قيل لهم : فلعلَّ أيضاً النبيَّ صلى الله عليـه لم يؤاخِ بين نفسه وبين عليٍّ — إنْ كان آخاه كما زعمتم — من قِبَل تقاربِ الحال والمشاكلة في الأفعال . ولعل النبيَّ صلَّى الله عليه لم يؤاخِ عليًّا رأساً إذا أجاز ألاّ يؤاخيَ بين الأشكال ، ولا يقارب بين الأمثال . وأدنى ما فيه أن يكون ذلك قد كان جائزاً .

فإن تركوا هذا أجمعَ وقالوا : كيف يجوز أن يكون أبو بكر هو الإمام وقد كان النبي صلى الله عليه جعَلَه في جيش أسامة ، وما زال يقول في شكاته : « أنفذوا جيشَ أسامة » يُعيد ذلك ويكرِّره ، إلى أنْ قبضَه الله إلى جَنَّته .

(١) انظر ماسبق في ص ١٣٩ — ١٤٠ .

قيل لهم : إن فى أمر النبى صلى الله عليه له أن يقوم مقامَه فى الصَّلاة بالمسلمين . وعائشة وحفصة قد اعتونتا[1] ليصرِفا ذلك إلى عمر ، ويقولان : إنَّ أبا بكر رجُل رقيق لا يستطيع أن يقوم مقامَك .

وهو قد ودَّع المسلمين فى حطبته التى خطبها فى شَكاته حينَ قال : « إن عبداً من عباد الله خيَّرهَ الله بين الدُّنيا والآخرة فاختار الآخرة » فبكى أبو بكرٍ ، فعجبَ الناس منه وقالوا[2] : قال رسول الله صلى الله عليه : إن عبداً من عباد الله ' ! قالوا : وكان أبو بكرٍ أعلمنا برسول الله صلى الله عليه . هكذا الخبر ثم جاء جبريلُ فى شَكاته فقال : يامحمّد ، هذا مَلَكُ الموت يستأذنُ عليك ولم يستأذنْ على آدمىٍّ قبلَك . قال : ائذنَ له . فأذِنَ له جبريلُ حتَّى وقف بين يدَىِ النبى صلى الله عليه ثم قال : يا محمّد ، إنَّ الله أرسلَنى إليك وأمرنى أن أطيعَك فيا أمرتَنى به ، فإن أمرتَنى قَبْضَ نفسِك قبضْتُها ، وإن كرِهتَ ذلك تركتُها . قالوا : فسَمِع النبىُّ صلى الله عليه يقول : « الرَّفيقَ الأعلى » . فعُلِمَ أنَّه قد خُيِّرَ صلى الله عليه .

ثم كان عند كلِّ صلاةٍ لا يجد عندها إفاقةً يقول : « مروا أبا بكر يصـلِّى بالناس » ويقول : « أبَى الله إلاَّ أبا بكر » ، وفى قوله أبَى الله أن يصـلِّى إلاّ أبو بكر ، دليلٌ أنَّ ذلك مِن قِبَلِ الوحى . مع قوله لعائشة وحفصة حين أرادتا صرفَ ذلك إلى عمر : « أنتن صَواحبات يوسف ، أبَى الله ورسولُه أن يصـلِّى إلاّ أبو بكر » بالغِلَظ . فلو كان الخَطْبُ فى ذلك صغيراً ما أغلَظَ النبى صلى الله عليه لهما ، ولا اشتدَّ عليهما .

---

(١) اعتونتا ، مثل تعاونتا . وفى الأصل « اعتونا » .

(٢) فى الأصل : « وقال » .

فإنْ قالوا : ومادعا عائشــةَ إلى صرفِ هذا الأمرِ العظيم والمَقَام الشريف إلى عمر ؟

قيل : فإنّه ليس عندنا فى ذلك إلاّ مااعتذَرَتْ هى به لنَفْسها ؛ فإنّها قالت : إنّى والله ماأردتُ صرفَ ذلك على أنّى لم أعرِفْ شرفَه وخطره ، ولــكنّى خِفْت أن يتشاءم المسلمون به ، وألاّ يحبُّوا رجلاً قامَ مقامَه أبداً .

فأمّا حديث الرَّبيع بين صَابيح(١) عن الحسن فإنّه زعَمَ أنّها قالت : خِفْتُ ألاّ يطيقَ حملَ الخلافة ، وظننتُ أنّ الناس سيُريدون منه مثلَ ماتعوَّدوا من النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلمتُ أن أحداً لايكون كالنبى .

فإنْ كان النبى صلى الله عليه وسلم جعله فى جيش أُسامةَ فقد استثناه حينَ اشــتكى ، من جميع الجيش ، إذا اســتخلفَه فى مقامَه ، وأمَرَه بالصَّلاة لأمَّته ؛ لأنّ من صلّى فى مَقام النبىّ صلى الله عليه وسلم وفى مسجده ومُصَلاَّه ، فى أعيادِه وسائرِ أيّامه ، فقد صلّى بجميع الأمة ، وتأمَّر على جميع البريّة .

وإنما أدخلْنا فيها صلاة الجمعة والعيدين لأنّ النبى صلى الله عليه وسلم حين قال : «أبَى اللهُ ورسولُه إلاّ أنْ يصَلّى أبو بكر » لم يستثن صلاةً دون صلاة . فإذا كان الــكلامُ عامًّا والنبىُّ صلى الله عليه وسلم على يقينٍ مِن فراق الدُّنيا ، والوحىُ ينزل عليه ، فقد دخلَ فى ذلك صلاةُ العيد والجمعة ؛ لأنّ النبىّ يتكلّم كلاماً عامًّا(٢) .

---

(١) بفتح الصاد وكسر الباء ، كما فى حواشى تهذيب التهذيب .

(٢) بعده فى الأصل : « وهو على يقين من فراق الدنيا والوحى ينزل عليه » .

وقد علم الله ورسولُه أنّ الكلام العامّ يتّخذه النّاسُ حجةً فيما يدلُّ عليه العامّ .

وقد علم اللهُ أن أبا بكرٍ سيصلى بالنّاسِ فى أعيادهم وسائرِ صلاتهم وأنّه سيُحتَجُّ فى استحقاق أبى بكر بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أبى الله ورسولُه أنّ يصلِّىَ إلاّ أبو بكر » ؛ فكان ذلك دليلاً على أنّ الله قد أراد ذلك وأوجَبَه ، وعَناه وأحبَّه .

فهذا دليلٌ على أنّ أبا بكرٍ لم يُخالفْ أمرَ الله بتخلفه عن جيش أسامة إنْ كان أبو بكرٍ ممّن كان فى ذلك الجيش قَبْلَ شكاةِ النبى صلى الله عليه وسلم وأمْرِه له بالصّلاة .

ووجهٌ آخرُ يدلُّ على ماقلنا . وهو أنّا لم نجِدْ أحداً من المسلمين ولا من الأنصار والمهاجرين ذكروا عنه فى ذلك الدهرِ حرفاً واحدا مِن ذكر تخلُّف أبى بكرٍ ، لاعاتباً زاريا ، ولا مستفهما مسترشدا ، ولا متعجِّبا ناقماً ، ولا مصوِّبا عاذراً ؛ ولم يذكُرْ أحدٌ حديثاً — ضعف إسنادُه أمْ قَوِىَ — أنّ أحداً احتجّ لأبى بكرٍ ولا عليه[1] .

ولا يكون رجلٌ فى مثل نباهة أبى بكر وقدْره ، وفى مِثل نباهةِ ماصار إليه ، لأنّه لاموضعَ أولى بشدّة[2] الحَسَد وكثرةِ الطّعن منه ، وقد كان منه التخلُّف الذى لا يَخفَى موضعه ، مع توكيد النبى صلى الله عليه وسلم وشِدّته على ذلك ، ثم لايلجأ فى تخلُّفه إلى حُجَّة ولا أمر

---

(١) فى الأصل : « علا عليه » .

(٢) بين هذه الكلمة وسابقتها بياض فى الأصل بقدر كلمة واحدة .

من النبي صلى الله عليه وسلم ثم يُطبق[1] جميعُ الخلق في ذلك على السُّكوت والرضا والاستحسان أكثَرَ مما صارُوا إليه .

هذا وبنو عبدِ منافٍ شهودٌ ، وخالد بن سعيد[2] قد ترك بَيعتَه ستَّةَ أشهر ، وقال : أرضِيتُم معشرَ بني عبد مناف أن يَلِيَ عليكم رجلٌ من تيم ؟! وقال أبو سفيانَ بنُ حربٍ مثلَ ذلك . وقالت الأنصار : مِنَّا أميرٌ ومنكم أمير . وقد سمع أبو قُحافة رجَّةً وهو بمكة ، وهو مكفوف ، فقال : ماهذا ؟ قالوا : مات النبي صلى الله عليه وسلم قال : فما صنع الناس ؟ قالوا : أقاموا ابنك . قال : فرضيتْ بنو عبد منافٍ بذلك ؟ قالوا : نعم : قال : وبنو المغيرة ؟ قالوا : نعم . قال : فلا مانعَ لما أعطى الله ، ولا معطيَ لما منع[3] .

وفي إطباق الجميع على السكوت عن التخلُّف عَينِه ، مع قول خالدٍ وأبي سفيان ، دليلٌ على أنهم لو وجدوا غميزةً أو خلافاً أو معصيةً لم يدَعُوا الاحتجاج به ، والخوضَ فيه . ولو كانت التقية قطعتهم عن ذلك لقطعتْهم عن ذِكر الطَّعن في إمامته ، كما قطعتْهم عن ذكر الطَّعن في تخلُّفه .

وفي رضا أُسامة وتسليمِه وسكوتِه وقناعته حتى لا يُحكى عنه في ذلك كلمةٌ واحدة ، دليلٌ على ماقلنا .

فإنْ قالوا : إنَّ أُسامة قد عرَف صنيعَه في تخلُّفه ولكنَّه كان في تقيَّةٍ منه ، لأنَّ أبا بكرٍ لو لم يكنْ هو المطاعَ في العوامّ ، والمقنَع

---

(١) في الأصل : « ثم يلجأ في يطبق »

(٢) خالد بن سعيد بن العاص .

(٣) في الأصل : « معط » .

فى الدَّهماء ، ماتقدَّم بنى عبد مناف وكان أسامةُ لايستطيع أن يُبدِىَ فى دهرِ عمرَ من ذلك شيئاً ، لشدَّةِ عُمَرَ فى تعظيم أبى بكر ؛ لأنَّ الطَّعنَ فى أبى بكرٍ راجعٌ على عمر ، وأن رعيَّة عمرَ هم رعيَّةُ أبى بكر وكذلك كان أسامةُ فى دهر عثمان ، لأنه نَسَقٌ واحد وسبيلٌ واحدة .

قيل لهم : فما منعه أنْ يتكلَّمَ فى دهر علىٍّ ومع علىٍّ يومئذ مائة ألف سيفٍ يُطيعه . وهل عندكم فى أسامة أكثرُ من أن تدَّعوا على ضميرِه غيرَ ما يدلُّ عليه ظاهرُ عملِه ؟! وإنَّ أولى النّاسِ ألاَّ يحتجَّ بأسامة لأنتم ؛ لأنَّ أسامةَ هو الشَّاهد لطلحةَ على علىٍّ ، حين قال علىٌّ : بايعتَنِى ونكثْتَ بيعتى . قال طلحة : « بايعتُك واللُّجُّ على قَفَىَّ[1] » . واستشهدَ أسامة ، فقال أسامة : أمَّا السَّيفُ على قفاه فلم أرَه ولكن بايعَ وهو كاره . فى أمورٍ كثيرةٍ تدلُّ على أنَّ أسامة كان عمريًّا ، ليس هذا موضعَ ذكرها . فهذا هذا .

وفى إطباقهم جميعاً يَدْعونَهُ خليفةَ رسولِ الله مِن تلقاء أنفُسهم ، لا مُكْرهين ولا مقهورين ، لم يُرفع عليهم سوطٌ ولا شُهِرَ[2] سيف ، ولا سَمِعوا وعيداً ، ولا رأَوْا لذلك أثراً ، ولا رأَوْا منه إمرةً لبعض المشائر ، فيخافون أنْ يتقوَّى بهم عليهم ، مع كثرة العَدد واختلافِ الأنساب وتفرُّق الأهواء ، و [فى] الذى قبلَه ، دليلٌ على ما قُلنا ، وحُجَّة على الذى ادَّعينا .

---

(١) اللج : السيف . قال ابن سيده : وأظن أن السيف إنما سمى لجا فى هذا الحديث وحده. قفى ، أى قفاى . وهى لغة هذيل ، يجعلون ألف المقصور ياء عند إضافته للياء ، ومنه قول أبى ذؤيب :

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

أى هواى . وانظر الطبرى ٥ : ١٧٤ ، ٢٠٤ فى حوادث سنة ٣٦ .

(٢) فى الأصل : « ولا يشهر ».

ومما يُقرِّب من قولنا قولُ النبي صلى الله عليه : « أنفِذُوا جيشَ أسامة » . فقد يعلم المستدلُّ أنّ النبي صلى الله عليه إنّما قصَد بذلك الأمر فى خاصّته والمُطَاعِين ، لأنّ قولَه : « أنفِذُوا » دليلٌ أنّه قد كان هناك مَن ينفِّذ أمرَه ، وإليه قَصَد بالأمر مُقنَعين[١] غير ساخِطين .

ولو كان الأمرُ إنّما كان لأسامة وأصحابِهِ كان اللّفظُ على غير هذا .

فإذا كان ذلك كذلك فمَنْ أولى بأن يكون من المخاطَبين المُطاعين مِن أبى بكر وخليله[٢] وصفيِّه ، على ما كتبتُ لك فى كتابى هذا ، مع أنّا لم نبلُغْه ولم نَستقصِه ، إمّا بالخوف منّا والكراهةِ لإطالة الكتاب ، وإمّا بالتقصير منّا فى معرفةِ جميع محاسنه .

ووجهٌ آخر : أنّك لو جَهِدتَ أن تجدَ لحديث مَنْ زعَمَ أنّ أبا بكرٍ كان فى جيش أُسامة أصلاً لم تَجِدْ ، وإنّما أُتى عامّةُ ذلك[٣] من قِبَل كونِ عُمرَ فى ذلك الجَيْش ، لأنّ عمرَ وأبا عبيدة[٤] كانا من أوّلِ مَن انتَدَبَ فى ذلك الجيش .

ولمّا كان النّاسُ كثيراً مايَروْن عمر يجرى مع أبى بكر غلِطوا فى ذلك فى مواضعَ كثيرة ، حتى جرَّ ذلك على أبى بكر فِرارَ عمرَ يومَ أُحد ، فقال مَن لا علم له : وفرَّ يومَ أُحدٍ أبو بكر وعمر . وموقف أبى بكر والنّفرِ من المهاجرين فى يوم أُحدٍ أشهَرُ من أن يَطْمِسَ عليه جاحد .

ومن ذلك أنّ عمر كان فى جيشِ ذات السّلاسل ، فألحقوا به أبا بكر .

---

(١) مقنعين ، أى راضين . أقنعه الشيء : أرضاه . وفى الأصل : «مقنتين» .

(٢) فى الأصل : «وخاله» .

(٣) فى الأصل : « عامه فى ذلك» .

(٤) فى الأصل : «وابن عمه» . وانظر عيون الأثر ٢ : ٢٨١ وإمتاع الأسماع ١ : ٥٣٧ .

فإنْ أبَوْا إلاَّ أن يكون قد كانَ فى ذلك الجيش فالجوابُ على ما قلنا .

فإنْ قالوا : قد سمِعنا مقالتكم ، ولكن ما الدَّليل على انَّ النبى صلى الله عليه أمرَ أبا بكر بالصَّلاة بالناس ؟

قلنا لهم : إنه ليس لأنَّه كان مأموراً بالصلاة فقط ، ولكنَّه صلَّى بالنّاس سبعَ عشرةَ صلاةً إلى أنْ تُوفِّى النبى صلى الله عليه وذلك أنَّ النبى عليه السلام بدِئ(١) يومَ الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر ، ويومَ الاثنين لاثنَتَىْ عشرةَ مضت من ربيع الأوَّل . وهذا هو السبب عندهم .

وزعم أصحابُ السِّيَر والأخبار أنَّ النبى صلى الله عليه كان يأمر بلالاً بالأذان ، فإذا وجَد إفاقةً خرج يصلِّى بالنَّاس ، وإن اشتدَّ ما به قال : « مُروا أبا بكرٍ يصلِّى بالنّاس » ؛ فكان النبيُّ وأبو بكر يصليان على هذه الصفة .

فإن أنكروا أن يكون النبى صلى الله عليه أمَرَ أبا بكر أنْ يصلِّيَ و [ادَّعوا(٢)] أن هذه الأخبار كلَّها باطل ، وأنَّ العلّة فى هذه الأيّام كلِّها لم تمنع النبى صلى الله عليه من الصَّلاة حتَّى مات .

قيل لهم : أرأيتم هذا الذى قُلتموه وادَّعيتموه ، أشيءٌ استخرجتموه أو سمعتموه ؟

فإنْ زعموا أنهم سَمِعوا قلنا لهم : فأْتُوا بفقيهٍ واحد أو محدِّث يقولُ كما تقولون ، ويحدِّث كما تزعمون ، وجميع ما يُدَّعى باطل .

---

(١) فى عيون الأثر ٢:٢٨١ : « فلما كان يوم الأربعاء بدِئ برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه لحم وصدع » .

(٢) بمثل هذه التكملة يتم القول .

وإنْ كانَ إذا اعترضوا المحدِّثين والناقلين لم يجدوا أحداً إلاّ وهو يُخبر بما قُلْنا فالحقُّ أحقُّ أن يتّبع . ولا يجوز أن يقولوا : إنّا استخرجْنا معرفةَ هذا المعنى ؛ لأنّ الاستخراجَ لا يكون إلاّ من عِيانٍ أو خبر .

أوَ ليس قد كان النبيّ موضوعاً على سَريره حين زاغت الشَّمسُ يوم الاثنين إلى حين زاغت من يوم الثُّلاثاء ، يصلِّي الناسُ عليه وهو على شَفير قبره[1] وأبو بكر يصلِّي بالناس ؟ !

فإنْ أتَوا بحديثٍ واحدٍ أنَّه صلّى بالناس فى غير ذلك الوقت غيرُ أبى بكرٍ فالقول كما قالوا . وإنْ أتَوا بحديث واحد أنَّه صلّى بالنَّاس غيرُ أبى بكر أوَّلَ صلاة صلاَّها المسلمون [حينَ] اختلفوا فى تأمير الأمراء واستخلاف الخلفاء عليهم ، كما قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير فالقول كما قالوا .

وهل يستطيعون أن يزعمُوا أنهم قالوا : منّا مصلّ ومنكم مصلّ .

والعجب[2] كيف لم يقولوا : إنّ عليًّا لم يزلْ هو المصلِّي بالناس ، والمأمورَ بالصّلاة ، فغُصِب حقَّه وظُلم مقامَه ؟ !

وكيف يجوز أن يجىء رجلٌ من أرضه وسمائه من غير نسب ولا سبب ، حتّى ينفذ من أشرف المقامات ، بحضرة القرابةِ والعشيرة ، من عمٍّ وابن عم ، وقريبٍ ونسيب ، ورِجلّة المهاجرين والأنصار ، والعظماء وعِلْية قريش ، ودَهْماء العرب ، ثمّ لا يتكلَّمَ فى ذلك رجلٌ واحد ؟ ! فإنّما

---

(١) فى إمتاع الإسماع ١ : ٥٥١ : « فصلى عليه وسريره على شفير قبره » .

(٢) فى الأصل : « والعجب » .

يقول هذا مَن لا يعرف قَدْرَ ذلك المقام فى الصُّدور ، وكيف طبائع قريش وأنفةُ العرب .

فإنْ قالوا : كيف يكون أبو بكر إماماً ولم يجتمع المسلمون على إمامته والرِّضا به ؟! وقد قالت الأنصار : منّا أمير ومنكم أمير ، وقال سَلمان : « كَرْداذْ ونَكَرْداذ[1] » . وقال خالد بن سعيد : أرضيتم معشر بنى عبد مناف هذا . وقال أبو سفيانُ بنُ حربٍ مثل مقالته ، وخرجَ الزُّبير بسيفه شادًّا[2] ، فلمَّا رآه عمر قال : دُونكم الكَلْب . وجلس علىٌّ [فى] منزله واعتلَّ بأنّه آلى ألاَّ يبرَح حتَّى يجمع القرآن .

قيل لهم : ليس الأمر على ما تقولون . ولو كان الأمر على ما تقولون ما كان خلافُ هؤلاء ناقضاً لأمره ، لأن الرجل إذا كان أفضلَ النّاس وأكمله وأنفعَه للمسلمين وأردَّه عليهم[3] ، فعليهم إقامتُه والتّسليم له ، والرِّضا به ؛ لأنَّ كلَّ ما عددتُ لك من فضله هم كانوا أعلمَ به ، إذْ كانوا يُسافِرون معاً ويُقيمون معاً ، وكانوا أعْنى بمعرفة الخَيْر ، وأسرعَ إلى العلم به منّا ومن أهل دهرنا .

ولو كان أبو بكرٍ تنتقِضُ إمامتُه ، وكان عليه اعتزال ذلك المقام ، بخلاف[4] رجلٍ أو رجُلين أو ثلاثة ، كان أولَى النّاس بأن يكون له فى الإمامة[5]

---

(١) كلمتان فارسيتان معناهما « صنعتم ولم تصنعوا » . كرداد بمعنى التشييد والتأسيس وإقامة الشىء . والنون علامة النفى فى الفارسية . انظر ماسيأتى فى الكلام ص ١٧٩ وكذا معجم استينجاس ١٠٢٢ .

(٢) فى الأصل : « شاذا » . وفى الطبرى ٣ : ١٩٨ : « مصلتا بالسيف » :

(٣) أى أكثرهم نفعا . وفى اللسان : « هذا الأمر أرد عليه ، أى أنفع له » .

(٤) فى الأصل : « خلاف » . وانظر ماسيأتى فى صفحة ١٧٧ .

(٥) « بأن يكون له في الإمامة » . هكذا وردت في الأصل ، والوجه بأن لا يكون له فى الامامة »

سببٌ ولا حقٌّ ومتعلَّق علىٌّ بَن أبى طالب ، لأنّ(١) سعد بن أبى وقاص كان أحد الشُّورى وأحد الأكْفاء ، وقد أباه وقال قولاً أبيَنَ من قول خالدٍ وأبى سُفيان وسلمان ، قال : « ما أنا بقميصى هذا أحقّ مـنّى بها ، أعِيدُوها شُورَى ، أمّا بالسَّيف فلا أُريدُها » . وقال لرسل علىٍّ حين أرادوُه على بَيعته : ثــكلتْ أمٌّ لم تلدنى ، لئِنْ كنتُ سادسَ ستّةٍ ما لنا طَعامٌ إلاّ وَرَقُ البَشَام ، وقد جاءنى أعرابُ الأوس تعلّمنى دينَ الله ؟ ! فى كلام كثير(٢) .

وخالفَه طلحةُ والزُّبير وهما شريكاه ، وأحدُهما فارس النبي صلى الله عليه ، والآخر وقايته ، فقال علىّ : بايعتمانى ؟ قال : الزُّبير : ما بايعتك قطُّ ، إنْ كنتَ على يقين أنّك أولَى بها فاجعَلْها شُورى ، بيعه وحقّ دعواك من باطله(٣) .

وقال طلحة : « بايعت واللُّجُّ على قَفَىّ(٤) » حين رق(٥) إليه العساكر وطمنت عليه عائشةُ واستحلّت بمحاربته . ثمّ اجتمع على حَربهِ أهلُ الشام قاطبةً فيهم عبد الله بنُ عمر ، وكعب بن مُرّة البَهْزِىّ(٦) ، وكان من فُضَلاء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى قال حيث قال النبى صلى الله عليه : « ستكون فتنةٌ هذا فيها يومئذٍ على الحقّ » ، وأومأ إلى رجلٍ مقنَّع ، فـكشف عن رأسه فإذا هو عثمان ، فلمّا قُتِل عثمان وهو يكفّ عن القتال استنصر ، فـكان يحدّث هذا الحديث .

---

(١) فى الأصل : « ولأن » .
(٢) انظر ما سبق فى س ١٥٩ .
(٣) كذا فى الأصل .
(٤) انظر مامضى فى س ١٦٨ .
(٥) كتبت فى الأصل : «رقا» .
(٦) الإصابة ٧٤٢٨ .

ومنهم واثلة بن الأسقع اللَّيثى ، وله صحبة ونُسْك[١] ، والنُّعمان بن بشير ، ومَسْلَمَة بن مَخْلد ، وحبيب بن مسلمة ، وذو الكَلاَع ، ومُعاوية ابن حُدَيج[٢] .

ومن التابعين أبو مسلم الخَوْلانى ، وشُرَحبيل بن السِّمْط ، وعمرو بن وافد الغامدىّ[٣] الذى قال [فيه] مكحول : كأنَّه قد مات ودخَلَ النَّار وحُوسب[٤] ثم رُدَّ إلى الدُّنيا ، فمه خَوْف المجرّب .

ثم خالف عليه خاصَّةُ إخوانه ونُسَّاك أصحابه ، وأهل البصائر من جُنده وحدت[٥] حتَّى أكفروه وخلعوا[٦] إمامته وولايته .

وفيهم مع نسكهم وجِدِّهم نَفرٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم فروةُ بن نَوفل الأشجعى ، وحُرقوص بن زُهير . وفيهم من التَّابعين مثلُ رئيسهم عبد الله بن وَهْبٍ الراسبى ، وزيد بن حِصْن الطائى[٩] .

ولقد دعا مُحمد بن مَسلمة إلى عَونه ، واعترضَ آخذًا بسيفه ، ثم كسره وقال : أضربُ المسلمينَ بسيفٍ ضربتُ به الكافرين ؟ !

---

(١) الإصابة ٩٠٨٨ وصفة الصفوة ١ : ٢٨٠ . والأسقع بالقاف .
(٢) الإصابة ٨٠٥٧ .
(٣) تهذيب التهذيب ٨ : ١١٥ .
(٤) وردت هذه الكلمة فى الأصل فى نهاية هذه الفقرة .
(٥) كذا فى الأصل .
(٦) فى الأصل : « وجعلوا » .
(٧) الإصابة ٢٨٨٧ وذكر أنه كان عامل عمر بن الخطاب . قال ابن حجر : « وقد قدمت غير مرة أنهم كانوا لايؤمرون فى ذلك الزمان إلا الصحابة » . ولم يذكره بذلك فى تهذيب التهذيب

فدعا زيدَ بن ثابتٍ إلى عونه فأبى وقال : أنت والله تعلم أنْ لو شَحَا أسدٌ فاهُ[١] لألقمتُه كَفِّى دُونَك ؛ فأمّا أن أضربَ بسيفى لأؤكّدَ لك مُلْكاً فلا .

ودعا عبدَ الله بنَ عمر فقال حين أراده على بيعته : إنّى لن أنزِع يدى من جماعةٍ وأضعَها فى فُرقة . وكذلك قال حين قيل له بعد ذلك : لِمَ بايعتَ أخاكَ عبد الله بن الزُّبير . قال : إنّ أخى وضَع يده فى فُرقة ، وإنِّى لن أنزِع يدى من جماعةٍ وأضعَها فى فُرقة .

وطعن عليه سَعد بن زيد بن عَمرو بن نُفَيل وعلى طلحة وقال : « فتنة عَمياء يَخبط أهلُها » . قال طلحةُ : ابن عمِّك كان أعلمَ بِى وبك حين جعلنى فى الشُّورى وأخرجك منها . قال : إنّ ابنَ عمِّى خانك وأمننى .

ودعا[٢] إلى بيعته وعَوْنه أسامةَ بنَ زيد فقال : إنِّى إذنْ لمفتون ! وأسامةُ هو الذى كان طلحة استشهده على قوله : « قد بايعتُ واللُّجُّ على قَفَىَّ » فسئل أسامةُ عن ذلك ، فكلّمه طلحةُ بكلامٍ غليظ .

وقول صهيب أيضاً ، وسلمة بن سلامة بن وَقْش ، كل هؤلاء السبْعة [ما منهم[٣]] إلاّ من شهد بدراً .

وزعم ابن سيرين والشَّعبىُّ أنّهما قالا : وقعت الفتنة بالمدينة وأصحابُ النبى صلى الله عليه أكثرُ من عشرة آلاف ، فقال : فما يَعدُّون مَنْ خَفَّ فيها عشرين رجلا . فسَمَّيا حرب علىٍّ وطلحة والزُّبير وصِفِّين فِتنة .

---

(١) شحا فاه يشحوه ويشحاه : فتحه .

(٢) فى الأصل : « ودعاك » .

(٣) بمثلها يلتئم الكلام .

وكما قال الشّعبيّ : من حدّثك أنّه شهد الجمل ممن شهد بدراً أكثرُ من أربعة نفر فكذّبْه . كان علىٌّ وعمّار فى ناحية ، وطلحة والزّبير فى ناحية .

وقد تعلمون أنّه لم يكن فى الأرض عثمانىٌّ إلاّ تعلمون أنّه مُنكرٌ لإمامته . وهم أكثر عدداً وأكثرهم فقيهاً ومحدّثا . ولقد كان الرّجلُ من أصحاب الآثار يُظنُّ به التشيُّع فيُترك ويضعَّف ويُتَّهم عند أهل العلم ، حتّى أنّه كان يطويه ويَستُره أكثرَ مما يَستُر السُّوء يكون بجلْده .

فلو كان الفاضُل الكامل تنتَقِضُ إمامتُه وتفسدُ عَدالتُه من قبَل خلاف أربعةٍ أو خمسة ، لما كان فى الأرض أشدُّ انتقاضاً من إمامة على .

وأما قولكم : إنَّ الأنصار قالت لقريش والمهاجرين : منّا أميرٌ ومنكم أمير ! فهذا إلى أن يكون حجّةً عليكم أقربَ ، لأنَّ النبى صلى الله عليه وعلى آله لو كانَ أقامَ عليًّا وجعله خليفةً ووصيًّا ونَصَّ على ذلك بغديرِ خُمٍّ ، أو فى بعض المغازى ، ما كان بلَغَ من حَرَبهم[1] وعُتُودهم أنْ يقولوا هذا الكلامَ والإمامُ قائم الحجة ، معروف المكان .

وكيف جاز أن يُلغُوا ذِكرَه حتّى لا يذكرونَه فى شىء من مُخاطَباتهم ومنازعاتهم ، إلاّ والقومُ لم يكن عندهم فيه عهدٌ ولا سبب . فهذه حجّة قاطعة .

وأخرى : الذى رأينا من قِلَّة مبالاتهم مَنْ أقامَه المهاجرون كائناً من كان ؛ لأنَّ قولهم : منّا أمير ومنكم أمير ، قولُ قومٍ كأنّهمْ قالوا :

---

(١) الحرب ، بالتحريك : الخصومة والغضب .

لا بدَّ لنا معشرَ الأنصار من أميرٍ على حال ، وأنتم بَعْدُ أعلمُ بشأنكم فأمِّروا عليكم مَنْ بدا لكم . وليس فى هذا طعنٌ على خاصّة أبى بكر ، كما أنَّه ليس فيه تأكيدٌ لإمامته دون غيره .

وهذا قولٌ كانَ من نفرٍ من الأنصار فى سَقيفة بنى ساعِدة ، قبل أن يقومَ فيهم أبو بكرٍ خطيباً وواعظاً ، ومبيِّنا ومحتجًّا . فلا يستطيع أحدٌ أن يقول : إنَّ أحداً منهم ردَّ على أبى بكرٍ خاصّةً كلمةً واحدة . فليس فى قولهم : منّا أمير ومنكم أمير ، خلافٌ على أبى بكر ؛ وإن كان خلافاً فإنَّما هو على الجميع .

وإنْ كان هذا الكلامُ منهم حجةً ما كان إلاَّ على مَن زعم أنَّ الإمامة غير واجبة ، أمَّا على مَن زعَمَ أنها لأبى بكرٍ دونَ علىّ فإنَّها غير لازمة .

ولعمرى لو كان القوم حيث قالوا : منَّا أميرٌ ومنكم أمير قالوا : ولا يكون أميرَكمْ إلا علىٌّ أو فلانٌ أو فلان ، أو قالوا : الرأى لكم أنْ تجعلوا أميرَكم عليًّا أو فلاناً أو فلانا ، كان فى ذلك مايتعلق به متعلق ، ويشغَب به شاغب . وهذا مالايحتج به عالِم ، لأنَّ الحجة فيها للرافضة ألزَم ، وعليها أوكد .

أمَّا قولهم أن سلمان قال ماقال[1] ، فإنَّما سلمان رجلٌ من عُرْض المسلمين ، لايَصلُح أن يكون خليفة ، ولا يجوز أن يكون فى الشُّورَى ومع الأكفاء ، فتُنتقَض به مَريرة أو تبرَمَ به ؛ لأسباب :

(١) انظر ما سبق فى ص ١٧٢ .

منها أنَّه ليس من المهاجرين ، ولا ممن شهد بدراً ولا أحداً ، ولا لَقى فى الله مالقى نظراؤه عند النَّاس كبلالٍ وصُهيب ، وخَبَّاب وعمار ؛ ولا كان من الذين آوَوْا ونَصروا ، وذُكروا فى القرآن وقُدِّموا .

وكان حديثَ الإسلام قَليل المشاهد ، وإنما أسلمَ حين انحسرت الشِّدَّة وانكشف عنهم معظمُ الكُربة ، ولكنه كان من الصالحين ومن الفُضَلاء المخلصين ؛ وكانَ عند النبي صلى الله عليه وسلم وجيها ، وعند خلفائه مقرَّباً . وقد قال النبي فيه قولاً حَسنا ، ولكنه ليس من الأكْفاء فى الإمامة وموضع الشُّورى والخلافة ، فيكونَ قولُه حجةً تَنْتَقِضُ به الإمامة ، وطعْنه عليه يَصرف الخلافة .

ثم آخَر : أنّا قد وجدناه وَلِى لعمر بن الخطاب على المدائن ، يُقيم له الحُدود ويَجبى له الخَرَاج ، ويدعو له على المِنبر ، ويؤكد له خلافَته ، وينفذُ أمره ، مطيعاً غيرَ مكْرَه ، ومُخَلّى غير مقصور ، فولايته لعمرَ دليلٌ على تصويب أبى بكر ، ومطيع عُمرَ أذْعَنُ لأبى بكر ، ومعظِّم عُمر أشدُّ تعظيما لأبى بكر .

ولقد كان يخرج آذِنُ عمر والناسُ ببابه فيجعلهُ فى الفَوج الأول . حتّى رُوى عن أبى سفيان بن حربٍ وسُهيَل بن عمرو فى ذلك كلامٌ مشهور : من ذلك أنهم كانوا بباب عمر فى جِلّةٍ من قُريش والعرب ، مثل عيينة بن حِصْنٍ وغَيْرِه ، إذْ خرج آذِن عمرَ فقال : أين بلال ؟ أين سَلْمان ؟ أينَ صُهيب ؟ أين عَمّار ؟ ادخُلوا . فتغيَّرتْ وجوهُهم واستبان الجزَعُ فيهم ، فأقبَلَ عليهم سهيلُ بن عَمرٍو وإعظا ، ومُعرِّبا[1] ومذكِّرا ،

(١) التعريب : التبيين والإيضاح .

فقال : دُعُوا ودُعِينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، [ولئن حَسَدتموهم[١]] على باب عمر لَمَا أعدّ الله لهمْ فى الجنّة أعظم .

فما فى الأرض عاقلٌ يظُنُّ أنّه يأذن لسلْمان قبل أبى سُفيانَ بن حرب وسُهيل بن عمرو ، ويولِّيه بلاد كسرى وآل كسرى ، وسلمانُ عنده ظنينٌ فى بيعة أبى بكر وناقمٌ عليه .

وقد بارك عمر أبا بكر[٢] ، فى خالد بن سعيد بن العاص ، حين عقد له على أجناد الشام ، لكلمته التى كانت فى بيعة أبى بكرٍ ، حتّى عزله .

فكيف يَحتمِل لسلمانَ الظّنَّ والخلاف ثم لا يَرضَى له إلاّ بالوِلاية على بلاد كسرى ، وسَلمانُ لا يجرى عند عُمَر مَجرى خالدٍ ولا قريبا ؟! فنى هذا دليل على أن سلْمانَ لم يَقُل : « كَرْداذْ ونَكَرْداذْ[٣] » . وإن كانتْ هذه الكلمةُ حقًّا كانت ترجمتُها بالعربية : صنعْتم ولم تصنعوا . يقول : قد أقمتم فاضلاً مُجزِياً ولو كان غيرَه كان أفضَل منه .

وأخرى فلو كان سَلْمانُ كان عندَه أنَّ النبى صلى الله عليه كان قد

---

(١) مكان هاتين الكلمتين بياض فى الأصل ، وأثبتهما مما سيأتى فى كلام الجاحظ فى الورقة ١٦٢ من المخطوطة . وجاء فى صفة الصفوة ١ : ٣٠٧ : « فقال أبو سفيان : لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ونحن على بابه لا يلتفت إلينا ؟! فقال سهيل بن عمرو — وكان رجلا عاقلا — أيها القوم إنى والله لقد أرى الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟! أما والله لما سبقوكم إليه من الفضل مما لا ترون أشد عليكم فوتا من بابكم هذا الذى كنتم تنافسونهم عليه » .

(٢) باركه : أدام له التشريف والكرامة .

(٣) انظر ما سبق ص ١٧٢ .

استخلف عليًّا ونَصَبه إماماً وجعَـلَه وصيًّا لم يقل : صنعتم ولم تصنعوا ، إلاّ أنّ قوله « صنعتم » تثبيتٌ لإمامته ، فـكأنه قال : هو إمامٌ ، لو كان غيره كان خيراً لـكم منه . وليس على هذا بُـنِيَ القول[1] .

ولو احتجَّ بهذا القول الزَّيدية كان أشبَهَ من أن يحتج به الطّاعن في إمامة أبي بكرٍ حين قال : ارتدّ الناسُ كلُّهم عن الإسلام بإنـكارهم إمامةَ عليٍّ ، والتسليم لمن أنـكَر ، ما خلا أربعة نفر : سَلْمان ، والمقداد ، وأبو ذرّ ، وبلال . ثم زَعموا أنّ حذيفة وعمّاراً تابا بعد عمر .

ولئن كان بلالٌ كما قالوا من الطّعن والخِلاف على أبي بكر وعمر ، لقد شاركَهما حيثُ وَلِيَ لهما دمشق ، لأنّ عمر كان وَلّى بلالاً دِمشق ، فـكان أنفَذَ لأمره من أبي عبيدة .

وكيف يكون بلالٌ طاعناً على أبي بكر وعمر حتّى قد شُهِرَ بذلك من بين الخَلْق وعمرُ يولِّيه ، ويقرّبه ويُدْنيه ، ويقدّم إذْنه ، ويُلحق عطاءه بعطاء عثمانَ وعليٍّ وطلحةَ والزُّبير وسعد ، ويقول : « بِلالٌ سيِّدنا ومولَى سيِّدنا » ، ومرّةً يقول : « أبو بكر سيِّدُنا وأعتقَ سَيِّدَنا » .

ولا يجوِّزُ هذا القول من عمر مَنْ يجوِّزُ طَعْنَ بلالٍ على أبي بكرٍ ، إلاّ جاهلٌ بِعُمر ، جاهلٌ بأمر السُّلطانِ ، وعِزِّ الخلافة .

فأمّا ذِكرُهم المِقدادَ فما علِمْنا ولا علِمَ أصحابُ الآثارِ أنّه نطق في خِلافة أبي بكر وفي نَقْضها ، وفي خلافة عليٍّ وتوكيدها ، بحرفٍ قطّ ، ولا وقَفَ في ذلك موقفاً ، ولا قام في إنـكاره [أ]و تثْبيته مَقاما . وما ندري : بأيِّ سببٍ ادَّعَوْه ؟ إلاّ أنْ يكونوا ذهَبوا إلى إنّ عليًّا رحمةُ

---

(١) في الأصل : « القوم » .

الله عليه. ربّما كانت له الحاجةُ إلى النبي عليه السلام ، فيُكْبِر النّبي صلى الله عليه ويعظّمُه عن مواجهته بها ، فيكلِّف ذلكَ المقدادَ .

من ذلك حديث هشام بن عُروة ، عن أبيه فى الرّجل إذا دنَا من المرأة فأمْذَى ولم يمسّها ، فاستحيا علىٌّ أن يسألَ النبي صلى الله عليه عن هذا من أجْل ابنتِه ، فقدّم المِقداد فسألَه ، فقال النبي عليه السلام : « يغسل ذَكَره وأنثيَيْه ويتوضّأ » . وغيرُ ذلك .

والأغلب علينا[1] أنّ المقدادَ لم يزل مُتنكِّراً لعلىّ ، لأنّ المقداد حين خطب ضُبَاعةَ بنتَ الزّبير بن عبد المطّلب إلى النّبي صلى الله عليه ، بعثَ النبيُّ إليها عليًّا بذلك يخبرها ، وأنّه قد رضِيَه لها ، فكره علىٌّ ذلك فرجَع إلى النبي صلى الله عليه ، وقال : رأيتُها كارهةً . فأرسل النبيُّ إليها رسولاً فقالت : أوَلمْ أخبِرْ عليًّا أنّنى قد رضيتُ لنفْسى بما رضِيَ به النبيُّ ؟! فقام النبي صلى الله عليه خطيباً فحمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال : « يا علىُّ قُمْ فانظرْ مَنْ عن يمينك وعن شِمالك ، واعلمْ أنّه ليس لك فضلٌ على أسودهم وأحمرهم[2] إلّا بالدِّين » . فهذا قد رُوِيَ ، والله أعلم .

ولم يُرْوَ عن المِقداد الطّعنُ على أبى بكرٍ فى خلافته ليؤكّد بذلك لعلىٍّ شيئاً .

وأقلُّ ما ينبغى للمتكلِّم أن يَعْرِفَ فُروق الأمور ؛ فإنّه إذا عرَف ذلك لم يتعلّق من الأسباب إلا بأمتَنِها . فأمّا تجريد الباطل وكثرةُ الدّعوى بلا سبب ، فهذا جَهد العاجز .

---

(١) لعلها « عندنا » .

(٢) الأسود والأحمر : العرب والعجم .

ولرُبما تعلّقوا بالسَّبب الضعيف ، كالذى وجَدُوا لعمَّار بن ياسرٍ من عداوة عثمانَ ، وصنيعِ عثمان به ، فلمَّا كان عثمانُ عندهم فى طريقِ عُمر وأبى بكر وفى حَيِّزِهما جعلوا طعنَ عمَّار عليه طعناً عليهما ، واحتجاجَ عمّارٍ لعلىٍّ احتجاجاً عليهما .

ولو اجتهدتَ أن تصيبَ لعمّارٍ موقفاً واحداً أو كلمةً طاعنةً على أبى بكرٍ وعمر وعثمان ، فضلا عليهما قبل إحداثه ، وقبلَ أنْ يجرى بينهما ما جرَى ، ما قدرتَ عليه .

وهل كان لعمر والٍ أنفذُ لطاعته مِن عمّار ؟ ! ولقد رَفَع عليه جريرُ بن عبد الله ، فجمَعَ بينهما طمعاً فى ظهور حُجّته ، والضَّرح عن نفسه[1] ، فلمّا لم يجدِ ذلك عندَه قال : ماعندنا خيرٌ لك يا أبا اليقظان .

ومن أجْل ضعفِ عمّارٍ فى الوِلاية وقوّةِ المغيرة حين شكاهما أهلُ الكوفة قال عمر : « أعضَلَ بى[2] أهلُ الكوفة ، إن ولَّيت عليهم تقيًّا ضعَّفوه ، وإنْ ولَّيت عليهم قويًّا فجَّروه » .

فإذا كان عمّارٌ يخطُب على مِنبر الكوفة بتوكيد إمامة عمر ، ويأمر الناسَ بطاعته ، ويقيم الحدود والأحكام بأمره ، ويفتح الفتوح بتأميره ، فيرى القَتلَ والسَّبى وإحلالَ الفُروج ، غيرَ مكرَهٍ بوعيدٍ ولا مقصور بإيقاع ، فأىُّ دليلٍ أدلُّ مما حكيناه .

ولو أنّ طاعناً طعنَ فى طاعةِ سهل بن حنيف ، وعثمان بن حُنَيف ، وأبى أيّوب الأنصارى ، وأبى مسعودٍ البدرىّ ، لعلىّ ، هل كان عندكم

---

(١) الضرح : الدفع .

(٢) فى الأصل : « أعضابى » ، صوابه فى اللسان (عضل ٤٧٩) .

فى دفع ذلك إلّا مثلُ ما عندنا من الدَّفْع عن طاعة سَلْمانَ وبلالٍ وعَمّار وأقلّ منه .

فأمّا أبو ذرّ فزعم أصحابُ الآثار أنّه كان يعظّم عمر بن الخطاب تعظيما ماعظّمه أحدٌ قطّ . فمن ذلك أنّ عمر صافحه يوماً فعصر[1] يده وكان أيِّدًا ، فصاحَ : يا قُفْل الفِتْنة ! ومَسَح مِن وجهه العرق بباطن راحته ، وعمر موعوك وهو يقول : بأبى رُحَضاؤك[2] لو قد مِتّ صرنا هكذا — وشبّك بين أصابعه — أوْجعتَنى ! فخلّاه وقال : ما هذا ؟ فقال سمعتُ النبى صلى الله عليه يقول : « لن تَزالوا بخيرٍ ما كان هذا بين أظهُرِكم » .

وقال عمرُ لشابٍّ : غفَرَ الله لك ! فقام إليه أبو ذَرّ فقال : استغفر لى ! وهو حديثٌ فيه أمورٌ كثيرة .

ولو لم يجئْ عن أبى ذرّ من هذا قليل ولا كثير لكان حكمُهُ الرِّضا والتسليم ، إذْ لم نر مِنه طعناً ، ولا رأينا له متوعّدا .

ولو اعترضتم مائةً من أصحاب النبى صلى الله عليه فقلتم : إنّهم كانوا طاعنين على أبى بكر مؤكّدين لخلافة علىّ ، ما كان عندنا فى أمرهم حديثٌ قائم ، ولا خبر شاهد ، أكثر من أنّ حكم المسِك عن الطّعن والخلافِ هو الرِّضَا[3] والتّسليم .

ولقد ينبغى لنا ولكم أنْ نتفكّر فى معنى كلمة سَلْمَان[4] ، فقد

---

(١) فى الأصل : « فعبر » .

(٢) الرحضاء : العرق فى إثر الحمى .

(٣) فى الأصل : « والرضا »

(٤) انظر ما مضى فى ص ١٧٢ .

أكثرتم فيها، حيث قال صنعتم ولم تصنعوا؛ ومعنى هذا الكلام: إنكم قد أقمتم مُجزِياً وتركتم مَن هو أجزأ منه، فيجب أن نعرف الخلل الذى لم يَسُدَّه أبو بكر ...[1] التى لم يبلغها، والوضع الذى عجز عنه، ما هو؟ وأىُّ ضَرْبٍ هو؟ إلّا أن امتُحِنَ بما لم يُمتحَنْ به أحدٌ قبله، ولا يمتحن به أحدٌ بعده، مِن قيامه فى مقام رسول الله صلى الله عليه، فى عَقِب الذى تَعوَّد المسلمون من طَريقته، وتعرَّفوا من سِيرته فى نَفْسه وفى أمّته، ثلاثاً وعشرين سنة — وهى السِّيرة التى لا تَحتاج إلى الإخبار عن فضلها، والإطناب فى تشريفها — فلم يُغادِر ولم يَنحرِفْ ولم يتغيَّر، ولم يؤثِرْ[2] ولم يَضْعُف.

وقد علمنا أنَّ الذى عظَّم صغير ما كان من أمر عثمان، وشَنَّعَ عظيم ما كان منه من الضَّعف وغير ذلك، الذى كان من إفراط جَلَدِ عمر، وشدّة رأيه وشكيمته، ويَقَظته وخشونته، وثبات عَزْمه، وحَمْلِهِ نَفْسَه على مذهب صاحبَيهِ قبلَه. ولذلك قال عى ملاب[3]: «ما قتَل عثمانَ غيرُ عُمر». فالفصْل الذى بين النبى صلى الله عليه وأبى بكر أكبر وأظهر من فصْل[4] ما بين عمر وعثمان. ولذلك قال عمر بن عبد العزيز: «ليس لله سِترٌ أكثفُ ولا أسبغُ من سِتْره على الصِّدِّيق حين لم يتكشَّفْ إذْ قام بعقب النبى صلى الله عليه».

وقد تعلمون أنْ لو كان النبىُّ غائباً عن المدينة فى غَزاةٍ، أو حِجَّةٍ

(١) بياض بقدر كلمة فى الأصل، لعلها «فى الأمور».
(٢) فى الأصل: «ولم يوبر».
(٣) كذا فى الأصل.
(٤) فى الأصل: «وفصل».

وارتدَّت العربُ وانتقضت العهود ، وظهَرَ النِّفاق وماج النـاس ، فوثَبَ رجلٌ من عُرض أصحابه ، فلم يَزَلْ باللِّين والشِّدَّة ، والـكفِّ والإقدام ، والبَطْش والحيـلة ، حتّى ردَّه فى نصابه ، وأعادَه كأحسنِ عادتِه ببَـذْل النَّفْس فما دونها[١] ، لقد كان صَنَع صَنِيعاً عظيما ، وفعل فِعلًا كبيرا . فـكيفَ برجلٍ قامَ بأمر الإسلام وقد هُتِّـكت أستارُه ، وتَقَطَّعت أطنابه ، ومَرِجتْ عهوده[٢] ، منفردٍ[٣] بالرأى غير مستعينٍ عليه ، ولا مستوحش[٤] إلى غيره ، بل خالفه الجميعُ فى صوابه[٥] وما أوجَدَهُ الرأى ، ودلَّ عليه النَّظَر مِن عزْمه ، وقد أبى إلّا صرامةً وبصيرةً وثقة ، والنبىُّ صلى الله عليه وسـلم قد ماتَ غيرَ مَخُوفٍ ولا متوقَّـع قدومه ، فردَّ أهل الرِّدَّة قاطبـةً ما بين أعلى الحـيرة ، إلى شِحْر عُمـان إلى أقاصى اليَمَن ، وقمع النِّفاق بالمدينة وما حولَها ، وقتل مُسيلمةَ واستفتح اليمامة ، وأسر طُلَيحَة ، ثمَّ أوطأ خيلَه الشَّام ، وجَنَّد الأجناد ، ومَنع الحوزة ، ووطَّأ الأمر ، وقتَل العـدوَّ بكلِّ مكان . ثمَّ لم يسـتأثِرْ بدرهمٍ ، ولم يَكنِزْ ديناراً ، ولم يخلِّف درهما ، ولم يتفـكَّه بغنيمة ؛ وجعل عمالتَه مردودةً على بيت مال المسلمين . ولذلك قال عمر : « رحم الله أبا بكر لقد شَقَّ على مَن بَعْدَه » .

فما الشَّىء الذى لوكان علىٌّ هو القيِّم به كان أجزأ منه ، وبلغ منه مالم يبلغْه . وكيف يكونُ علىٌّ أجزأَ منه ولم تُغْلق الفتوحُ إلّا فى زمانه ، ولم تـكن الفتنُ إلّا على رأسـه ، ولم تخرج الخوارجُ إلّا عليـه . وهذا

---

(١) فى الأصل : « فيا دونها » .
(٢) مرجت العهود : اختلطت وقل الوفاء بها .
(٣) فى الأصل : « ومنفرد » . (٤) كذا فى الأصل .
(٥) فى الأصل : « وبصوابه » .

بابٌ (١) الكلام فيه على عليّ ، ولكنّا إذا فعلْنا ذلك فقد دخَلْنا في الذى عبْنا .

مع أنك لو طُفت في الآفاق تطلب لكَرداذ ونكَرداذ(٢) إسناداً(٣). ولكنّا قد روَينا أنّ سلْمان قال : « أصبتم الحقّ وأخطأتم المعدِن » فنرى أنّه إن كان قال هذا القولَ فإنّما ذهب إلى أنّ الأمر لو كان في بيت النبي صلى الله عليه وعلى التّوارث الأقربَ فالأقرب ، كان أجدرَ ألّا يطمع فيه ذُؤبان العرَب ودُهاة العَجم ، على غابر الأيام ، وتطاول الدُّهور .

وسلْمان رجلٌ فارسيّ ، وهذا كان شاهَد كسرى ؛ فتوهَّم أنّ حكمَ الكتاب والسُّنّة كحكم تدبير السّرّ(٤) والقائمين بالمُلك ؛ فإنّما تكلم على عادته وتربيته .

ولَعمرى لقد كان في قومٍ قد ساسوا النّاسَ سياسةً ورتبوهم ترتيباً ؛ يقطع عن الطمَع في المُلك بآيين(٥) : لم يجعلوا للصانع أنْ ينتقلَ عن صناعته إلى الكتابة ؛ ولم يجعلوا للكاتب أن ينتقل من كتابته إلى القيادة ؛ ولم يجعلوا لأبنائهم إلّا مثلَ ما كان لآبائهم ؛ ليعوّدوا الناس عادةً يستوحشون معها إلى الخروج منها(٦) .

وإنّما حَسُنَ هذا في مُلكهم إذْ كان بالرّأى والغلبَة ، ولم يكن لأهله

---

(١) كذا . ولعله « باب يكثر » أو « باب يتسع » .

(٢) انظر ما سبق في ص ١٧٢ .

(٣) في الكلام نقص ظاهر ، تقديره « ما قدرت عليه » أو نحوه .

(٤) السر : القائد والرئيس ، فارسيته « سَرْ » . وفي الأصل : « تدبير السر » .

(٥) الآيين : القانون ، كلمة فارسية .

(٦) إنما يقال : استوحش عنه ومنه : لم يأنس به .

أمثَل من التدبير والحكم ، لم يكن شأنهم الأخذَ بالكتاب والسّنّة ؛ وسبيلُ الإمامة غير سبيلُ الملك .

فإنْ كان سلمانُ إلى هذا المعنى ذهبَ ، وإيّاه عَنى ، فإنّما قولُه حُجّةٌ للعباسية لا للعلويّة .

وسنُخبر عن مَقالة العباسية ووجوهِ احتجاجهم بعد فراغنا من مقالة العثمانية ، بغايةِ ما يمكن من الاستقصاء ، وإنصاف البعض من بعض ، لتكون أنتَ المختارَ لنفسك بعقلك ، والأقاويلُ ظاهرة مُجْليّةٌ لذِهنك ؛ فلئن أعجزكَ الاختيار الأرجحُ بعدَ الكفاية إنّك عن استنباطه وتخليصه أعجز .

وقد ذكر هشيم ، عن العوام بن حَوشب عن ابراهيم التيمى قال : قال سلمانُ حين بُويع : « أصبتم حين بايعتم وحيد الناس ، وأخطأتم حين عزلتموها عن أهل بيت نبيّكم ، ولو وضعتموها فيهمْ لأكلتُم رغَداً » .

وهذا حكمٌ من سَلْمان أنّ أبا بكرٍ خير من عليٍ ومن جميع الناس ، والنّاس على خير الناس أصلحُ منهم على مَنْ دونهم .

وأخرى : أنّ سلمانَ حين قال « كَرْدَاذ » كما زعمتم ، لو لم يكن عندكم عظيمَ القدر نبيلَ الرّأى ، قدوةً عند الاختلاف ، لم تسمعوا قولَه بهذا المكان ، حتّى صار مثلُ طَعنه وخِلافه ، ينقُض إمامة الأئمة ، وتتّخذونه على خُصمائكم حُجّةً .

وإنْ كان سلمانُ على ماقد وصفتم ، وبالمكان الذى وصفتم ، من الحكمة والبيان ، فما دعاه إلى أن يكلّم العربَ والأعرابَ بالفارسية ، وهو عربيٌّ اللّسان فصيح الكلام ، وهو يعلمُ أنّه لم يكن بحَضْرة المدينة فُرْسٌ ولا مَن يتكلّم بالفارسية ولا مَن يفهمُها . وهو إنّما أراد الاحتجاجَ عليهم والإعذارَ إليهم ، وأن يقضىَ حقّ إمامة عليٍ ويقوم بشأنه .

وقد ينبغى لمن بلَغ من صِدق نيّته وفَرط اجتماع لُبّه(١) وشدّة عزيمته أن يتكلَّم فى دار التقية(٢) لافى دار العلانية ، حتّى خاطر بنفسه وبكلِّ شىء يَهُوله ، ومن شأنه أن يُفهم الحجّة ، ويُوضح الموعظة ، ويُبينَ عن موضع المَظْلمة ، وإلا فسكوته(٣) أحسن من الفارسية .

وكيف فهمت معناه العربُ وهى لاتعرف(٤) من الفارسية قليلا ولا كثيراً ، ولم يكن للنبىّ صلى الله عليه تَرجمانٌ يعبِّر عنه للفُرْس فيكونَ ذلك الترجمان كان حاضراً لكلامه ، فيفسِّر للناس معناه .

وكيف نقلَتْ عنه الصَّحابة إلى التّابعينَ وكلُّ مَن كان بحضْرةِ القومِ حين بايعوا أبا بكرٍ لايفهمون الفارسية ، ويكون سلْمان حينَ تكلّم بها استرابوا عندها فسألوه عنها ففسّرها . ولو كان ذلك كذلك لحكاه الذين نقَلوا الحديث ، فكان ذلك أحبّ إلى الرّوافض ، لأنّهم إنّما نقلوه ليعرفوا من كان الطاعنَ على أبى بكر . والطّعْنُ كلما كثرت فيه المراجعة والمناقضة ، وطالَ سببُه ، وعُرِفَ علمُه ، كان أدلّ على الشهرة والاستفاضة ، وأنّ الأمرَ كان حقًّا معروفا .

فواحدةٌ أنّ الأمر لو كان كذلك لكانت الروافضُ أسرعَ الناس إلى حكايته ، لتستشهدهُ على الدعوى ، ولتقوّى به الحديث ، وتشدّ به الحجة .

---

(١) اللب : ما جعل فى قلب الرجل من العقل . فى الأصل : « له » .

(٢) بعد هذه الكلمة فى الأصل ورقة بأكملها يبدو أنها قفزت إلى هذا الموضع من نهاية الكتاب فرددتها إلى موضعها هناك منبها عليه .

(٣) فى الأصل : « وإلا بسكوته » .

(٤) فى الأصل : « وهو لا يعرف » .

وثانية : أنّ الناقلين أنفسهم كانوا سيحكونه ، إذْ كانوا إنّما حكَوْا نفس الكلمة ليعرّفوا أنّه قد كان هنـاك خِلاف ، ويدلُّونا على أن سلمانَ كان ممن خالف ، وممّن له هذا القدرُ الرفيع الذى يُحتَجُّ بخلافه .

وأخرى : أنّ ذلك لو كان قاله سَلْمان ، وهو طعنٌ على أبى بكر ، كان مشهوراً عند عمر وعثمان ، وأبى عبيدة وسعد وعبد الرحمن ، وهؤلاء عندكم شِيع أبى بكر . فكيف أطبقُوا على ترك التكلُّم على سلمان والدّارُ دارُهم والحكم حكمهم ، ومعهم الرّغبة والرهبة ، مع أن الجرأة[1] على سلمان أيسَر وأسلمُ مَغبّةً من الجرأة على أبى بكر . وقد أطبقَتْ على طاعته الأمة خلا أربعَة نفَر : أحدهم سلمان . وليس سلمانُ معروفاً بالنَّجدة وشدّة الشكيمة ، ولا وراءه ظهرٌ يمنعه ، فكيف لم يزجُرْه عن ذلك زاجر ، ولم يدفعْه عن ذلك دافع . ولم يناظِره مناظر ، ولم يتعجَّب منه متعجِّب ، ولم يرفع ذلك رجـلٌ إلى أبى بكرٍ كما رفعوا إليه قول خالد ابن سعيد .

فإن قلت : إنّ أبا بكر كان مُدارياً يتسع صدرُه لأكثر من هذا كما اتسع صدره فلم يعاتِبْ خالداً ولا أرادَه على بيعته . كيف سلم على حدة حكم[2] فأينَ جِدُّ عُمَر وحَدُّه وقلّةُ احتمالِه ، واعتقادُه لمثل هذا ؟! وكيف [سلم] طلحةُ مع شدة بأوه[3] وصرامته .

ولا نعلم شيئاً مما ادّعَوه أظهرُ باطلاً ، ولا أفسـد معنًى من قوله « كَرداذ ونـكَرداذ » .

---

(١) فى الأصل : « الحرة » بالحاء ، فى هذا الموضع ، وبالجيم فى تاليه .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) البأو : الكبر ورفعة النفس .

وأمّا ماذكرتم من تَرْك خالد بيعةَ أبي بكر ثلاثة أشهر فإن الذين نقلوا هذا هم الذين نقلوا أن خالداً يوم تُوفِّي النبي صلى الله عليه كان عَلَى صَدَقات اليمن ، فقدم بعد أن بايع الناسُ أبا بكر ، فلمّا دخل المدينة استقبله عثمان وعليٌّ فقال لهما : أرضيتم مَعْشر بني عبد مناف أن يليَ هذا الأمر عليكم غيرُكم ؟ فلم يذكَر لنا أنّهما ردّا عليه قولاً ، ولا أظهرا قَبوله . ثم جَلَس عن بيعته لا يسألُه ذاك أبو بكر ولا يدعو إليه ، فبينما هو كذلك إذْ مر أبو بكر بدار خالد مُظْهراً[١] لبعض الأمر ، وخالدٌ في داره ، فسلَّم عليه أبو بكر فقال له خالد : أتُحبُّ أن أبايعك ؟ قال : أحبُّ أن تَدْخُلَ في صالحِ مادخل فيه المسلمون . قال له خالد : موعدُك العشية . فأتاه وهو على المنبر فبايعه .

ففي هذا وجوه من الكلام :

منه أنّ خالداً لم يطعن في إمامة أبي بكر من جهة الجَزْء[٢] والكفاية والكمال والفضل ، ولا مِن طريق ما تَفْسُد به الإمامة وتَنْتقض به الخلافة وإنّما ذِكر الحسبِ وطرائقِ[٣] الجاهلية . وهذا الأمر إن كان مقصوراً في قومٍ[٤] دون قوم ، فليس هو في بني عبد مناف عامّة . وإنْ كان ليسْ [مقصوراً] في قومٍ ، وليس لقول خالدٍ معنًى ، فإن كان مقصوراً في عبد منافٍ للشَّرَف أو للقرابة ، فالعبّاسُ أولى بذلك من عليٍّ وجميع عبد مناف .

---

(١) أي في وقت الظهيرة .
(٢) الجزء : الكفاية والغناء . وفي الأصل : « الحرو » .
(٣) في الأصل : « طرئق » .
(٤) في الأصل : « في قوم » .

ولو أراد عليًّا لم يقل : أرَضيتم بنى عبد مناف ؟! لأنّ عثمانَ وعليًّا مَنافيّانِ ، بل كان يقول : أرضيتم مَعشَر العِترة ، أو معشرَ بنى هاشم ومعشر بنى عبد المطّلب . مع أنَّه لو قال ذلك لكان للعباس فى ذلك القَول من السَّبَب ماليس لعلىّ ؛ لأنّ هذا الأمر إن صلَح أن يخْرجَ من رهط النبى صلى الله عليه دِنيا ، ومن أقرب الناس إليه ، إلى أقصى بنى عبد مناف ، لصَلَحَ أن يخرجَ إلى أقصى بنى كلاب . فإذا كان ذلك كذلك فتيمٌ وعبد منافٍ سواء .

ومِمّا يدلُّك على أنّ خالداً لم يقلْ شيئاً ، أنّ هذا الأمرَ إنْ كان إنما يُستَحقُّ بالعِلم والعمل والجزء(١) والغَناء(٢) فليس لذِكر عبدِ منافٍ معنًى .

وإنْ كان هذا الأمر لأفضل قريش كائناً مَن كان فلم يقلْ خالدٌ شيئاً ، وليس لِذكر عبدِ مناف معنى .

وإنْ يكنْ هذا الأمرُ فى أقربِ النّاس إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله فلم يصنعْ خالدٌ شيئاً .

وإنْ يكن هذا الأمر لرجلٍ بعيْنه قد نصَبه النبى صلى الله عليه ودلّ عليه فلم يصنع خالد شيئاً ؛ لأنَّه كان ينبغى له أنْ يسير بالمنصوص أو بالمدلول عليه .

أو يكون هذا الأمر لا يُصاب إلّا من طريق الوِراثة . فإن كان ذلك كذلك فلم يصنع خالدٌ شيئاً ؛ لأنّ صاحب الوِراثة أظهر أمراً وأشهر

---

(١) فى الأصل : « الجرو » . وانظر ما سبق فى ص ١٩٠ .

(٢) كتبت فى الأصل : « الغنى » .

موضعاً من أن يحتاج إلى كلمةٍ ليست بأن تدلّ عليه بأقرب منها من أن تدلّ على خالد نفسه .

ووجه آخر : أنّه قصد بكلامه إلى عثمانَ وعليٍّ جميعاً ، ليهزّهما معاً ؛ لأن هذا اللفظ الأغلبُ على ظاهره حُبُّ العصبية ، والمحاماة على الأحساب ، وترك التّخايُر بالأفعال ، والتفاضل بالجزء(١) والكمال .

ولعلّه أراد عثمانَ دون عليّ ، أو لعله أراد نفسه والتذكيرَ بها والتنبيهَ عليها ؛ فإنّه كان أشرفَ من عثمانَ وأقدمَ إسلاماً منه ، وكان مِن مُهاجِرَة الحبشة ، وكان ذا قدرٍ عظيم . وهو ابنُ أبي أُحَيحة(٢) ، وكان أبو أحيحة إذا اعتمّ بمكة لم يعتمّ بها أحد ؛ إكباراً لقَدْره ، وتفضيلاً لحاله(٣) .

وكان عثمانُ لا يحالى . . . سعيد بن العاصى .

وظاهر كلام خالدٍ وقع على عبد منافٍ جُملة ، وهو يرى أنّه فى السّر منهم . فإنْ كنتم أردتم أن تُخبِروا عن خلافِ خالد على أبى بكر وجلوسه عنه ، فلقد كان ذلك حتّى راجَعَ من تلقاء نفسه ، وثاب إليه عازبُ رأيه ، فأنابَ إلى خطّته ، ودخلَ فى صالح ما دخل فيه غيره . وما كان تخلُّفُه عن بَيعته إلّا ريثما ذهبت عنه حميّته ، وانجاب عن . . . وتيقّظ من نومه .

---

(١) فى الأصل : « والمفاصل بالجرو » .

(٢) أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس . الإصابة ٣ ٢١٦ .

(٣) مما يشهد لذلك ما أنشده المبرد فى الكامل ١٩٧ :

أبو أحيحة من يعتم عمته ... يضرب وإن كان ذا مال وذا عدد

وما ذلك بأعجبَ من اجتماع الأنصار وقوله للمهاجرين الأوّلين : « منّا أميرٌ ومنكم أمير ! » والدار دارهم ، والمُهاجرون ضِيفانُهم ونزُولٌ فيهم ، وهم أوّلُ النّاسِ والعَددُ والصّلاحُ والرأى ، فكانوا مُجَلِّبين[1] جادِّين مجدِّين ، فما هو إلاّ أن هجَم عليه الصِّديقُ وقام فيهم مُرشداً ومحتجًّا [حتى] استبدلوا بالخلاف طاعة ، وبالضَّجَّةِ إطراقاً ، وبالأنفة خضوعاً ، وبالطَّيش حلماً ، وأنصَتوا معاً واستمعُوا معا .

وكأنّ السائلَ إنّما أراد تمريفَنا أنّه كان من خالدٍ خلافٌ . فقد كان ذلك ثم رجع إلى نَفسه وعرف موضع خطئه ، غير مرغوب ولا مرهوب .

وإن كان إنّما أراد أن يجعل هذا وشبهَه حُجةً فى إمامة علىٍّ فليس لعلىٍّ رحمة الله عليه فى ذلك من الحجّة على إمامته قليلٌ ولا كثير ، إذْ لم يذكروه فى شىء من أمورهم ، لا فى يسير أمورِهم ولا عَسيره . ولو ذكروه ما كان لذكرهم دليلٌ على أنّه أولى بالإمامة من أبى بكر ، مهما عددنا عليك من خصاله التى لا يَفِى بها علىٌّ ولا غيره .

وإنّما كان يكونُ هذا الإدخال حجة لو قلنا : إن أحداً لم يخالف أبا بكر .

ورضى الجميع وسكونهم وصوابهم[2] لم[3] يكن ليتهيأ أبداً ، حتّى لا ينطق أحد بحرف واحدٍ لا جاهل ولا عالم ، ولا عصىٌّ ولا حاسد .

وكيف يتّفق إطباقُهم على سكونٍ واحد والناسُ من بين حاسد وراضٍ ، وعصىٍّ وتقىٍّ ، وحليم وسخيف ، وغالطٍ ومصيب ، وعاقلٍ وأحمق ؟!

(١) التجليب : الصخب والتصويت .

(٢) كذا فى الأصل . (٣) فى الأصل : « ولم » .

وإذا كان النبي صلى الله عليه مع رجاحته على جميع الخلق لم يَسلَمْ على أمّته [من] المستجيبين له ، فضلاً على جاحديه والمنكرِين له ، كان أبو بكر أجدَرَ ألا يَسلَمَ من رعيته .

ولقد قامَ رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه فقال : والله يا محمّد ما عَدلْتَ في الرّعيّة ، ولاقسَمْتَ بالسويّة . وقال الله : « ومِنهُمْ من يَلمِزُكَ في الصَّدَقات[1] » وقال : « إنَّ الذينَ يُنَادُونك مِنْ وَراءِ الحُجُرات[2] » .

وقال عبّاسُ بن مِرداس :

أتجعلُ نَهْبي ونَهبَ العُبَيْــدِ بين عُيينةَ والأقرع[3]
فما كانَ حصنٌ ولا حابس يفُوقان مِرداسَ في المجمع

في شعر له طويل .

وقال أبو حذيفة بنُ عتبة[4] يوم بدر : يقتل أبناءنا وأعمامنا وينهانا عن عشيرته[5] ، والله لئن أدركتُه لأُلجِمَنّه بالسّيف !

وخالفوا عليه في يوم الحديبية في نَحْر الهَدْى ، وحيث قالوا : « لا نُعطى الدّنيّة مرةً بعد مرّة » ، في أمور كثيرة .

فليس في طعن الطّاعن دلالةٌ إذا كان المطعون عليه كاملا فاضلا .

---

(١) الآية ٥٨ من سورة التوبة . وانظر تفسير أبي حيان ٥ : ٥٥ .
(٢) الآية ٤ من سورة الحجرات .
(٣) انظر الخزانة ١ : ٧٣ . والعبيد : اسم فرس العباس . عيينة بن حصن الفزارى . والأقرع بن حابس المجاشعى التميمى . أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بعير وكان من المؤلفة قلوبهم ، وأعطى عباس بن مرداس أباعر فسخطها .
(٤) الإصابة ٢٦٣ من باب الكنى ، والسيرة في مواضع كثيرة . وفي الأصل : « عيبه » .
(٥) في الأصل « عسره » ؟

وإجماع الناس كلّهم على الصواب أمرٌ لا ينال . ولكن إذا كانت الأمّة قد أطبقَتْ على طاعة رجل على غير الرّغبة والرّهبة ، ثم لم يكن اغتراراً ولا إغفالاً ؛ فليس فى شُذوذ رجل ولا رجلين دلالةٌ على انتقاض أمره ، وفساد شأنه .

وليس يحتجُّ بهذا وشبهه إلّا رجلٌ جاهل بطبائع الناس وعللهم . ولو كان هذا وشبهُه ناقضاً لإمامة أبى بكر ، كانت إمامةُ على أنقضَ وأفسد ؛ لأنّ الدُّنيا انكفَتْ بأهلها عليه[1] وماجتْ بساكنيها . . . من ولايته ، وتداعت من أقطارها ، تريد محاربته ، حتى لقد نازعه فيها مَن ليس فى مثل حالهِ ولا شَرفِ موضعه ؛ ولا فى فضيلة دينه فناهضه الحربَ ، ونازله القتال . . . بيمته ، والتج[2] عليه الخلافُ من أهل طاعته ، وموضع الجدّ فى عسكره ، فردَّ بأسه فى أصحابه ، وصرف كيدَه إلى جنده ، وجلس خَلىَّ الذَّرْع ، رضىَّ البال ، [فى] عجب الفاتن وسرور المخادع ، وعزِّ المُصيب ، وبأو الأريب[3] . ثم بعث رسولاً قد اختاره بالحكم عليه وله ؛ وبعث خصمهُ رسولا قد اختاره بالحكم عليه وله ؛ فكان رسولُه المخدوعَ ورسولُ خصمه المخادع ؛ ثم رجعت الأمور إلى خصمه ، وانتُزعت منه ومن ولده مرةً بالبطش ، ومرّة بالحيلة .

ثم كان يَرَى من خلاف أصحابه واضطراب جنده وتبديل أصحابه مثل ما يرى خَصمُه من طاعة خاصّته ، ونُصرة جنده ، وثبات عهد أصحابه ؛ فلم يكن ذلك عاراً عندنا ولا عندكم على علىّ ، ولا دليلاً على نَقْص رأيه ،

---

(١) فى الأصل : « على » .

(٢) التج : اختلط . فى الأصل « والمج » .

(٣) البأو : الكبر والفخر .

وضعف حَزْمه ، وسَعَة علمه وكثرة فضله . وقد أصابه من الخلاف والتمذر وانتشار الأمر ، واضطراب الحبل ، وظَفَرَ الأعداء وشماتة الُحسّاد ، ما قد رأيتم ؛ ثم قد جئتم تَشَبَّثون بطَعْن سلمان ، وقول أبى سفيان ، وقُعود خالد ، كأنكم لم تعرفوا ما عند خصومكم ؛ غَرارةً ونقصا .

وأعجب من هذا أنكم مرةً تزعمون أنّ الذى حَمَل بنى أميّة على صرف الإمامة عن علىٍّ الضِّغْنُ الذى فى نفوسها ، والأحقاد التى فى صدورها ، لقتْلِ علىٍّ أبناءها وإخوتَها وأعمامها . ومرّةً تَعتلُّون وتحتجُّون فى نَقْض إمامة أبى بكرٍ بطعن عظيمَىْ بنى أميّةَ فى إمامته كعلى ؛ كخالد بن سعيد ، وأبى سفيان بن حرب . وإذا شئتم كانا لكم ، وإذا شئتم كانا عليكم .

وأمّا ما ذكرتم من قول أبى بكرٍ : « ما كانت بيْعتى إلّا فَلْتَةً » ، وقول عمر : « ما كانت بيعة أبى بكر إلّا فلتةً وقى اللهُ شرّها » فإنّ الأمرَ على هذا واضحٌ ، والحجّة فيه قائمة .

وهو أنّ النبى صلى الله عليه وسلم لما تُوفِّى كان الناسُ على طبقات :

مِن رجلٍ مؤمنٍ عالم ، ناصح لله ورسوله .

ومن رجلٍ مطاع ليس له عِلمٌ بالإمامة ، وما السببُ الذى به تنعقد مِنْ السَّبب الذى به تنحلّ .

ومِن رجلٍ مكانُه فى قريش أشرفُ من مكانِ أبى بكر ، وليست غايتُه صلاحَ المسلمين ، إنّما غايتُه أنْ يكون الإمام من أقرب القبائل إليه ، ليزدادَ هو وقومُه بذلك شرفاً وفخراً .

ومن رجلٍ له قرابةٌ فهو يرى أنّها تغنيه عن العلم والعمل .

ومن رجلٍ شديد فى بأسه ، ضعيف فى دينه ، مُخِفٍّ فى ذات يده

بعيدِ الهمة خاملٍ فى هدوء الناس وأَمْنِهم ، فهو لا يألو إضرامَ الفتنة ، وتهييج السَّفلة ، يرى أنَّ فى الهَيج ظهورَ نجدته ، وخروجَه من الخمول إلى النَّباهة ، ومن الإقلالِ إلى الإكثار .

ومن رجلٍ دخل فى الإسلام مع مَن دخل فى دين الله ، دخل من الأفواج ، لايعرف حقيقته ، ولا يستريح به إلى الثِّقة .

ومن رجلٍ أخافَه السَّيف ، واتَّقى الذُّلَّ والقتلَ بإسلامه ونِفاقه ، كمنافقى المدينة ومَن حولها من أهل القُرى والبادية ، يَعَضُّون على المسلمين الأناملَ بالغيظ ، وهم البِطانةُ لا يألون خبالاً ، يترقَّبون الدوائر ، وينفرِجون إلى الأراجيف ، ويستريحون إلى الأمانى .

ومن رجلٍ صاحب سَلْم ، يدِينُ لمن غَلَب ، لايَدفَع مُبْطلاً ولا يُعين مُحقًّا ، يرى أنَّ صلاحَ خاصّته هو صلاح العامّة .

ثم الذى كانَ من وثوب الأنصار ، وهم أهل العَدَد وأصحاب الدَّار والأموال ، على أمرٍ لو تابَعهم المهاجرون عليه حتَّى يكون من كل فرقةٍ أمير ، لفتحت بذلك باباً من الفَساد لا يقوى أحدٌ على سَدِّه ، ولكان الذى يقع بين الأوس والخزرج فى الأمر أشدَّ مما كان يُخاف منها ومن قريش ؛ لأنَّ القرابة كلَّما كانت أمَسَّ ، والجِوار أقرب ، كانت العداوةُ على قَدْر ذلك .

ولو أنَّ الأنصار حين أتاهم أبو بكر فأظهروا الشِّقاق والخلاف . . .(١) عن الحقِّ وجَهِلوه ، ما كان لهم دون البَوَار مانع ، ولكان غيرَ مأمون وثوبُ مَنْ بالمدينة ومَن حولَها من المنافقين وأشباهِهم ، من الحَشْو

(١) بياض فى الأصل بقدر ثلاث كلمات .

والطَّغَام ، ولكان غيرَ مأمونٍ أن ينضمَّ إليهم مَن حولَ المدينة من المرتدِّين ، ممَّن بدَّلَ إسلامَه ساعةَ بلغتْه وفاةُ النبي صلى الله عليه . ولو ساروا إلى ذلك لكانوا أقوى من المهاجرين والأنصار ، إذْ كانوا جميعاً نَشَراً[١] وقلوبُهم شتَّى ، وبأسُهم بينَهم ، ولكان غير مأمونٍ عند ذلك أن يغزوَهم مُسيلمةُ فى أهل اليمامة قاطبة مع مَنْ حولها من أهل البادية . ثم كان غير مأمون أن يَستمدَّ بجميع أهل الرِّدَّة ممن نكث[٢] ونصب العداوة .

وجميعُ ما قلنا إنَّه كان غيرَ مأمون ، لم نَقُلْه إلاّ بأسبابٍ قد كانت هناك قائمةٍ معروفة ، فما عسى نفسه[٣] المهاجرون والأنصار على ما وصفنا ونزَّلنا .

فقد صدق أبو بكرٍ وصدق عمرُ أنَّ تلك البيعة كانت فلتة وأعجوبة وغريبة ، إذْ سلمتْ على كلِّ ما وصَفْنا من أسباب الهلكة ، وهى سَرَبَخٌ[٤] ، وليس دونها سِتْر ولا رِدٌ[٥] ، فكانت بيعتُه يُمناً وبركةً أنقذ الله بها من الهلكة ، وجمعَ بها من الشَّتات ، وردَّ بها الإسلامَ فى نصابه ، بعد تخلُّمه واضطرابه . فأماتت السَّخيمةَ ، وأودعت القلوبَ السَّلامةَ ، وجمعتْها على الألفة .

---

(١) النشر : المتفرقون . وفى حديث عائشة : « فرد نشر الإسلام على غره » ، أى رد ما انتشر من الإسلام إلى حالته .

(٢) فى الأصل : « لئن نكث » .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) السربخ : الأرض الواسعة البعيدة الأرجاء . فى الأصل : « سوخ » .

(٥) الرد ، بالكسر : ما يرد الشىء . أنشد فى اللسان :

* فكن له من البلايا ردا *

أى معقلا يرد عنه البلاء .

وهذه مكرُمةٌ وعطيّة ، ولا يجوز أن يحبوَ بها خالقُ العبادِ إلا نبيًّا أو خليفةَ نبي .

فأما قوله : « ما كانت بيعتى إلاّ فَلتةً وقى الله شرها » ، فقولُ امرئٍ عالم بالعواقب ، عالمٍ بأسباب الفِتَن ، شديد الشفقة منها ، حامدٍ لربه على السلامة منها .

أوَ ماعلمتَ أنّ أبا بكر بينا هو يخطبُ على المهاجرين فى مسجد النبى صلى الله عليه ، والنبىُّ مسجًّى ، وهو يحتجُّ عليهم ويعرِّفهم سَرَفَهم ، واعتداءهم فى قولهم : إنّ النبى صلى الله عليه لم يمت . وقد خَافَ أن يصير بهم الإفراط فى التعظيم ، والغُلوّ فى الحبِّ ، أن يضارعوا مذهب النصارى وخافَ أن يكون آخر أمرِهم أشدّ من أوله . وكان أشدُّ الأمور عليه فى ذلك أنّ مِثلَ عُمر ، وعبد الرحمن ، وعثمانَ ، هم الذين كانوا خرجوا إلى ما لا ينبغى من القول ، فبدرهم بالخُطبة محتجًّا عليهم ومعرِّفًا لهم مواضعَ غلطهم ، ونَحْسَ إفراطهم ، فحين تبيَّن لهم خطؤهم وسلَّموا لاحتجاجه عليهم ، أتاه آتٍ فقال : إنّ الأنصار قد اجتمعت إلى سعد بن عُبادة فى سقيفة بنى ساعدة ، يقولون : منا أمير ومنكم أمير . فراعَهُ ذلك ، وصوَّر له الحزمُ كلَّ تخوُّف ، فعلم أن الداء الذى عنه نطقوا أشدُّ علاجاً من الدّاء الذى نطق عنه عمر وعثمان وعبد الرحمن ، والنفرُ من المهاجرين الذين قالوا : إن النبى صلى الله عليه وعلى آله لم يُمتْ ؛ وعلم أنّ إبراء كلّ سقَم أهونُ من إبراء سقم الحَمِيّة والطَّمع فى الملك ، ولا سيَّما إذا شابَهُما سوء تأويل، وضافرَها الحسّ بالقوَّة . وهذا لَهو الداء العُضال[1]، والداهية العُقام.

(١) فى الأصل : « العضاه » .

فلما انتهى إليه أمرُهم ، وعَرَف جميع مَا عليه طبائعهم وعللهم ، وطبائعُ أتباعهم ، لم يكن شىءٌ أهمّ إليه من البِدار إليهم قبل أن يستفحل الشرّ ، ويتَمَكّن العزم ، فمرّ حثيثاً وتبعه عُمر ، ولحقه أبو عبيدة فى نفر من قريش ، فيمرّ بالناس حَلقاً عِزِينَ وهم يَبكُون ويتحدثون ، فيقبل عليهم فيقول . أنتم جُلوسٌ تفرُكون أعينَكم وفى الإسلام العسا البدار . وقيل البوار[1] .

فلولمْ يتداركهم بحيطته ويقظته وصدق حسّه ، وأبطأ عنهم ريثما كانوا يتطارحون الرّأى ، ويستثيرون دفِين الحسَد حتّى يتمكّن ذلك الحسد ، وتتمثّل لهم صورة الظّفر ، فلو هَجَم عليهم أبو بكرٍ فى ضِعف من بالمدينة من قريشٍ ، لم يكن فى طاقتهم دَفْعُهم ، والدّارُ دارُهم ، والبلاد بلادهم والباديةُ باديتهم ، ومن فيها تبعٌ لهم ؛ فكان من صنيع الله أن كان هو الذّائد والقائم ، والحارس ، والعاطف والمُداوى ، ولم يكلْهم الله إلى نظَرهم واختيارهم ، فيكون ذلك فسادَهم وهلكتهم .

فإنْ قالوا : فما معنى قول أبو بكر للأنصار حين أتاهم : « إن هذا الأمر ليس بخُلْسة . قد علمتم معشرَ قريش [أنا] أكرمُ العربِ احسابا ، وأيقنُها أنسابا ، وأنّا عِترة النبى صلى الله عليه وأصلُه ، والبيضةُ التى تفقأت عنه » ؟

فلمْ يذكر أبو بكر قريشاً وأحسابَها وعترةَ النبى صلى الله عليه والبيضة التى تفقّأت عنه ، إلا وهو يرى أن له عليهم بهذا من الفضل ماليس لهم ، ومن السبب إلى الخلافة ماليس لهم . فقد ينبغى أن يكون لبنى هاشمٍ على هذا القياس من الفَضْل والسبب ماليس لبنى تيْم .

(١) كذا فى الأصل .

قلنا لهم : إن أبا بكرٍ لم يقل هذا القولَ وهو يريد معنى مَذهبكم فيه ، مع أنَّكم قد قطعتم الكلام ، لأنه قال : « فإنَّه لم يكن فينا فكان يوبخ[١] به وإنا نحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، وإنَّ الله لم يذكرنا وإيَّاكم فى شىء من القرآن إلاَّ بدأ بذكْرنا قبلكم ، فمنَّا الأمراء ومنكم الوزراء » .

فلم يقلْ أبو بكرٍ : « قد علمتم يا معشر قريش أنَّا أكرم العرب أحسابا ، وأيقنها أنسابا ، وأنَّا عِترةُ النبيِّ وأصلُه » ، وهو يريد أن يخبر أنَّ الرِّياسة فى الدِّين تُستَحقُّ لغير الدِّين ، والخلافةُ أعظمُ رياسات الدين ، فعلى حسب ذلك تحتاج إلى العمل الصالح .

ولكنَّ أبا بكرٍ خطَب عَلَى قومٍ كانوا يرَون للحسَب قدرا ، وللقرابة سبباً ، فأتاهم مِن مأتاهم[٢] ، وأخذهم من أقرب مآخذهم ، واحتجَّ عليهم بالذى هو عندهم ، ليكون أقطعَ للشَّغْب ، وأسرعَ للقَبول . وليس فى كلِّ المواضع تفسيرٌ لحجَّة أمثَل من إظهار الجملة ، وتعريف النَّاس الغاية ، وحملهم على أدقِّ الحجج وأصوَبها . ولربَّما أخفى الإمام[٣] كثيراً ممَّا يُريد بالناس عنهم ، للذى . . . . من بعضهم عن فضله ، وضيق صدورهم عن سَعَة فضله ، بل يعلم أنَّه لو أطْلَعهم طِلع إرادته[٤] ، والذى عَزَم عليه من صلاحهم ، كانوا أسرع إلى طلب بُغضه من عدوهم .

(١) كذا فى الأصل

(٢) فى الأصل : « من أتاهم » .

(٣) فى الأصل : « الاهتمام » .

(٤) فى اللسان : « وفى حديث ابن ذى يزن ، قال لعبد المطلب : أطلعتك طلعه . أى أعلمتكه . الطلع ، بالكسر : اسم من اطلع على الشىء ، إذا علمه » .

وقد دلّ أبو بكرٍ على مذهبه فى الأحساب فى أوّل خطبة خَطبها على المهاجرين والأنصار ، حين قال فى كلامه :

«وعليكم بتقوى الله ؛ فإن أكيس الكَيس التقوى ، وأحمقَ الحمق الفجور ، وإنى متبع ولست بمبتدِع ، فإن أحسنتُ فأعينونى ، وأن زِغتُ فقوِّمونى . أيُّها الناسُ إنَّه لم يَدع الجهادَ قومٌ قطّ إلاّ ضربهم الله بذُلّ ، ولم تشع الفاحشةُ فى قومٍ قطّ إلاّ عمَّهم بالبلاء . أيُّها الناسُ اتَّبعوا كتابَ الله ، واقبلوا النَّصيحة ، فإنّ الله يقبلُ التوبة ، ويعفو عن السيئة . واحذرُوا الخطايا التى لكُلّ بنى آدم منها نصيب ، ولكنّ خيرهم مَن اتَّقى الله . واتَّقُوا يوماً لا ينفع فيه حميمٌ ولاشَفيعٌ يُطاع » .

ألا تَراه ذكرَ جميعَ بنى آدم ثم قال : ولكنّ خيرهم أتقاهم كما قال الله : « إنّ أكرَمكم عند الله أتقاكم » ثم قال : اتَّقُوا يوماً لا ينفع فيه حميمٌ ولا شفيع ؛ فقد أخبرَ عن نَفْسه ومذهبه فى ذلك المقامِ بغاية ما يتكلَّم به أصحابُ التَّسوية . فكأنّ أبا بكرٍ إنّما قال : فإنْ كان هذا الأمرُ مَعشَرَ الأنصار إنّما يُستَحَقُّ بالحسَب ، ويُستَوجب بالقَرابة فقريشٌ أكرمُ منكم حسبا ، وأقرب منكم قرابة ، وإنْ كان إنّما يُستَحَقُّ بالفضل فى الدِّين فالسابقون الأوَّلون من المهاجرين المقدَّمون عليكم فى جميع القرآن أولى به منكم . لأنّ أبا بكرٍ ذكر فى صدر كلامه الحسَب والقرابة ، وفى عجزه فضلَ المهاجرين على الأنصار . فلما أبصَر القومُ وجهَ الحجة ، وقرَّرهم بما لم يزل عليه قبل ذلك طبائعهُم ، لِحقُوا بالطّاعة وأعطَوا القَادة .

وكيف يكون كبار الأنصار أفضلَ من كبار المهاجرين ، وقد سبقَهم المهاجرون وأسلموا قبلهم بالسِّنينَ قبلَ السِّنين ، والأنصارُ بعدُ على دين

آبائهم ، وعبادة أصنامهم . ثُمَّ الذى لقى المهاجرون فى الله يبطن مكّة والأنصارُ وادِعُون فى بيوتهم ، رافهون فى دِيارهم ، ناعمٌ بالُهم ، خَلِىٌّ سَربهم[1] ، لذيذٌ عيشهم . ثُمَّ هاجَروا إلى دارهم فكانوا معاً فى العبادة والجهاد ، إلّا ما فَضَلوا به من وَحْشَة الاغتراب ، وفراق الدّار والأحباب . فللمهاجرين مثلُ ما للأنصار ، وقد بانُوا بسابقتهم ، وإنّما قُدِّموا فى القرآن لتقدُّمهم فى الإسلام .

وكما أن المهاجرين الأولين ليسوا كغيرهم من المهاجرين ، وكما أنَّ مَن أسلمَ بعد الفتح ليس كمن أسلم قبله ؛ فكذلك ليسَ مَن أسلمَ والناسُ كلُّهم كفارٌ غيره ، كمن أسلمَ وقد أسلم الناس قبله .

وأنت إذا تأمّلْت قولَ الصِّدِّيق للأنصار : « إنّ هذا الأمر ليس بِخَلْسة » علمتَ أنّه كان ثابتَ الجَنَان ، رابطَ الجأش ، واثقاً بالحجّة ، عارفاً بمواضع الإمامة ، وإنّما كانت غايته تقريرَهم بفضيلة المهاجرين ، لأنّهم إذا صاروا إلى ذلك فلا حاجةَ به إلى ذِكر نَفْسه وتعريفهم فَضْلَه ، لأن تبريزَه كان بيِّناً على المهاجرين ، وفضلَه كان ظاهراً على السّابقين .

والدّليل على ذلك أنَّ خَوض الأنصار وكلامها لم يكن إلّا فيما بين جُملة الأنصار وجملة المهاجرين ، قالوا : منّا أميرٌ ومنكم أمير . فما هو إلّا أن قرّرهم بفضيلة المهاجرين فلم يكن لهم بعد ذلك متكلِّم ، حتّى أطبقوا جميعاً على بَيعته هم والمهاجرون من بين جميع المهاجرين — فلا يستطيع أحدٌ أنْ يدّعى أنَّ إنساناً قال من الأنصار : فإن كان لا بدَّ أن يكون منكم الأمراء فليكن فلان ، فإنَّه أفضلُ وأحقُّ بقرابةٍ أو بعملٍ — فسكتوا معاً سكتةً واحدة ، وسلموا معاً تسليما واحدا .

---

(١) السرب ، بالفتح : الطريق والوجه والرأى .

ولو أنَّ الأنصار كانوا قد سلَّموا للمهاجرين فى البَدْء فلم يفارقوا ولم يتمادَوْا ، وكانوا كالمهاجرين فى إطباقهم على أنَّ الإمام منهم ما كان ليظهر للناس من شهامة أبى بكر وصرامته واجتماع نَفْسه وقوّة مُنَّته ، وجَلَد رأيه ، وقِلّة حَيرته وتضجُّعه[1] مثلُ الذى ظهر لهم . وإنَّما يَعرِف العاقلُ فَضْلَ العاقل فى مَضَايق الأمور ، وساعة الجَوْلة ، والعَجلة والحيرة ، وظُهور الفِتنة ، ومَوَجان السِّفْلة ، واضطراب العِلْية[2] واختلاط الخاصّة بالعامة .

فهل أعضَلَ به داء فلم يسُدَّ ثَغْره[3] ، أم هل نَجَم بلاء فلم يتولَّ قَمْعه ؟!

وزعمت (العثمانية) أنَّ أحداً لا ينالُ الرِّياسةَ فى الدِّين بغير الدِّين .

ولوجازَ أن يعطى الله رجلًا عطيّةً ويفضِّلَه على غيره لِنَسَبه ، وعملُهما سواء فى دار الدُّنيا ، جاز أن يفضِّله عليه فى الآخرة .

وليس ذلك كالمعافَى والمُبْتلى ؛ لأن العافيةَ والبلاء ، والشُّكر والصَّبر ، والثَّواب على الطَّاعة بهما والعقابَ على المعصية فيهما ، إذا وازَنْت بين عواجل أُمورها وأواجلها مِن كلِّ وُجوهها ، رأيتهما سواء لا فَضْل بينهما .

وكذلك شأنُ المملوك والمالك ، والفقير والغنىّ ، والمُبتلَى والمُعافى

فإنْ كان القريبُ القرابةِ والبعيدُ القرابةِ سبيلُهما فى النَّقْص والفضْل ، والصَّبر والشكر ، والثَّواب والعقاب ، وجميع حالاتهما فى العاجل والآجل ، كالمعافَى والمبتلَى ، والمالك والمملوك ، والفقير والغنىّ ؛ فليس بين القَريب

---

(١) تضجع فى الأمر : تقعد ولم يقم به .
(٢) فى الأصل : « الغلبة » .
(٣) فى الأصل : « فلم يسبر بعره » .

والبعيد فرق ، وليس لقرابتِه فضيلةٌ على غيره ، ولا ينفعُه شيء إلاّ كما نفعت المعاَفى والغنىّ فى ظاهر أمرهما ، وما يقع البيان عليه منهما ، وهما فى الغِنى والمصلحة ، والنظر والصُّنع ، سواء .

وليس على هذا بنَى القوم أمرهم فى القَرَابة ؛ لأنّهم زَعموا أنّ القرابة سببٌ للرِّياسـة فى الدِّين . ولو قالوا إنها سببٌ للقَدْر والنّباهة فى الدُّنيا كان ذلك وجهاً ، كما ترى من فَضْل حال المنيع الرّهط ، الجميل الرُّواء ، والمعاَفى فى بدنه الـكثيرِ المال ، على الذّليل الرهط الدّميم فى رُوائه ، المبتلى فى بدنه ، القليل ذاتِ اليد ، وهما فى مُغيَّب أمرهما ، وفيما لا يقع البيان عليه من شأنهما ، سواء فى صنع الله وفضلِهِ وعائدته .

[وإنّما] كان لنا أن نزعُم أنّ القرابةَ تنفـع فى الدِّين والحسب فتـكونُ سبباً إلى الرِّياسة فيهما ، أنْ لو كنّا رأينا من عظم قدر القرابة ونبل من أجله(١) نالَ الرِّياسة الـكبرى بالحَسَب . وإذا رأينا النبي صلى الله عليه لم يستحقّ ذلك الموضعَ البائن العالىَ إلاّ بالفَضـل دون المرَكّب(٢) كان من مَتّ بقرابته أجدَرَ ألاّ ينالَ الرِّياسة إلاّ بالفضْل دون المركّب ؛ لأنّ النبي صلى الله عليـه لو كان نال ذلك بالهاشميّة كان هو ورجلٌ من عُرْض بنى هاشم سواء .

ولو كان نالَه بعبد المطّلب لـكان ولدُ عبدِالمطّلب لصُلْبه أقربَ إليه .

وقد نعلم أن ذلك لو كان لشخصٍ بالهاشميّة أو بالمطّلبيّة لـكان لعلىٍّ فى ذلك ما ليس لأحدٍ ، لأنّه ابنُ أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وأمّه فاطمةُ ابنةُ أسدِ بن هاشم .

(١) كذا فى الأصل .

(٢) المركب : الأصل والمنبت . هو كريم المركب ، أى كريم أصل منصبه فى قومه .

فلمّا وجَدنا الأمر كما ذكرنا ، علمْنا أنّ النبيّ صلى الله عليه لم يصيّره مستحقاً لأعظم الرّياسات وأشرف المقامات إلاّ بالعمل ، إذ كنّا قد وجدنا من يُساويه فى الهاشميّة لا يستحقّ مثلَ مالَه .

وزعمت (العثمانية) أنّ لها فى التّسوية بين القريب والبعيد حججاً كثيرة ، قد عرفتها وسمعتها من أهلها .

ولكنّ كتابى هذا لم يُوضع إلاّ فى الإمامة ، ولربمّا ذكرت من المقالة والمِلّة(١) والنِّحلة التى تعرض فى الإمامة صدراً ، طلباً للتّمام ، وتعريفاً لوجوه الإمامة وما دخل فيها .

والكلامُ فى التّسوية كلامٌ يدخل فى باب التّعديل والتجوير ، وهو بابٌ يشتدّ الكلام فيه ويغمُض ، فإنْ أخبرنا عن فرعه ولم نُخبر عن أصله لم ينتفع القارئُ به ، وصار وبالاً عليه .

وقد زعم ناسٌ من (العثمانية) أنّ الله بفضله ومَنّه كفَى أكثرَ النّاسِ مؤونة الرّوية ، وتكلُّفِ غامض الكلام فى التّسوية ، فأخبرهم فى كتابه بأبْيَنِ الكلامِ وأوضحه عن معانى التّسوية ، وما يجوز فى عَدْله وحكمته . فقال وهو يريد أن يُعلم النّاس أنهم لا ينتفعون بصلاح آبائهم ، ولا يضرُّهم فسادُ رهطهم فقال : « وإبراهيمَ الذى وَفّى . ألاّ تَزرُ وازرةٌ وِزرَ أُخرَى . وأنْ ليسَ للإنسانِ إلاّ ما سعَى(٢) » .

فإذا كان كونُ الإنسان ابنَ نبىٍّ وابن خليفةِ نبىٍّ ، أو ابنَ عمِّ نبىٍّ ليسَ من سَعيه ، فقد أخبر أنّه لا شىء له فى ذلك حين قال :

---

(١) فى الأصل : « والعلة » .

(٢) الآيات ٣٧ — ٣٩ من سورة النجم .

« وأنْ لَيْس للإنسان إلّا ما سَعَى » فالسَّعْيُ معروف ، والكونُ من رهطٍ دُون رهطٍ ليس من سَعْى المرء فى شئ ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه لقرابتــه حينَ جَمَعهم : « يا عباسُ بنَ عبد المطّلب ، ويا صــفيّة بنتَ عبد المطّلب ، ويا فلانُ ويافلان ، إنّى لا أُغْنى عنــكم من الله شيئا » .

ولو أنّ إنســاناً من القرابة إذا هو عَصَى وعصى غيْره بمثل معصيته غَفَر الله [له] لقرابته ، ولم يغفر للآخَر ؛ وكان إذا أطاع وأطاع غــيْره بمثل طاعته أعطاه الله أكثرَ ممّا يُعطى الآخر ، لــكانا إذا استوَيا فلم يطيعا جميعاً ولم يَعصيا ؛ فــكانا إمّا طِفلَين وإمّا مجنونين وإمّا نائمين ، وإمّا ساهيين ، أعطَى القريبَ وفضّــله ، ولم يُعطِ الآخَرَ شيئاً ولم يسوِّ بينَه وبين مَن لم يُطِع ولم يَعْصِ ، كما لم يُطِع القريبُ ولم يَعْص ، لم يكن النبيُّ صلى الله عليه ليقول لعمّه وعمّته : إنّى لا أُغْنى عنكم من الله شيئا .

ولذلك قال النبى صلى الله عليه : « المسـلمون تتـكافأ دماؤهم ، ويَسعَى بذمّتهم أدْناهم » .

ولذلك قال النبى صلى الله عليه : النّاس كلّهم سواءٌ كأسنان المُشْط . والمرء كثيرٌ بأخيــه . ولا خَيرَ لكَ فى صحبةِ مَن لا يرى لكَ مِثْــلَ ما يرى لنفْسه .

ولذلك قال حين بلغَه أن عُيينة قال : أنا ابنُ الأشياخ ، أنا عُيينة بن حِصن بن حُذيفة بن بدر بن عمرو ، قال النبى صلى الله عليه : « أشرف الناس يُوسفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيم » .

ولذلك أخَذَ وَبَرَةً من جَنْب بعيرٍ يومَ حُنَين فقال : « والذى نفْسِى بيده ما أنا بهذا أحقّ من رجلٍ من المسلمين » .

وقد قال الله : « واتَّقُوا يوماً لا تَجْزِى نفسٌ عن نفسٍ شيئًا ولا يُقبَل منها شفاعةٌ ولا يُؤْخذ منها عدلٌ ولا هم ينصرون[1] » ؛ فلم يستثن من جميع النفوس نفسًا واحدة ، لا ابنَ نبيٍ ولا ابنَ عمّه .

وقال الله : « يومَ لا يُغنِى مَولًى عَنْ مولًى شيئًا[2] » . والمولى كلمةٌ واقعةٌ على جميعٍ ، فمنه ابن عمٍّ المرء ، ومنه خليفتُه ، ومنه مولاه مِن فَوقُ ، ومنه مولاه مِن تحتُ ، ومنه مولاه الذى مَلَكه قبلَ عِتقه . فإذا قال الله : « يومَ لا يُغنى مولًى عن مَولًى شيئًا » فقد دخل فيه ابنُ العمّ وغيرُه ، ولم يَستثنِ الأنبياءَ دونَ المسلمين .

وقال : « يومَ لا يَنفعُ مالٌ ولا بَنُونَ . إلاّ مَن أتَى اللهَ بقَلبٍ سليم[3] »

وقال : « يأيُّها النّاسُ اتّقُوا ربكُمْ واخشَوْا يَوماً لا يَجْزِى والدٌ عَن ولَدِهِ ، ولا مَولودٌ هوَ جازٍ عَن والِدِهِ شيئًا[4] » ثم قال : « إنّ وعْدَ اللهِ حَقٌ فلا تَغُرَّنكُمُ الحياةُ الدُّنيا ولا يغُرَّنكُمْ باللهِ الغَرُور » . فمن اغترّ بعد هذا بالقَرابة واتّكل على غير العمل الصالح فقد ردّ تأديبَ الله وتعليمَه .

ثمّ الذى رأينا من قصّة ابنِ آدمَ حينَ قرّبَ مع أخيه قُرباناً فتُقبِّل من أخيه ولم يُتقبَّل منه ، فقتلَه حسداً له وبغياً عليه . وكيفَ لم تنفعه قرابتُه من آدمَ حيثُ لعنَه اللهُ وبرئَ منهُ ، وجعلهُ من أصحابِ النّار ، ثم قال : « وذلك جزاءُ الظّالمين[5] »

---

(١) الآية ٤٨ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٤١ من سورة الدخان .
(٣) الآية ٨٨ — ٨٩ من سورة الشعراء .
(٤) الآية ٣٣ من سورة لقمان .
(٥) من الآية ٢٩ فى سورة المائدة .

لكى لا يتّكل أحدٌ ظالمٌ بعدَه على قرابته ، ولا يغترّ بأن يكون ابنَ نبيٍّ . ولذلك أرسل الكلامَ على مَخرج العُموم . ولم يُخرجه ذلك المخرج إلّا وذلك إرادتُه .

فإنْ قالوا : إنّه لم يكن لصُلبه ، ولو كان لصُلبه لنفعه ذلك عنده .

قلنا : إنّه ليس لأحدٍ سمعَ الله يقول : « واتلُ عليهم نبأ ابنَىْ آدمَ » أن يجعلهما من عُرْض بَنِى آدم بعد سبعين قرناً إلاَّ بحُجَّةٍ . وإنْ لم تكن له فى ذلك حُجَّةٌ فليس له أن يُزيل معنَى ابنٍ عن أصله[1] ؛ لأنَّ الأصل المستعمَل الموضوع أن يكون الابنُ للصُّلب ؛ فإنّما جاز أنْ يقالَ لابن الابن على التّشبيه بالابن ، [و]على الحَمْل عليه . وكذلك الابنُ الذى هو على التّبنِّى والتّربية ؛ لأنَّ رجلا لو قال : أتانى فلانُ بن فلان ، لم يكن لأحدٍ أنْ يقول : إنّه لم يَعْنِ ابنَه وربيبَه ، إلّا بحجّة ؛ وإلا فالكلامُ موضوعٌ على أصله وعلى المستعمَل المعروفِ منه .

ثم صنيعُ الله بابنِ نوح ، وهو كما علمت من أعظم الأنبياء قدراً ومنزلةً ومكانا ، حين عَصَى فيمن عصى ، كيف غرّقَه فيمن غرّق[2] ممّن لاقرابةَ له ولا وِلادةَ .

فإنْ قالوا : إنّه لم يكن ابنَه ، لأنّ[3] الله قال : « إنّه ليسَ مِن أهْلِكَ إنّه عملٌ غيرُ صالحٍ[4] » ، وذكر امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوط فقال :

---

(١) فى الأصل : « عن صلبه » .
(٢) فى الأصل : « كيف عرفه فيمن عرف » .
(٣) فى الأصل : « إلا أن » .
(٤) الآية ٤٦ من سورة هود .

« كانتا تَحْتَ عَبدَيْنِ مِن عِبادنا صالِحَين فخانَتاهُما فلم يُغْنِيا عنهما من الله شيئاً[١] » .

قيل لهم : إنّه ليس لنا أن ندَعَ قولَ الله : « ونادَى نوحٌ ابنَه » إلى تأويلٍ مُختلَفٍ فيه . ولقولَةِ الخيانة مخارجُ غير تأويلِكم . وقد تَفْجر المرأةُ بعد أن صحَّ منها لبعلها ولدٌ كبير . وفى قوله : « فلَمْ يُغْنيا عَنْهما من الله شيئاً » دليلٌ أنَّ محبّتَهما كان الصَّفح عن خيانتهما ، وأنَّ محبّتهما لم تُغنِ[٢] عنهما شيئاً .

ولا يُشْبه قولكم [فى] نساء الأنبياء الذى نَعرِف من حُسْن اختيارِ الله لهم مِن طِيب المناكح ، وطَهارة المداخل . وهذا ممنى طبائع الناس . لم يكن اللهُ ليترك امرأةَ نبيٍّ تصير إلى تَهجينه والتَّصغير بقَدْره ؛ لأنّ الرِّسالة منظَّفَة مُصفَّاة ، لا تحمل الأقذاء ، ولا تَعلَقُ بها الأدناس ، ولا يَطُوق[٣] المبْطِلين عليها الاعتماد .

وفى قول الله لإبراهيم ، وهو شَجَرة الرِّسالة ، وخليل ربِّ العزّة حينَ يقول له : « إنِّى جاعِلُك للنَّاس إماما[٤] » قال إبراهيمُ إمّا مستفهِماً وإمّا طالبا : « ومِنْ ذُرِّيَّتى » قال : « لاَ ينالُ عَهدِى الظَّالِمِين » . وأخبَرَ أنَّ عَهد إمامته وخلافته لا ينالُ الظَّالمَ وإنْ كان من خير خَلْق الله .

---

(١) الآية ١٠ من سورة التحريم .

(٢) فى الأصل : « لم تغنيا » .

(٣) طاق الشىء يطوقه : أطاقه وقدر عليه .

(٤) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة .

ففى هذا دليلٌ أنَّ الرِّياسة فى الدِّين لا تُنال بغير الدِّين .

وقال الله : « ولقد أرسَلْنا نُوحاً وإبراهيم وجَعَلْنا فى ذُرِّيتهما النُّبوَّةَ والكِتابَ فمِنهُمْ مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسِقون[1] » ألا تَرَى أنَّ الذّريّةَ وإنْ كانت كلُّها ذرِّيَّةً ومكانُها من القرابة سواء ، فمنها ولىٌّ ومنها عدوٌّ .

فإنْ تَرَكوا هذا جانباً وقالوا : كيف تزعمون أنَّ أبا بكر كان يرى التَّسْوِيَةَ ، وكان لايرى أنَّ الفروسيّة أصلٌ للإمامة ، والقرابة شعبة عن الخلافة . ولم يكنْ فى الأرض رجلٌ أبعد من هذا المذهب مِن خاصّته وخليفته وصنيعته ، والمحتذى على مثاله ، عمرَ بنِ الخَطّاب ؛ لأنّه فضّلَ القرشيّاتِ من نساء النبي صلى الله عليه على غيرهنّ ، وفضّلَ العربَ فى العطاء على المَوالى . وقال : « زَوِّجُوا الأَكفاء » . وكان أشدّ منه فى أمر المناكح .

قيل لهم : إنّه لم يكن على ظهر الأرض رجلٌ كان أبعَدَ ممَّا قلتم مِن عمر ، ولا [ظهرَ] منه — خلافَ ما ادَّعيتم — مثلُ الذى ظهرَ منه . والدَّليل على غلطكم وخطإِ قولكم ، أنَّ عمر لمَّا فرض الأعطيةَ ودوَّنَ الدَّواوين وقام إليه أبو سفيانَ بنُ حربٍ ، وحكيمُ بنُ حزام ، فقالا : يا أمير المؤمنين ، أدِيوانٌ كديوان بنى الأصفر[2] ؛ إنَّك إنْ فعلْتَ ذلك اتّكل النّاسُ على الدِّيوان وتركوا التِّجاراتِ والمعاش ! فقال عمر : قد كثُرَ الفىء والمسلمون .

ففرضَ للمهاجرين ومواليهم ، وللأنصار ومواليهم ، ممّن شهد بدراً

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الحديد .

(٢) بنو الأصفر هم الروم . انظر ابن خلكان فى ترجمة ياقوت بن عبد الله الرومى ٢ : ٢٠٩ .

فى ستة آلاف ستة آلاف[1] فكان عطاء عمر وعلىٍّ وعبدِ الرحمن وطلحةَ والزُّبير وأبى عبيدة بن الجراح ، وعطاء بلالٍ وسالمٍ مولى أبى حذيفة وجميع الموالى سواءً .

ثمَّ فَرَض على قَدْر الفَضْل والغناء والسَّابقة ، على قَدر بُعد الدار وقُربها من المُهَاجر ، ففرض لأهل اليمن فى السبعمائة إلى الألف ، وهم أبعَدُ خَلق الله منه ومن مُضر أرحاماً ونسباً . وإنما أرغبهم وزادهم لبُعْد دارهم من المهاجَر[2] ، وكانوا أهلَ قرًى ومزارعَ ، فتركوا مُطنَّبهم[3] رغبةً فى الهجرة .

وفَرَضَ لمضر وبَلِىٍّ وكلب وطــيّء فى الثلثمائة إلى الأربعمائة . فتسويته بين مضر وطيء دليلٌ على ماقلنا .

وفرض لربيعة فى خمسين ومائتين وقال : إنَّما هاجروا من أطناب بيوتهم . وربيعةُ أَمَسُّ به وبمضر من بَلِىّ وطــيّء .

وفرض لأشراف الأعاجم : لدِهقان نَهر الملك[4] ، وهو فَيروز بن يَزْدَجِرد ، ولابن السحرخان[5] ، ولخالدٍ وجميل ابنى بَصْبَهرى[6]

---

(١) فى الأحكام السلطانية لأبى يعلى ٢٢٢ أنها خمسة آلاف درهم فى كل سنة .

(٢) فى الأصل : « المهاجرين » .

(٣) المطنب : موضع الإقامة ، يقال طنب بالمكان تطنيبا : أقام به . فى الأصل : « يصيهم » وانظر ما سيأتى .

(٤) نهر الملك : كورة واسعة ببغداد كانت تشتمل على ثلثمائة وستين قرية ، على عدد أيام السنة . ياقوت .

(٥) كذا . وفى الطبرى « النخيرجان » . انظر ١ : ١٠٣٨ ، ٢٤١٩ ، ٢٤٢٢ — ٢٤٢٢ ، ٢٤٣٩ ، ٢٥٩٩ ، ٢٦٢٧ طبع ليدن .

(٦) انظر البيان ٢ : ٢٦٣ .

دهقان الفَلُّوجة ، ولبسطام بن نَرسى دهقان بابل ، وجُفينة العِبادىّ ، ورفيل[1] فى ألفين ألفين .

وفرض للبوسحتان[1] ، والهُرمزان ، ولِسياه وَخْش[2] وأمقلاس فى ألفين وخمسمائة ، وهو أقصى شىء أخَذه عربى قَطُّ ، فقيل له فى ذلك ، فقال : قومٌ أعاجمُ أشراف ، أحببتُ أن أتألَّف بهم غيرهم .

وفرض لسوى هؤلاء النَّفَرِ من العجم من الحاشية والعوام ممّن سُبِىَ وأُسِر وخَرَج فى الصُّلح مع رئيسه وقائده ، فى أقلّ مما فَرَض للأعراب وحاشية العرب وعوامِّهم ، فقيل له فى ذلك فقال : إنّ الأعرابىَّ إلاَّ يقاتِلْ عن دينه قاتَل عن رهطه وشقِّه وناحيته . وإن لم يكن ذا بصيرة فى دينه قاتَلَ محاماةً عن حَسَبه وأصحابه ، وقد أمِنتُ تحَوُّلَه إلى عدوّه فأقلُّ ما عنده إذا لم يُبْلِ أن يكثِّر السَّواد ويكثّف الجيش . وهو على حالٍ أفقَهَ فى الدين ، وأفهمَ للتَّأويل . والعجمىُّ ليس بذى بصيرةٍ فى الإسلام ولا يقاتِل عن داره ، ولا يُحامى عن حَسَبه ، ولا يَدافع عن رهطه وغير مأمونٍ عليه التحولُ إلى أصحابه فيدلُّ على العَورة ، وهو أجدرُ ألاَّ يَفهم تنزيلا ولا تأويلا .

وحَمَلَ قوماً فى البحر وآخرين فى البر ، ففضَّل على قَدْر المؤُونة ، وأعْطى على قَدر المشقة .

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) سياه وخش معناه فى الفارسية الأسود المين . استينجاس ٧١٣ . وهو سياوخش ابن مهران بن بهرام شوبين الرازى ، الطبرى ٤ : ٢٥٣ .

فهكذا كانت عطاياه ، وهكذا كان تدبيره فيما نقلت العلماء ورَوَت الفقهاء . ولا يشكُّ فى ذلك صاحبُ خبرٍ ، ولا يدفعُه صاحبُ أثر .

فأمّا ماذكروا مِن تهجينه أمر العَجَم ، وتعظيمه أمرَ العرب ، فإنّما كان ذلك لأنه لما نَدَب الناسَ إلى قتال كسرى والأساورةِ تثاقلت عن ذلك العربُ والأعراب وجميعُ المهاجرين والأنصار ، هيبةً لناحيةِ كسرى والفرس ، وخَفُّوا لغَزْو الرُّوم ونَشطوا له ، حتى انتَدَب أبو عبيدٍ الثّقفىُّ أوّلَ من انتــــدب ، فلذلك عَقَد له على كبار المهاجرين الأوّلين ، والأنصار ، والبَدْريِّين ، فلم يكنْ له همٌّ إلاّ تصغير أمرِهم وتهجين شأنهم والحطّ من أقدارهم ليردّ ذلك من نفوس العرب .

وهكذا ينبغى أن يكون تدبير المدبر .

أوَ ماعلِمتَ أنّ المغيرة بن شُعبةَ لمّا سمع قَيْسَ بن مكشوحٍ يقول حين عاينَ الفُرس : مارأيتُ كاليوم حديداً ولا عديداً ! وهذا يومَ القادسيّة ، وقد كان قيسٌ شهد قبل القادسية حروبَ الرُّوم ، وقيسٌ يومئذ على الخَيل ، والمغيرةُ على الرَّجّالة ، فأقبل عليه المغيرةُ منتهراً له وهو يقول : إنما هذا زبْد من زبْد الشيطان[1] !

وقد كان المغيرةُ قد عايَنَ مثلَ الذى عاينَ قيس ، ولـكنّ التدبيرَ كان غيرَ الذى ذهب إليه قيس .

ومن الدّليل على ماوصَفْنا من تدبير عمر ، تركُه الاستخفافَ بأقدار العجم وإظهار احتقارهم والإزراء بهم ، بعد جَلُولاء[2] .

---

(١) الزبد ، بالفتح : الرفد والعطاء .
(٢) كان بها الوقعة المشهورة للمسلمين على الفرس سنة ١٦ قتلوا منهم مائة ألف . معجم البلدان والطبرى ٤ : ١٧٩ .

فمن ذلك أنه لما أُتِىَ بسيف كسرى وقَبائه ومِنطَقته ألبسه سُراقةَ ابن مالك بن جُعْشُم ، ثم قال له : أدبِرْ ، ثم قال له : أقبِلْ . فلمّا أقبل عليه عُمر وعنده الناسُ فقال : أمَا والله لرُبَّ يومٍ لو كان هذا من كسرى وآلِ كسرى لكان شرفاً لك ولقومك ، فى أمور كثيرة من هذا الضربِ لم يكن عُمر لينطقَ بحرف منها وحَرْبُهم مَخُوفة ، ونفوس العرب لهم هائبة .

وهكذا تدبيرُ الخلفاء ولكنّ أكثر الناس لايعلمون . ولو كانوا إذا لم يَفهموا عن الأئمة لم يعترضوا عليهم ولم يخطئوهم ولم يجهّلوهم كان أيسر .

ولا أعلم فى الأرض جيلا أجهلَ بهذا وشبهه ممّن ينتحل اسم الكلام وينْصِب نفسَه للخصومات . ثمّ الروافض خاصة ، ليس يعرفون من أمر الإمام إلاّ أنه يعلم مايكونُ قبل أن يكون .

ومن الدّليل على ما وصفنا به عُمر ، قولُه لسعد بن أبى وقاص حيثُ وجهه إلى القادسية وأوصاه ، قال : ياسعد سعد بن وُهَيب[1] إنّ الله عزّ وجلّ إذا أحب عبداً حبّبه إلى النّاس ، فاعتبرْ منزلتك من الله بمنزلتك أن يقال خال رسول الله صلى الله عليه ، وإن الناس فى ذات الله سواء .

فأىُّ قول أجمعُ وأدلُّ ، وأىُّ فعل أشبه بالذى حكَينا عنه من التّسوية ، من هذه الأقاويل[2] والأفاعيل .

---

(١) هو سعد بن مالك بن وهيب — أو أهيب — بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب انظر ما مضى فى ص ٥٦ .

(٢) فى الأصل : « الأوايل » .

وكان سعدٌ خال النبي ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وقد أخذ بيده : « هذا خالى أباهى به فليأت كل امرئ بخاله » .

وفى قول عمر فى المناكح : « ليس شىء من خصال الجاهليَّة إلاَّ وقد تركتُه ، الاَ إنّى لستُ أبالى إلى مَن نـكَحت ، وإلى من أنـكَحت » . فإن شئتَ أن تقول : وأىُّ أمرٍ هو أوجبُ على العاقل المسلِم الحرِّ من ألاّ يبالى إلى مَن نـكح وأنـكح ؟

قلت : وإن قلت إنّ هذا الـكلامَ من عمر يدلُّ على بقيّة عصبيَّة فيه . فما تبرّأ[1] إليك منه حينَ جمله[2] من خصال الجاهليّة إلاَّ وهو آبٍ له وناءٍ عنه ، وزارٍ عليه . وفى قوله هذا دليلٌ على أنّه قد اكترث لبقيَّة عادة الجاهلية ، وأنّه راغب عنهما كما رغب عن أكبر منهما .

وفى قوله لعبد الله بن عمرَ حين فرضَ له فى ألفَين وفرضَ لأُسامةَ فى ألفين وخمسمائة ، وابنه قُرشىٌّ وأسامةُ مولًى ، حين قال له عبد الله : أتفضِّل علَىَّ أسامةَ فى العطاء وأنا وهو سِيّانِ ؟ قال : إنّ أسامة كان أحبَّ إلى رسول الله منك ، وكان أبوه أحبَّ إلى رسول الله من أبيك .

ألا ترى أنّه يَدُور مع الدِّين حيثُما دار ؟!

وفى قول عبد الله بن عمر لأبيه ؛ تفضِّل علَىَّ أسامةَ فى العطاء وأنا وهو سيّان ، دليلٌ على أنَّ القوم كانوا لا يعرِفون إلاَّ الدِّينَ والسابقة ، والغَنَاء عن المسلمين .

وفى وصيَّته عند وفاته أن يصلِّى عليه صُهَيب ، وفى أمرِه إيّاه بالصَّلاة

---

(١) فى الأصل : « فقد يرى » .

(٢) لم يظهر من هذه الكلمة فى الأصل إلا الحرف الأول .

بالناس فى مَقامه إلى أن يختارَ المسلمون رجلاً ، دليلٌ على ما قُلْنا .

وصُهيبٌ مولًى لعبد الله بن جُدْعان .

والدليل على أنَّ صهيباً رجلٌ من العَجَم قولُ رسول الله صلى الله عليه : « بلالٌ سابق الحَبَشة ، وسَلْمان سابق فارس ، وصُهيب سابق الرُّوم » . وهذا حديثٌ لم يختلف فيه فقيهان .

وفى خُروج آذِنِه وحاجبِه يوماً إلى النّاس ، وقريشٌ والعربُ جلوسٌ ببابه ينتظرون إذنه ، فيهم أبو سفيان بن حَرب ، وسُهَيل بن عمرو ، وحكيم ابن حِزام ، والأقرع بن حابس ، وعُيَيْنة بن حِصْن ، فنادى بأعلى صوته : أين عمّار ؟ أين بلال ؟ أين صهيب ؟ أين سَلمان ؟ فينهضون مكرَّمين ومفضَّلين ، وعلى النـاس مقدَّمين ، وتلك الجِلّةُ وتلك السّادَةُ جلوسٌ لا يَنطِقون ولا يُنكِرون ، فلمّا كثُر ذلك عليهم تمعَّرتْ وجوهُهم ، وامتُقِعَت ألوانُهم ، فأبصرهم سُهيلٌ فعرَفَ ما قد أصابَهم ونزَلَ بهم ، وكان حليما خطيبا فقال :

لِمَ تتمعَّرُ وجوهُكم وتتغيَّر ألوانكم ، ولا تَرجِعون باللائمة على أنفسكم ؟ ! دُعِينا ودُعُوا ، فأبطأْنا وأسرعُوا ، ولئِنْ حَسَدتُموهم على باب عُمرَ لَلّذى أعدَّ الله لهم فى الجنَّة أفضل[1] !

ثم الدَّليل الذى ليس فوقه دليلٌ ، قولُه وعندَه أصحابُ الشُّورَى وكِبارُ المهاجرين وجِلّةُ الأنصار ، وعِلْيَةُ العرب ، وهو مُوفٍ على قبْره ينتظر خُروج نَفْسه : « لو كان سالمٌ حيًّا ما تخالجنى فيه الشَّكُّ » . وسالمٌ مولًى امرأةٍ من الأنصار ، وكان حليفاً لأبى حُذَيفة بن عُتبة بمكة ، فلذلك كان يقال : مولى أبى حذَيفة ؛ لأنَّ حليفَ الرّجل مولاه .

(١) انظر ما مضى فى ص ١٧٨ — ١٧٩ .

فإن كان هذا لا يدلُّ على التّباعُد من الحَميَّة والأعرابيَّة والعصَبيّة ، ولا يدلُّ على التّسويَة ، فما عندَنا ولا عندَ أحدٍ شيءٌ يدل على شيء ! وإذا كان هذا مذهبَه وقولَه فى الخلافةِ فما ظنُّك به فيما دونَ الخلافة ؟ !

وهذا بابٌ إن استقصيناه كثُرَ وشغَل الكتابَ . وفيما قُلْنا مَقْنَعٌ لمن كان الحقُّ له مَقْنَعا ، والصَّواب له مَألَفا .

فهل يقدرُ أحدٌ أن يَحكى عن علىٍّ مثلَ الذى حكينا عن عُمرَ فى التّسوية ، أو شَطره ؟!

إنَّ أكبر ما رأينا فى أيديكم عنه قوله : « إنّنى قرأتُ ما بين دفّتَى المصحفِ فلم أجدْ فيه لبنى إسماعيلَ على بنى إسحاقَ فضلا » .

فهذا قولٌ إنْ قاله علىٌّ فليس فيه دليلٌ أنّه أراد به الطّعن على عُمر وإظهارَ خِلافه ؛ لأنَّ عليا قد مَلَكَ أكثر الأرض خَمْسَ حِجج ، فلو كان رأيهُ فى خلاف عمر على ما تصفون ، وكان عمرُ عنده لا يرى التّسوية فى العَطاء ، لقد كان غيَّر دواوينَ عمرَ ، وبدّلَ أعطيته وفُروضه وحوّلها إلى الحقِّ عنده ، أو نطقَ فيها بحرفٍ ، أوْ أظهر ذلك فى هيئته[1] إن لم ينْطق به خطيبا ومحتجّا .

وكيف يكون ذلك ولا أحدَ أعلمُ بصواب ما دبَّرَ عمرُ فى ذلك من علىٍّ ؟ ! وكيف يكون عمرُ لا يَرَى التّسوية وقد صنَع صنيعاً لو قام مقامَه أشدُّ الناس سَعْياً — ما لم يَجُر عن الحقِّ ويَعدِلْ عن السَّداد — ما كان عنده ولا فى طاقته أكثر منه .

والعجب أنّكم تزعمون أنَّ عليًّا كان يرى التسوية ، وأنَّ عمر صاحبُ

---

(١) فى الأصل : « هيئه »

حميَّة ، فأنتم ترون أنَّ أكثر احتجاجه إنَّما كان بذِكر قرابته وأمتن أسبابه ومُصاهرته ، مع أنَّ القرابةَ هي التي أخرجتْكم إلى هذا الإفراط كلِّه . فأنتم تحبُّون بني هاشم وتفضِّلونَهم للقَرابة ، وتوجبون لهم الإمامة للقرابة . ثمّ تزعمون أنّ عليًّا كان يرى أنّ ولدَ إسماعيل وإسحاق سواء ، وكان يرى أنّ العرب والعجم سواء .

وكيف غضبتم على عُمر لأنه فضَّل قُريشاً على العرب ، والعربَ على العجم ، ولم تَغْضَبوا على أنفُسكم حينَ فضّلتم بني عبد المطّلب على بني هاشم ، وفضَّلتم بني هاشم على بني عبد شمس ؟ !

ففَضِّلوا أيضاً بني عبد شمس على سائر قُصَيّ ، وسائرَ قُصَيّ على سائر كعب ، وسائر كعبٍ على سائر قريش ، وكذلك سائرَ قريش على سائر مضر ، وكذلك سائر مَضر على ربيعة ، وربيعةَ على ولد إسحاق ، وولد إسحاقَ على ولد قَحْطان .

وإنْ شئتم ففضِّلوا ربيعةَ على اليمن ، واليمنَ على العجم . وإذا أنتم قد دخلتم في كلّ ما عِبْتم .

فأمَّا أنَّ تفضِّلوا مَن شئتم على من شئتم — وإن كان من لم تفضِّلوا في القياس كمن فَضَّلتم — فليس ذلك لكم ؛ لأنّ القياس قد اعترض دون مَشيئتكم وقضَى عليكم .

ولو أنّ قائلاً قال : أنا أزعم أن الناس كلَّهم بَعد بني عبد المطّلب لصُلبه سواء ، كما قلتم إنّ الناس كلَّهم بعد بني هاشم سواء ، ما كان[1] الذي قال أمَسّ بالرّسول وأولَى بالحكم . فإن قلتم : فمن أين كان له أن يقف على

(١) في الأصل : « كما أن » .

جدُّ عبد المطَّلب وليس بينه وبين هاشمٍ إلا أب ؟ فيقال لكم[1] : وكيف كان لكم أن تقفوا على جدّ هاشمٍ وبين هاشم وعبد مناف أبٌ واحد ؟ وكيف كان لكم أنْ تقطعوا التَّفضيل وحقَّ القرابةِ من لدن هاشمٍ ، وهاشمٌ وعبدُ شمسٍ أخوانِ لأم وأب ؟ ! ولذلك قال الشاعر :

عبد شمسٍ كان يتلو هاشماً   وهما بعــدُ لأمٍّ وأبِ

فاجعلوهُ يتلو هاشماً فى حقِّ القرابة واستحقاق الإمامة . وإذْ جاز عندكم أنْ تتخطّى الإمامةُ العمَّ إلى ابن العمِّ كان [ذلك] فى الأخ للأم وللأب .

ثم زعمتم أنَّ الدَّليل على أنَّ عمر صاحبُ عصبيّةٍ وحميّة ، ردُّه لسَلْمانَ حينَ خطبَ إليه ابنتَه ، وسلمان كان أعقلَ من أن يخطب إلى أبى بكرٍ وعمرَ وعثمان وعلى .

قلنا : جوابنا فى هذا فى خِطْبته إلى علىّ ، وإنْ كان علىٌّ أشرفَ موضعاً . مع أنَّ القائم عن سَلْمان أنّه كان يقول : قال لى النبىّ صلى الله عليه : « يا سَلمانُ لا تُبغض العربَ فتُبغضَنى » . وكان يقول : أُمِرْنا أن نأتمَّ بكم ولا نؤمَّكم ، وأمرنا أن نُزَوِّجَكم ولا نتزوَّج منكم .

فليس فى الأرض متعرِّبٌ وصاحبُ عصبيّةٍ إلاّ وأكبرُ ما يحتجُّ به فى المناكح حديثُ سَلمان .

وقد تمنعُ الأشرافُ عقائلَ نسائها لأسبابٍ غير التَّحريم ، لا يكون ذلك عيباً عليهم فى آدابهم ، ولا نقصًا فى أديانهم .

وفى قول علىٍّ يوم الجمل حين رأى عبدَ الرَّحمن بنَ عتابٍ صريعاً : « شَفَيتُ نَفْسى وجدَعتُ أنفى . قتلتُ الصَّناديدَ من بنى عبد مناف

(١) فى الأصل : « قال لكم » .

والمتنى[1] الأعيان من بنى جُمَح ! » فقال له رجلٌ : لشدّ ما جَزِعتَ عليه يا أمير المؤمنين ! قال : « إنّه قد قامت عنّى وعنه نِسوةٌ لم يَقُمْن عنك » دليلٌ أنّه قد كان يرى للأمّهات قدراً كثيراً ، وللمناكح خطراً عظيما .

وفى كراهته أن يتزوّج المقدادُ ضُباعةَ بنتَ الزّبير ، حتّى كان من النبيّ إليه الذى كان ، دليلٌ على شدّة تدبيره .

وإنّما ينبغى أن يقضىَ بين أصحاب محمّدٍ مَن قد عرف أمورَهم فى جميع مُتَقَلَّبهم ؛ لأنّه غيرُ مأمونٍ على المتكلّم إذا قلّ سماعُه أن يخرجه الجهلُ [إلى] استصغارِ بعضهم أو تضليله[2] والبراءة منه ، فيَهلِكَ هلاكَ الدّنيا والآخرة .

وإنّ أغنَى النّاس أن يكونَ أصحابُ محمّدٍ خصُومَه لأنتم معشرَ أصحاب النّظر والمتكلمين .

والذين نَحَلُوا عمرَ العصبيّة رجلان : رافضىٌّ أحبّ أن يَمقُتَه إلى العَجَم والموالى ، ومتعرِّب عرفَ أنّ عمر عند الناس قُدوة ، فنَحَله ذلك ليكونَ له حجّة . فاعرفْ ذلك .

وأمّا ما ذكروا من أنّ الزّبير خرجَ شادًّا بسَيفه يوم السقيفة ، فإنْ كانوا صادقين فإنّ هذا لهو الطيْش والتسرُّع إلى الفتنة ، وتهييج النّاس على إظهار السلاح .

---

(١) كذا فى الأصل . وانظر أنساب قريش ١٩٣ .

(٢) فى الأصل : « تصلبه » .

وإنّما أتى أبو بكرٍ الأنصارَ واعظاً ومحتجًّا ، ومسكِّناً ومصلحًا بألينِ الـكلام وأحسَنِ الهَـدْى ، لم يَحمِل سوطاً ولا سَـيفًا ، ولم يُظهرْ مُعازّة ولا أرادَ المغالبة[1] . فما وجه خُروج الزُّبير بسَيفه شادًّا نحوَه ؟ ! بل كان أشبهُ الأُمور بالزُّبير وأولاها به ، والذى يجبُ علينا أن نظنّه به ، أن يقوم محتجًّا ومُصلِحا ؛ فإذا أبانَ عن حُجّته وأعذَرَ فى موعظته فلم يرَ ذلك ناجعاً[2] ولا مقبولا ، ورأى شيئًا يجوزُ به حَمْلُ السَّيف والشّدُّ به ، كان مِن وراء ذلك .

وكيف علمتم أنّ الزُّبيرَ إنّما سلّ سيفَه ليؤكِّد لعلىٍّ إمامتَه أو ليوطِّئ له خلافته ؟ ! ولعله إنّما أراد الأمرَ لنفسه دونَ غيره . ولعلّه إنّما غضب لصرف الأمر عن خاله وكبيره وشَيخه العبّاس بن عبد المطلب . فكيف علمتم أنّه إنّما أراد صَرْفها عن أبى بكرٍ خاصّة ؟ ! وكيف يشدُّ على رجلٍ لم يَقُل بايِعونى ، ولا أظهرَ الحرص عليها ، وإنّما كرِه أن يبقى النّاسُ نَشَرًا ، وعلِمَ أنّ على الأنصار أن يسمَعوا للمهاجرين ، وقد قال للناس : « بايعوا أىَّ هذين شئتم » ، يعنى أبا عبيدة وعمر . إلاّ أن يكون الزُّبير قال : ولِمَ كنتَ أنت المحتجَّ على الأنصار والمعرِّف لهم فضلَ المهاجرين عليهم دونَ علىّ .

ويقال لهم عند ذلك : أمّا بادِى الرأْىِ والذى لا نَشكُّ فيه نحن ولا أحدٌ ممّن خالفَنا ، فالذى كان من مُناصَبة الزُّبير لعلىٍّ ومحاربتِه له دونَ الإمامة ، وزَعمِه أنّه أفضَل منه وأولَى بها منه ، ولو جَعَلها شُورَى لفرَعَه وبرَّزَ عليه .

---

(١) فى الأصل : « معارة إلا أراد المغالبة » . والمعازة : المغالبة فى العزة .

(٢) فى الأصل : « ناجيا » .

ثم الذى لا يشُكُّ الناسُ فيه من طاعته لعمر ، وإنَّما عمر شعبةٌ من شعب أبى بكر . ولقد بلَغ من تعظيمه لعمَر وطاعتِه له وإكبارِه لقدره ، أنَّه محا نَفْسه من الدِّيوان لما قُتل عمرُ تَسَلُّباً عليه[١] ، ورفعًا لقَدْره أن يلىَ منه من الإعطاء والمنع أحدٌ كما كان يليه منه عمر. كما محا نفسَه من الدِّيوان حَكيم بن حِزامٍ لما تُوفِّى النبى صلى الله عليه . وكذلك محا نفسَه منَ الديوان عبدُ الله بن الزُّبير حين قُتل عثْمان .

ولقد بلَغ من طاعتِه لعمر أنَّه بعثه مَدداً لعَمرِو بن العاص ، فجعل عَمْراً الأمير عليه ينفُذ لأمره ويصلِّى بصلاته .

والذى يدلُّك على انبتاته[٢] فى هوَى أبى بكر ، وانقطاعِه إليه بمودّته ، الخاصَّةُ التى كانت بين أبى بكر وبينه . وذلك أنَّ عبد الله بن مسعودٍ أوصَى إليه حين ماتَ . وعبدُ الله عُمَرىٌّ محض ، وهو القائل فى عُثْمان حين برّز على الشورى : « ما ألَوْنا أنْ جعلْناها [فى أعلا]نا ذا فُوق[٣] فإذا كان هذا قولَه فى عثمان وعلىٍّ فما ظنُّك به فى أبى بكرٍ وعُمَر[٤] » .

ثم أوصى إليه عثمان بن عفَّان [و] هو أصل العمريَّة والعُثْمانية ، والمباينةِ لعلىٍّ وشيعته عندهم . وأوصى إليه عبد الرحمن بن عَوف ، وهو المختار

---

(١) التسلب : الإحداد . (٢) فى الأصل : « انبثاثه » .

(٣) فى الأصل : « نادى فوق » والتكملة والتصحيح مما سيأتى مما سأنبه عليه ، ومما استضأت به من اللسان ، ففيه مادة (فوق ١٩٥) : « وفى حديث ابن مسعود : اجتمعنا فأمرنا عثمان ولم نأل عن خيرنا ذا فوق » أى خيرنا سهما فى الإسلام والسابقة والفضل . ذو الفوق ، بضم الفاء ، هو السهم . وفوقه : موضع الوتر منه .

(٤) فى الأصل : « وعلى » .

لعثمان على علىّ ، وصاحبُ أبى بكر ، والدّافع بالموسم فى خلافة أبى بكر من بين جميع المهاجرين .

هذا مع أسباب الزّبير الواشجة بأبى بكر : فمن ذلك إسلامه على يديه ، واحتماله مؤونته فى مصاهرته ، حيث رغب إليه فى تزويج ابنته أسماء ذات النطاقين ، فولدت عبد الله — وعبد الله كنيته أبو خُبَيب — وعُروة وغيرهما . وكان عبد الله أولَ مولود ولد فى الهجرة ، فسمّاه الزّبير باسم جدّه أبى بكر ؛ لأنّ اسم أبى بكر عبد الله ولقبه عتيق ، وإنّما لقب بعتيق لعتق وجهه ودقّة محاسنه . ثم كنّى الزّبير بأبى بكر بكنية جدّه ، فكان عبد الله بنُ الزّبير يكنى أبا بكر تيمّنا منهم بكنيته وتبرّكا باسمه .

وقالت عائشة رضى الله عنها : ألا تكنّينى يارسول الله ؟ قال : « بلى ، اكتنى بابنك » يعنى عبدَ الله بن الزّبير . فكانت عائشةُ تُكنى بأم عبد الله . ولذلك كانت تقول : قال ابنى ، وفَعَل ابنى ، وكادوا يوم الجمل أن يقتلوا ابنى .

فيقال للرّافضة : أمّا العِيان والوُجود فهو الذى خبّرنا كم به . وأمّا ما ادّعيتم من [أنّ] الزّبيرَ سلّ سيفاً ليؤكّد إمامة علىٍّ فقد ينبغى أن تأتُوا على ذلك ببرهان . فأمّا معاداة الزّبير له ومحاربتهُ إيّاه وفخرُه عليه ، فهذا مالا يُدْفع عنه . ولقد فَخَر عليه حين دعاه إلى الشّورى وأبى ذلك عَلِىّ فقال : أسلمتُ بالغاً مدرِكاً وأسلمتَ ناشئاً طفلا ، وكنتُ أوّل من سلّ سيفاً فى الإسلام ببطن مكّة وأنت مستخفٍ فى الشّعب يكفُلك الرّجالُ ويمونُك الأقارب من هاشم ، وكنتُ فارساً وكنتَ راجلاً ، وكنتُ شجاعاً وكنتَ

بطَلَا . ولئن كنتَ تزعُم [أنَّك ابن عمِّه] إنِّى لابنُ عمَّته[١]. وأنا عابر البَحرِ يومَ الحَبَشة ، وفى هيئتى نزلت الملائكةُ ، وأنا حَوَارِىُّ رسول الله صلى الله عليه وفارسُه .

خبَّرنى بهذا الكلام أبو زُفَر[٢] عن ضراب[٣] ، أنَّ الزُّبيرَ كان احتجَّ به .

وخَبَّرنى جماعةٌ من العثمانية عن محمد بن عائشة[٤] ، أن الزُّبير كان احتجَّ به ، وقد سَقَط عنّى بعضُه لطول العَهد بسماعه .

وقالت (العثمانيةُ) : العجبُ أنَّ الروافضَ ربَّما احتجت علينا بأنَّ الزُّبير سَلَّ سيفَه ومضى قُدُماً فى تأكيد بيعة علىٍّ وخَلْع سواه ، ونقص من أبى بكر .

فيقال لهم : فمَا منعكم أنْ تقولوا لمَّا مات النبى صلى الله عليه وجَحَد السَّلفُ إمامةَ علىّ : كفر الناس خلا خمسةَ نفر[٥] أوَّلهم الزُّبير فى نفسه وفَضيلته على غيره . وأكبر ما كانَ منه من سَلِّ السيف والشَّدُّ به ، وهذا موقفٌ لم يَقفْه بلالٌ ولا أبو ذَرّ . وأنتم على ثِقةٍ أنَّ

---

(١) فى الأصل: «لابن عمه» ، والوجه ما أثبت ، فإن أباه الزبير والدته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله .

(٢) أبو زفر ، ذكره فى لسان الميزان ٦ : ٣٧٩ وقال : « ذكره ابن النديم فى مصنفى المنزلة » . وليس فى النسخة المطبوعة من الفهرست .

(٣) ضراب ، آخره باء فى الأصل . ولعله « ضرار » آخره راء ، وهو ضرار بن عمرو صاحب الضرارية . انظر حواشى الحيوان ٥ : ١٠ .

(٤) هو محمد بن حفص . انظر حواشى الحيوان ٢ : ١٢ .

(٥) انظر ما مضى ص ١٨٠ س ٥ — ٧ .

ذلك كانَ ، وأنَّ السَّيف لم يُحمل إلا لنُصرة علىٍّ دونَ العبّاسِ وجميع بنى عبد مناف وماوَلَدَ قُصَىٌّ .

وكيف لم يكن أدنَى منازل الزُّبير أن يكون قد كان مؤمناً وليًّا إلى أنْ جَحَد إمامة علىٍّ بعد مقتل عثمان ، فيكون سبيلُه شبيهاً بسبيل حُذَيفةَ وعمّار ؛ لأنّهما كانا عندكم كافرَينِ حتّى تابا فى زمن عثمان ، فكان يكون الزُّبير مؤمناً إلى أن كَفَرَ عند مَقتل عثمان .

وإنّما صار حذيفةُ وعمّارٌ عند الرافضة وليَّينِ لأنّهما قالا بزَعمِهم : والله ما دخل عثمانُ حُفرتَه إلّا كافرا ، وإنّه لَجيفَةٌ على الصِّراط يومَ القيامة ، يتأذّى به أهلُ الجَمْع .

فإنْ كانوا إنّما صاروا إلى تَوَلِّيهِما بعد إكفارهما من أجل تصديق هذا الحديثِ فإنَّ الذين رَوَوه هم الذى رَوَوْا أنّهما قالا : والله ما دخل عثمان حفرتَه إلاَّ كافرا ، وإنّه لَجَيفةٌ على الصِّراط يتأذّى به أهلُ الجَمْع ، وإنّه لا يلى هذا الأمر بعد عُمَرَ إلاَّ كلُّ أصفرَ أبْتَر ! فإنْ كانا قد تابا بقولهما الأوّل لقد ارتدّا بقولهما الثّانى حين قالا : وإنّه لا يلى هذا الأمرَ من بعد عُمَرَ إلاَّ كلُّ أصفرَ أبتر .

ولو لم يكن ذلك كذلك بل كانا مرتدَّين فتابا فتولَّيتموهما عند توبتهما وعادَيْتموهما قبل ذلك على طاعتهما لعمر ، فما بالُكم لم تقولوا مثلَ ذلك فى الزبير أنه لم يزلْ مؤمناً حتّى جَحَد إمامةَ علىّ بَعْدُ ؟! مع أنَّ سلَّ الزُّبير سَيْفَه ، وعَدْوَه نحو أبى بكر وأصحابه ، وقولَ عمر : « دونَكم الكَلْبَ » حتّى أخذ سيفه وخَطَرَ ، إنّما هو حديثٌ وَجدْناه فى بعض السِّيرة ، وليس من الأخبار المستفيضة ، وليس مما يحقّقه أصحاب الحديث .

وإنْ قالوا : فما قول أبي بكر في خطبته التي خطب بها في أول خلافته : « وُلِّيتُكم ولستُ بخيركم » ؟ وهل يخلو هذا القولُ من الصِّدق والكذب . فإنْ كان صِدقاً فهو خلافُ قولِكم في تفضيله على جميع أئمَّتكم ، والرَّجلُ كان أعلمَ بنفسه وبأهل دهره . وإنْ كان كاذباً فأيُّ كذبٍ أقبحُ مِن كذبِ إمامٍ عَلَى منبرِ جماعة ؟ ! ومَن أحقُّ بألّا يليَهم ويحملَ إمامةَ دينهم ودُنياهم مِمَّن يكذِب على مِنبر الرَّسول من غير أن يُكرهَه أحدٌ أو يُريدَه عليه ، أو يكون في تَقِيّةٍ تخائف السَّوط والسَّيف ؟ ! بل مايدعوه إلى الكذب ، والكذبُ مقبَّح في العقلِ مقبَّح في الدين ، ولم يكن هناك رهبة تسوقُه ولا رغبةٌ تقوده ؟ ! على أنَّ كذب الرّعيةِ[١] أسخفُ وأقبحُ ، وهو لايخلو من أن يكون صادقاً فلا يسعَه أن يتقدّم مَن هو خيرٌ منه وقد مكّنه تقديمه ، أو يكون كاذباً[٢] فالقولُ فيه على ما قُلْنا .

قلنا : إنَّ (العثمانية) تذكرُ لذلك وجوهاً :

فمنها : أنَّ الحسَنَ كان يقول : والله أعلمُ أنّه كان خيرَهم ، ولكنَّ المؤمنَ يهْضِم نَفْسَه . فزعم الحسنُ أنّه إنّما تهضَّمَ نفسَه ووَضَع منها لأنَّ الخَلَف المُشفِق كثيراً ما يُزرِي على نفسه ويَعيب عليها ويستبطئها[٣] ، ويُظهِر المقتَ لها والخوفَ عليها . فهذا كان مذهب الحسَن .

وأمّا قَتادةُ فزعمَ أنَّ قوله : « وليتُكم ولستُ بخيركم » إنّما أراد في الحسب ، ليعلمهم أنَّه إذ يَليهِم بالحسَب فإنّما وليهم بالسَّابقة ، لأنّهم

---

(١) أي الكذب على الرعية . (٢) في الأصل : « كذبا » .

(٣) هذه الكلمة تامة الإهمال في الأصل .

قد كانوا أكثروا من قولهم : أرضيتم معشرَ بنى عبد مناف أن تلى عليكم تَيم ؟ ! وأراد فى أوّل مَقامٍ قامَه أن يُعلِمهم [أنّ] ذلك المقامَ لا يُنَال بأن يكون صاحبُه خيرَ الناس حَسَباً ومركّبا ، إنّما يُنال بأن يكون خيرَ النّاس عِلماً وعملا .

وأمّا غيرُهما فزَعَم أنّ مِن عادة الخائفين الوجِلين المُشْفقين أن يقول الرّجُل منهم : كلُّ أحَدٍ خيرٌ منّى ؟ ثم يبكى على تضييعه ، ويستعظم صغيرَ ذنوبه كأنّه ليس فى الأرض مُذْنِبٌ سواه . وأكثرَ ما يقول ذلك عند ذكر بعض ذنوبه أو عندَ بعض ما يعارضه به الشّيطان والإنسان ، من تزكيته وتقريظه وإظهار تفضيله لنَفْسه وإحسانه ، والعُجْب[1] بحاله . لأنّه ليس بعد أن يرى العبدُ أنّ ذنبَه من قِبَل ربّه مذهبٌ هو أعظمُ من استكبار الطاعة واستصغار المعصية . فعند ذلك يعارضه المؤمنُ بتقريع نَفْسه وتأنيبها ، وتوقيفها على ما فرَط منها ، وتذكيرِها مساويها ، واستعظام كل ما كان من تقصيرها وإساءتها ، واستصغار كلّ ما كان من عظيم إحسانها وطاعتها ، فيقول : كلُّ أحدٍ خيرٌ منّى . وما أشبَهَه من الكلام .

وهذا الضّربُ من اللّفظ ، إذا كان على هذا الوجه فليس فى مَجرَى الكذِب وقولِ الزُّور . وإن كان القائلُ : « كلُّ أحدٍ خيرٌ منّى » خيراً من كل أحد .

فكأنّ أبا بكرٍ لمّا خَطَب النّاسَ وقامَ مقامَ رسول الله صلى الله عليه ، وسلّمَ عليه المهاجرون والأنصارُ وعِلية قريشٍ وسادةُ العرب قياماً على أقدامهم ، وصفوفاً على مراتبهم ، يقولون : السّلامُ عليك يا خليفةَ رسول الله

---

(١) فى الأصل : « ولعجب » .

وأُلقِيتْ إليه أزِمَّةُ الأمور ، وأعطَوه المَقَادةَ ، وأُسمِحت نفوسُهم له بالطاعة وقد صرفوها عن القرابة وعن أهل الشَّرَف ، رأى بسطة عَيْشِه[1] من عِزِّ الخلافة وبأوِ الإمامة ، مالا يعرف قَدرَه غيرُه ، ولا تأتى الصِّفةُ على كُنْهه . وللشَّيطان[2] هناك مَداخل ومَخاتل ، ودَسٌّ وتحريك وطمعٌ ، ليس يَقوَى بشَرىٌّ على دفع تلك الفتنة ، وتسكين تلك الحركَة ، والنُّهوض بتلك المحنة ، إلا بغاية الزَّرْيِ على النَّفس والهضْم لها ، والبَخْس والتخوُّن منها ، وتناسِى ذِكْر جميع محاسنها ، واجتلاب ذكر جميع مساويها . فبالحرَى إذا صَنع ذلك أن يردَّ من غَرْبه وطوائح نَفْسه ، وحركة هِمَّته ، وانتشار عزمه ، وانتقاض عِزَّته .

وهذه حالٌ لا يُمتَحن بها إلا الخلفاء ، ولا يُختبر بها إلاَّ الأئمة الهُدَى ؛ لأنَّ معهم من قوَّة المُنَن ومن فُضول الأحلام ، وشدَّة الورع وكثرة العلم ، وثبات النفس ، والمعرفة بما أداه الطائح ، وإماتة الشَّهوات ، وقمع ... ما يقام به موربه[3] مكايد الشيطان وتمظيم الإنسان ، وعِزِّ السُّلطان . والنَّفسُ لا تُسمِح بإعطاء ما عليها حتّى تمنَعَها مالَها .

وإنْ كان قول أبى بكر : « وُلِّيتكم ولست بخيركم » إنَّما أراد به مداواة قلبه ، والزَّرْىَ على نَفْسه فليس بكذبٍ وإن كان خيرهم ، إذْ كان إنما أراد إصلاحَ قلبه ، وعلاج دائه ، والبُعْدَ من تقرير القوم بنَقْصهم عن فَضْله ، والفَخْر عليهم بتبريزه . فإنَّما أراد أن يكون سبيلُه سبيلَ من يُظْهر التعلُّم إذا عَلِم ، وسبيلُ من يتواضع إذا عَظُم . فجَمَعَ بذلك حسنَ الأدب ، والبُعد

(١) فى الأصل : « واسطه عسه » .

(٢) فى الأصل : « والشيطان » .

(٣) كذا وردت هذه العبارة ناقصة محرفة .

من التزّكية ، والتّحبّب إلى المستمع ، والتّواضع لربّه ، والمداواةَ لقلبه ، والظَّفَر بعدوّه ، وإحرازَ دِينه .

وقد يكون إخلاصُ ظاهرِ لفْظه على شىء ومعناه غيره ، فلا يكونْ ذلك كذباً ، لمعرفة القائل بفَهْم المستمع عنه . وهذا بابٌ كثيراً مايستعمله العرب .

يقول الرجُل لامرأته : ألقيتُ حبْلكِ على غاربك ! وهو يعنى طلاقها وليس هناك حَبْلٌ أُلقِيَ على غارب .

ويقول : مالى فى هذا الأمر ناقةٌ ولا جَمَل ! وليس ذلك يُريد . و : لست منها فى عِيرٍ ولا نَفير ! وليس ذلك يُريد .

وقال عُمَرُ فى الصَّداق مابلغكم ، فلما احتجّت عليه المرأة بقول الله : « وآتيتم إحداهنّ قِنطاراً فلا تأْخذُوا منه شيئاً[١] » قال : كل أحد أفقه من عمر .

وهذا القول ينبغى أن يكون على قياسكم هذا كذباً . ولا نعلمُ أحداً رواه عن عُمر إلا على التفضيل له . ووجهه قائمٌ معروف .

فإن قالوا : مامعنى قول أبى بكر : « بايعوا أىَّ هذين شئتم » ، يعنى عُمر وأبا عبيدة .

قيل لهم : إنَّ أبا بكرٍ إنَّما قال هذا الكلام للأنصار ومن حَضَر بعد أنْ قرَّر الأنصار يفضل المهاجرين عليهم ، وأنَّ الأمراء منهم . فعلم عند ذلك أنه بائنٌ عند الأنصار من جميع المهاجرن كما بانَ عند المهاجرين

---

(١) الآية ٢٠ من سورة النساء . وفى الأصل : « وإن آتيتم » ، وهو تحريف .

ولكنه كان سائساً رفيقا ، فكرِه أن يقول بايعونى ، ليكونوا هم الذين يطلبون منه ذلك ويُريدونَه عليه ، ويظْهرون حبَّ تقديمه ؛ لتكون النفوسُ بطاعته أسمح ، وفيها أرغَب ، ولمذهبه أحمد ، ولأنَّ ذلك عندهم أبعَدُ من الاستبداد عليهم ، والافتيات بالأمر دونهم ، والحرصِ على التأمُّرِ عليهم . ولذلك مشى فى الناس بعدَ بيعتِه ثلاثاً يقول : هل من مستقِيل ٍ فيقال ؟

وقد قال فى خطبته بعد البيعة :

وقد كانت بَيعتى فَلتةً ، وخشِيت الفتنة . وايم الله ماحَرَصْتُ عليها يوماً ولا ليلة ، ولا سألتها الله فى سِرٍّ ولا علانية ، ومالى فيها راحة . وقد قُلِّدْتُ أمراً عظيما مالى به طاقة ، ولوددتُ أنّ أقوى الناسِ عليها مكانى .

ألا تَرَى زُهدَه فيها[1] ، وقلة حرصه عليها ، وكيف يُخبِرُ أنه لو لم يَخْشَ الفتنة ماقبِلها ، ولَوَدَّ أنَّ أقوى الناس عليها مكانَه ؟!

وقوله « لوددت أنّ أقوى الناسِ عليها مكانى » ، يقول : وددت أنه لو كان فى الناس مَن هو أقوى عليها منى . ليس[2] أنه يرى أنّ فى الأرض يومئذ رجلاً هو أقوى عليها منه .

ومثلُ هذا فى كلام العرب كثير .

وقال الراجز[3] وذكر إبله فقال ، إذا كانت عليها مَغارِضُها[4] :

---

(١) فى الأصل : « ألا ترى فى زهده فيها » .

(٢) فى الأصل : « فليس » .

(٣) هو أبو محمد الفقعسى . اللسان (غرض) .

(٤) جمع مغرض ، كمجلس ، وأصله جانب البطن أسفل الأضلاع ، وهو مايقع عليه الغرض وهو حزام الرحل . وقد عنى به الجاحظ الأغراض . ويبدو أن هذه العبارة مقحمة ، وموضعها بعد .

* يشربْن حَــتّى تُنْقِض المَارِضُ[1] *

يقول : يشربن حتى لو [كانت عليها مغارضها[2]] سمعت لها نقيضا . والبعير لا يُورَد وعليه غَرْضُه وبطانُه .

ثم رجعنا إلى الحديث الأوّل

فــكأنّ أبا بكرٍ حين قال : « بايعوا أىّ هذين شئتم » عَلِمَ أنّ عمر وأبا عبيدة لايستجيزان تقدُّمه والتأمُّرعليه ، كما بلغنا من قول عُمر فى أبى بكر ، يومَ جمع المهاجرين والأنصار يستشيرهم فى غزْو الروم حيثُ خالفوه وأبى أبو بكرٍ إلاّ إنفاذ ذلك الجيش والتعريف لهم بالحجة[3] فيه ، حين يقول : « الحمد لله الذى يخصُّ بالخَير من يشاء من خلقه . والله مااستَبَقْنا إلى شىء من الخير إلاّ سَبقَنا إليه ، ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وقال أيضاً يوم السّقيفة حين قال أبو بكر : بايعُوا أىّ هذين شئتم : « والله لأنْ أقدَّمَ فتضربَ عنقى أحبُّ إلىّ من أن أتقدّم أبا بكر » . وقال : « والله لأن أُضجَع فأذبح كما يذبح الجمل أحبُّ إلىّ من أن أتقدم أبا بكر ! » .

ولقد بلغ من تعظيمه له وتقديمه إيّاه ، أنه قال حين سُئِلَ عن الـكلالة : « والله إنى لأستحى الله أن أرى خِلاف رأىِ أبى بكر » .

وأنت لم تجد أبا عبيــدة تقدّمه فى موقفٍ قطّ ، وقد وجدتَ أبا بكرٍ قد تقدّم أبا عبيدة فى مواقف كثيرة ، فى حياة رسول الله صلى

---

(١) فى أساس البلاغة : « حتى تنتأ » .

(٢) انظر التنبيه ٤ من الصفحة السابقة .

(٣) فى الأصل : « الحجة » . وانظر ص ١٠٥ س ٨ — ٩ .

الله عليه وبعد وفاته ، كما حكينا لك قبل هـذا . ولم نجدْ ذكر أبي بكرٍ وعمر في موضعٍ قطُّ إلاَّ وأبو بكرٍ المقدّم عليه ؛ مع مقامات لأبي بكرٍ شريفةٍ ليس لعمَرَ فيها ذكر .

فبينَ أنْ يكون أبوبكرٍ يأمرهم بذلك أمراً أو يطلبَ إليهم طلبا ، وبين أن يجعله إليهم فيكونوا الطّالبين له والرّاغبين إليه ، وليكونَ ذلك من تِلقائهم وطِيب أنفسهم ، فرقٌ عظيم .

وأيّةُ بَيعة أثبتُ من بيعــةٍ عقدها عمر والنبيُّ يقول : « ضُرب بالحقِّ على لسانه » و « الشيطان يَفْرق من حِسِّه[1] » و « اللهمَّ أعزَّ الإسلام بعمر » ؟ ! وأيّةُ بيعة أثبتُ من بيعة عقدها أبو عبيدة والنبي يقول : « لـكلِّ أمةٍ أمينٌ وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

وأيّةُ بيعةٍ أثبَتُ من بيعةٍ عقَدَها عبدُ الرحمن بن عوفٍ وقد سمَّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأمين[2] » . فإذا كان أمينُ رسول الله صلى الله عليه في أمّته ، والفاروق الذى فَرَق الله به بين الحقّ والباطل ، حيثُ قال : « لا يُعبَد الله سرّاً بعد اليوم » قد عَقَدا بيعته وأكّدا أمره[3] ، فما عسى أن يبلغَ قول قائل ؟ ! ولو كان ذلك عن مواطأةٍ من

(١) في الرياض النضرة ١ : ٢٠٨ في حديث المرأة الأنصارية : « فقامت بالدف على رأس النبي صلى الله عليه وسلم فنقرت نقرتين أو ثلاثا ، فاستفتح عمر فسقط الدف من يدها وأسرعت إلى خدر عائشة . فقالت لها عائشة : مالك ؟ قالت : سمعت صوت عمر فهبته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان ليفر من حس عمر » .

(٢) انظر السيرة ٤١٠ جوتنجن ، لقول رسول الله في شأنه : « ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين » . وفي الرياض النضرة ٢ : ٣٠٨ : « إن لـكل أمة أمينا وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح . أخرجه البخارى ومسلم . وأخرجه الترمذى وأبو حاتم ، ولفظهما : لـكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة ... » .

(٣) في الأصل : « عقد بيعته وأكد أمره » . وإنما هما أبوعبيدة الأمين ، وعمر الفاروق .

أبى بكر لأبى عبيدة كما واطأ معاويةُ عمرو بن العاص ، ما استعملَ عليه خالدَ بن الوليد أميراً أيّامَ حياته حتّى عزَله عمرُ بن الخطاب ، ولكان كما صنع معاويةُ بعمرٍو حين أطعَمه مصر .

وأيّةُ بَيعةٍ أثبتُ من بَيعةٍ عقدها عبدُ الله بن مسعود ، والنبى صلى الله عليه يقول : « رضيتُ لأمّتى ما رضِىَ لها ابنُ أمّ عَبْد ، وكرِهتُ لها ما كرِهَ ابنُ أمّ عبْد[1] » . فإذا رضىَ ابنُ أمّ عبدٍ بيعةَ رجلٍ فقد رضيَها النبىُّ عليه السلام ، إذْ كانَ النبىُّ قد قال : « رضيت لأمّتى ما رضى لها ابن أمّ عبدٍ ، وكرهتُ لها ما كره ابنُ أمّ عبد » .

ولقد بلغ من تقديمه لأبى بكرٍ وعمر وعثمانَ أنّه قال عند اختيارِ النّاس لعثمان : « ما ألَوْنَا أنْ جعلناها فى أعلانا ذا فُوق[2] » .

ولقد بلغ من تعظيمه لعُمر وتقديمه له ، أنّهَ قال : « لقد خشِيتُ اللهَ فى حبِّ عمر » . وقال : « ما صلّينا ظاهرين حتّى أسلم عمر » . وقال بعد موت عمر : « إنّ عمرَ كان للإسلام حصناً حصيناً يدخُل النّاسُ فيه ولا يخرجون منه ، فلمّا مات انثلم ذلك الحصن فصار الناسُ يخرجون منه ولا يدخلون فيه » . وقال : « إذا ذُكر الصالحون فحىَّ هَلاً بعمر[3] » .

فإذا كان عمرُ وعثمانُ من أتباع أبى بكر وشيعته وأوليائه ، وهذا قولُه فيهما ، وتفضيله لهما ، فما ظنُّك به فى أبى بكر ؟!

---

(١) انظر ما مضى فى ص ٨٦ ، ١٤١ .

(٢) انظر ما مضى فى ص ٢٢٣ . وكتبت فى الأصل : « اعلى نادى فوق » .

(٣) أى ابدأ به وعجل بذكره .

ولو أنّ رجلاً واحداً مِن نحو مَن ذكَرْنا عقد لعلىٍّ إمامةً ، أو نطق فيه بكلمةٍ ، لأكلت الشِّيعُ والرّافض هذه الأمّة فضلاً عن أن تحتجّ برضاه واختياره . فهذا هذا .

ثم الذى نقلوا إلينا(١) من تثبيت علىٍّ بيعةَ أبى بكر . وذلك أنّهم قالوا : لمـا بُويع أبو بكر وبايعَه علىٌّ وبنو هاشم ، قام أبو بكرٍ فطافَ فى الناس ثلاثاً يقول : « أيُّها الناس ، قد أقلْتُكُم بَيعتى » ! قالوا : يقول علىٌّ مِن بين الناس : « والله لا نُقيلك ولا نَستقيلك ، قدّمَك رسول الله صلى الله عليه تصلّى بالناس فمن ذا يؤخِّرك ؟ ! » .

ثمّ الذى نقله النّاسُ عن علىٍّ حين قال على منبره : « ألاَ إنّ خيرَ هذه الأمة أبو بكر ، والثانى عُمر ، ولو شئت أن أخبركم بالثّالث فعلت » .

ونقلوا جميعاً أنّ عليًّا قال : بينا أنا يوماً عند رسول الله صلى الله عليه إذْ أقبَلَ أبو بكر وعُمر فقال النبي : « هذانِ سيِّدا كهُولِ أهلِ الجنّة من الأوّلين والآخرين ، ما خلا النبيِّين والمرسَلين ، لا تخبرهما بالذى قلتُ يا علىّ » . قالوا : قال علىٌّ : لولا أنّهما قد ماتا ما حدّثتكم .

قال الشّعبي : قال علىّ : « إنّ أبا بكرٍ كان أوّاهاً مُنيباً ، وإنّ عمر ناصَحَ الله فنَصَحه الله » .

ونقلوا أنّ عليا قال — ودخَلَ على عُمر وقد ماتَ وهو مسجًّى —

---

(١) فى الأصل : « نعلوا الينا » .

فقال : رحمك اللهُ يا عمر ! والله ما أحدٌ أحب إلىَّ أن ألقى الله بمثل صحيفته مِن هذا المسجَّى صاحب السَّرير !

وبلغه أنَّ رجلا تناولَ أبا بكرٍ وعمر ، فقال للرّجل : لو سمعتُ منك الذى بلغنى لألقَيْت أ كثرَكَ شعَراً .

وقال : لو أُتِيتُ برجلٍ يَشتمُهما لجلَدتُه حَدَّ المفترِى .

ثم الذى نقله جميع أصحابُ الآثار أنَّه قال : كنتُ إذا سمعت مِن النبي صلى الله عليه حديثاً نفعَنى الله بما شاء منه ، فإذا حدَّثنى غيره عنه استحلفته ، فإذا حلَفَ لى صدَّقته . وإنَّ أبا بكر حدَّثنى — وصدقَ أبو بكر — حدَّثنى أنَّ النبى صلى الله عليه قال : « ما مِن رجلٍ يُذنب ذنباً فيتوضَّأ فيُحسِن الوضوء ثم يصلِّى ركعتين ويَستغفر الله إلاَّ غُفِرَ له(١) » .

ألا ترى كيف أوردَه بالتّصديق وقِلَّة التُّهمة ، وأقامَه مقامَ التقليد ورَفْع الاسترابة .

فهذا مذهبُ علىٍّ فيهما وتعظيمُه لهما .

ثم الذى كان من تزويجه أمَّ كلثوم بنتَ فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه ، مِن عُمر بن الخطَّاب ، طائعاً راغباً ، وعمر يقول : إنِّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّه ليس سببٌ ولا نسبٌ إلّا مُنْقطع ، إلاَّ نسبى » . قال علىّ : إنها والله ما بلَغَتْ يا أمير المؤمنين . قال : إنى والله ما أريدُها لذاك ! فأرسلَها إليه فنظر إليها قبل أن يتزوَّجها ،

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٨٤ .

ثمَّ زوَّجها إياه ، فولدتْ منه زيدَ بن عُمر ، وهو قتيل سُودانِ مَرْوان[1] ، فلما أَتى النَّعىُ أمَّ كلثوم كِمَدتْ عليه حُزناً حتى ماتت ، وقالت : واحَرَبها ! قُتِل أبوها علىّ بن أبى طالب ، وقُتل زوجُها عمر بن الخطاب ، وقُتِل ولدها زيد بن عمر .

ثم تسمية علىٍّ أولاده بأسمائهم ، كما يتبرَّكُ الرَّجلُ بأسماء أئمّته وقادَته ، حين سمَّى بعُمر وعثمان وأبى بكر ، فأعقب عُمر ولم يُعقب أبو بكر وعُثمان .

ثم الذى كان من قَبوله ولايةَ عمرَ حين استخلفه على المدينة ، ومضى عمرُ مُعسكراً يريد جيش مِهْران[2] بعد وقعة قُسِّ الناطف[3] فأتاه علىٌّ إلى مُعَسكَره فأشار عليه فيمن أشار[4] بأنَّ الرَّأىَ أن يرجع إلى المدينة ولا يلقاهم بنفسه وحدَه ، بل يكون للمسلمين فِيئة[5] . فرجع عمر .

وإنما أراد عمر بذلك تحريك النَّاس ليجدُّوا ويَعزموا .

فإن قالوا : هذا كلُّه باطل ، أو قالوا : إنَّ هذا الذى حكيتموه وإنْ كان حقًّا فإنما كان على التَّقية . فقد قلنا فى ذلك أجمعَ بالذى يكتفى به .

والعجب أنهم يوجبون على النَّاس تصديقَهم أن سلمان قال : « كَرداذ

---

(١) انظر نسب قريش ٣٥٢ — ٣٥٣ ، ٢٧٢ وجمهرة أنساب العرب ١٤٧ .

(٢) هو مهران بن باذان الهمذانى القائد الفارسى ، وكان عربى الأصل نشأ مع أبيه باليمن إذ كان عاملا لكسرى . وروى الطبرى ٤ : ٧٨ أنه قال فى تلك الحرب :

إن تسألوا عنى فإنى مهران   أنا لمن أنكرنى ابن باذان

عسكر الرجل والجيش : كان فى المعسكر . وفى الطبرى ٤ : ٨٣ : « خرج عمر حتى نزل على ماء يدعى صرارا فعسكر به » .

(٣) كانت فى سنة ١٣ .

(٤) انظر خبر هذه الشورى فى الطبرى ٤ : ٨٣ — ٨٤ .

(٥) أى مرجعا .

ونكرداذ[١] » وأنّ الزُّبير خرج شادًّا بسيفه ليؤكّد إمامَة علىّ ، وأنّ الأنصار إنّمَا خالفت عَلَى المهاجرين نقضًا من استبداد أبى بكر[٢] ، وأنّ أبا سفيان بن حَربٍ ، وخالد بن سعيد ، إنّمَا قالا : « أرضِيتم معشر بنى عبد مناف أن يلى عليكم تيم » ، نصرةً لعلىٍّ دون جميع بنى عبد مناف ؛ فإنّ الله ردّ عليه الشّمس[٣] ، وإنّ النبى قال : « أنت منّى بمنزلةِ هارون من موسى » ، وجعل إليه طلاق نسائه ، وأنّه قسيم النار[٤] ، وصاحب العَرْض ، والقائمُ على الحوض ، فيُوجبون علينا أن نصدّقهم فى هذا ولا يُوجبون على أنفسهم لحُمّال الآثار أنّ عليًّا قال فى الخَلِيّة والبريّة ، والبائنة ، والبتّة ، وطلاق الحَرَج ، وأمرُك بيدك ، والحرام ، أنها كثلاث تطليقات . ويوجبون عَلَى طُلّاب الحديث أنّ عليًّا كان لا يرى الطّلاق إلا طلاقَ السُّنّة .

وهذا أمرٌ ما سمِعنا به قطُّ عن علىٍّ إلاّ منهم .

وليس بأعجب من استشهاد خُصومهم العِيانَ والإجماع وما عليه الوجود ، واستشهادِهم القَصد والضّميرَ والغيب ، وجعلهم له يوازن الظاهر والشّائع .

وذلك أنّ القائل إذا قال : أسلم أبو بكر كهلا وأسلم علىٌّ طفلا .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ١٧٢ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) فى الأصل : « أبى بكر على » .

(٣) فى الرياض النضرة ٢ : ١٧٩ : « عن الحسن بن على قال : كان رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجر على وهو يوحى إليه فلما سرّى عنه قال : يا على ، صليت العصر ؟ قال : لا . قال : اللهم إنك تعلم أن كان فى حاجتك وحاجة نبيك فرد عليه الشمس . فردّها عليه فصلى وغابت الشمس . خرجه الدولابى قال : وقال علماء الحديث : وهو حديث موضوع ولم ترد الشمس لأحد ، وإنما حبست ليوشع بن نون » .

(٤) كذا فى الأصل .

قالوا : كان علىٌّ وهو ابن سبع سنين أرجحَ عقلا من أبى بكر وهو ابن إحدى وأربعين سنة . فتركوا العيان وعارضوا الشَّاهد بالغائب .

وإنْ قال قائل : إنّ أبا بكر كان مع النبيّ فى الغار وقد نطقَ به القرآنُ وثبّته الإجماع . قالوا : فإنّ عليًّا أباتَه النبىُّ على فراشه .

وإن قلت : إنّ النبى سمّى أبا بكر بالصديق تفضيلاً له ولم يجعل له اسمًا يفضِّله به . قالوا : بَلى ، قد كان النبيُّ سمّاه الصِّدِّيق الأكبر ، ولكنّ الناس منعوه ذلك وظلموه ، حين لم يُسيِّروه ويُشِيعوه .

وإن قلتَ : إنّ النبى اشتكى أيامًا ولياليَ ، كلّ ذلك يأمر أبا بكر بالصَّلاة ، وهو حاضرٌ ولا يأمره . قالوا : لأنّ عليًّا كان مشغولاً بتمريضه .

وإنْ قلت : إنّ الناس لما افتتنوا بعد موت النبى وعظموا شأنَه حتى دعاهم الإفراطُ إلى أن قالوا : لم يمت ، ولكنّه يغيب مثل ما غاب موسى عن قومه . فكان أبو بكر هو المتكلِّمَ والمحتجّ والمحاميَ حتى عرّفهم الحقّ وتنبّهوا من الوَسْنة . قالوا : لأنّ عليًّا قد كان اشتدّ حزنُه حتى قطعه عن الاحتجاج والتعريف .

فإن قلت : حين أظهرو الفُرقة والدّارُ دارُهم ، لو تركهم أبو بكر ولم يعرّفْهم فضل المهاجرين عليهم ، لكان فى ذلك أشدُّ الفِتنة وأكبرُ الفساد ، فعاجَلَهم وتجرّدَ للاحتجاج عليهم ، حين كان كلُّ إنسانٍ همُّه همُّ نفسِه ، وعلىٌّ بمعزلٍ حتى كأنّه كان غائبًا . قالوا : لأن عليًّا قد كان عرَف حسدَ قريش وبغيَها عليه ، وطاعتَها وحبَّها لأبى بكر ، فلم يكنْ ليقدحَ فى غير مَقْدَح ، أو ينفُخَ فى غير فَحَم .

فإن قلنا : إنّ إظهارَ عليّ الرّضا بالشُّورى دليلٌ على طاعة عمر .

قالوا : إنَّما ذلك للتقية .

فإن قيل : فلِمَ رضى بعبد الرّحمن مختاراً وعبدُ الرّحمنِ عنده من عدوِّه ، وأدنى منازلِه أن يكون كان مخوفًا عِنده ، وأدنى من ذلك أن يكون الغلطُ غير مأمونٍ عليه .

قلنا : وهَلاَّ أظهر من الخلافِ شيئًا يُسيِّر إلينا ، وهلّا نطقَ بحرفٍ واحد بقَدْر ما يتَّخذُه الناسُ بعدُ حُجَّة ، ولم يكن بلغَ أقصى خلافِهم فيُرَى وعيداً أو إيقاعًا .

فإنْ قلت : إن عليًّا قال لأسماء بنتِ عُمَيس — وهى يومئذ امرأته — حين تفاخر ولدُها من أبى بكرٍ وجعفرٍ وعليٍّ عندها : اقضِى بينَ ولدِكِ . فقالت : ما رأيتُ شابًّا كان أطهرَ من جعفر ، ولا رأيت شيخًا كان أفضَلَ من أبى بكر ، وإنّ ثلاثةً أنتَ أخَسُّهم لفُضَلاء[1] ! فلم يُنكِر ولم يحتجَّ ، ولم يفرق[2] ولم يتعجَّب ، والكلام يُؤثَر والقضيّة تَظْهر .

قالوا : إنّ فضلَه أظهرُ فى النّاس من أن يحتاج إلى الاحتجاج ، وإنَّما قالت ذلك مازحةً ، كما تمزح المرأةُ مع زوجها وتَحرِّشُ به[3] .

فإن قلتَ : إنّ علياً قد بايع أبا بكر وأعطاه صفقته طائعا غير مكره والحكم السابقُ من الله ورسولِه أنّ المدّعَى عليه إذا أقرّ ولم يُنكر ، ولم يرِ الوالى أثَرَ جنونٍ ولا إكراها ، أن إقراره جائزٌ عليه ، فكذلك

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٩٥ .

(٢) الفرق : الجزع . فى الأصل : « ولم يعرف » .

(٣) التحريش : الإغراء . فى الأصل : « وتخرش به » .

عليٌّ إذا كان قد بايع وليس على رأسه سَيف ولا سوط ، فحكمه حكم الراضى المسلِّم .

قالوا : قد كان هناك إكراهٌ ظاهر ، ولكنّ الناسَ تكاتموه وأخفَوه فيما بيننا وبينهم ، إذْ كان الجمهور الأكبر معهم .

فإن قلت : قد صَدّقناكم فى قولكم إنه قد كان فى تقيّةٍ من أبى بكر وعمر وعثمان ، أرأيتم أيّامَ سلطانِ نفسه ومعَه مائةُ ألفِ سيفٍ تطيعه وأهلُ الأرضِ كلُّهم رعيّتُه ماخلا الشّام ، لِمَ كان يُظهر تزكيةَ أبى بكرٍ وعمرَ على مِنبره وفى مجلسه ؟

قالوا : للتقيّة من رعيته ، إذ كان أكثرُهم على هواهم وطاعتهم .

قلنا : قد عرَفْنا أنّ تركه لعنهم والبراءةَ منهم والإخبارَ عن استبدادهم وظُلمهم ، على التّقية ، فما حمَله على تزكيتهم والإخبار عن محاسنهم ، والرِّواية الحسنة فيهم ، وقد كان له فى السُّكوت سَعة ، وعن الكلامَ مندوحة ؟! ولقد تمدّى فى مديح أبى بكرٍ وعمر حتى قال لابن طلحة : إنِّى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله : « إخواناً على سُررٍ متقابلين » .

وإن قلنا : إنّ فى تسميته بَنيه بأسمائهم دليلٌ على تعظيمه لهم .

قالوا : لأنه قد كان علم أنّ شيعته سيحتاجون فى آخر الزمان إلى الترحُّم على أبى بكرٍ وعمرَ وعثمان ، تقيّةً من شيعتهم ، فسمّى بنيه بأسمائهم ، حتّى يكون ذلك الترحُّم واقعاً عليهم ، ولأنْ يَنصِبَ لهم مَن إذا قصدوا إليه بالترحُّم أصابوا الحقّ ولم يحتاجوا إلى الإلطاط[1] .

---

(١) الإلطاط : الدفاع ، والاشتداد فى الخصومة .

وإنْ قلنا : إنَّه زوَّجَ عمرَ غير مُكرَه[1] ، ولا شيء أدلُّ على الخاصَّة والصَّفاء من المشارَكة والمصاهَرة .

قالوا : قد كان هناك توعُّد وتخوُّف ، وقد قال بعضُهم : إنَّ هذا باطلٌ وإنّ عليًّا لم يزوِّجْ عمرَ قطُّ . ونُبئت عن بعضهم أنَّه قال : قد كان ذلك على التقيَّة ، ولـكن الله صانَها فأخفاها ورفعها .

فقيل له : نُخبِرُنا عن التى رأوها فى منزل عُمر وعلى فراشه ، وولدت منه زيداً ، ما هى ؟ وأىّ شىء كانت ؟

قال : شيطانةٌ فى صورة امرأة .

وإن قلت لهم : كيف زعمتم أنَّه كان أشـدَّ أهلِ الأرض قلبًا ، وأنتم تزعمون أنَّه كان يتّقى كلَّ شىء ، حتى ليُسْلِم حرمتَه إلى كافر من غير أن يُشهرَ عليه سَيف أو يُضرَب بسَوط . وقد رأينا مَن هو فى دون حالِه فى النّجدة والشَّجاعة ، والحميَّة والبصيرة ، يمتنع حتى يُقتلَ فى دونِ هـذا . وقد تعلمون أنَّه لم يُكلَمَ ولم يُخدَش ، فضلاً على أن يُجرَح ويُقتَل ، فى جميع المقامات التى زعمتم أنَّه إنمَّا استجاز واستحل من التَّقية .

وأعجبُ مِن جميع هذا أنّا رأيناكم تزعمون أنَّ أبا بكرٍ وعثمان كانا من أجبنِ البريّة وأبعدِه من حميَّة ، وقد رأينا صنيعَ أبى بكر فى الرِّدَّة كيف نَهض بالقليل فى محاربة الـكثير ، وكيف أشارُوا عليه بأن يستمينَ بجيش أسامة حتى إذا رَدّ الردة أعادَ الجيشَ إلى حاله . وكيف قال لهم حين قالوا له : إنَّا قد أمِنَّا غزْوَ الرُّوم إيّانا فى يومنا هذا ، ولسنا نأمَن مع ارتداد جميع العرب أن نُغزَى فى عُقْر دارنا ! قال : لو بقيتُ حتّى يأ كلنى

---

(١) انظر ما مضى فى ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

الـكلابُ وحدي ما أخّرتُ جيشاً أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنفاذه .

ثمّ رأينا عثمانَ ، وهو عندكم أضعفُ من أبي بكرٍ وأجبن ، قد كان محاصَراً مُعطّشاً مخذولاً قد قهَره عدوُّه ، والسيوفُ تلمع على بابه ، وقد أفضَوْا إلى داره ، وتسلّقوا عليه من خَوخته(١) ، وهم يريدون نفْسَه أو خلعَ الخلافةِ من عُنقه ، فصـــبرَ حتّى قُتِل كريماً محتسِباً وهو يقول : « لا أنزِع قميصاً قمّصَنيه الله ! » ، وهو يرى الجِدّ وليس معـه أمانٌ من قِبَله .

وقد يزعمون أنّ عليًّا قد كان يعلم أنّه لا يُقتَـل ولا يموت حـتّى يقاتل النّاكثين والقاسطين والمـارقين ، ومع ذا يزعمون أن الله(٢) قد كان أسرّ إليه علم كلّ ما يحدُث في هذه الأمّة من الفتن والهَيْج . وهذا لا يُشْـبِه اتّخاذَه أبا موسى حكَماً عليه وله ، مع غَباء(٣) أبي موسى وعَداوتِه كانت له ، ولا سيما إذا قرنَه بعمرو بن العاص . وماظنك برأى عمرٍو وقد كان فيه معونه(٤) .

فنى جميع ما قلنا دليلٌ على أنّ القوم إما أن يكونوا(٥) مالـكين لأهوائهم .

فإن قالوا : ما الدّليل على إسلام أبي بكر فضلاً على تقديمه وتفضيله ومباينته ؟ ومن أينَ لـكم أن تزعموا أنّه قد كان مُسلِما وأنتم وخصومكم مجمِعون على أنّه قد كان كافراً ، ثم ادّعيتم أنه قد أسلمَ بعد كفره وأنـكر ذلك خصومُـكم ، فليس لـكم أن ترجعوا عمّا اجتمعتم عليه إلّا بإجماع منكم

---

(١) الخوخة : كوة فى البيت تؤدى إليه الضوء .
(٢) فى الأصل : « الذى » .
(٣) فى الأصل : « عبا » بالإهمال .
(٤) كذا فى الأصل .
(٥) كذا فى الأصل . والوجه « لم يكونوا » .

يوازنه . وقد ينبغى أن تطَّرحوا موضعَ الفِرقة وتَقْضُوا بموضع الجماعة ، وقد جامَعتمونا أنَّ عليًّا لم يزلْ مؤمنا .

قيل لهم : إنَّا لو كنَّا عرفنا أنَّه قد كان مرَّةً كافراً من قِبَلِ خبر أصحابنا ومجامعةِ خصومهم لهم ، وكان علمُ ذلك لا يُصاب إلّا بمجامعتهم لأصحابنا ، لقد كان الذى قلتم واجباً وقياساً صحيحا . ولكنَّا عَرَفْنا أنَّه قد كان كافراً بقدرٍ من الخَبَر قد يكذِّب مثلُه[1] ، وبه ثبت عندنا أنَّه قد كان فى الدُّنيا ، فضلاً على أن يكون كان له فِعلٌ يسمَّى كفرا وإيمانا . وإنَّما الحجة فى المجىء الذى لا يكذِّب مثله ، ثم لا نَلتفت بعد ذلك إلى موافق ولا إلى مخالف ، ولا إلى عَقل ولا إلى نظر . ثمَّ نظرنا فإذا الوجهُ الذى منه علمنا أنَّه قد كان فى الدُّنيا ، منه علمنا أنَّه قد كان مرَّةً كافرا ، و [هو] الوجهُ الذى منه علمنا أنَّه قد أسلم بعد كفره . ولو أنَّا عرفنا كُفره بنا وبخصومنا ، لما عرفنا إيمانَه إلّا بنا وبهم .

ووجهٌ آخرُ من الجواب : أنكم قد جامعتمونا على أنَّه قد كان يَشهد الشَّهادة ، ويأكل الذَّبيحة ، ويُظهر الإسلام ، فى حيثُ النِّفاقُ مستخفٍ وثوبُ الإسلام داجٍ[2] ، والكفرُ ذليل والإسلام عزيز ؛ [ثمَّ] ادَّعيتم بعدَ أن أقررتم أنَّه قد كان يُظهر الإسلامَ فى دار الإسلام ، أنَّه كان مُستسِرًّا بالكفر ، وأنَّه كان من المؤلَّفة قلوبُهم .

فالواجب بالقياس أن يُحكَم له بالإسلام على ظاهر ما اجتمعنا عليه من جملته ولا ندعُ موضعَ الإجماع إلى قولكم وحدَكم : إنَّه قد كان إسلامه

---

(١) فى الأصل : « لا يكذب مثله » .

(٢) دجا : الإسلام : قوى وألبس كل شىء ، كما يدجو الليل ، إذا تم وألبس كل شىء .

على نفاق ، لأنّ الجماعةَ لا تنزِل إلى فِرْقة ، ولأن الحجّة لا تُترك إلّا بحُجّة .

فإن قالوا : فإنّ أبا بكرٍ لم يشهد قطُّ الشّهادة ، ولا صلى [إلى] القبلة .

قلنا : ما تقولون فى رجلٍ رأيناه كافراً فى دار الكفر ، ثمَّ رأيناه بعد ذلك فى دار الإسلام وفى زىِّ أهله ، وحكم الإسلام غالٍ ، ومعلومٌ أنَّ مِن عادة أهلِه قَتْلَ من كفر ، كيف يكون حكمُ ذلك الرجل ؟

فإن قالوا : ولكنا نقف فى مغَيَّبِه .

قلنا : اجعلُوا أبا بكرٍ ذلك الرجل .

فإن قالوا : فإن أبا بكرٍ لم يزلْ يُظهر الكفر فى دار الإسلام ، كما كان يظهر الكفر فى دار الكفر .

قلنا : لا بدَّ لكُفره من وجهين : إمَّا أن يكون كان يظهره على عهدٍ وذمّة فلذلك لم تقتلوه . أو يكون كان على غير عهدٍ وذمّة .

فإنْ ادَّعَوا أنَّ كفره كان على عهدٍ وذمّة كما جعل الله ورسولُه للنَّصارى ولليهود ، خرَجوا إلى مالا نحتاج مع فُحْشه إلى الكلام فيه . وإنْ زعموا أنّه كان على غير عهدٍ وذمّة وحكم الإسلام ظاهرٌ ، فما أشبهَ هذا القول بالقول الأوّل .

ويقال لهم : خبِّرونا عن أبى بكر ، هل يخلو من أن يكون لم يقلْ قطُّ فى دار الإسلام : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أو يكونَ قد قال ذلك مرّةً واحدة ؟

فإنْ زعموا أنّه قد قالها مرّةً واحدة ثم تركها ، قيل لهم : فقد أقررتم وجامعتم خصُومكم على أنّه قد شَهِد الشهادة ، فليس لكم أن

تخرجوه إلى نفاقٍ أو إلى تركٍ ، إلّا المجامعة خصومكم لـكم ، إذْ كانت الفرقةُ لا تنقض الجماعة .

فإن قالوا : فإنّه لم يقل لا إله إلا الله محمد رسول الله مرّةً قطُّ من دهره ، لاعلى نفاق ولاعلى غيره ، بل كان يظهر عبادة الأصنام ، ثم مع ذلك سلم على حكم الـكتاب والسُّنّة ، وعلى حكم الدّار . فليس عندنا فى ذلك إلا إسقاطُه وتحريمُ كلامه وإمضاء حكم مثلِه فيه .

بل قد ثبت إسلامُه بعد الوجوه التى ذكرتها بوجوه :

منهـا أنّ الله أثـنى على عباده الصالحين ، نخصّ بتفضيله السّابقين والمهاجرين الأوّلين ، وقد اجتمعت الأمةُ أنّه من المهاجرين الأوّلين مع فضيلة هجرته ، إذْ كانت هجرتُه وهجرةُ رسول الله صلى الله عليه معاً . فهذا وجه .

ثم الذى رأينا مِن ذكر الله وثنائه على أهل بدرٍ . وقد أجمَعَ المسلمون أنّه كان ممن شهِد بدراً ، مع ما فَضَل به من الـكَون فى العريش ، ولا موضعَ أدلّ على الخاصّة من ذلك الموضع فى ذلك الموقف ، مع ماشَهِد به من مُستجيبيه وعُتقائه ومواليه . ولقد بلَغَ من قدر من شهد بدراً أنّ عامة الفقهاء تحدِّث أنّ الله « اطّلَع على أهل بدرٍ فقال اعمَـلُوا ما شئتم » فلذلك كانَ الحسنُ يقول : إنّ طلحة والزّبير وعليّاً فى الجنة معاً وإن لم يكونوا كانوا[1] فى الدنيا ، لأنّهم عُتَقاء الله من النّار ، ولم يكن الله ليَعتِق عبداً ثم يعيدَه فى رِقّه . ولذلك كان الحسن ، وحَوشبٌ ، وهاشمٌ الأوقص ، وبكرٌ ابن أختِ عبد الواحد ، يقولون إذا ذكروا يومَ الجمل : « هلـكت الأتباع ونجت القادة » . فهذا هذا .

(١) فى الأصل : « نوا » بالإهمال .

ثم الذى كان من ذِكر الله وحُسْن ثنائه على مَن بايَعَ تحت الشّجرة .

وأىُّ شىء أعجبُ من اجتماع السَّلف مهاجريِّها وأنصاريِّها خلا أربعة نفر على تقديم رجل فى مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى فى أبشارهم وأشعارهم وفروجهم وأموالهم ، ويحمل أماناتِهم ، ويَدْعونه خليفةَ رسول الله ، حتّى تترك(١) الشريف المطاع ذا السابقة والقَدَم وتولِّىَ مكانَه الخامل القليل المقصّر، فلا يرادُّ ولا يُدَافَع ، ولا يُرَاجَم ولا يستفهم ، وهو المعروف عندهم بجحد الرسول وعبادة الأوثان ، وليس بذى عشيرةٍ منيعة .

ولا يستطيع أحد أن يزعم أنّه قد كان واطَأَ العشائر ليصرفوا إليه عونهم على أن يؤْثِرهم(٢) ويفضِّلَهم . ولو كان ذلك لظهر عِلمُه ولم يخْفَ أثرُه . ومثل هذا لا يُستطاع كتمانه وستَره وترميله .

وكيف وقد سوّى بين الرّفيع والوضيع ، والذّليل [و] المنيع !! فلم(٣) يؤْثِر قريباً ولم يوَلِّ نسيبا .

ولو استعانَ بطلحةَ وولاَّه وفضَّله لقد كان لذلك موضعاً ، وللولاية والتّقديم أهلا ، بل صنَع ضِدّ ما يصنعُه أصحاب المَيل والأَثَرَة ، والعصبيّة والمواطأة .

ولو كان قريبَ القرابة لجاز(٤) لقائل أن يقول : إنما قدّم لقرابته .

ولو كان عصبيّةً لقالوا : إنما استحقّ بوِراثته .

ولو كان منيعَ الرهط لقالوا : إنما قدِّم لكثرة قبيلته .

---

(١) فى الأصل : « سول » بالإهمال .

(٢) فى الأصل : « بوربهم » بالإهمال .

(٣) فى الأصل : « فمن لم » .

(٤) فى الأصل : « وجاز » .

ولو كان استعمالَ بقومٍ على مواطأةٍ وشريطةٍ ، كصنيع معاوية بذى الكَلاَع وعمرو بن العاص ، لقالوا : إنما قدَّم رهبةً ممَّن واطأه ، ورغبةً فيمن أكَّدَ هواه .

[و] ولّى بنى مخزومٍ أعناقَ العرب وقِتالَ أهل الرِّدَّة ، وحرب مسيلمة ومحاربةَ طُلَيحة ، دون رهطِه ولو ولّى ذلك طلحةَ لكان لذلك أهلا ، ولكنَّ الطاعن قد كان يجد سبباً .

وكذلك عمرُ بن الخطاب لو كان أدخَلَ فى الشورى سعيد بن زيدٍ كما كُلِّمَ فى ذلك ، وأدخَل فى الرُّقباء عبد الله بن عُمر كما كُلِّمَ فى ذلك ، لكان لذلك أهلا ، ولكنَّ الطاعن قد كان يجد متعلَّقا .

وولى خالدَ بن الوليد حربَ مسيلمةَ وطُلَيحة وبنى تميم وأهل البادية ، وولى عِكرمةَ رِدَّةَ عُمَان ، وولى المهاجرَ بنَ أبى أميَّة رِدَّة أهل نُجَيرٍ واليمن . وما زال عمر يعاتبُه فى خالدٍ فيقول أبو بكر : « لا أَشِيمُ سيفاً سلَّه الله على الكُفَّار » . فهذا هذا .

والعجب[1] لهذه الأمة كيف اختلفت فى رجلين أحدهما خير خَلْق الله ، والآخر شرُّ خلق الله . وكيف اختلفت فى رجلين أحدهما لم يزَلْ مؤمناً والآخر لم يزل كافرا ، ثمَّ كان المقدَّم الخسيس الكافر ، على الرفيع المسلم ! [وهم] أصحابُ القرآن وخاصَّةُ الرَّسول من الصَّحابة والبدريِّين والأنصار والمهاجرين ، وهم الذين قالَ فيهم التَّابعون : خيرُ هذه الأمَّة أصحابُ محمد صلى الله عليه ! ابتُلوا فصَبروا ، وأُنعِمَ عليهم فشكَروا .

---

(١) فى الأصل : « والعجب » فى هذا الموضع والموضعين بعده .

والعجب كيف رأوا[1] تفضيل علىٍّ على أبى بكرٍ وعمر مديحاً له . وإنما كان يكون علىٌّ عاليا رفيعاً متقدّما زاهداً عالما سائسا أنْ لو كان أفضلَ مِن فضلاء ، وأعلمَ من علماء ، وأعقلَ من عقلاء ، وأزهد من زُهّادٍ ، وأسْوَسَ من ساسة . فأمّا أن يكون أفضَلَ من أنقص النّاس ، وأزهَدَ من أرغب النّاس ، وخيْراً من شرّ الناس ، وأعلمَ من أجهل النـاس ، فليس فى هذا التّفضيل دَرَكٌ فيتكلّفَه متكلِّف ، ويقوم به قائم .

والعجب من رجلين بينهما هذا التّفاوتُ والتّباينُ ثم شهد المتكلّمين[2] من سمعهما يتنازعان فيهما ، فيحسب الحاضر أنّ شرّهما خيرها ، وهو الأريب الأديب الذاهب مع التعارف عن التناكر . وكيف التبس الأمرُ وأشكل أن لم يكن الأمرُ مشكلا مُلتبسا .

وكيف يجوز أن يكون أبو بكر لم يزل كافراً ، أو يكونُ كفر بجَحده إمامة على وكفر معه المهاجرون والأنصار ، وقد أجمع أصحابُ الأخبارِ وحُمّال الآثار أنّ النبى صلى الله عليه قال : « إنّ من أمّتى سبعين ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب » ، فقام عُكّاشَة بن مِحْصَنٍ فقال : يا رسول الله ، ادعِ الله يجعلنى منهم . قال : أنتَ منهم . فقُتلَ مع خالد بن الوليد يوم بُزَاخَة فى إمْرة أبى بكرٍ وطاعته والإقرار بخلافته ، قتَلَه طُليحة بن خُويلدٍ الأسدى . فكيف يجوز أن تكون إمامةُ أبى بكر مَعصيةً فضلا على أن تكون كفرا والمقتولُ فى طاعته والنقادُ لأمره من أهل الجنّة .

ثمّ تزعم الرّوافض أنّ من الدّليل على أن عليًا كان المُحِقّ دونَ طَلحة والزّبير ، أنّ النبى صلى الله عليه [قال] وذُكِر زيدُ بن صُوحان : « زَيد

---

(١) فى الأصل : « ناوا » .
(٢) كذا وردت هذه العبارة

وما زيد ! يسبقه عضوٌ منه إلى الجنّة » . فقُتِل يومَ الجمل . فجعلوا الدّليل على صواب عليٍّ في قتاله أنّ زيداً قُتِل في طاعته .

قيل لهم : ففي قول النبي « يسبقه عضوٌ منه إلى الجنة » دليلٌ أنّ ذلك العضوَ لم يَسبق إلى الجنّة إلاّ وقد قُطِع في طاعة الله . وقد اجمعوا أن يده قُطِعت يوم نَهاوَنْد ، في طاعةِ عمر .

وهذا بابٌ كبير إنْ تتبّعه متتبِّع ، ولكنّا أردنا أن ندُلّ على جميع الأبواب في تفضيل الشّيخين ، ونَفْي التنقُّص عنهما[1] .

وإن سألَ سائل فقال : هل على الناس أن يتّخذوا إماماً وأن يُقيموا خليفة ؟

قيل لهم : إن قولكم « الناس » يحتمل الخاصّة والعامّة . فإن كنتم قصدتم إليهما ، ولم تَفْصِلوا بين حالَيهما ، فإنّا نزعم أنّ العامّة لا تعرف معنى الإمامة وتأويلَ الخلافة ، ولا تَفْصِل بين فضل وجودها ونقص عدمها[2] ولأيّ شيء ارتدّت ولأيّ أمرٍ أمّلت ، وكيف مأتاها والسبيلُ إليها . بل هي مع كلِّ ريحٍ تهبّ ، وناشئة تنجُم[3] ، ولعلّها بالمُبْطلين أقرّ عيناً [منها[4]] بالمحقِّين . وإنّما العامّة أداة للخاصّة ، تَبتذلها للمهَن ، وتزَجّي بها الأمور ، وتطُول[5] بها على العدوّ ، وتسدُّ بها الثُّغور . ومَقام العامّة من الخاصّة مقامُ جَوارح الإنسان من الإنسان ؛ فإن الإنسان إذا فكّر أبصر ، وإذا أبصرَ عزَم ،

(١) بعد هذه الكلمة يبدأ اختيار جديد في نسخة المتحف البريطاني المرموز إليها بالرمز (ب) وسأنبه على نهايته من بعد .

(٢) في الأصل : « عزمها » ، صوابه في ب .

(٣) في الأصل : « وناسمه نشخص » وأثبت ما في ب .

(٤) التكملة من ب .

(٥) ب : « تصول » .

وإذا عزم تحرّك أو سكن وهدأ[١] بالجوارح [دون القلب . وكما أن الجوارح[٢]] لا تعرف قَصْد النّفس ولا تَرَوِّى فى الأمور ، ولم يُخرِجها ذاك من الطّاعة للعَزْم ، فكذلك العامّة لا تعرف قَصْد القادة[٣] ولا تدبير الخاصّة ، ولا تَرَوِّى معها ؛ وليس يخرجها ذلك مِن طاعة عَزمها ، وما أبرمَتْ من تدبيرها .

والجوارح والعَوامُّ وإن كانت مسخَّرةً ومدبَّرة فقد تمتنع لعللٍ تدخلها ، وأمور تصرفها ، وأسبابٍ تنقضها[٤] ، كاليد يَعرِض لها الفالج ، واللسان يعتريه الخرَس ، فلا تَقدِر النّفسُ على تسديدها وتقويمهما ، ولو اشتدّ عزمُها وحَسُن تأتّيها ورِفقُها . وكذلك العامّةُ عند نفورها وتهييجها[٥] وغلبة الهوى والسُّخف عليها ، وإنْ حَسُن تدبيرُ الخاصّة وتعهُّد السّاسة . غير أنّ معصية الجارحة أيسر ضرراً وأهون أمراً ، لأنّ العامة إذا انكفت[٦] بالخاصّة وتنكّرت للقادة ، وتشزّنَتْ على الرّاضة[٧] كان البَوار الذى لا حيلة له ، والفناء الذى لا بقاء معه .

وصلاحُ الدُّنيا وتمام النِّعمة ، فى تدبير الخاصّة وطاعة العامّة ، كما أن كمال المنفعة وتمام دَرَك الحاجة[٨] بصواب قَصْد النَّفس وطاعة الجارحة ،

---

(١) فى النسختين : « وهما » .
(٢) التكملة من ب .
(٣) فى الأصل : « العادة » وب « العامة » والوجه ما أثبت .
(٤) فى النسختين : « ينقصها » .
(٥) ا : « ثبورها وتهيجها » .
(٦) كذا فى النسختين ، لعلها « نكثت » .
(٧) الراضة : جمع رائض . تشزنت : تصعبت . والكلمة مهملة فى الأصل . وفى ب « تشربت » تحريف .
(٨) فى الأصل : « الخاصة » صوابه فى ب .

لأنّ النّفس لو أدركت كلّ بُغية ، وأوفت على كلّ غاية ، وفتحت كلّ مستغلِق ، واستثارت كلّ دَفين ، ثم لم يُطِعها اللّسانُ بحسن العبارة ، واليدُ بحسن الكتابة ، كان وجود ذلك المستنبط — وإن جلّ قدرُه وعَظُم خطره — [وعدمُه[1]] سواء .

فالخاصّة تحتاج إلى العامّة كحاجة العامّة إلى الخاصّة . وكذلك القلب والجارحة . وإنّما العامّة جُنّة للدّفع ، وسلاحٌ للقطع ، وكالتّرس للرّامى ، والفأس للنّجار . وليس مضىُّ[2] سيفٍ صارمٍ بكفّ امرئٍ صارم بأمضى من شجاعٍ أطاع أميره وقلّد إمامه ! وما كلْبٌ أشلاه ربُّه وأحمشه كلاّبُه ، بأفرط تنزّقاً[3] ولا أسرعَ تقدُّماً ، ولا أشدّ تهوُّراً ، من جنديٍّ أغراه طمَعُه ، وصاح به قائده .

وليس فى الأعمال أقلّ من الاختيار ، ولا فى الاختيار أقل من الصّواب ، فلُبابُ كلّ عمل اختياره ، وصفوة كل اختيار صوابُه ، ومع كثرة الاختيار يكثر الصّواب . فأكثر النّاس اختياراً أكثرهم صَواباً ، وأكثرهم أسباباً موجبة أقلُّهم اختياراً ، وأقلُّهم اختياراً أقلُّهم صواباً .

فإنْ قالوا : فقد ينبغى للعوامّ ألا يكونوا مأمورين ولا منهيّين ، ولا عاصين ولا مُطيعين .

قيل لهم : أمّا فيما يعرِفون فقد يطيعون ويَعصُون .

فإنْ قالوا : فما الأمر الذى يعرفون من الأمر الذى يجهلون ؟

---

(١) التكملة من ب .
(٢) فى الأصل : « يمضى » ، صوابه فى ب .
(٣) ب : « نزقا » .

قيل : أمّا الذى يعرفون فالتنزيل المجرّد بغير[1] تأويله ، وجُملة الشريعة بغير تفسيرها ، وما جلّ من الخبر واستفاض ، وكَثُر ترداده على الأسماع ، وكُرورُه على الأفهام . وأمّا الذى يجهلون فتأويل المُنْزَل ، وتفسير المجمل ، وغامض السُّنن التى حملتها[2] الخواصّ عن الخواص من حملة الأثر ، وطُلاّب الخبَر ، مما يتكلَّف معرفتُه ويتتبّع فى مواضعه ، ولا يَهجُم على طالبه[3] ولا يقهَر سمعَ القاعد عنه .

والخبر ، خبران: خبر ليس للخاصة فيه فضلٌ على العامّة ، كالصَّلوات الخمس ، وصوم رمضان ، وغُسل الجنَابة ، وفى المائتين خمسة[4] . وخبرٌ تفضُل فيه الخاصة العامة ، وهو كما سنّ الرّسول فى الحلال والحرام ، وأبواب القضـــــاء[5] والطّلاق ، والمناسك ، والبُيوع ، والأشربة ، والكفّارات وأشباه ذلك .

وبابٌ آخر يجهله العوامُّ ويخبِط فيه الحَشْو ، ولا تشمر بمَجزها[6] و[لا] موضع دَائها[7] . ومتى جرى سببُه أو ظهر شىءٌ منه تسنّمَتْ أعلاه ، وركِبَتْ حَوْمته[8] ؛ كالكلام فى القَدَر والتّشبيه ، والوعد والوعيد ،

---

(١) فى الأصل : « بعد » ، صوابه فى ب .
(٢) فى الأصل : « جهلتها » ، صوابه فى ب .
(٣) أى يسهل فهمه . ب « يعجم » تحريف .
(٤) يشير إلى الزكاة .
(٥) هذا ما فى ب . وفى الأصل : « الفضل » .
(٦) ب : « بسرها » .
(٧) التكملة السالفة من ب ودائها هى فى الأصل : « ذاتها » وفى ب « دأبها » والوجه ما أثبت .
(٨) فى الأصل : « حرمة » ووجهه من ب .

لأنّها قد تحجم[1] [عن] دعوى الفُتيا، ولا تتهافت فيها، [ولا] تتسكّع فيما لا يعرف منها[2]، ولا تستوحشُ من الكلام في [التعديل والتجوير، ولا تفرغ من الكلام في[3]] الاختيار والطِّباع، ومجيء الأخبار[4] وكلٍّ ما جرى سببُه من دقيق الكلام وجليلِه في الله وفي غيره .

ولو برز[5] عالمٌ على جادّة منهجٍ وقارعةِ طريق، فنازعَ في النّحو واحتجَّ في العروض، وخاضَ في الفُتيا، وذِكر النُّجوم والحساب، والطبّ والهندسة، وأبواب الصِّناعات، لم يعرِض له ولم يُفاتحه إلّا أهل هذه الطبقات .

ولو نطَقَ بحرفٍ في القَدَر حتّى يذكر العِلْم والمشيئة[6]، والاستطاعة والتّكليف، وهل خَلَقَ اللهُ الكُفرَ وقدَّره ؟ أو لم يخلُقْه ولم يقدِّره لم يبقَ حمّالٌ أغثر[7] ولا يطاف[8] غَثٌّ، ولا خاملٌ غُفْل، ولا غبيٌّ كَهَامٌ، ولا جاهلٌ سفيه، إلّا وقفَ عليه ولاحاهُ، وصَوَّبه وخطّأه ؛ ثمّ لم يرضَ حتّى يتولّى من أرضاه، ويكفِّر من يُخالِف هواه . فإنْ جاراه مُحِقٌّ، أو أغلظَ له واعظٌ، واتّفق أن يكون بحضرته أشكالُه، استَغْوَى أمثالَه[9] فأشملوها فتنةً، وأضرموها ناراً .

---

(١) ب : « عجزت » . والتكملة التالية من ب .
(٢) التسكع : أن يمشى متعسفا لغير وجهة . ب : « ولا تقسم » .
(٣) التكملة من ب .
(٤) ب : « الآثار » .
(٥) فى الأصل : « ولم يرد » ، صوابه من ب .
(٦) هذا ما فى ب . وفى الأصل : « التشبيه » .
(٧) الأغثر . الأحمق الجاهل .
(٨) كذا فى ب ، والحرف الأول مهمل فى الأصل .
(٩) استغواهم : لعق بهم إلى الفتنة .

فليس لمن كانت هذه صفته أن يتحيّز مع الخاصّة . مع أنّه لو حَسُنَتْ نيّتُه لم تحتمل فطرتُه معرفةَ الفصول وتمييز الأمور .

فإن قالوا : ولعلّهم لايعرفون الله ورسولَه كما لا يعرفون عدْله من جوره ، وتَشبيهه بخلقه من نَفْى ذلك عنه ، وكما لا يعرفون [القرآن و[١]] تفسير[٢] مُجمله ، وتأويل منزّله .

قيل لهم : إنّ قلوب البالغين مسخّرةٌ لمعرفة ربّ العالمين ، ومحمولةٌ على تصديق المرسَلين ، بالتّنبيه على [مواضع[١]] الأدِلّة ، وقَصْر النُّفوس على الروِيّة ، ومنعها [عن[١]] الجَوَلانَ والتصرُّف ، وكلّ ماربَث عن التفكير[٣] ، وشغَل عن التّحصيل ، من وسوسةٍ أو نِزاع شهوة ؛ لأنّ الإنسانَ مالم يكن معتوهًا أو طفلًا فمحجوجٌ على ألسنة المرسلين عند جميع المسلمين ، ولا يكون محجوجاً حتّى يكون عالماً بما أُمِر به ، عارفاً بما نُهِى عنه ، لأنّ من لم يَعلمْ فى أى الضّربين سُخْط اللهِ وفى أىّ النوعين رضاه ، ثمّ ركِب السُّخط أو أتى الرّضا ، لم يكنْ ذلك منه إلّا على الاتّفاق . وإنما الاستحقاق مع القصد ، والله يتعالى أن يعاقبَ من لم يُرِد خِلافَه ولم يعرفْ رضاه ، أو يَحْمَدَ من لم يتعمدْ رضاه ولم يقصِد إليه .

ولم يكن اللهُ ليعدِّل صنعتَه ويسوِّىَ أداتَه[٤] ، ويفرق بينه وبين المنقوص فى بنيته وتركيبه ، إلّا ليفرق بين حاله وحال الطّفل والمعتوه .

---

(١) التكملة من ب .

(٢) هذا ما فى ب . وفى الأصل « شفس » .

(٣) ربثه عن الشىء : حبسه وصرفه . فى النسختين : « على التفكير » ، تحريف .

(٤) ب : « آدابه » تحريف .

وليس للمعرفة وجهٌ إلّا لتبصيره[1] وتخييره ، ولولا ذاك لم يكن للذى خُصّ به من الإبانة ، وتعديل الصَّنْعة ، وإحكام البِنْية[2] معنى . والله يتعالى عن فعل مالا معنى له .

وفى قول الله : « وما خَلَقْتُ الجنّ والإنْس إلّا ليَعبُدون » دليلٌ على ما قلنا .

وليس لأحدٍ أن يُخرِجَ بعض الجنّ والإنْس من أنْ يكون خُلِق للعبادة إلّا بحجّة . ولا حجّة إلّا فى عقلٍ ، أو كتاب ، أو خبر .

فإنْ قالوا : فإنْ كان الله إنّما أبانَهم بالتعديل والتّسوية للعبادة والاختيار مع الأمة فحكمهم[3] حكم المسلمين المتعبَّدين . وإنّما الإمام إمام المسلمين والتعبَّدين .

قلنا : إنّما يلزم النّاس الأمر فيما عرفُوا سبيلَه ، وليس للعوامّ خاصةً معرفةٌ بسبيل إقامة الأئمة فيلزمها[4] أمرٌ ، أو يجرى عليها نهى .

والعامّة وإنْ كانت تعرف مُجمَل الدين بقدرِ ما مَعها من العقول فإنّه لم يبلغ من قُوَّة عُقولها وكثرةِ خواطرها أن ترتفع إلى معرفة العلماء ، ولم تبلغْ من ضَعفِ عقولها أن تنحطّ إلى طبقة المجانين والأطفال .

وأقدار طبائع العوامّ والخواصّ ليست مجهولةً فنحتاج إلى الإخبار عنها بأكثرَ من التنبيه عليها ، لأنكم تعلمون أنّ طبائع الرُّسل فوقَ طبائع

---

(١) فى الأصل : « وليس المعرفه وجه إلا لبعده » صوابه فى ب .
(٢) فى الأصل : « وتحكيم البنية » ، صوابه فى ب .
(٣) فى النسختين : « وحكمهم » .
(٤) فى الأصل : « الأمة فليلزمها » ، صوابه فى ب .

الخلفاء ، وطبائع الخلفاء فوقَ طبائع الوزراء ، وكذلك النّاسُ على منازلهم من الفَضْل ، وطبقاتهم من التركيب فى البُخل والسَّخاء ، والبُلْدة والذّكاء ، والغَدر والوفاء ، والجُبْن[٢] والنَّجدة ، والجزَع [والصبر[٣]] والطَّيش والحِلم ، والكِبر والتِّيه ، والحِفْظ والنِّسيان ، والعِىّ والبيان .

ولو كانت العامّة تعرف من الدِّين والدُّنيا ما تعرف الخاصّة كانت العامّةُ خاصّة ، وذهب التّفاضل فى المعرفة ، والتّباين فى البنية . ولو لم يُخالف بين طبائعهم لسقَطَ الامتحان وبطَل الاختبار ، ولم يكن[٤] فى الأرض اختيار . وإنّما خولف بينهم فى الغريزة ليصبر صابر ، ويشكر شاكر ، وليتّفقوا على الطّاعة . ولذلك كان الاختلافُ هو سبب الائتلاف[٥] .

ويقال لهم عند ذلك : إنّكم قد أكثرتم فى أمر العوامّ ، وخلّطتم فى الحكم عليهم ، فمرّةً تزعمون أنّا نكذب عليهم حين نزعم أنهم غير محجوجين ، لأنهم بزعمكم لا يَفْصِلون بين الأمور ، ولا يَفرقون بين الكاذب المحتالِ وبين الصّادق المحِقّ . وجعلتم الدَّليلَ على ذلك أنّكم اعترضتموهم بزعمكم فسألتموهم عن الدّليل والحجّة ، والفرق والعِلّة ، فلم تجدوهم يشعرون بما[٦] يلزم فيها ولا يعرفون بابها ، وكيف الكلامُ فيها .

---

(١) البلدة ، بفتح الباء وضمها ، والبلادة أيضا : ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور . ب : « البلادة » .

(٢) فى الأصل : « والجبر » مع الإهمال ، صوابه فى ب .

(٣) التكملة من ب .

(٤) فى الأصل : « ولو لم يكن » ، صوابه فى ب .

(٥) إلى هنا ينتهى هذا الاختيار الأخير فى نسخة (ب) . وتنفرد نسختنا هذه بالنص .

(٦) فى الأصل : « لما » .

وإنّا معشرَ أصحابِ المعرفة قد تعمَّدنا الكذب عليهم ، حين زعمْنا أنهم يعرفون ذلك ، ويفرُقون بين معانيه . ومرّةً تزعمون أنهم يعرفون ما يعرفه الخواصُّ والعلماء ، ويعلمون ما يعلمه المتكلمون والفقهاء ، من إقامة الأئمة وعقد الخلافة . فمرّةً تخرجونهم من جميع المعرفة ، ومرّةً تجعلونهم فى غاية المعرفة . وأعدلُ الأمورِ فى ذلك وأقسطُها أن تزعموا أنهم يعرفون جُمل الشّرائع الظاهرة الجليّة[1] ، وجُمل السُّنن الواضحة المستفيضة ، ويجهلون تفسير جُمَلها وتأويلَ مُنزَّلها ، وكل منصوص لم[2] يظهر كظُهور الحجّ ، ولم يُشهَر كشُهرة[3] صوم رمضان ، وغُسل الجنابة ، وتحريم الخمر والخنزير والميتة والدم .

ولكنْ دَعُونا جانباً ، واضربوا عمّا نقولُ صَفْحا ، وقرِّبُوا جميع القولَين لنتعاون عليهما ، فأيُّهما كان أثبتَ على الامتحان ، وأنفَى للقذَى ، وأحسن مَغزًى ، وأجدَّ على الأيّام ، وأصحَّ على التقليب ، دِنَّا به ، وحامَينا عليه ، وتقربنا به ، وآثرناه على ما سواه .

على أنَّا لا نستملى حَقَّ ذلك وصدقَه إلاَّ منكم ، ولا نحتجُّ عليكم إلاَّ بما تقرُّون به على أنفسكم .

خبِّرونا عن العوامّ : هل يخلو أمرُهم من أن يكونوا محجوجين أو غير محجوجين ؟ فإن كانوا غير محجوجين فقد دخلوا فى أكثر ممّا عابوا . وإن كانوا محجوجين فهل تخلو الحجة التى بها قطع الرّسولُ عُذرَهم من ضربين : إمّا أن تكون المعرفة بصدق الرسول وفَصْل ما بينه وبين

---

(١) فى الأصل : « الجليلة » .

(٢) فى الأصل : « ولم » .

(٣) فى الأصل : « كشهور » .

المتنبي كما نقول . وإمّا أن تكون الحجّة فى الدّليل على المعرفة ، وليست بالمعرفة .

فإنْ زعموا أنّ الحجة هى المعرفةُ فقد وافقوا وأصابوا . وإنْ زعموا أنها الدّليلُ على المعرفة فليخبرونا عن ذلك الدّليل ما هو ؟

فإن قالوا : هو كلام الذّئب[1] وحنين العُود[2] ، وإظلال الغمامة[3] ، وقصّة الميضأة[4] ، وخدّ الشّجرة[5] ، وكلام الذراع[6] ، وعجز الشّعراء عن تأليف القرآن ، والبشارات برسالته فى الكتب .

قلنا : قد صدّقتم فيما ذكرتم من هذه الآيات والأعاجيب ، ولكن

---

(١) هو ذئب أهبان بن أوس الصحابى . قالوا : كلمه الذئب وبشره بالرسول . انظر حواشى الحيوان ٣ : ٥١٣ .

(٢) انظر لحنين الجذع سيرة ابن سيد الناس ١ : ٢٣٩ - ٢٤١ . وجاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى فى أصل أسطوانة جذع فى مسجده ، ثم تحول إلى أصل أخرى ، فحنت إليه الأولى ومالت نحوه ، حتى رجع إليها فاحتضنها وسكنت .

وفى حديث آخر أنه كان يصلى إلى جذع فى مسجده فلما عمل له المنبر صعد إليه ، فحن الجذع إليه ، أى نزع واشتاق . انظر اللسان (حنن) .

(٣) كان ذلك فيما يروون فى رحلة إلى الشام . السيرة ١٢٠ جوتنجن .

(٤) الميضأة : الإناء يتوضأ منه . وهو إشارة إلى ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم أتى بقدح فيه ماء فوضع أصابعه فى القدح فلم يسع ،فوضع أربعة منها وقال: هلموا . فتوضؤوا أجمعين وهم من السبعين إلى الثمانين . سيرة ابن سيد الناس ٢ : ٢٨٨ .

(٥) الخد : الشق . فى الأصل : « وخد البشرة » تحريف ، وفى سيرة ابن سيد الناس ٢ : ٢٨٦ : « ونام فجاءت شجرة تشق الأرض حتى قامت عليه فلما استيقظ ذكرت له فقال : هى شجرة استأذنت ربها فى أن تسلم على فأذن لها » .

(٦) هو ذراع الشاة التى أهدتها إليه زينب بنت الحارث ، امرأة سلام بن مشكم . وكانت أكثرت له من السم فى الذراع فتناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ثم قال : « إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » . السيرة ٧٦٤ — ٧٦٥ .

[لا] تخلو عقولُ العوام من أن تكون قد عرفَتْ هذا كلَّه وأقرَّتْ به ، أو لم تعرفه ولم تقرَّ به ، ولم تُودَع العلمَ بصحَّة مجيئه .

فإنْ زعموا أنها لم تعرف ذلك ولم تُقْرِر به ، قيل لهم : فمن أين زعمتم أنَّ الحجة لهم قاطعة ، والفريضة لهم لازمة ، ولم يعرفوا الحق ولا الدَّليلَ عليه .

وإذا كانت المعرفة لا تُستطاع إلاَّ بالدَّليل ، والدَّليل معدوم ، والتَّكليف لازم ، فقد كُلِّفوا ما لا يستطاع ، ولم يَضِح الكلام بيننا وبين الجبرية .

وإنْ كان الله قد قرَّر[1] عقولهم بالآيات ، وعرَّفهم صِدقَها وصحَّةَ مجيئها ، فإنَّما الفرق بيننا وبينهم أنَّا نزعم أنَّ العاقل إذا كان قد جرَّب بعضَ التجربة أنَّه لا يمتنع من تصديق مَن أحيا الموتى ، وأبرأ الأكْمَهَ ، وفلَق البحر ، وأنطق السِّباع . وأنتم تزعمون أنَّه يمتنع ، ويجوز أن يعتقد أنَّه أكذبُ العالمين وأبطَلُ المُبْطلين ، مع ما أراه[2] من عظيم البُرهان وعجيب الآيات . ولعلَّ قومَ موسى كلَّما زادهم موسى آيةً وأردفَها بعلامة ، ازدادوا جهلاً بصدقه[3] ، واستبصاراً في تكذيبه .

وكيف يستطيع ذلك من صحَّت فِطرته ، وقد جرَّب من أمور الدُّنيا بعضَ التَّجربة ، وعرفَ ما يحدُث في العادة وغير العادة .

وإنْ كانت العامّة قد قُرِّرت بأعلام الأنبياء ، وعرفت الآيات كما زعمتم ، فقد كان ينبغي لنا إذا سألناهم عن صِدقها وصحّة مجيئها وإن لم نفصل بينها وبين حِيلَة المبطل ، أن يخبرونا عنها وينزِّلوا لنا أمرها . فما بالُنا

---

(١) في الأصل : « قدر » . وانظر ص ٢٦١ س ٦ .

(٢) أي ما أراه إياه محيي الموتى ومبرئ الأكمه .

(٣) في الأصل : « فصدقه » .

إذا سألناهم لم نرَهُم يعرفونها ، ولا يحصّلون مجيئها ، ولا يخبرونا عن صدقها .

فإن كان لكم أن تقضوا على العامّة بالجهل بين النبيّ والمتنبى ، لأنهم لم تروهم يحسنون الفرُوق ، ويَفْصلون بين الأمور ، فقد ينبغى لنا أيضاً أن نقضىَ عليهم بالجهل ، وأنهم لم يَعرفوا الدّلالة ، ولم يقرّروا[1] بشىء من الآيات والأعاجيب .

فإذا كان القومُ عندكم محجوجين قد قُرِّروا وعرَّفوا ، ونحن لا نجد عندهم على المساءلة من ذلك شيئاً ، وجاز لكم أن تزعموا ما زعمتم ، فلِمَ لا يجوز لنا أنْ نزعم أنهم [كانوا] عارفين وإنْ لم نجد ذلك عندهم على المساءلة .

ولولا أنى قد ذكرت هذا البابَ مفسَّراً فى « كتابِ المعرفة » لأخبرت من أىِّ وجهةٍ جاز أن يكون بعضُ العارفين لا يخبر عن كلِّ ما فى نفسه ومن أين امتنع ذلك عليه .

فإنْ قالوا : قد فهمنا قولَكم فى العامّة فما تقولون فى الخاصّة ؟ فهل كلّفها الله ذلك أم لم يكلّفها كما لم يكلّف العامّة ؟ وفى ذلك سقوطُ التكليف عن الجميع .

قلنا : بل نقول : إن على الناس إقامة الإمام ، نريد الخاصّة . ولا نقول أيضاً إنّ على الخاصّة إقامة الإمام إلاّ على الإمكان .

فإن قالوا : وما سبب عَجْز الخاصّة وإمكانها ؟

قلنا : من ذلك أن تكون العامّة عليها مع جُنْد الباغى[2] المتغلِّب .

(١) فى الأصل : « لم يعروا » . قرره بالشىء : حمله على الإقرار به والاعتراف .

(٢) فى الأصل : « الساعى » : وانظر ما سيأتى ص ٢٦٤ س ٣ .

فإن قالوا : فهل يلزمها فرض الإقامة إذا كانت العامّة كافّةً عن العون عليها .

قلنا : قد يلزمها فى ذلك ولا يلزمها فى أخرى .

وإن قالوا : ففى أيّة الحالين يلزمها ؟

قلنا : إذا كان المستحقُّ للإمامة والمستوجب للخلافة معروفَ الموضع ، مكشوفَ الأمر ، وكانت التّقية عنها زائلة .

فإن قالوا : وكيف لا تكون التّقية عنها زائلةً ، وهى على حالٍ أكثر عدداً من جند المتغلب والباغى ، والعامّة كافّة ممسكةٌ لا لها ولا عليها .

قلنا : إنّه ليس فى حال أكثر عدَداً . فإذا كانوا أكثرَ عدداً وكانت التّقيةَ زائلة ، فعليهم إقامته .

فإن قالوا : فلم جعلتم لهم التّقية ، وأسقطتم عنهم الفرض فى الحال التى هم فيها أكثر عدداً ؟

قلنا : لأسباب ، منها أنّ العدوّ إذا كان مُعِدًّا ، ذا سلاح وعتاد وكُراع ، وكانوا على هيئةٍ وأمرُهم جميعٌ ، فقليلٌ مجتمعٌ أكثر من كثيرٍ نَشَر[2] . مع أنّ معهم أنفذَ السِّلاحَينِ ، وأوفر المتادين : الضَّرا[1] والدُّربة ، وحُسن التّدبير والمعرفة ، بطُول الممارسة وكثرة الحاجة .

ومنها أنّ الخاصّة وإن عَرَفت موضع المستحِقّ ، وظَهر لها المستوجِب ، وكانوا أكثر جِماحاً ، فكلُّ واحدٍ منهم على ثقةٍ من مَحْل صاحِبه به[3] وخِذلانه له . ولابدّ ، مادامت التّقية ، من التّواكل والتّخاذل ، وإن

---

(١) ضرى بالشىء ضرا : لهج به وصار عادة له .

(٢) النشر : المتفرق . (٣) المحل والمحال : المكر والكيد .

اتّفق رأىُ الجميع فى المُغَيَّب على النُّصرة . وليس يُنتفع باتّفاق أهوائهم مالم يتشاعروا[1] .

فإنْ قالوا : إن كان الأمرُ كما تصفون وجَبَ ألاّ يقيموا إماماً أبداً ؛ لأنهم كما لاينفكُّون من التقّية ، كذلك لاينفكُّون من التّخاذل .

قلنا : ليس الأمر كما تقولون ، لأنّ تقية بعض الخاصّة لبعض قد تزول بأسباب كثيرة : منها أن تسوء سِيرةُ المتسلِّط الباغى فيهم ويفحشَ جَورُه ، ويكثر تعضيله[2] واستئثاره وقَهره ، حتى يكون ذلك إحراجاً لهم[3] وسبباً للكلام والشّكاية والتّلاقِى ، لأنهم قد عُمُّوا بالإحراج معاً ليكون كلٌّ واحدٍ من المحرَجين يتّكل على رأىِ صاحبه ، لعلمه بالذى لقِىَ من المكروه الذى هو فيه ، من ثوَران النفس وتهييج الطّبيعة . فلا يزال بهم ذلك حتّى يتّفقوا فى الظّاهر كاتّفاقهم فى الباطن ، إذْ كان الإحراجُ قد شمِلهم وعمَّهم ، وبلغ أقصاهم بمَدْ أدناهم . وعند التّلاق تزداد النفوس حَمِيةً وَغضَباً وبصيرة . فإذا تباثّوا وتكاشفوا وشاع ذلك من شأنهم ، وشُهِرَ من أمرهم ، علموا أنّ ذلك قد ظهر لعدوّهم ، والمتسلِّط عليهم . فإذا علموا ذلك عِلموا أنهم قد لَجِجُوا فى الحرب ، ونَشِبُوا فى المناصَبة . فإذا علموا ذلك لم يجدوا بدًّا من بَذْل المال ، وإعطاء الجَهد . وإنما هى أسبابٌ تَرَامَى ، وعللٌ تَداعَى ، وأمور تهيجُ أموراً ، وأسبابٌ توجب أفعالا ، فعند ذلك تمكن الشّدّة ، ويجب الفرْض .

---

(١) فى أساس البلاغة مادة (شعر) : « وتقول : بينهما معاشرة ومشاعرة » .

(٢) التعضيل : أن يضيق عليه ويحول بينه وبين مايريد . وفى الأصل « تعطيله » ، تحريف .

(٣) فى الأصل : « إخراجا لهم » .

ومدار الأمر على الإمكان ، فمتى بطل بطل الفرض ، ومتى وُجِد وُجِد الفرض .

وربّما كان سببُ تكاشفهم ما يعرفون من ضَعف جُنْد الباغى عليهم ، والمستبدِّ عليهم بأمرهم[1] .

ولضعفهم أسبابٌ : فربّما كان لاختلافٍ يقع بينهم ، وربما كان لعدوٍّ يدهمَهم وينازعهم مُلكَهم ، وربّما كان للخَلَل[2] يدخل عليهم ، والرِّقّة تصيبهم ، من موت أعلامهم ، أو قتلِ قُوّادهم ، وربّما كان لضعف رأى مدبِّرهم وسياسة سائسهم[3] ، أو موتِ قيِّمهم .

فبهذا وأشباهه تتكاشَف النّاس ، وتَظهر على ألسنتهم ضمائرُهم ، وتبدو أسرارهم ، ونفوسهم من قبل ذلك حنِقةٌ عليهم ، متديِّنة بخلعهم والاستبدال بهم ، وإنّما أمسكَتْ عن الإنكار وأظهرت التّسليمَ ريثما تجد فرصةً وترى خَلّة ، ويستجمعُ الأمرُ ، وتزولُ التّقيّة . مع أنّا نعلم أنّ العامّة أسخفُ أحلاماً وأخفُّ حركة ، وأشدُّ طيشاً ، أن تؤْثِر الكفَّ والعُزلة والتّسليم والمجانبة ، عند حرب المحقّين والمتسلِّطين . ولو كانت تعليق ذلك ويجوز عليها ما كانت العامّة بعامّة ، ولكانت العامّة خاصّة . ولكنّا أجَبْنا على قدر مَجرى المسألة .

وإنما البليّة العظمى والدّاهية الكبرى ، أن تماز العامّة حتى يصير بعضُها مع الخاصّة ، وبعضُها مع البُغاة والظّلَمة .

---

(١) فى الأصل : « أمرهم »

(٢) فى الأصل : « وإنما كان الحل » ، تحريف .

(٣) فى الأصل : « وصبا » .

والجملة أنّهم متى أقْرنوا لعدوّهم[١] وأمكنهم منهُم ، والرجلُ المستحقُّ ظاهر لهم معروف عندهم ، فعليهم إقامتُه والدّفع عنه .

فإن قالوا : ومَن لهم بمعرفة الرّجل الذى لا بَعْده[٢] ؟

قيل : إنّه ليس على الناس أن يصنعوا المعرفة ، وإنما عليهم إذا عرَفوه واستطاعوا إقامتَه أن يُقيموه . ولابدَّ للنّاس أن يَقوم[٣] فيهم — إذْ فُرِض ذلك عليهم — رجلٌ يصلحُ لجباية خَراجهم ، وإقامة صلاتهم ، وسدِّ ثغورهم وتنفيذ أحكامهم .

فإن قالوا : فكيف تعرفون فضلَه ولم تقابلوا بينه وبين غيره ، وأهل الفضل كثير ، والفضل ممنون[٤] مستفيض ؟

قيل : كما بانَ عند المعتزلة عمرو بن عُبيد ، وكما بان الحسن بن حَيٍّ[٥] عند الزّيديّة من بينها ، وكما بان مِرداس بن أُدَيَّة عند جميع الخوارج من بينهم ، وكما علمتم من حالِ غَيلان بدمشق ، وحال عبد اللهِ بن المبارك بخراسان . وليس أنّ المعتزلةَ اجتمعت من أقطار الأرض فقالت نَعَمْ جميعُها[٦] ، ولا وضعت فيه شُورَى ، ولا تساوَى[٧] منهم نفرٌ فاحتاجوا إلى القُرعة . وكذلك الزّيديّة فى الحسن بن حَيٍّ ، والخوارج فى مِرداس بن أُدَيَّة . ولكنَّ

---

(١) أقرن للشىء : أطاقه وقدر عليه

(٢) الكلمة مهملة فى الأصل .

(٣) فى الأصل : « يقول » .

(٤) كذا فى الأصل . ولعلها « منجنون » .

(٥) هو الحسن بن صالح بن حي الهمدانى ولد سنة ١٠٠ وتوفى سنة ١٦٩ . تهذيب التهذيب .

(٦) فى الأصل : « وجميعها » .

(٧) فى الأصل : « تساود » .

الأمور تَرِدُ على القلوب ، وتهجُم على المقول على طول الأيام ، [إمَّا] بالخبر الذى يَشفى من الشكّ ويبرئ السّقَم . وإمّا بالعِيان[١] الذى يَثْلج الصُّدور ويَضطرُّ المقول .

وقد علمنا نحن على حداثة أسناننا وتقادُم النّاس قبلَنا ، أنّ جالينوس قد كان بائناً فى طبه ، وأنّ الأرسطاطاليس كان البائنَ فى المنطق .

وكذلك علمنا أنّ قيس بن زهير كان داهيةَ قيسٍ فى الجاهليّة ، وأنّ الحارث بن ظالم كان فاتكها ، وأنّ هَرِم بنَ سنانٍ كان جوادَها ، وأنّ النابغة كان شاعرها ، وأن الحارث بن كَلَدَة كان أطبّهـا ، وأنّ عامر ابن الطفيل كان أفرسَها . ولم نَتَنَعْ قطُّ فى هذا شورى ، ولا وضَعَه من كان قبلنا ، ولا استجمعت قيسٌ فقابلتْ بين خصال هؤلاء[٢] وبين جميع قيس ، لتعرف الفضيلة بالموازنة[٣] والمقابلة ، ولا احتاجوا فى ذلك إلى الإقراع والمساهمة .

وإذا كنّا مع تقادم الأخبار نعرف البائن فى كل عصرٍ ، والمقدّم فى كل أمر ، فعلى شبيهِ ما وصفنا[٤] يعرف الناس فضيلة المستوجب . والخير لا يستطاع كتمانه ، والشرّ لا بدّ من ظهوره .

واعلمْ أنّه لا يمكن أن يكون رجلٌ أعلمَ النّاس بالدّين والدُّنيـا ثم لا يُسمع به ، لأنّه لا يصير كذلك إلاّ بالاختلاف إلى العلماء ، وبطول

---

(١) فى الأصل : « فأما العيان » .

(٢) فى الأصل : « خصالهم لا » .

(٣) فى الأصل : « الموارنه » بدون باء وبالإهمال .

(٤) فى الأصل : « ها وصفنا » .

بجاثاة[1] الفقهاء ، وكثرة دَرْس كتب الله وكتب النّاس ، ومنازعة الخصم ومقاولة الأكْفاء . وهذا كلّه مما يُظهر أمرَه ، ويَشهر مكانَه .

ثم الذى يدخل العالم[2] من خُيَلاء العلم وعِزِّ الحق ، وسرور الظَّفَر بما أعيا الناسَ معرفتُه ، حتّى لا يستطيع أن يكتمه وإن اشتدّ عزمه ، وقلّ رياؤه ونَفْجُه ؛ لأنّ للعلم سَورة ، ولانفتاحه بعد استغلاقه فَرحة ، لا يضبطها بَشَرىٌّ وإن اشتدّت حُنْكته ، وقوِيَتْ مُنّتُه ، وفضَلَتْ قوّتُه .

وإنّك لتجد كثيرًا من العقلاء يُخاطرون بأعناقهم ، لبعض المظمة يجدونها[3] فى أنفسهم على خصومهم وأكفائهم ، حتّى لا يمتنعون من إظهارها والفخر بها ، فما ظنُّك بالعالم إذا كان بائنًا بنفسه ، وكان فى دولته . وتعظيمُ الناس مُوكَّل بصاحبه كيف يستطيع كتمانه وإماتته ، مع ما أخذ الله على العالم من حُسن الإرشاد واحتمال المؤونة ، واستنقاذ النّاس من الجهالة . ومن القيام بحقِّ العلم تعليمُ الجاهل . فهذا كلّه ينفى عن لقاء الكلّ الكلّ .

ولو أشكل أمرُه ولم يَبِنْ من أمثاله ، وهو للناس أصلحُ من غيره ، فقد أمكن البأس[4] ؛ إذْ لو كان ظاهرًا لهم إقامته لنبّهَ الله على مواضع فضله ، ولأذكر النّاسَ ما سقط عنهم من تدبيره ، ولبعثَ الهمم على حُبّه وطلب محاسنه .

---

(١) مهملة فى الأصل . جاثاه : جعل ركبته إلى ركبته .

(٢) فى الأصل : « العلما » .

(٣) فى الأصل : « ويجدونها » .

(٤) البأس : الشدة . فى الأصل : « وقد أمكن الناس أن لو كان ظاهرا » . وانظر ما سيأتى ص ٢٦٩ س ٥ .

وكيف يجوز أن يكون أكلُ النّاسِ خفىَّ العِلمِ ومغيَّبَ العَمَل ، وهو لا يكون كذلك حتّى تكثُرَ تجربتُه ويكثر صوابُه ، ويشتدَّ حِلمُه ، ويحسنَ تدبيره . ولابد من كثرة حَجٍّ وغَزْو ، وسلاةٍ وصوم وصدقة ، وذكر وقراءة قرآن ، وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر ، وحَدَب على الأولياء وغِلظةٍ على الأعداء . إن دام فقرُه دامت قناعته وقلّ إسفافه ، وإنْ دام غِناه دامَ بذلُه وقلّ طُغيانُه . وليس من هذا شىءٌ إلاّ وهو يَشْهرُ صاحبَه ويُظهر للناس مكانه ، ويدعُو إلى محبّته وتعظيمه .

وإن زعموا أنّه يجوز أن يكون خيرَ النّاس أو أعلمَ الناس ، وإنْ لم يُعرَفُ بشىءٍ مما ذكرنا ، فقد صار خيرَ الناس من لم يعمل خيراً قطُّ .

فإن قالوا : فما تقولون إن وُجِدوا عَشَرةً سواءً ؟

قلنا : قد يكون أن تجدوا عشرَةً متقاربين ، فإذا صاروا إلى الموازنَة بانَ الأفضلُ من الأنقص . وقليلا[1] ما يكون ذلك ، كما وجدنا السّتّة الشُّورى الذين اختارهم عُمر والمهاجرون والأنصار معه ، فقد كانوا فى طبقةٍ واحدة . ولكنّ أهل الطّبقة قد يتفاضلون بأمرٍ بيِّنٍ لا خَفاء به ، كما نظروا فاختاروا عثمان غير مكرهين ولا محمولين .

ولكنْ لايجوز بوجهٍ من الوجوه أن يتّفق عشرَةٌ سواءٌ فى الحقيقة ، وعند الموازنة الصّحيحة ؛ لأنّ فى اتفاق ذلك بُطلانَ الإمامة . ولو جاز أن يتّفق عشرة سواءٌ لجاز أن يكون الرُّقَباء والشهود عليهم سواء . ولو جاز أن تستوى حالاتُهم وأفعالُهم جاز أن يقولوا لِمَا ينبغى أن يقولوا فيه نَعَمْ : « لا » معاً ، ولما ينبغى لهم أن يقولوا فيه لا : « نعم » معاً .

---

(١) فى الأصل : « وقليل » .

وفى هذا فسادُ الاختيار والإقراع . فإذا فَسَد الاختيار والإقراعُ ولم يكن الرّجلُ بائناً فلا سبيــل إلى إقامته . ولم يكن الله ليفرض أمراً ولا يجعلَ إليه سبيلا ، ولم يكن الله ليكلِّف الناسَ أمراً إلاّ وذلك الأمر مصلحةٌ لهم . فـكيف يَمنعهم مصلحتَهم ، بل كيف يُظهر لهم فَرض الإمامة وقد أمكنتهم الشدّة[1] ، والمعلوم عنده أنّ العالم سيتهيّأ فيه ويتفق ما لا يمكن معه أداء الفرض ، ولا بلوغُ المصلحة .

ولو جاز أن يتفق عشرةٌ سواءٌ فى الحقيقة وعنـد الموازنة فى جميع الخصال ، ما كان إحياء الموتى وإبراء الأكمهِ أعجبَ منه ، ولا أخْرجَ من العادة . وإنّما جعلَ الله ذلك لرسله فقط .

ولو جاز أن يتّفق فى العالم شىء يكون جاعلا[2] من الرسالة جاز ذلك فى أمور كثيرة . ولو جاز ذلك اختلطَ الـكاذبُ بالصّادق ، والحُجّة بالشُّبهة . وهذا مالا يجوز على الله تبارك اسمه ، وتعالى جدُّه .

ولو عرَفوا موضع الإمام بعينه ثمّ قال الشامىُّ : لا يكون إلاّ منّا ، وقال العراقىّ : لا يكون إلّا مِنّا ، وقال الحجازىُّ : لا يكون إلّا منّا ، وكذلك التِّهامىّ والجزَرىّ . وكذلك إذا قال القرشىُّ : لا يكون إلاّ منّا ، وقال الحُسَيْنى : لا يكون إلاّ منّا ، وقال الحَسَنى : لا يكون إلاّ منّا ، وكذلك الفلانىّ والفلانىّ . وكذلك أنْ لو قال الإباضىُّ : لا يكون إلاّ منّا ، وكذلك لو قال الصُّفْرى والأزرقىّ والنَّجْدى والزّيدى ،

---

(١) انظر ما مضى فى ص ٢٦٧ س ١٥ .

(٢) كذا فى الأصل .

والفلانى والفلانى — لَمَا وصل أهلُ الحقّ إلى إقامته إلاّ بأن يكونوا فى عدد الجميع وفى عَتَادهم .

والإمام يقام من ثَلاثَة أوجه :

فوجه كالذى حكينا ووصفنا .

ووجه آخر مثل ما أقام المسلمون عثمان بن عفّان حين اختار عمر ستّةً متقاربين فاختاروا منهم رجلاً ، فلولا أنّ الستّة كانوا بائنين عند الجميع لم يُطبقوا ذلك الإطباق ، لأنّه لم يقُل واحدٌ : كان ينبغى أن يكون منّا(١) ، ولم يقل واحدٌ من الرُّقباء ولا من الفقهاء والخاصّة : فينا واحدٌ كان ينبغى أن يكون معهم ، ولا قالوا : فيهم واحدٌ كان ينبغى أن يكون معنا . فهذا دليل أن السِّتّة كما كانوا بائنين عند عمر كانوا بائنين عند الخاصّة .

ووجهٌ آخر ، وهو مثل إقامة النّاس لأبى بكر ، ليس على أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم جَعَلَ شورى كما وضَعها(٢) عمر ، ولا على جهة ما حَكَينا من أمر الخاصّة والعامّة بإقامة الإمام والنّصّ عليه ؛ لأنّ ذلك أسلَمُ وأخفُّ فى المؤونة ، وأبعد من الغَلَط والفتنة . وقد وجدتم ما هو أغمضُ معنًى وأدقُّ مسلكاً ، وأغوص مُستخرجاً ، وأفحش مأثما ، غير مفسَّر ولا مَنصوصٍ عليه ، كالكلام فى التّعديل والتّجوير ، وفَصْل ما بين الطِّباع والاختيار ، والكلام فى التّشبيه ونَفيه ، وفى مجىء الأخبار وحُجَج العقول .

ونحن لم نَرَ أحداً قطُّ أَلْحَد ولا تَزَنْدَقَ مِنْ قِبَل الغلط فى كلام

---

(١) فى الأصل : « معنا » .
(٢) فى الأصل : « وصفها » .

الإمامة والاختلاف فيها . ومَنْ وجدناه قد ارتدّ زِنديقاً أو دُهريًّا مِن قِبَل هذه الأبواب أكثر من أن نُحْصىَ لهم عدداً ، أو نقِفَ منهم على حدّ .

فإذْ جاز أن يَتركنا وأشدَّ الأمرين لنكونُ نحن الذين نستنبطه ونتكلّف معرفته ، ليكون عاجلُ سروره وريثه[1] وآجِل ثوابه وعظيم جزائه ، كان الذى هو[2] أظهرُ للعقول ، وأسهلُ على الطالب ، وألْيَنُ كنفاً للواطئ ، وأقرب مأخذاً للمسترشِد ، أولى بذلك .

ولا بدّ لهم من أن يقولوا أحد أمرين : إمّا أن يقولوا : إنّا إذْ وجدْنا نَصْبَ الإمام والنصّ عليه أسلَمَ لنا من الخطأ ، فالواجبُ علينا أنْ نزعم أنّ الله قد فعَلَ ذلك ، وإن لم نجد خبراً نُضطَرّ إليه ، ولا قرآنا ينُصّ عليه ، والإمامة مختلفة فى ذلك ، فإنما أوجبنا ذلك من قِبَل حُسْن الظّنّ بالله . وإنْ لم يكن فى القرآن آيةٌ تدلُّ على أنّ الله لم يَنصب إماماً ، ولا فى الخبر .

وإما أن تقولوا إنّ ذلك قد كان وقع منه[3] ، وإنّما عرفناه بالأخبار والآثار والكِتاب .

فإنْ كانوا إنّما حكموا على الله بفعل ذلك لأنّه أسلم لهم من الخطأ ؛ وأبعد لهم من الغَلَط ، إلاّ أنّهم قد وجدوا بذلك خبراً قائماً ، وكتاباً دالاًّ ، فإن كان ذلك كذلك فلِمَ أوجَبُوا على الله فِعلَ ما هو أيسرُ

---

(١) الريث : البطء . وفى الأصل « ورسه » .

(٢) فى الأصل : « كان هو الذى » .

(٣) فى الأصل : « وقوع منه » .

وأظهر ، وقد وجدوا الله لم يصنع ذلك فيما هو أغمض وأشكل . كالذى وصفنا قبل هذا من الكلام فى التّعديل والتّجوير ، والتّشبيه ، ومجىء الأخبار .

وقد علموا مع ذلك أنّ أكثرَ النـاس لم يُؤْتَوْا فى هَلَكتهم إلاّ من قِبَل سَرَف شهواتهم ، وغلبة طبائعهم .

وكيف لم يحكموا على الله بغير ما وجدوا من رفع مؤونتها ، وقمع دواعيها ، حتى لا يُلحِجَ الناسَ طبائعهم ، ولا تورّطهم شهواتهم .

وإنما يحكم بهذا وأشباهه على الله من لا علم له بالله وتدبيره ؛ لأنّ الله لو أسقط عن الناس كلّ ما أثقل ظهورهم ، واستبشعته نفوسُهم ، وخالف أهواءهم لسَقَطَ الامتحان ، وبطل الاختبار[1] ، إذ لم يكن هناك حلاوة تُجتَنَب ومرارةٌ تُركب ، ولذيذ يؤخّر ، وكريه يقدّم .

وإنْ ذهب السائل إلى غير هذا الوجه ، وزعم أنّه إنّما قال إن الله قد نصّ على إمامة علىّ لأنّ الخبر به جاء المجىء الذى لا يكذّب مثله . ولولا أنّ الخبر صحيح[2] جاز عنده أن يكون الله يطوّقهم النّظَرَ[3] ، ويضع لهم الدّلالة ، ولا ينصّهم[4] على شىء ولا يفسّره لهم ، كفعله فيما هو أدقّ وأخفى ، وأعظم إثماً وأشدّ خطراً .

قيل لهم : إنـكم وإن سمعتم فلستم بأعلمَ بالأخبار من غيركم . ولئن كنتم مجيبين بخبرٍ قد سمعناه معكم فلم يحجنا كما حجّكم ، إنّه لعجب . وإنْ كان الخبر قد حَجّ جميعَ من خالفكم مع كثرتهم ، وأطبقوا على كتمانه وجحده واتّفقوا عليه ، إن هذا لأعجب .

---

(١) فى الأصل : « إن » .

(٢) فى الأصل : « الصحيح » .

(٣) أى يكلفهم بالنظر .

(٤) فى اللسان والقاموس : « النص : التعيين على شىء ما » .

وكيف تَحُجُّون بخبرٍ لا تستطيعون أن تقيموا حُجَّته على مَن خالفكم . فإنْ كنتم إنَّما حجَّكم سلفُكم فحُجُّوا أهل عصرِكم ومَن معكم ، كما حجَّكم من قبلكم من أسلافكم .

وقد نفضْنا القرآن من أوَّله إلى آخره فلم نجد فيه آيةً[1] تنصُّ على إمامة ، ولا أنها إذْ لم تَنُصَّ كانت دالّةً عند النَّظر والتفكير ، ولا أنّها إذ لم تُدلّ بالنَّظر والتفكير وكان ظاهرُ لفظها غير ذلك على ما قلتم كان أصحابُ التَّأويل والتَّفسير مطبقين على أنَّ الله أراد بها إمامة فلان .

فهذا بابٌ لا تقدرون مِنْ قِبَله على حُجّة ، وليس لكم فى باب الخبر والإجماع متعلَّقٌ ولا سبب ، مع قول الأنصار : مِنّا أمير ومنكم أمير . وقول المهاجرين : بل مِنّا الأمراء ومنكم الوزراء .

ثمَّ وجدْنا أبا بكرٍ وهو متكلِّم قريشٍ وصاحبُ أمر المهاجرين ، والمنازعُ عنهم يوم السَّقيفة ، يقول للناس بعد سُكون الأنصار وارتداعهم : بايعُوا أيَّ هذين شئتم — يعنى عمر وأبا عبيدة — فلم نجدْه ادَّعاها لنفسه ، ولا أبَى أن تكون لغيره . ولم يقل إنسانٌ من الأنصار ولا من المهاجرين ، ولا من أفناء الناس[2] : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد كان جعلها لفلانٍ وحَضّ عليها له . ولا أنّهم إذا لم يدَّعوا النصّ[3] قال قائل إنّ النبي الله عليه قد كان قال قولاً يومَ كذا وكذا يدلُّ على أنّها لفلان ، ولم ينطق بذلك أحدٌ بعد تلك الأيام كما لم ينطق أحدٌ فيها[4] .

---

(١) فى الأصل : « أنه » .

(٢) أفناء الناس : أخلاطهم .

(٣) فى الأصل : « النصر » .

(٤) فى الأصل : « منها » .

ثم وجدنا أبا بكرٍ حين أراد أن يجعلها إلى عمر من بعده كيف يمشى إليه رجال المهاجرين وعِلْيَةُ السَّابقين ، ليصرفها إلى من هو ألين جانباً وأخفضُ جَناحاً ، وأقلُّ هَيبة ، ويقولون : ياخليفة رسول الله ، إنَّ الحاجة للأرمل والأرملة ، والضَّعيف والضَّعيفة ، وعمر رجلٌ مهيب فى صُدور الناس والله ما نريد صرفَها عنه ألاَّ يكونَ سبَقَ إلى كلِّ يوم خير ! قال أبو بكر : أبربِّى تهدِّدونى ، أمَّا إذا لقيته فقال لى : من[1] استخلفتَ على عبادى ؟ قلت : استخلفتُ عليهم خَيْرَ أهلِكَ عندى[2] .

فلم يجر بينهم ممَّا يقولون حرفٌ واحد .

ثم أنَّ عمر بعد ذلك جعَلها شُورَى بين ستَّة وجعلَ إليهم الخيار ، وسلَّم ذلك جميعُ المسلمين ، فيهم الزُّهرى والتَّيمىّ والهاشمىّ والأموىّ والأسدىّ ، على أنَّها إنْ وقعتْ للأسدىِّ لم يكن منكراً عند الجميع ، وكذلك الزُّهرى والأموى .

وأعجبُ مِن هذا أجمعَ وأدَلُّ على الاختلاف ، وأبعد من النَّصّ والإجماع ، قولُ عمر فى شكاته وهو مُوفٍ على قبره وعنده المهاجرون الأوَّلون : « لو أدركت سالماً مولى أبى حُذيفة ما تخالجنى فيه الشَّكّ » حين ذكر دُعابة على ، وبخل[3] الزُّبير ، وبأْوَ طلحة ، وحُبَّ عثمانَ لرهطه .

---

(١) فى الأصل : « لمن » ، تحريف .

(٢) فى الطبرى ٤ : ٥٢ : « عن أسماء بنت عميس قالت : دخل طلحة بن عبيد الله على أبى بكر فقال : أستخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم ؟! وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك ؟ فقال أبو بكر — وكان مضطجعا — أجلسونى . فأجلسوه فقال لطلحة : أبالله تفرقنى — أو أبالله تخوفنى — إذا لقيت الله ربى فساءلنى قلت : استخلفت على أهلك خير أهلك » .

(٣) انظر أنساب الأشراف للبلاذرى ٥ : ١٧ حيث يقول عمر فيه إنه : « لقس ، =

ثم الذى كان من مُنازعة سعدٍ بن أبى وقّاص لعلىّ ، وتركه بيعته ودعائه له إلى وضع الشُّورى ، والتخايُر بالأعمال والجزء[1] ، فلم تجدوا أحداً من الناس يقول من وراء سعدٍ أو فى وجهه : ولمَ تخايُرك وقد اختاره الرّسولُ دونك .

وقد كان ينبغى لأصحاب علىٍّ ومن معه من المهاجرين والبدريِّين وسائر الصَّحابة والتّابعين ، ألاّ يُمسكوا عن ذكر هذه الُحجّة وإن أمسك عنها الناسُ وأضاعوها ، وعاندوا أو غلِطوا فيها . ولم نَعلم هذا وأشباهَه إلاّ دليلاً قاطعاً لمن لم يَمنع قلبه معرفةَ الحقّ ولسانَه الإقرار به ، فى محاربة طلحة والزُّبير وعائشة وعلىّ ، وما أراقوا من الدّماء . ولم يقُلْ واحدٌ من الناس : ولمَ تقاتلون رجلاً[2] أو تطلبون مخايرتَه وقد نصبه النبى صلى الله عليه وفسّر أمرَه ، وبيَّن شأنه . [وهذا] دليل على ما قُلنا ، وبرهان لما ادّعينا .

ولقد قال رجلٌ لعُمَر بن علىٍّ : خبِّرْنى عن وصية رسول الله صلى الله عليه إلى أبيك . قال : والله إنّ هذا الكلام ما سمِعتُ به قطُّ إلاّ الساعة .

وقد تعلمون أن الأمة كلّها مع اختلاف أهوائها ونِحَلها ، لا تعرف ممّا تدّعون من أمر النَّصّ والوصيّة قليلاً ولا كثيراً ، وإنما هذه دَعْوى مقصورةٌ فيكم ، لا يعرفها سواكم . وإنّ أشدّ الناسِ عليكم فى الوصيّة

= مؤمن الرضا كافر الغضب ، شحيح » . لكن فى الإصابة ٢٧٨٣ أنه « كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فكان لا يدخل بيته منها شيئاً ، يتصدق به كله » . وانظر أيضاً الرياض النضرة ٢ : ٢٧١ — ٢٧٢ حيث التنويه بجوده وكرمه .

(١) الجزء : الإجزاء والكفاية . فى الأصل : « الحر » .

(٢) فى الأصل : « رملا » ، وإذا التصقت الراء مائلة إلى أعلى بالجيم صارت على هذا الشكل المحرف .

والنّصّ للزّيديّة مع تشيُّعها وإفراطها وشدّة إقدامها على عثمان ، وسُوء قولها وشدّة عداوتها للزبير وطلحة .

فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم نصَبَه للنّاس وبيّن أمرَه واحتجّ له ، لم يكن هناك اختلافٌ ولا ارتياب ، ولا تحيُّر ، ولا احتجّ بذلك المحجوجون على شاذٍ إن شـذّ ومفُارق . [وفى] هذا وأقلّ منه ما يردَع ذا اللُّبّ ، ويكفُّ ذا الحجَا .

وزعمت الرّافضةُ أن النبي صلى الله عليه أوصى إلى رجلٍ بعينه ، وأمر أمّته بالوصية فى تركاتهم ، لأنّ ذلك أجمعُ للشّمل ، وأدعى إلى الأُلفة ، وأمنعُ للفساد ، وأقطع للشَّغْب ، وأذهَب للضّغائن ، وأبعد من الغلَط . إلاّ أنّ الله قد كان يعلم أنّ النبي صلى الله عليـه متى أوصى إلى ذلك المستحق تـكفرُ أمة محمد صلى الله عليه إلاّ ثلاثة أنفس ، وأن الوصيّ سيضعُف عن القيام بالحقّ ، وسيبرل مع العام[1] بيديه[2] إظهاره بلسانه ، وأنّه لا يرضى بالـكفّ عن شتمه الـكافرين حتى يزكيهم على منبره . فسبحان الله ما أعجب هـذا القول !

وإن تركوا الـكتاب وأضربوا عن الإجماع واحتجُّوا بالرواية ، فما أحدٌ أجحدَ لها ولا أردّ لمعرفتها منهم . مع أنّ روايةَ غيرهم أكثر ، وعلى ألسنة أصحاب الحديث أظهر .

ولو كانت روايتُهم وروايةُ خصومهم سـواءً ما كان تأويلُهم بأقطع لتأويل خصومهم من تأويل خصومهم لتأويلهم . مع أنّ الحديث إنْ كان يحتمل ضروبَ التأويل فغلط فى حقّ ذلك مِن باطِله رجلٌ فليس بكافر

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل « بديه » .

ولا مكابر ، لأنّ ذلك الحديث لو كان صحيحاً لم يكن بأبيَنَ من القرآن ولا أوضح .

وقد يختلف الناسُ فى تأويله ولا يكفرون ولا يكابرون ، فكيف يكفرُ من غلِط فى تأويل حديثٍ لو كان ردّه لم يكن عاصياً .

وإنْ كانت إمامةُ علىٍّ لا تثبُت عِندهم إلاّ مِن قبل الرّواية فقد أفلح خَصم الرّافضة ، واستراحَ من كدّ المنازعة .

وقد زعم ناسٌ من (العثمانية) أنّ الله قد اختار للنّاس إماماً ، ونصب لهم قيِّماً ، على معنى الدّلالة والإيضاح عنه بالعلامة ، لا على النّص والتّسمية ، لأنّ الله إذا قال : « وأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ منكم » . — وقد عرفنا صفة العدالة — فمتى رأيناها فى إنسان علمنا أنّه الذى كان عَنَى الله بالآية وإنْ لم يسمّه فيها . وكذلك قول الرّسول : « ليؤمّكم خِيارُكم » فقد عرّفنا الله الخيار من الشّرار ، والفَضل من النّقص ، فمتى وجَدْنا الفضيلة فى رجل فهو الذى عناه النبي صلى الله عليه وإن لم يذكره باسمه .

ولا يهمل[(1)] الناسَ ويتركهم سُدًى مَن وضع لهم الأدِلّة ، ونبّههم على موضع البرهان ، وعرّفهم أبوابَ الصّلاة .

ولو قلنا إنّ النبي صلى الله عليه قد اختار[(2)] للناس إماماً على معنى أنّه إذْ أمرَ أبا بكر بأن يتقدّم المسلمين فى مُصلاه ومَقامه ومِنبره فقد استخلفه ، جاز ذلك فى الكلام . وباب الجواب فى هذه المسائل كثير[(3)] .

---

(١) فى الأصل : « ومن لا » .
(٢) فى الأصل : « اجاز » .
(٣) الكلام بعد إلى « وحكمتم عليه » ص ٢٧٩ س ٤ موضعه فى نسخة الأصل بعد كلمة « التقية » ص ١٨٨ س ٢ . وقد أثبته فى موضعه الصحيح هنا .

لأنَّه لا يجوز أن يكونوا لم يعلموا ذلك وقد علموا ما هو أخفى وأدقُّ وأيسر خطباً وأقلُّ نفعاً، وهم القوم الذين لا يُؤتَون من نصيحة وحُسن معرفة. وكيف يُؤتَون منهما وبهم عرفنا النّصيحة والمعرفة.

فإن قالوا: فإنّما كان خيراً للنّاس أن يختاروا لأنفسهم أو يختار النبيُّ لهم.

قلنا: لو كان النبيُّ قد اختاره لهم لقد كان ذلك خيراً لهم مِن اختيارهم لأنفسهم. فإذْ لم يختره[1] لهم فتركُ اختياره خيرٌ لهم، لأنَّه إذا كان أن لو كان اختاره لهم[2]، فقد دلَّ تَرْكُهُ الاختيار أنَّ تَرْكَه الاختيار لهم خيرٌ لهم، إذْ كان قد كان اختار التَّرك دون الاختيار، وتَرك الاختيار رُبّما[3] كان اختياراً. وهو في هذه المواضع اختيار، لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليختارَ لهم تَرْكَ النَّصّ والتَّسمية إلاّ وتَرك النَّصِّ والتسمية خير من النصّ والتسمية.

وإنما هذا مثل قائل لو قال لنا: أرأيتم التأويل الذى قد ضلَّ من أجله عالَم، والتَّشبيه، والوعد والوعيد، والقدر، والأسماء، والأحكام التى قد كفر من أجلها بَشَر، وبسببها تناحَر النَّاس. وإنما كان خيراً لهم أن يعرفوه بأَسْره، ويَنُصُّوا على حقيقته، ويُكفَوا المَؤُونةُ فيه، حتى كان لا يقعُ خِلاف، ولا يوجد خطأ، ولا يَشِيع فساد، ولا يتفانى الناس أو يُترَكُوا ونظرَهم، ويُخَلَّوْا واختيارهم.

قلنا: الخِيرَةُ فيما صنع الله. فلو كان الله بيَّنَ ذلك بالنصِّ والتَّفسير

(١) فى الأصل: «لم يختاره».

(٢) كذا وردت هذه العبارة، وأراها مقحمة.

(٣) فى الأصل: «بما».

دون الدّلالة ووضع العلامة ، كان ذلك خِيرَة ؛ لأنّا نعلمُ أن الله لا يصنع إلاّ ما هو خير .

فلو لم يفعل ذلك[1] ولم ينصّ عليه فتركُهُ الأمرَ على ما نحن عليه خيرٌ لنا وأفضل . فكيف أوجبتم على الله وحكمتم عليه .

* * *

هذا جُمَل جوابات العثمانية بجمل مسائل الرّافضة والزيديّة . ولولا أنّ فيما قدّمنا غِنًى عمّا أخّرنا لقد فسّرنا كما أجملنا . وإنما مِلاك وضْع الكتاب إحكامُ أصله ، وألاّ يشذَّ عنه شيء من أركانه . فأمّا استقصاؤه حتّى لا يجرىَ بين الخصمين منه إلاّ شيء قد وُضع بعينه ، فهذا مالا يمكن الواضعَ ولا يحتملُ الكتابُ . ولو أمكن الواضعَ واحتمله الكتاب لكان طولُه قاطعاً لنشاط القارئ ، ومَجلبةً لنُعاس المستمع ، إلاّ لمن صحّت إرادته ، وأفرطَتْ شهوتُه وقوِىَ طبعُه ، وحسن احتسابه .

وقد أعيَتْنا هذه الصِّفةُ فى المعلِّمين ، فكيف [فى] المتعلمين .

وعلى أنّ للنِّحَل صوراً كصور النّاس ، فكما أنّ بعضَ الصُّور أشدُّ مشاكَلة لطبعكَ ، وآنقُ فى عينك ، وأخفُّ على نفسك ، فكذلك النِّحَل فى مقابلة الأهواء ، ومشاكلة الشّهوات ، والخِفّة على النّفوس .

فاحذر حوادث الشّهوات ، واتصال المشاكلة ؛ فإنّه أخفى من الدقيق ، وأدقُّ من الخفى .

هذا إذا كان المعنى مجرّداً والمذهبُ عارياً ، فكيف إذا موّهه صاحبُه ، وزخرفه واضعُه ، بأعذب الألفاظ وأشهاها ، وأحسن المخارج وأعفاها[2]

---

(١) فى الأصل : « قالوا فلم لم » .
(٢) كذا فى الأصل .

فشق كلٌّ واحدٍ منهما صاحبه ، وحبّبه إلى سامعه . فإن وافق ذلك منه تعظيمٌ لسَلَفه ، وهوًى فى قائله ، فقد أسمحت نفسُه بالتّقليد ، واستسلمت للاعتقاد .

فاحذر فى[1] هذه الصّفة ، ولا تستخفّنّ بهذه الوصيّة .

واعلم أنّ واضع الكتابِ لا يكون بين الخُصوم عدلا ، ولأهل النّظر مَألفا حتّى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثلَ الذى يبلغُ لنفسه ، حتّى لو لم يقرأ القارئُ من كتابه إلاّ مقالةَ خصمِه لَخيِّل له أنه الذى اجتباه لنفسه ، واختاره لدينه .

ولولا اتّكالى على انقطاع الباطل عن مَدَى الحقّ وإن استقصيتُه وبلغت غايته ، مااستجزت حكايته ، وقُمت[2] مقام صاحبه .

ونحن مبتدئون فى كتاب المسائل وبالله ذى المَنّ والطَّول نستعين ، وعليه نتوكل .

هذه جمل أقوال[3] الثّمانية ، والحمد لله كثيراً دائماً ،

وصلى الله على سيِّدنا محمد نبيه ، وآله الطّاهرين

وصحبه ، وسلّمَ تسليما .

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل : « وأقت » .

(٣) فى الأصل : « قول » .

مناقضات

أبى جعفر الإسكافى

لبعض ما أورده الجاحظ فى العثمانية

من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

(١)

مناقضة لصفحة ١ — ٦ من العثمانية

قال أبو جعفر الإسكافى :

لولا ما غلب على الناس من الجهل وحب التقليد لم نحتج إلى نقض ما احتجَّت به العثمانية ، فقد علم الناس كافة أن الدولة والسلطان لأرباب مقالتهم ، وعرف كل أحد [علو[١]] أقدار شيوخهم وعلمائهم وأمرائهم ، وظهور كلمتهم ، وقهر سلطانهم ، وارتفاع التقية عنهم ، والكرامة والجائزة لمن روى الأخبار والحديث فى فضل أبى بكر ، وما كان من تأكيد بنى أمية لذلك ، وما ولده المحدثون من الأحاديث طلباً لما فى أيديهم ، فكانوا لا يألون جهداً فى طول ما ملكوا أن يُخملوا ذكر على عليه السلام وولده ، ويطفئوا نورهم ويكتموا فضائلهم ، ومناقبهم وسوابقهم ، ويحملوا على شتمهم وسبهم ولعنهم على المنابر ، فلم يزل السيف يقطر من دمائهم مع قلة عددهم وكثرة عدوّهم ، فكانوا بين قتيل وأسير ، وشريد وهارب ؛ ومستَخْفٍ ذليل ، وخائف مترقب ، حتى إنّ الفقيه والمحدث والقاضى والمتكلم ليُتَقَدَّم إليه ويتوعَّد بغاية الإيعاد وأشدّ العقوبة أن لا يذكروا شيئاً من فضائلهم ولا يرخصوا لأحد أن يطيف بهم ؛ وحتى بلغ من تقية المحدث إذا ذكر حديثا عن على عليه السلام كنى عن ذكره فقال : قال رجل من قريش ، وفعل رجل من قريش ولا يذكر علياً عليه السلام ولا يتفوه باسمه . ثم رأينا جميع المختلفين قد حاولوا نقض فضائله ووجهوا الحيل والتأويلات نحوها ، من خارجى مارق ، وناصب حنق ، ونابت مستبهم ، وناشئ معاند ، ومنافق مكذب ، وعثمانى حسود ، يعترض فيها ويطعن ، ومعتزلى قد نفذ فى الكلام وأبصر علم الاختلاف ، وعرف الشُّبه ومواضع الطعن وضروب التأويل ، قد التمس الحيلَ فى إبطال مناقبه ، وتأول مشهور فضائله ، فمرةً يتأولها بما لا يحتمل ، ومرة يقصد أن يضع من قدرها بقياس منتقض ، ولا يزداد مع ذلك إلا قوة ورفعة ، ووضوحاً واستنارة .

---

(١) هذه من ط . أى من النسخة المطبوعة من شرح نهج البلاغة .

وقد علمت أن معاوية ويزيد ومن كان بعدهما من بنى مروان أيام ملكهم — وذلك نحو ثمانين سنة — لم يدعوا جهداً فى حمل الناس على شتمه ولعنه وإخفاء فضائله ، وستر مناقبه وسوابقه .

روى خالد بن عبد الله الواسطى عن حصين بن عبد الرحمن عن هلال بن يساف عن عبد الله بن ظالم قال : لما بويع لمعاوية أقام المغيرةُ بن شعبة خطباء يلعنون علياً عليه السلام ، فقال سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل : ألا ترون إلى هذا الرجل الظالم ، يأمر بلعن رجل من أهل الجنة ؟ !

روى سليمان بن داود عن شعبة عن الحر بن الصباح قال : سمعت عبد الرحمن ابن الأخنس يقول : شهدت المغيرة بن شعبة خطب فذكرَ علياً عليه السلام فنال منه .

روى أبو كريب قال : حدثنا أبو أسامة قال حدثنا صدقة بن المثنى النخعى عن رياح بن الحارث قال : بينما المغيرة بن شعبة بالمسجد الأكبر وعنده ناس إذ جاءه رجل يقال له قيس بن علقمة ، فاستقبل المغيرة فسب علياً عليه السلام .

روى محمد بن سعيد الأصفهانى عن شريك عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن على ابن الحسين عن أبيه على بن الحسين عليه السلام قال : قال لى مروان : ما كان فى القوم أدفعُ عن صاحبنا من صاحبكم . قلت : فما بالكم تسبونه على المنابر ؟ قال : إنه لا يستقيم لنا الأمر إلا بذلك .

روى مالك بن إسماعيل أبو غسان النهدى عن ابن أبى سيف قال : خطب مروان والحسن عليه السلام جالس ، فنال من على عليه السلام ، فقال الحسن : ويلك يا مروان ، أهذا الذى تشتم أشَرُّ الناس[1] ؟ قال : لا ، ولكنه خير الناس .

روى أبو غسان أيضاً قال : قال عمر بن عبد العزيز : كان أبى يخطب فلا يزال مستمراً فى خطبته حتى إذا صار إلى ذكر على وسبه تقطع لسانه واصفر وجهه وتغيّرت حاله ، فقلت له فى ذلك فقال : أو قد فطنت لذلك ؟ إن هؤلاء لو يعلمون من على ما يعلمه أبوك ما تبعنا منهم رجل .

---

(١) هو كما فى قراءة أبى قلابة : « سيعلمون غداً من الكذاب الأشر » .

روى أبو غسّان قال : حدثنا أبو اليقظان قال : قام رجل من ولد عثمان إلى هشام ابن عبد الملك يوم عرفة ، فقال : إن هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب .

روى عمرو بن القنّاد عن محمد بن فضيل عن أشعث[1] بن سوار قال : سب عدىّ ابن أرطاة علياً عليه السلام على المنبر فبكى الحسن البصرىّ وقال : لقد سُبَّ هذا اليوم رجلٌ إنه لأخو رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة .

روى عدى بن ثابت عن إسماعيل بن إبراهيم قال : كنت أنا وإبراهيم بن يزيد جالسين فى الجمعة مما يلى أبواب كندة ، فخرج المغيرة فخطب ، فحمد الله ثم ذكر ماشاء الله أن يذكر ، ثم وقع فى على عليه السلام ، فضرب إبراهيم على فخذى أو ركبتى ثم قال : أقبل على فحدثنى فإنا لسنا فى جمعة ، ألا تسمع ما يقول هذا ؟

روى عبد الله بن عثمان الثقفى قال : حدثنا ابن أبى سيف قال : قال ابن عامر بن عبد الله بن الزبير لولده : لا تذكر يا بنى علياً إلا بخير ، فإن بنى أمية لعنوه على منابرهم ثمانين سنة فلم يزده الله بذلك إلا رفعة ، وإن الدين لم يبن شيئاً قط فهدمته الدنيا ، وإن الدنيا لم تبن شيئاً قط إلا رجعت على ما بنت فهدمته .

وروى عثمان بن سعيد قال : حدثنا مطلب بن زياد عن أبى بكر بن عبد الله الأصبهانى قال : كان دعىّ لبنى أمية ، يقال له خالد بن عبد الله ، لا يزال يشتم علياً عليه السلام ، فلما كان يوم جمعة وهو يخطب الناس قال : والله إن كان رسول الله ليستعمله وإنه ليعلم ما هو ، ولكنه كان ختنه . وقد نعس سعيد بن المسيب ، ففتح عينيه ثم قال : ويحكم ما قال هذا الخبيث ؟ رأيت القبر انصدع ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول : كذبت يا عدو الله !

وروى القنّاد قال حدثنا أسباط بن نصر الهمدانى عن السدى قال : بينما أنا بالمدينة عند أحجار الزيت إذ أقبل راكب على بعير فوقف فسب عليا عليه السلام ، فحف به الناس ينظرون إليه . فبينا هو كذلك إذ أقبل سعد بن أبى وقاص فقال :

---

(١) فى الأصل : «أشعب» صوابه فى ط .

اللهم إن كان سب عبداً لك صالحاً فأرِ المسلمين خزيه ! فما لبث أن نفر به بعيره فسقط فاندقت عنقه .

وروى عثمان بن أبي شيبة عن عبد الله بن موسى عن فطر بن خليفة عن أبي عبد الله الجدلى قال : دخلت على أم سلمة رحمها الله فقالت — له — : أيسَبُّ رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم وأنتم أحياء ؟ قلت : وأنى يكون هذا ؟ قالت : أليس يُسبُّ على عليه السلام ومن يحبه .

وروى العباس بن بكار الضبي قال : حدثني أبو بكر الهذلى عن الزهرى قال : قال ابن عباس لمعاوية : ألا تكف عن شتم هذا الرجل ؟ قال : ما كنت لأفعل حتى يَرْبُوَ عليه الصغير ويهرم فيه الكبير . فلما ولى عمر بن عبد العزيز كف عن شتمه فقال الناس : ترك السنة . قال : وقد روى عن ابن مسعود إماموقوفا عليه أومرفوعا : كيف أنتم إذا شملتكم فتنة يربو عليها الصغير ويهرم فيها الكبير ، يجرى عليها الناس فيتخذونها سنة ، فإذا غير منها شيء قيل : غيرت السنة .

قال أبو جعفر : وقد تعلمون أن بعض الملوك ربما أحدثوا قولا أو دينا لهوًى ، فيحملون الناس على ذلك حتى لا يعرفون غيره ، كنحو ما أخذ الناس الحجاجُ ابن يوسف بقراءة عثمان وترك قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب ، وتوعّد على ذلك بدون ما صنع هو وجبابرة بنى أمية وطغاة بنى مروان بولد على عليه السلام وشيعته . وإنما كان سلطانه نحو عشرين سنة فما مات الحجاج حتى اجتمع أهل العراق على قراءة عثمان ، ونشأ أبناؤهم ولا يعرفون غيرها لإمساك الآباء عنها ، وكف المعلّم عن تعليمها ، حتى لو قرئت عليهم قراءة عبد الله وأبيّ ماعرفوها ، ولظنوا بتأليفها الاستكراه والاستهجان ، لإلف العادة وطول الجهالة ، لأنه إذا استولت على الرعية العِلية وطالت عليهم أيام التسلط ، وشاعت فيهم المخافة ، وشملتهم التقية ، اتفقوا على التخاذل والتساكت ، فلا تزال الأيام تأخذ من بصائرهم ، وتنقص من ضمائرهم ، وتنقض من مرائرهم ، حتى تصير البدعة التى أحدثوها غامرةً للسنة التى كانوا يعرفونها .

ولقد كان الحجاج ومن ولاه ، كعبد الملك والوليد ، ومن كان قبلهما وبعدهما من

فراعنة بنى أمية على إخفاء محاسن على عليه السلام وفضائله ، وفضائل ولده وشيعته وإسقاط أقدارهم ، أحرصَ منهم على إسقاط قراء عبد الله وأبىّ ، لأن تلك القراءات لا تكون سبباً لزوال ملكهم وفساد أمرهم وانكشاف حالهم . وفى إشهار فضل على عليه السلام وولده وإظهار محاسنهم بوارُهم ، وتسليط حكم الكتاب المنبوذ عليهم ، فحرصوا واجتهدوا فى إخفاء فضائله ، وحملوا الناس على كتمانها وسترها ، وأبى الله أن يزيد أمره وأمر ولده إلا استنارة وإشراقا ، وحبهم إلا شغفاً وشِدة ، وذكرهم إلا انتشاراً وكثرة ، وحجتهم إلا وضوحاً وقوة ، وفضلهم إلا ظهوراً ، وشأنهم إلا علوا ، وأقدارهم إلا إعظاما ، حتى أصبحوا بإهانتهم إياهم أعزاء ، وبإماتتهم ذكرهم أحياء ، وما أرادوا به وبهم من الشر تحوّل خيراً . فانتهى إلينا من ذكر فضائله وخصائصه ، ومزاياه وسوابقه ، مالم يتقدمه السابقون ، ولا ساواه فيه القاصدون ، ولا يلحقه الطالبون . ولولا أنها كانت كالقبلة المنصوبة فى الشهرة ، وكالسنن المحفوظة فى الكثرة ، لم يصل إلينا منها فى دهرنا حرف واحد ، إذْ كان الأمر كما وصفناه .

فأما ما احتج به الجاحظ بإمامة أبى بكر بكونه أول الناس إسلاماً فلو كان هذا احتجاجاً صحيحاً لاحتج به أبو بكر يوم السقيفة . وما رأيناه صنع ذلك ؛ لأنه أخذ بيد عمر ويد أبى عبيدة بن الجراح وقال للناس : قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا منهما من شئتم . ولو كان هذا احتجاجاً صحيحاً لما قال عمر : كانت بيعة أبى بكر فلتة وقى الله شرها ! ولو كان احتجاجاً صحيحاً لادعى واحد من الناس لأبى بكر الإمامة فى عصره أو بعد عصره بكونه سبق إلى الإسلام . وما عرفنا أحداً ادعى له ذلك . على أن جمهور المحدثين لم يذكروا أن أبا بكر أسلم إلا بعد عدة من الرجال ، منهم على بن أبى طالب ، وجعفر أخوه ، وزيد بن حارثة ، وأبو ذر الغفارى ، وعمرو بن عبسة[1] السلمى ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وخباب بن الأرتّ . وإذا تأملنا الروايات الصحيحة والأسانيد القوية الوثيقة وجدناها كلها ناطقة بأن علياً

---

(١) ط : « عنبسة » صوابه فى الأصل وتهذيب التهذيب .

عليه السلام أول من أسلم . فأما الرواية عن ابن عباس أن أبا بكر أولهم إسلاماً فقد روى عن ابن عباس خلاف ذلك بأكثر مما رووا وأشهر .

فمن ذلك ما رواه يحيى بن حماد عن أبي عوانة وسعيد بن عيسى عن أبي داود الطيالسي ، عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس أنه قال : أول من صلى من الرجال على عليه السلام .

وروى الحسن البصري قال : حدثنا عيسى بن راشد عن أبي بصير عن عكرمة عن ابن عباس قال : فرض الله تعالى الاستغفار لعلى عليه السلام فى القرآن على كل مسلم بقوله تعالى : « ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » . فكل من أسلم بعد على فهو يستغفر لعلى عليه السلام .

وروى سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال : « السباق ثلاثة : سبق يوشع بن نون إلى موسى ، وسبق صاحب يس إلى عيسى ، وسبق على عليه السلام بن أبي طالب إلى محمد عليه وعليهم السلام . فهذا قول ابن عباس فى سبق عليه السلام إلى الإسلام . وهو أثبت من حديث الشعبي وأشهر . على أنه قد روى عن الشعبي خلاف ذلك من حديث أبي بكر الهذلى وداود بن أبي هند عن الشعبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلى عليه السلام : « هذا أول من آمن بى وصدقنى وصلى معى » .

قال : فأما الأخبار الواردة بسبقه إلى الإسلام ، المذكورة فى الكتب الصحاح والأسانيد الموثوق بها ، فمنها ما روى شريك بن عبد الله عن سليمان بن المغيرة ، عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أول شيء علمته من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أنى قدمت مكة مع عمومة لى وناس من قومى ، وكان من أنفسنا شراء عطر ، فأرشِدْنا إلى العباس بن عبد المطلب ، فانتهينا إليه وهو جالس إلى زمزم ، فبينا نحن عنده جلوساً إذ أقبل رجل من باب الصفا وعليه ثوبان أبيضان وله وفرة إلى أنصاف أذنيه جعدة ، أشم أقنى ، أدعج العينين ، كث اللحية ، براق الثنايا ، أبيض تعلوه حمرة ، كأنه القمر ليلة البدر ، وعلى يمينه غلام مراهق أو محتلم

حسن الوجه ، تقفوهم امرأة قد سترت محاسنها ، حتى قصدوا نحو الحجر ، فاستلمه واستلمه الغلام ثم استلمته المرأة ، ثم طاف بالبيت سبعا والغلام والمرأة يطوفان معه ، ثم استقبل الحجر فقام ورفع يديه وكبر ، وقام الغلام إلى جانبه وقامت المرأة خلفهما فرفعت يديها وكبرت ، فأطال القنوت ، ثم ركع وركع الغلام والمرأة ثم رفع رأسه فأطال ورفع الغلام والمرأة معه ثم سجدوا وسجد الغلام معه يصنعان مثل ما يصنع ، فلما رأينا شيئا ننكره لا نعرفه بمكة أقبلنا على العباس فقلنا : يا أبا الفضل ، إن هذا الدين ما كنا نعرفه فيكم ! قال : أجل والله . قلنا : فمن هذا ؟ قال : هذا ابن أخى ، هذا محمد بن عبد الله ، وهذا الغلام ابن أخى أيضاً ، هذا على بن أبى طالب وهذه المرأة زوجة محمد ، هذه خديجة بنت خويلد ، والله ما على وجه الأرض أحد يدين بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة .

ومن حديث موسى بن داود عن خالد بن نافع عن عفيف بن قيس الكندىّ — وقد رواه عن عفيف أيضاً مالك بن إسماعيل النهدىّ والحسن بن عنبسة الوراق وإبراهيم بن محمد بن ميمونة — قالوا جميعاً : حدثنا سعيد بن جشم عن أسد بن عبد الله[1] البجلى عن يحيى بن عفيف بن قيس عن أبيه قال :

كنت فى الجاهلية عطارا ، فقدمت مكة فنزلت على العباس بن عبد المطلب ، فبينا أنا جالس عنده أنظر إلى الكعبة وقد تحلقت الشمس فى السماء أقبل شابٌّ كأن فى وجهه القمر ، حتى رمى ببصره إلى السماء ، فنظر إلى الشمس ساعة ثم أقبل حتى دنا من الكعبة فصف قدميه يصلى ، فخرج على إثره فتى كأن وجهه صحيفة يمانية ، فقام عن يمينه ، فجاءت امرأة متلففة فى ثيابها فقامت خلفهما ، فأهوى الشاب راكعا فركعا معه ، ثم أهوى إلى الأرض ساجدا فسجدا معه ، فقلت للعباس : يا أبا الفضل ، أمر عظيم . فقال : أمر والله عظيم ، أتدرى من هذا الشاب ؟ قلت : لا . قال : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، أتدرى من هذا الفتى ؟ قلت :

---

(١) فى الأصل : « ابن عبد » صوابه فى ط .

لا . قال : هذا ابن أخى أبى طالب بن عبد المطلب ، أتدرى من المرأة ؟ قلت : لا . قال : ابنة خويلد بن أسد بن عبد العزى ، هذه خديجة زوج محمد . هذا وإن محمدا هذا يذكر أن إلهه إله السماء ، وأمره بهذا الدين ، فهو عليه كما ترى . ويزعم أنه نبى ، وقد صدقه على قوله على ابن عمه هذا الفتى ، وزوجته خديجة هذه المرأة ، والله ما أعلم على وجه الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة . قال عفيف : فقلت له : فما تقولون أنتم ؟ قال : ننتظر الشيخ ما يصنع ، يعنى أبا طالب أخاه .

وروى عبيد الله بن موسى والفضل بن دكين والحسن بن عطية قالوا : حدثنا خالد بن طهمان عن نافع بن أبى نافع عن معقل بن يسار قال : كنت أوصى[1] النبى صلى الله عليه وآله فقال لى : هل لك أن نعود فاطمة ؟ قلت : نعم يا رسول الله . فقام يمشى متوكئا على وقال : أما إنه سيحمل ثقلها غيرك ويكون أجرها لك . قال : فوالله كأنه لم يكن على من ثقل النبى صلى الله عليه وآله شيئاً . فدخلنا على فاطمة عليها السلام فقال لها صلى الله عليه وسلم : كيف تجدينك ؟ قالت : لقد طال أسفى واشتد حزنى وقال لى النساء : زوجك أبوك فقيرا لا مال له ! فقال لها : أما ترضين أنى زوجتك أقدم أمتى سلما ، وأكثرهم علما ، وأفضلهم حلما ؟ قالت : بلى ، رضيت يا رسول الله .

وقد روى هذا الخبر يحيى بن عبد الحميد ، وعبد السلام بن صالح ، عن قيس بن الربيع عن أبى أيوب الأنصارى بألفاظه أو نحوها[2] .

وروى عبد السلام بن صالح عن إسحاق الأزرق عن جعفر بن محمد عن آبائه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوّج فاطمة — دخل النساء عليها فقلن : يا بنت رسول الله ، خطبك فلان وفلانٌ فردّهم عنك وزوّجك فقيراً لا مالَ له ! فلما دخل عليها أبوها عليه السلام رأى ذلك فى وجهها ، فسألها فذكرت له ذلك ، فقال :

---

(١) ط : « أوصل » .

(٢) الكلام بعده إلى نهاية الفقرة التالية ساقط من ط .

يا فاطمة ، إن الله أمرنى فأنكحتك أقدمهم سلما ، وأكثرهم علما ، وأعظمهم حلما ، وما زوّجتك إلا بأمر من السماء . أما علمت أنه أخى فى الدنيا والآخرة ؟ !

وروى عثمان بن سعيد عن الحكم بن ظهير عن السدى ، أن أبا بكر وعمر خطبا فاطمة عليها السلام فردهما رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : لم أومر بذلك . فخطبها على عليه السلام فزوجه إياها وقال لها : زوجتك أقدم الأمة إسلاما . وذكر تمام الحديث .

قال : وقد روى هذا الخبر جماعة من الصحابة منهم أسماء بنت عميس ، وأم أيمن وابن عباس ، وجابر بن عبد الله .

قال : وقد روى محمد بن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه عن جده أبى رافع قال : أتيت أبا ذر بالربذة أودّعه ، فلما أردت الانصراف قال لى ولا ناس معى : ستكون فتنة فاتقوا الله ، وعليكم بالشيخ على بن أبى طالب فاتبعوه ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له : أنت أول من آمن بى ، وأول من يصافحنى يوم القيامة ، وأنت الصديق الأكبر ، وأنت الفاروق الذى يفرق بين الحق والباطل ، وأنت يعسوب المؤمنين ، والمال يعسوب الكافرين ، وأنت أخى ووزيرى وخير من أترك بعدى ، تقضى دينى وتنجز موعودى .

قال : وقد روى ابن أبى شيبة عن عبد الله بن نمير عن العلاء بن صالح عن المنهال ابن عمرو عن عباد بن عبد الله الأسدى قال :

سمعت على بن أبى طالب يقول : أنا عبد الله وأخو رسوله ، وأنا الصديق الأكبر لا يقولها غيرى إلا كذاب . ولقد صليت قبل الناس سبع سنين .

وروت معاذة بنت عبد الله العدوية قالت : سمعت عليا عليه السلام يخطب على منبر البصرة ويقول : أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر ، وأسلمت قبل أن يسلم .

وروى حبة بن جوين العرنى أنه سمع عليا عليه السلام يقول : أنا أول رجل

أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وآله . رواه أبو داود الطيالسى عن شعبة عن سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن حبة بن جوين .

وروى عثمان بن سعيد الحرار عن على بن حرار عن على بن عامر عن أبى الجحاف عن حكيم مولى زاذان قال : سمعت عليا عليه السلام يقول : صليت قبل الناس سبع سنين ، وكنا نسجد ولا نركع ، وأول صلاة ركعنا فيها صلاة العصر فقلت : يا رسول ما هذا ؟ قال : أمرت به .

وروى إسماعيل بن عمرو عن قيس بن الربيع عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال :

صلى رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، وصلى على يوم الثلاثاء بعده

وفى الرواية الأخرى عن أنس بن مالك : استنبىء النبى صلى الله عليه وآله يوم الاثنين وأسلم علىّ يوم الثلاثاء بعده .

وروى أبو رافع أن رسول الله صلى الله عليه وآله صلى أول صلاة صلاها غداة الاثنين ، وصلت خديجة آخر نهار يومها ذلك ، وصلى على عليه السلام يوم الثلاثاء غداة ذلك اليوم .

قال : وقد روى بروايات مختلفة كثيرة متعددة عن زيد بن أرقم وسلمان الفارسى وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك ، أن عليًّا عليه السلام أوّل من أسلم . وذكر الروايات والرجال بأسمائهم .

وروى سلمة بن كهيل عن رجاله الذين ذكرهم أبو جعفر فى الكتاب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أوّلكم ورودًا على الحوض أوّلكم إسلاما : على ابن أبى طالب » .

وروى يس بن محمد بن أيمن ، عن أبى حازم مولى ابن عباس ، عن ابن عباس قال : سمعت عمر بن الخطاب وهو يقول : كفُّوا عن على بن أبى طالب ؛ فإنى سمعت من

رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه خصالاً لو أنّ خصلة منها فى جميع آل الخطّاب كان أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس .

كنت ذات يوم وأبو بكر وعثمان وعبدالرحمن بن عوف وأبوعبيدة ، مع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نطلبه ، فانتهينا إلى باب أم سلمة فوجدنا عليًّا متكئا على نِجاف الباب(١) ، فقلنا : أرُونا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : هو فى البيت ، رويدكم . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فثرنا حوله ، فاتكأ على علىّ عليه السلام وضرب بيده على منكبه فقال : أبشر يا على بن أبى طالب ، إنك مخاصم وإنّك تخصم الناس بسبع لا يجاريك أحد فى واحدة منهن : أنت أول الناس إسلاماً وأعلمهم بأيام الله . وذكر الحديث

قال : وقد روى أبو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل هذا الحديث .

قال : وروى أبو أيوب الأنصارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لقد صلت الملائكة علىّ وعلى على عليه السلام سبع سنين . وذلك أنه لم يصلّ معى رجل فيها غيره .

قال أبو جعفر : فأما ما رواه الجاحظ من قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما تبعنى حرٌّ وعبد » . فإنه لم يسم فى هذا الحديث أبا بكر وبلالا ؛ وكيف وأبو بكر لم يشترِ بلالاً إلا بعد ظهور الإسلام بمكة ، فلما أظهر بلال إسلامه عذّبه أميةُ بن خلف ، ولم يكن ذلك حال إخفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة ولا فى أمر الإسلام .

وقد قيل إنه عليه السلام إنما عنى بالحرّ على بن أبى طالب ، وبالعبد زيد بن حارثة .

وروى ذلك محمد بن إسحاق .

قال : وقد روى إسماعيل بن نصر الصفار عن محمد بن ذكوان عن الشعبى قال : قال الحجاج للحسن وعنده جماعة من التابعين وذكر على بن أبى طالب : ما تقول

---

(١) النجاف : العتبة ، وهى أسكفة الباب .

أنت يا حسن ؟ فقال : ما أقول ؟ هو أول من صلى إلى القبلة ، وأجاب دعوة الرسول ، وإنه لعلى منزلة من ربه ، وقرابة من رسوله ، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردَّها أحد . فغضب الحجاج غضباً شديداً وقام عن سريره فدخل بعض البيوت ، وأمر بصرفنا .

قال الشعبي : وكنا جماعة ما منا إلا من نال من على عليه السلام ، مقاربة للحجاج ، غير الحسن بن أبي الحسن رحمه الله .

وروى محرز بن هشام عن إبراهيم بن سلمة عن محمد بن عبيد الله قال : قال رجل للحسن مالنا لا نراك تثنى على على وتقرظه ؟ قال : كيف وسيف الحجاج يقطر دما ، إنه لأول من أسلم ، وحسبكم بذلك .

قال : فهذه الأخبار ، وأما الأشعار المروية فمعروفة كثيرة منتشرة .

فمنها قول عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مجيباً للوليد بن عقبة بن أبي معيط :

وإن ولى الله بعد محمد ... على وفى كل المواطن صاحبه
وصى رسول الله حقاً وصنوه ... وأول من صلى ومن لان جانبه

وقال خزيمة بن ثابت فى هذا :

وصى رسول الله من دون أهله ... وفارسه قد كان فى سالف الزمن
وأول من صلى الله من الناس كلهم ... سوى خيرة النسوان والله ذو منن

وقال أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس حين بويع أبو بكر :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف ... عن هاشم ثم منها عن أبى حسن
أليس أول من صلى لقبلتهم ... وأعلم الناس بالأحكام والسنن

وقال أبو الأسود الدؤلى يهدد طلحة والزبير :

وإن علياً لكم مُصْحِرٌ ... يماثله الأسد الأسود
إما إنه أول العابديـ ... ـن بمكة والله لا يعبد

وقال سعيد بن قيس الهمدانى يرتجز بصفين :

هذا على وابن عم المصطفى أول من أجابه فيما روى
هو الإمام لا يبالى من غوى

وقال زفر بن يزيد بن حذيفة الأسدى :

فحوطوا علياً وانصروه فإنه وصى وفى الإسلام أول أول
ولن تخذلوه والحوادث جمة فليس لـكم عن أرضكم متحول

قال : والأشعار كالأخبار إذا امتنع فى مجىء القبيلين [1] التواطؤ والاتفاق كان ورودهما حجة .

فأما قول الجاحظ : « فأوسط الأمور أن نجعل إسلامهم معا » فقد أبطل بهذا ما احتجّ به لإمامة أبى بكر ، لأنه احتجّ بالسبق وقد عدل الآن عنه .

قال أبو جعفر : ويقال لهم : لسنا نحتاج من ذكر سبق على عليه السلام إلا مجامعتـكم إيانا على أنه أسلم قبل الناس . ودعواكم أنه أسلم وهو طفل دعوى غير مقبولة إلا لحجة . قلنا : قد ثبت إسلامه بحكم إقراركم . ولو كان طفلا لـكان فى الحقيقة غير مسلم ، لأن اسم الإيمان والإسلام والـكفر ، والطاعة والمعصية ، إنما يقع على البالغين دون الأطفال والمجانين .

وإذا أطلقتم وأطلقنا عليه اسم الإسلام فالأصل فى الإطلاق الحقيقة . كيف وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : أنت أول من آمن بى وأول من صدقنى . وقال لفاطمة : « زوّجتك أقدمهم سلماً » أو قال « إسلاماً » .

فإن قالوا : إنما دعاه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام على جهة العرض لا التـكليف ؟

قلنا : قد وافقتمونا على الدعاء — وحكم الدعاء حكم الأمر والتـكليف — ثم

(١) فى الأصل : « القبيلتين » ، صوابه فى ط .

ادعيتم أن ذلك كان على وجه العرض . وليس لكم أن تقبلوا معنى الدعاء إلا لحجة .

فإن قالوا : لعله كان على وجه التأديب والتعليم ، كما يعتمد مثل ذلك مع الأطفال .

قلنا : إن ذلك إنما يكون إذا تمكن الإسلام بأهله ، أو عند النشو عليه والولادة فيه . فأما فى دار الشرك فلا يقع مثل ذلك ، لاسيما إذا كان الإسلام غير معروف ولا معتاد بينهم . على أنه ليس من سنة النبي صلى الله عليه وسلم دعاء أطفال المشركين إلى الإسلام والتفريق بينهم وبين آبائهم قبل أن يبلغوا الحلم . وأيضاً فمن شأن الطفل اتباع أهله وتقليد أبيه والمضى على منشئه ومولده . وقد كانت منزلة النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ منزلة ضيق وشدة ووحدة ، وهذه منازل لا ينتقل إليها إلا من ثبت الإسلام عنده بحجة ، ودخل اليقين قلبه بعلم ومعرفة .

فإن قالوا : إن علياً عليه السلام كان يألف النبى صلى الله عليه وسلم ، فوافقه على طريق المساعدة له .

قلنا : إنه وإن كان يألفه فلم يكن يألفه أكثر من أبويه وإخوته وعمومته وأهل بيته ، ولم يكن الإلف ليخرجه مما نشأ عليه ، ولم يكن الإسلام مما غُذِى به وكرر على سمعه ، لأن الإسلام هو خَلْع الأنداد ، والبراءة ممن أشرك بالله ، وهذا لا يجتمع فى اعتقاد طفل .

ومن العجب قول العباس لعفيف بن قيس : « ننتظر الشيخ وما يصنع » فإذا كان العباس وحمزة ينتظران أبا طالب ويصدران عن رأيه ، فكيف يخالف ابنه ويؤثر القلة على الكثرة ، ويفارق المحبوب إلى المكروه ، والعز إلى الذل ، والأمن إلى الخوف ، من غير معرفةٍ ولا علم بما فيه .

فإما قوله : « إن المقلل يزعم أنه أسلم وهو ابن خمس سنين ، والمكثر يزعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين » فأول مايقال فى ذلك أن الأخبار جاءت فى سنه عليه السلام يوم أسلم على خمسة أقسام :

القسم (الأول) . الذين قالوا : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، حدثنا بذلك أحمد بن سعيد الأسدى عن إسحاق بن بشر القرشى عن الأوزاعى ، عن حمزة بن حبيب ، عن شداد بن أوس قال : سألت خباب بن الأرت عن إسلام على فقال : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ، ولقد رأيته يصلى قبل الناس مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ بالغ مستحكم البلوغ .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن أن أول من أسلم على بن أبى طالب وهو ابن خمس عشرة سنة

القسم (الثانى) : الذين قالوا : إنه أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة . رواه أبوقتادة الحرانى عن أبى حازم الأعرج عن حذيفة بن اليمان قال : كنا نعبد الحجارة ونشرب الخمر وعلىٌّ من أبناء أربع عشرة سنة قائم يصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ليلا ونهارا ، وقريش يومئذ تُسَافِه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يذبُّ عنه إلا على عليه السلام .

وروى ابن أبى شيبة عن جرير بن عبد الحميد قال : أسلم علىّ وهو ابن أربع عشرة سنة .

القسم (الثالث) : الذين قالوا أسلم وهو ابن إحدى عشرة سنة . رواه إسماعيل ابن عبد الله الرّقىّ عن محمد بن عمر عن عبد الله بن سمعان عن جعفر بن محمد عليهما السلام عن أبيه عن محمد بن على عليهما السلام : أن عليا حين أسلم كان ابن إحدى عشرة سنة .

وروى عبد الله بن زياد المدنى عن محمد بن على الباقر عليهما السلام قال : أول من آمن بالله على بن أبى طالب وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربع وعشرين سنة .

القسم (الرابع) : الذين قالوا : إنه أسلم وهو ابن عشر سنين . رواه نوح بن دراج عن محمد بن إسحاق قال : أول من آمن وصدّق بالنبوة على بن أبى طالب وهو ابن عشر سنين ، ثم أسلم زيد بن حارثة ، ثم أسلم أبو بكر وهو ابن ست وثلاثين سنة فيما بلغنا .

القسم (الخامس) : الذين قالوا إنه أسلم وهو ابن تسع سنين . رواه الحسن بن عنبسة الوراق عن سليم مولى الشعبي عن الشعبي قال : أول من أسلم من الرجال على بن أبى طالب وهو ابن تسع سنين ، وكان له يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع وعشرون سنة .

قال شيخنا أبو جعفر : فهذه الأخبار كما تراها . فإما أن يكون الجاحظ جهلها أو قصد العناد .

فأما قوله « فالقياس أن نأخذ بأوسط الأمرين من الروايتين فنقول : إنه أسلم وهو ابن سبع سنين » فإن هذا تحكم منه ، ويلزمه مثله فى رجل ادّعى قِبَلَ رجل عشرة دراهم فأنكر ذلك وقال : إنما يستحق قبلى أربعة دراهم ، فينبغى أن نأخذ الأمر المتوسط ويلزمه سبعة دراهم ، ويلزمه فى أبى بكر حيث قال قوم : كان كافرا وقال قوم : كان إماماً عادلا ، أن نقول : أعدل الأقاويل أوسطها ، وهو منزلة بين المنزلتين ، فنقول : كان فاسقاً ظالما . وكذلك فى جميع الأمور المختلف فيها .

فأما قوله : « وإنما يعرف حق ذلك من باطله بأن نحصى سنى ولاية عثمان وعمر وأبى بكر وسنى الهجرة ومقام النبى صلى الله عليه وسلم بمكة بعد الرسالة إلى أن هاجر » ، فيقال له : لو كانت الرواية متفقة على هذه التأريخات لكان لهذا القول مساغ ، لكن الناس قد اختلفوا فى ذلك ، فقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بعد الرسالة خمس عشرة ، رواه ابن عباس . وقيل ثلاث عشرة ، وروى [عن[1]] ابن عباس أيضاً . وأكثر الناس يردّونه . وقيل عشر سنين ، رواه عروة بن الزبير ، وهو قول الحسن البصرى وسعيد بن المسيب .

واختلفوا فى سن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قوم : كان ابن خمس وستين ، وقيل : كان ابن ثلاث وستين ، وقيل : كان ابن ستين . واختلفوا فى سن على عليه السلام ، فقيل كان ابن سبع وستين ، وقيل : كان ابن خمس وستين ،

(١) التكملة من ط .

وقيل : ابن ثلاث وستين ، وقيل ابن ستين ، وقيل : ابن تسع وخمسين . فكيف يمكن مع هذه الاختلافات تحقيق هذا الحال .

وإنما الواجب أن يرجع إلى إطلاق قولهم أسلم على ، فإن هذا الاسم لا يكون مطلقاً إلا على البالغ . على أن ابن إحدى عشرة سنة يكون بالغاً ويولد الأولاد . فقد روت[1] الرواة أن عمرو بن العاص لم يكن أسنّ من ابنه عبد الله إلا باثنتى عشرة سنة . وهذا يوجب أنه احتلم وبلغ فى أقل من إحدى عشرة سنة .

ورووا أيضاً أن محمد بن على بن عبد الله بن العباس كان أصغر من أبيه على بن عبد الله بن العباس بإحدى عشرة سنة .

فيلزم الجاحظ أن يكون عبد الله بن العباس حين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مسلم على الحقيقة ، ولا مثاب ، ولا مطيع بالإسلام ، لأنه كان يومئذ ابن عشر سنين . رواه هشيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين .

(٢)

لصفحة ٦ — ٩ من العثمانية

هذا كله مبنى على أنه أسلم وهو ابن سبع أو ثمان ، ونحن قد بينا أنه أسلم بالغاً ابن خمس عشرة سنة أو ابن أربع عشرة سنة . على أنا لو نزلنا على حكم الخصوم وقلنا ما هو الأشهر والأكثر من الرواية ، وهو أنه أسلم وهو ابن عشر ، لم يلزم ما قاله الجاحظ ، لأن ابن عشر قد يستجمع عقله ويعلم من مبادئ المعارف ما يستخرج به كثيرا من الأمور المعقولة . ومتى كان الصبى عاقلا مميزاً كان مكلفاً بالعقليات وإن كان تكليفه بالشرعيات موقوفاً على حد آخر وغاية أخرى ، فليس بمنكر أن يكون علىّ عليه السلام وهو ابن عشر قد عقل المعجزة فلزمه الإقرار بالنبوة ، وأسلم إسلام عارف ، لا إسلام مقلد تابع .

---

(١) فى الأصل : « ردت » ، صوابه فى ط .

وإن كان ما نسقه الجاحظ وعدده من معرفة السحر والنجوم ، والفصل بينهما وبين النبوة ، ومعرفة ما يجوز فى الحكمة مما لا يجوز وما لا يحدثه إلا الخالق ، والفرق بينه وبين ما يقدر عليه القادرون بالقدرة ، ومعرفة التمويه والخديعة والتلبيس والمكرة ، شرطاً فى صحة الإسلام لما صح إسلام أبى بكر ولا عمر ولا غيرهما من العرب ، وإنما التكليف لهؤلاء بالجمل[1] ومبادئ المعارف ، لا بدقائقها والغامض منها . وليس يفتقر الإسلام إلى أن يكون المسلم قد فاتح الرجال وجرب الأمور ونازع الخصوم ، وإنما يفتقر إلى صحة الغريزة وكمال العقل وسلامة الفطرة . ألا ترى أن طفلا لو نشأ فى دار لم يعاشر الناس بها ولا فاتح الرجال ولا نازع الخصوم ثم كمل عقله وحصلت العلوم البديهية عنده لكان مكلفاً بالعقليات .

فأما توهمه أن عليا عليه السلام أسلم عن تربية الحاضن وتلقين القيم ورياضة السائس ، فلعمرى إن محمدا صلى الله عليه وآله كان حاضنه وقيمه وسائسه ، ولكن لم يكن منقطعا عن أبيه أبى طالب ، ولا عن إخوته طالب وعقيل وجعفر ، ولا عن عمومته وأهل بيته ، وما زال مخالطا لهم ممتزجا بهم ، مع خدمته لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فما باله لم يمل إلى الشرك وعبادة الأصنام لمخالطته إخوته وأباه وعمومته وأهله ، وهم كثير ومحمد صلى الله عليه وآله واحد ، وأنت تعلم أن الصبى إذا كان له أهل ذوو كثرة وفيهم واحد يذهب إلى رأى مفرد لا يوافقه عليه غيره منهم فإنه إلى ذوى الكثرة أميل ، وعن ذى الرأى الشاذ المنفرد أبعد .

وعلى أن عليا عليه السلام لم يولد فى دار الإسلام وإنما ولد فى دار الشرك ، وربى بين المشركين وشاهد الأصنام ، وعاين بعينيه أهله ورهطه يعبدونها ، فلو كان فى دار الإسلام لكان فى القول مجال ، ولقيل إنه ولد بين المسلمين فإسلامه عن تلقين الظئر ، وعن سماع كلمة الإسلام ، ومشاهدة شعاره ؛ لأنه لم يسمع غيره ولا خطر بباله سواه ، فلما لم يكن ولد كذلك [ثبت أن إسلامه إسلام المميز العارف بما دخل عليه . ولولا

---

(١) فى الأصل : « بالجهل » ، صوابه فى ط .

أنه كذلك[1]] لما قدمه[2] رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك ، ولا أرضى ابنته فاطمة لما وجدت من تزويجه بقوله لها : « زوجتك أقدمهم سلما » . ولا قرن إلى ذلك قوله « وأكثرهم علما وأعظمهم حلما » والحلم : العقل . وهذان الأمران غاية الفضل . فلولا أنه أسلم إسلام عارف عالم مميز لما ضم إسلامه إلى العلم والحلم اللذين وصفه بهما . وكيف يجوز أن يمدحه بأمر لم يكن مثابا عليه ولا معاقبا عليه لو تركه .

ولو كان إسلامه عن تلقين وتربية لما افتخر هو عليه السلام على رءوس الأشهاد ولا خطب على المنبر ، وهو بين عدو محارب وخاذل منافق ، فقال : « أنا عبد الله وأخو رسوله ، وأنا الصديق الأكبر والفاروق الأعظم ، صليت قبل الناس سبع سنين ، وأسلمت قبل إسلام أبي بكر وآمنت قبل إيمانه » . فهل بلغكم أن أحدًا من أهل ذلك العصر أنكر ذلك أو عابه أو ادعاه لغيره أو قال له : إنما كنت طفلا أسلمت على تربية محمد صلى الله عليه وآله لك وتلقينه إياك ، كما تعلم الطفل الفارسية والتركية منذ يكون رضيعا ، فلا فخر له فى تعلم ذلك ، وخصوصًا فى عصر قد حارب فيه أهل البصرة والشام والنهروان ، وقد اعتورته الأعداء وهجته الشعراء . فقال فيه النعمان بن بشير :

لقد طلب الخلافة من بعيد ... وسارع فى الضلال أبو تراب
معاوية الإمامُ وأنت منها ... على وَتَحٍ بمنقطع السراب[3]

وقال فيه أيضا بعض الخوارج :

دسسنا له تحت الظلام ابن مُلجم ... جزاءً إذا ما جاء نفسا كتابها

وقال عمران بن حطان يمدح قاتله :

يا ضربة من تقى ما أراد بها ... إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره حيناً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

---

(١) التكملة من ط . (٢) ط : « مدحه » .
(٣) الوتح : القليل التافة .

فلو وجد هؤلاء سبيلا إلى دحض حجة فيما كان يفخر به من تقدم إسلامه لبدءوا بذلك وتركوا مالا معنى له .

وقد أوردنا ما مدحه الشعراء به من سبقه إلى الإسلام فكيف لم يرد على هؤلاء الذين مدحوه بالسبق شاعرٌ واحد من أهل حربه . ولقد قال فى أمهات الأولاد قولا خالف فيه عمر فذكروه بذلك وعابوه ، فكيف تركوا أن يعيبوه بما كان يفتخر به مما لا فخر فيه عندهم وعابوه بقوله فى أمهات الأولاد .

ثم يقال له[1] خَبِّرْنا عن عبد الله بن عمر ، وقد أجازه النبى صلى الله عليه وآله يوم الخندق ولم يجزه يوم أحد : هل [كانَ] يميز ماذكرته ، وهل كان يعلم فرق ما بين النبى المتنبى ويفصل بين السحر والمعجزة إلى غيره مما عدّدت وفصلت . فإن قال نعم وتجاسر على ذلك قيل له : فعلى عليه السلام بذلك أولى من ابن عمر ، لأنه أذكى وأفطن بلا خلاف بين العقلاء . وأنى يشك فى ذلك وقد رويتم أنه لم يميز بين الميزان والعود بعد طول السن وكثرة التجارب ، ولم يميز أيضا بين إمام الرشد وإمام الغى ، فإنه امتنع من بيعة على عليه السلام ، وطرق على الحجاج بابه ليلا ليبايع لعبد الملك ، كى لا يبيت تلك الليلة بلا إمام ، زعم . لأنه روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال : « من مات ولا إمام له مات ميتة جاهلية » ، وحتى بلغ من احتقار الحجاج له واسترذاله حاله أن أخرج رجله من الفراش فقال : أصفق بيدك عليها . فذلك تمييزه بين الميزان والعود ، وهذا اختياره فى الأئمة ، وحال على عليه السلام فى ذكائه وفطنته وتوقد حسِّه وصدق حدسه معلومة مشهورة . فإذا جاز أن يصح إسلام ابن عمر ويقال عنه إنه عرف تلك الأمور التى سردها الجاحظ ونسقها ، وأظهر فصاحته وتشادقه فيها . فعلى بمعرفة ذلك أحق ، وبصحة إسلامه أولى .

وإن قال : لم يكن ابن عمر يعلم ويعرف ذلك ، أبطل إسلامه وطعن فى رسول الله صلى الله عليه وآله ، حيث حكم بصحة إسلامه وأجازه يوم الخندق ، لأنه عليه السلام كان قال : لا أجيز إلا البالغ العاقل ، ولذلك لم يجزه يوم أحد . ثم يقال : إن ما نقوله

(١) كذا فى ط . وفى الأصل : « قلنا له » .

فى بلوغ على عليه السلام الحد الذى يحسن فيه التكليف العقلى بل يجب ، وهو ابن عشر سنين ، ليس بأعجب من مجىء الولد لستة أشهر . وقد صحح ذلك أهل العلم واستنبطوه من الكتاب وإن كان خارجاً من التعارف والتجارب والعادة . وكذلك مجىء الولد لسنتين خارج أيضاً عن التعارف والعادة ، وقد صححه الفقهاء والناس . ويروى أن معاذاً لما نهى عمر عن رجم الحامل تركها حتى ولدت غلاماً قد نبتت ثنيتاه فقال أبوه : ابنى ورب الكعبة ! فثبت ذلك سنة يعمل بها الفقهاء . وقد وجدنا العادة تقضى بأن الجارية تحيض لاثنتى عشرة سنة ، وأنه أقل سن تحيض فيه المرأة ، وقد يكون فى الأقل نساء يحضن لعشر ولتسع ، وقد ذكر ذلك الفقهاء ، وقد قال الشافعى فى اللعان : لو جاءت المرأة بحمل وزوجها صبى له دون عشر سنين لم يكن ولداً له ، لأن من لم يبلغ عشر سنين من الصبيان لا يولد له ، وإن كان له عشر سنين جاز أن يكون الولد له ، وكان بينهما لعان إذا لم يقر به ، وقال الفقهاء أيضاً : إن نساء تهامة يحضن لتسع سنين ، لشدة الحر ببلادهن .

(٣)

لصفحة ٩ — ١٢ من العثمانية

إن مثل الجاحظ ، مع فضله وعلمه ، لا يخفى عليه كذب هذه الدعوى وفسادها ، ولكنه يقول ما يقول تعصباً وعناداً . وقد روى الناس كافة افتخار على عليه السلام بالسبق إلى الإسلام ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم استنبىء يوم الاثنين وأسلم على يوم الثلاثاء ، وأنه كان يقول : صليت قبل الناس سبع سنين ، وأنه مازال يقول : أنا أول من أسلم ، ويفتخر بذلك ويفتخر له به أولياؤه ومادحوه وشيعته فى عصره وبعد وفاته . والأمر فى ذلك أشهر من كل شهير ، وقد قدمنا طرفاً منه . وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخف بإسلام على عليه السلام ولا تهاون به ، ولا زعم أنه أسلم إسلام حدث غرير ، وطفل صغير . ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أبا طالب [وفعله[1]] ليصدرا عن رأيه ، ثم يخالفه على ابنه لغير رغبة ولا رهبة ، يؤثر القلة على

(١) هذه التكملة من ط .

الكثرة ، والذل على العزة ، من غير علم ولا معرفة بالعاقبة . وكيف ينكر الجاحظ والعثمانية أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعاه إلى الإسلام وكلفه التصديق ، وروى فى الخبر الصحيح أنه كلفه فى مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الإسلام وانتشارها بمكة أن يصنع له طعاماً ، وأن يدعو له بنى عبد المطلب ، فصنع له الطعام ودعاهم له ، فخرجوا ذلك اليوم ، ولم ينذرهم صلى الله عليه وآله لكلمة قالها عمه أبو لهب ، فكلفه اليوم الثانى أن يصنع مثل ذلك الطعام وأن يدعوهم ثانية ، فصنعه ودعاهم فأكلوا ، ثم كلمهم صلى الله عليه وآله فدعاهم إلى الدين ودعاه معهم لأنه من بنى عبد المطلب ، ثم ضمن لمن يوازره منهم وينصره على قوله أن يجعله أخاه فى الدين ووصيه بعد موته ، وخليفته من بعده ، فأمسكوا كلهم وأجابه هو وحده وقال : أنا أنصرك على ما جئت به ، وأوازرك وأبايعك ! فقال لهم لما رأى منهم الخذلان ومنه النصر ، وشاهد منهم المعصية ومنه الطاعة ، وعاين منهم الإباء ومنه الإجابة : هذا أخى ووصيّي وخليفتى من بعدى ! فقاموا يسخرون ويضحكون ويقولون لأبى طالب : أطع ابنك فقد أمّره عليك ! فهل يكلف عمل الطعام ودعاء القوم صغير غير مميز ، وغر غير عاقل ؟! وهل يؤتمن على سر النبوة طفل ابن خمس سنين أو ابن سبع ؟ ! وهل يدعى فى جملة الشيوخ والكهول إلا عاقل لبيب ؟ ! وهل يضع رسول الله صلى الله عليه وآله يده فى يده ويعطيه صفقة يمينه بالأخوة والوصية والخلافة إلا وهو أهل لذلك ، بالغ حد التكليف ، محتمل لولاية الله ،وعداوة أعدائه ؟ !

وما بال هذا الطفل لم يأنس بأقرانه ولم يلصق بأشكاله ، ولم يُرَ مع الصبيان فى ملاعبهم بعد إسلامه ، وهو كأحدهم فى طبقته كبعضهم فى معرفته . وكيف لم ينزع إليهم فى ساعة من ساعاته فيقال : دعاه نقص الصبا وخاطر من خواطر الدنيا ، وحملته الغرة والحداثة على حضور لهوهم والدخول فى حالهم ، بل ما رأيناه إلا ماضيا على إسلامه ، مصمما فى أمره ، محققا لقوله بفعله ، وقد صدق إسلامه بعفافه وزهده ، ولصق برسول الله صلى الله عليه وآله من بين جميع من بحضرته ، فهو أمينه وأليفه فى دنياه

وآخرته . وقد قهر شهوته ، وجاذب خواطره ، صابرا على ذلك نفسه ؛ لما يرجوه من فوز العاقبة وثواب الآخرة .

وقد ذكر هو عليه السلام فى كلامه وخطبه بدء حاله وافتتاح أمره حيث أسلم لما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله الشجرة فأقبلت تخدّ الأرض ، فقالت قريش : ساحر خفيف السحر! فقال على عليه السلام : يارسول الله ، أنا أول من يؤمن بك ، آمنت بالله ورسوله وصدقتك فيما جئت به ، وأنا أشهد أن الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله تصديقا لنبوتك ، وبرهانا على صحة دعوتك . فهل يكون إيمان قط أصح من هذا الإيمان وأوثق عقدة وأحكم مِرّة ؟! ولكن حنق العثمانية وغيظهم وعصبية الجاحظ وانحرافه ، مما لاحيلة فيه .

ثم لينظر المنصف وليدع الهوى جانباً ليعلم نعمة الله على عليه السلام بالإسلام ، حيث أسلم على الوضع الذى أسلم عليه ، فإنه لولا الألطاف التى خص بها ، والهداية التى منحها له ، لما كان إلا كبعض أقارب محمد صلى الله عليه وأهله . فقد كان ممازجاً له كممازجته ، ومخالطاً له كمخالطة كثير من أهله ورهطه ، ولم يستجب منهم أحد له إلا بعد حين ، ومنهم من لم يستجب له أصلا ، فإن جعفرا عليه السلام كان ملتصقاً به ولم يسلم حينئذ . وكان عتبة بن أبى لهب ابن عمه وصهره زوج ابنته ولم يصدقه ، بل كان شديدا عليه ، وكان لخديجة بنون من غيره ولم يسلموا حينئذ وهم ربائبه ومعه فى دار واحدة ، وكان أبو طالب أباه فى الحقيقة ، وكافله وناصره ، والمحامى عنه ، ومن لولاه لم تقم له قائمة ، ومع ذلك لم يُسلم فى أغلب الروايات . وكان العباس عمه وصنو أبيه ، وكالقرين له فى الولادة والمنشأ والتربية ، ولم يستجب له إلا بعد حين طويل . وكان أبو لهب عمّه وكدمِه ولحمه ، ولم يسلم ، وكان شديدا عليه ، فكيف ينسب إسلام على عليه السلام إلى الإلف والتربية والقرابة واللحمة ، والتلقين والحضانة والدار الجامعة وطول العشرة ، والأنس والخلوة . وقد كان كل ذلك حاصلا لهؤلاء أو لكثير منهم ، ولم يهتد أحد منهم إذ ذاك ، بل كانوا بين من جحد وكفر ومات على كفره ، ومن أبطأ وتأخر وسبق بالإسلام وجاء سُكَّيتا وقد فاز بالمنزلة غيره .

وهل يدل تأمل حال على عليه السلام مع الإنصاف إلا على أنه أسلم ، لأنه شاهد الأعلام ورأى المعجزات وشم ريح النبوة ، ورأى نور الرسالة ، وثبت اليقين فى قلبه بمعرفةٍ وعلم ونظر صحيح ، لا بتقليد ولا حمية ، ولا رغبة ولا رهبة إلا فيما يتعلق بأمور الآخرة .

(٤)

ص ٢٢ من العثمانية

ينبغى أن ينظر أهل الإنصاف هذا الفصل ويقفوا على قول الجاحظ[١] والأصم فى نصرة العثمانية ، واجتهادهما فى القصد إلى فضائل هذا الرجل وتهجينها ، فمرة يبطلان معناها ، ومرة يتوصلان إلى حط قدرها . فلينظر فى كل باب اعترضا فيه أين بلغت حيلتهما ؟ وما صنعا فى احتيالهما فى قصصهما وسجعهما ؟ أليس إذا تأملتها علمت أنها ألفاظ ملفقة بلا معنى ، وأنها عليها شجًى وبلاء ، وإلا فما عسى أن تبلغ حيلة الحاسد ويغنى كيد الكائد الشانئ لمن قد جل قدره عن النقص ، وأضاءت فضائله إضاءة الشمس .

وأين قول الجاحظ من دلائل السماء ، وبراهين الأنبياء وقدعلم الصغير والكبير ، والعالم والجاهل ممن بلغه ذكر على عليه السلام ، وعلم مبعث النبى صلى الله عليه وآله أن عليا عليه السلام لم يولد فى دار الإسلام ، ولا غذى فى حِجر الإيمان ، وإنما استضافه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى نفسه سنة القحط والمجاعة . وعمره يومئذ ثمانى سنين ، فمكث معه سبع سنين حتى أتاه جبرئيل بالرسالة ، فدعاه وهو بالغ كامل العقل إلى الإسلام ، فأسلم بعد مشاهدة المعجزة ، وبعد إعمال النظر والفكرة . وإن كان قد ورد فى كلامه أنه صلى سبع سنين قبل الناس كلهم فإنما يعنى ما بين الثمان والخمس عشرة ، ولم يكن حينئذ دعوة ولا رسالة ولا ادعاء نبوة ، وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتعبد على ملة إبراهيم ودين الحنيفية ، ويتحنث ويجانب

---

(١) هذا ما فى ط . وفى الأصل : « الأخرى » .

الناس ويعتزل ويطلب الخلوة وينقطع فى جبل حراء ، وكان على عليه السلام معه كالتابع والتلميذ ، فلما بلغ الحلم وجاءت النبى صلى الله عليه وآله الملائكة وبشرته بالرسالة ، دعاه فأجابه عن نظر ومعرفة بالأعلام فى المعجزة ، فكيف يقول الجاحظ إن إسلامه لم يكن مقتضبا ؟ !

وإن كان إسلامه ينقص عن إسلام غيره فى الفضيلة لما كان يمرن عليه من التعبد مع رسول الله صلى الله عليه وآله قبل الدعوة ، ليكونن طاعة كثير من المكلفين أفضل من طاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وأمثاله من المعصومين ، لأن العصمة عند أهل العدل لطف يمنع من اختص به من ارتكاب القبيح ، فمن اختص بذلك اللطف كانت الطاعة عليه أسهل ، فوجب أن يكون ثوابه أنقص من ثواب مَن أطاع مع تلك الألطاف .

وكيف يقول الجاحظ إن إسلامه ناقص عن إسلام غيره وقد جاء فى الخبر أنه أسلم يوم الثلاثاء واستنبئ النبى صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ، فمن هذه حاله لم تكثر حجج الرسالة على سمعه ، ولا تواترت أعلام النبوة على مشاهدته ، ولا تطاول الوقت عليه لتخف محنته ويسقط ثقل تكليفه ، بل بان فضله وظهر حسن اختياره لنفسه ، إذ أسلم حال بلوغه ، وعانى نوازع طبعه ، ولم يؤخر ذلك بعد سماعه .

وقد عمر الجاحظ فى كتابه هذا أن أبا بكر كان قبل إسلامه مذكورا ، ورئيسا معروفا ، يجتمع إليه كثير من أهل مكة فينشدون الأشعار ويتذاكرون الأخبار ويشربون الخمر ، وقد كان سمع دلائل النبوة ، وحجج الرسل ، وسافر إلى البلدان ووصلت إليه الأخبار ، وعرف دعوى الكهنة وحِيَل السحرة ، ومن كان كذلك كان انكشاف الأمور له أظهر ، والإسلام عليه أسهل ، والخواطر على قلبه أقل اعتلاجا ، وكل ذلك عون لأبى بكر على الإسلام ، ومسهل إليه سبيله ، ولذلك لما قال النبى صلى الله عليه وآله : « أتيت بيت المقدس » سأله أبو بكر عن المسجد ومواضعه ، فصدقه وبان له أمره ، وخفت مؤنته لما تقدم من معرفته بالبيت . فخرج إذاً إسلام أبى بكر على قول الجاحظ من معنى المقتضب .

وفى ذلك رويتم عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا وكان له تردد ونبوة إلا ما كان من أبى بكر فإنه لم يتلعثم حتى هجم به اليقين إلى المعرفة والإسلام . فأين إسلام هذا وإسلام من خُلِّى وعقله ، وأُلجئ إلى نظره مع صغر سنه واعتلاج الخواطر على قلبه ، ونشأته فى ضد ما دخل فيه ، والغالب على أمثاله وأقرانه حب اللعب واللهو . فلجأ إلى ما ظهر له من دلائل الدعوة ، ولم يتأخر إسلامه فيلزمه التقصير بالمعصية ، فقهر شهوته ، وغالب خواطره ، وخرج من عادته وما كان غُذِى به ، لصحة نظره ، ولطافة فكره ، وغامض فهمه ؛ فعظم استنباطه ، ورجح فضله ، وشرف قدر إسلامه ، ولم يأخذ من الدنيا بنصيب ولا تنعم فيها بنعيم ، حدثاً ولا كبيرا ، [وحمى نفسه عن الهوى(١)] ، وكسر شِرَّة حداثته بالتقوى ، واشتغل بهمٍّ الدين عن نعيم الدنيا ، وأشغل(٢) هم الآخرة قلبه ، ووجه إليه رغبته ، فإسلامه هو السبيل الذى لم يسلم عليه أحد غيره ، وما سبيله فى ذلك إلا كسبيل الأنبياء ، ليعلم أن منزلته من النبى صلى الله عليه وآله كمنزلة هارون من موسى ، وأنه وإن لم يكن نبيا فقد كان فى سبيل الأنبياء سالكا ، ولمنهاجهم متبعا ، وكانت حاله كحال إبراهيم عليه السلام ، فإن أهل العلم ذكروا أنه لما كان صغيرا جعلته أمه فى سَرَب لم يطلع عليه أحد ، فلما نشأ ودرج وعقل قال لأمه : من ربى ؟ قالت : أبوك . قال : فمن رب أبى ؟ فزبرته ونهرته ، إلى أن اطلع من شق السرب فرأى كوكبا فقال : هذا ربى . فلما أفل قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربى . فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى هذا أكبر . فلما أفلت قال : ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وفى ذلك يقول الله جل ثناؤه : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكونَ من الموقنين » . وعلى هذا كان إسلام الصديق الأكبر

---

(١) التكملة من ط .

(٢) كذا فى النسختين ، ولعلها « أشعر » .

عليه السلام . لسنا نقول إنه كان مساويا له فى الفضيلة ، ولكن كان مقتديا بطريقه ، على ما قال الله تعالى : « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » .

وأما اعتلال الجاحظ[1] بأن له ظهراً كأبى طالب ، ورِدءاً كبنى هاشم ، فإنه يوجب عليه أن يكون محنة أبى بكر وبلال وثوابهما وفضل إسلامهما أعظم مما لرسول الله صلى الله عليه وآله ، لأن أبا طالب ظهره ، وبنى هاشم ردؤه . وحسبك جهلا من معاندٍ لم يستطع حط قدر على عليه السلام إلا بحطه من قدر رسول الله صلى الله عليه وآله .

ولم يكن أحد أشد على رسول الله صلى الله عليه وآله من قراباته الأدنى منهم فالأدنى كأبى لهب عمه ، وامرأة أبى لهب ، وهى أم جميل بنت حرب بن أمية وإحدى أولاد عبد مناف . ثم ما كان من عقبة بن أبى مُعيط وهو ابن عمه ، وما كان من النضر بن الحارث وهو من بنى عبد الدار بن قصى وهو ابن عمه أيضا ، وغير هؤلاء ممن يطول تعداده ، وكلهم كان يطرح الأذى فى طريقه وينقل أخباره ، ويرميه بالحجارة ، ويرمى الكرش والفرث[2] عليه . وكانوا يؤذون عليا عليه السلام كأذاه ، ويجتهدون فى غمه ويستهزئون به ، وما كان لأبى بكر قرابة تؤذيه كقرابة على . ولما كان بين على وبين النبى صلى الله عليه وآله من الاتحاد والإلف والاتفاق ، أحجم المنافقون بالمدينة عن أذى رسول الله صلى الله عليه وآله خوفا من سيفه وأنه صاحب الدار والجيش ، وأمره مطاع وقوله نافذ ، فخافوا على دمائهم منه فاتقوه ، وأمسكوا عن إظهار بغضه وأظهروا بغض على عليه السلام وشنآنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله فى حقه الخبر الذى روى فى جميع الصحاح : « لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق » . وقال كثير من أعلام الصحابة كما روى فى الخبر المشهور بين المحدثين : « ما كنا نعرف المنافقين إلا ببغض على بن أبى طالب » . وأين كان ظهر

(١) هذا ما فى ط . وبدلها فى الأصل : « وقوله » فقط .
(٢) فى الأصل : « والضرب » صوابه فى ط .

أبى طالب من جعفر وقد أزعجه الأذى عن وطنه حتى هاجر إلى بلاد الحبشة وركب البحر . أيتوهم الجاحظ أن أبا طالب نصر عليا وخذل جعفراً ؟!

(٥)

ص ٢٥ — ٢٧ من العثمانية

أما ما ذكره من كثرة المال والصديق ، واستفاضة الذكر وبعد الصيت ، وكبر السن ، فكلُّه عليه لا له . وذلك لأنه قد علم أن من سيرة العرب وأخلاقها حفظ الصديق ، والوفاء بالذمام ، والتهيب لذى الثروة ، واحترام ذى السن العالية ، وفى كل هذا ظهر شديد وسند ، وثقة يعتمد عليها عند المحن ، ولذلك كان المرء منهم إذا تمكن من صديقه أبقى عليه واستحيا منه ، وكان ذلك سببا لنجاته والعفو عنه .

على أن على بن أبى طالب عليه السلام إن لم يكن شَهَرَه سنه فقد شهره نسبه وموضعُه من بنى هاشم ، وإن لم يستفضْ ذكره بلقاء الرجال وكثرة الأسفار استفاضَ بأبى طالب . فأنتم تعلمون أنه ليس تيم فى بعد الصيت كهاشم ، ولا أبو قحافة كأبى طالب . وعلى حسب ذلك يعلو ذكر الفتى على ذى السن ، ويبعد صيت الحدث على الشيخ .

ومعلوم أيضاً أن علياً على أعناق المشركين أثقل ، إذ كان هاشمياً وإن كان أبوه حامى رسول الله صلى الله عليه وآله والمانع لحوزته . وعلىٌّ هو الذى فتح على العرب باب الخلاف واستهان بهم بما أظهر من الإسلام والصلاة ، وخالف رهطه وعشيرته وأطاع ابن عمه فيما لم يعرف من قبل ، ولا عهد له نظير ، كما قال تعالى : « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » .

ثم كان بعد صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله ومشتكى حزنه ، وأنيسه فى خلوته وجليسه ، وأليفه فى أيامه كلها . وكل هذا يوجب التحريض عليه ومعاداة العرب له .

ثم أنتم معاشر[1] العثمانية تثبتون لأبى بكر فضيلة بصحبة الرسول صلى الله عليه

(١) ط : « معشر »

وآله من مكة إلى يثرب ، ودخوله معه فى الغار ، فقلتم : مرتبة شريفة ، وحالة جليلة ، إذ كان شريكه فى الهجرة ، وأنيسه فى الوحشة ، فأين هذه من صحبة على عليه السلام له فى خلوته ، وحيث لا يجد أنيساً غيره ليلَه ونهاره ، أيام مقامه بمكة يعبد الله معه سرا ، ويتكلف له الحاجة جهرا ، ويخدمه كالعبد يخدم مولاه ، ويشفق عليه ويحوطه ، وكالولد يبر والده ويعطف عليه .

ولما سئلت عائشة : من كان أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قالت : أما من الرجال فعلى ، وأما من النساء ففاطمة .

(٦)

ص ٢٧ — ٣١ من العثمانية

أما القول فممكن والدعوى سهلة ، سيما على مثل الجاحظ ، فإنه ليس على لسانه من دينه وعقله رقيب ،وهو من دعوى الباطل غير بعيد ، فمعناه نزر ، وقوله لغو ، ومطلبه سجع ، وكلامه لعب ولهو ، يقول الشيء وخلافه ويحسن القول وضده ، ليس له من نفسه واعظ ، ولا لدعواه حد قائم . وإلا فكيف تجاسر على القول بأن عليا حينئذ لم يكن مطلوبا ولا طالبا ؟ ! وقد بينا بالأخبار الصحيحة والحديث المرفوع المسند أنه كان يوم أسلم بالغا كاملا ، منابذا بلسانه وقلبه لمشركى قريش ، ثقيلا على قلوبهم ، وهو المخصوص دون أبى بكر بالحصار فى الشعب ، وصاحب الخلوات برسول الله صلى الله عليه وآله فى تلك الظلمات ، المتجرع لغصص المرار من أبى لهب وأبى جهل وغيرهما ، والمصطلى لكل مكروه ، والشريك لنبيه فى كل أذى ، قد نهضَ بالحمل الثقيل ، وبان بالأمر الجليل . ومن الذى كان يخرج ليلا من الشعب على هيئة السارق ، ويخفى نفسه ويضائل شخصه ، حتى يأتى إلى من يبعثه إليه أبو طالب من كبراء قريش ، كمطعم بن عدى وغيره ، فيحمل لبنى هاشم على ظهره أعدال الدقيق والقمح ، وهو على أشد خوف من أعدائهم كأبى جهل وغيره ، لو ظفروا به لأراقوا دمه . أعلى كان يفعل ذلك أيام الحصار فى الشعب أم أبو بكر ؟

وقد ذكر هو عليه السلام حاله يومئذ ، فقال فى خطبة له مشهورة : « فتعاقدوا ألا يعاملونا ولا يناكحونا ، وأوقدت الحرب علينا نيرانها ، واضطرونا إلى جبل وعر ، مؤمننا يرجو الثواب ، وكافرنا يحامى عن الأصل » . ولقد كانت القبائل كلها اجتمعت عليهم ، وقطعوا عنهم المادة والميرة ، فكانوا يتوقعون الموت جوعاً صباحاً ومساء ، لا يرَون وجهاً ولا فرجاً ، قد اضمحل عزمهم وانقطع رجاؤهم ، فمن الذى خلص إليه مكروه تلك المحن بعد محمد صلى الله عليه وآله إلا على عليه السلام وحده . وما عسى أن يقول الواصف والمطنب فى هذه الفضيلة من تقصِّى معانيها وبلوغ غاية كنهها وفضيلة الصابر عندها . ودامت هذه المحنة ثلاث سنين حتى[1] انفرجت عنهم بقصة الصحيفة . والقصة مشهورة .

وكيف يستحسن الجاحظ لنفسه أن يقول فى على عليه السلام : إنه قبل الهجرة كان وادعاً رافهاً ، لم يكن مطلوباً ولا طالباً ، وهو صاحب الفراش ، الذى فدى رسول الله صلى الله عليه وآله بنفسه ، ووقاه بمهجته ، واحتمل السيوف ، ورضخ الحجارةِ دونه . وهل ينتهى الواصف وإن أطنب ، والمادح وإن أسهب ، إلى الإبانة عن مقدار هذه الفضيلة ، والإيضاح لمزية هذه الخصيصة .

فأما قوله : « إن أبا بكر عذب بمكة » فإنا لا نعلم أن العذاب كان واقعاً إلا بعبد أو عسيف ، أو لمن لا عشيرة له تمنعه . فأنتم فى أبى بكر بين أمرين : تارة تجعلونه دخيلا ساقطاً وهجيناً ، رذيلا مستضعفا [ذليلا] ، وتارة تجعلونه رئيساً متبعاً وكبيراً مطاعاً ، فاعتمدوا على أحد القولين لنكلمكم بحسب ما تختارونه لأنفسكم .

ولو كان الفضل فى الفتنة والعذاب لكان عمار وخباب وبلال وكل معذب بمكة أفضل من أبى بكر ، لأنهم كانوا من العذاب فى أكثر مما كان فيه ، ونزل فيهم من القرآن مالم ينزل فيه ، كقوله تعالى : « والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا » قالوا : نزلت فى خباب وبلال . ونزل فى عمار قوله : « إلا مَن أُكرِهَ وقلبهُ

---

(١) فى الأصل : « لو » ، صوابه فى ط .

مُطمئن بالإيمان » . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يمر على عمار وأبيه وأمه وهم يعذبون ، يعذبهم بنو مخزوم لأنهم كانوا حلفاءهم ، فيقول : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة ! » . وكان بلال يقلب على الرمضاء وهو يقول : أحد أحد ! ! وما سمعنا لأبى بكر فى شىء من ذلك ذكراً .

ولقد كان لعلى عليه السلام عنده يد غرّاء — إن صح ما رويتموه فى تعذيبه — لأنه قتل نوفل بن خويلد ، وعمير[1] بن عثمان يوم بدر . ضرب نوفلا فقطع ساقه فقال : أذكرك الله والرحم ! فقال : قد قطع الله كل رحم وصهر ، إلا من كان تابعاً لمحمد ! ! ثم ضربه أخرى ففاضت نفسه . وصمد لعمير[2] بن عثمان التيمى فوجده يروم الهرب وقد ارتج عليه المسلك ، فضربه على شراسيف[3] صدره ، فصار نصفه الأعلى بين رجليه . وليس أن أبا بكر لم يطلب بثأره منهما ويجتهد ، [لكنه] لم يقدر على أن يفعل فعل على عليه السلام ، فبان على عليه السلام بفعله دونه .

(٧)

ص ٢٨ — ٢٩ من العثمانية

كيف كانت بنو جمح تؤذى عثمان بن مظعون وتضربه وهو فيهم ذو سطوة وقدر ، وتترك أبا بكر يبنى مسجداً يفعل فيه ما ذكرتم . وأنتم الذين رويتم عن ابن مسعود أنه قال : « ما صلينا ظاهرين حتى أسلم عمر بن الخطاب » . والذى تذكرونه من بناء المسجد كان قبل عمر ، فكيف هذا ؟

وأما ما ذكرتم من رقة صوته وعَتَاق[4] وجهه فكيف يكون ذلك وقد روى الواقدى وغيره ، أن عائشة رأت رجلا من العرب خفيف العارضين ، معروق الخدين ،

---

(١) هذه من ط .

(٢) فى الأصل : « عمر » ، صوابه فى ط والسيرة ٥٠٨ .

(٣) كذا فى ط . وفى الأصل : « شرسوف » .

(٤) العتاق : العتق .

غائر العينين ، أجنأ[1] لا يمسك إزاره ، فقالت : ما رأيت أشبه بأبى بكر من هذا .
فلا[ٌ] اها دلت على شىء من الجمال فى صفته .

(٨)

ص ٣١ — من العثمانية

هذا الكلام وهُجر السكران سواء فى تقارب المخرج واضطراب المعنى ، وذلك أن قريشاً لم تقدر على أذى النبى صلى الله عليه وآله وأبو طالب حى يمنعه ، فلما مات طلبته لتقتله ، فخرج تارة إلى بنى عامر ، وتارة إلى ثقيف ، وتارة إلى بنى شيبان ، ولم يكن يتجاسر على المقام بمكة إلا مستتراً حتى أجاره مطعم بن عدى ، ثم خرج إلى المدينة فبذلت فيه مائة بعير لشدة حنقها عليه ، حين فاتها فلم تقدر عليه . فما بالها بذلت فى أبى بكر مائة بعير أخرى وقد كان ردّ الجوارَ وبقى بينهم فرداً لا ناصر له ، ولا دافع عنده ، يصنعون به ما يريدون . إما أن يكونوا أجهل البرية كلها ، أو يكون العثمانية أكذب جيل فى الأرض وأوقحه وجهاً . وهذا مما لم يذكر فى سيرة ، ولا روى فى أثر ، ولا سمع به بشر ، ولا سبق الجاحظ به أحد .

(٩)

ص ٣١ — من العثمانية

ما أعجب هذا القول ، إذ تدعى العثمانية لأبى بكر الرفق فى الدعاء وحسن الاحتجاج وقد أسلم ومعه فى منزله ابنه عبد الرحمن فما قدر أن يدخله الإسلام طوعا برفقه ولطف احتجاجه ، ولا كرهاً بقطع النفقة عنه وإدخال المكروه عليه ، ولا كان لأبى بكر عند ابنه عبد الرحمن من القدر ما يطيعه فيما يأمره به ويدعوه إليه ، كما روى أن أبا طالب فقد النبى صلى عليه وآله يوماً وكان يخاف عليه من قريش أن يغتالوه فخرج ومعه ابنه جعفر يطلبان النبى صلى الله عليه وآله ، فوجده قائماً فى بعض شعاب

(١) الأجنأ من الجنأ ، وهو ميل الظهر .

مكة يصلى وعلى عليه السلام معه عن يمينه ، فلما رآهما أبو طالب قال لجعفر : تَقدمْ وصِلْ جَناح ابن عمك ! فقام جعفر عن يسار محمد صلى الله عليه وسلم فلما صاروا ثلاثة تقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وتأخر الأخوانِ ، فبكى أبو طالب وقال :

إن عليا وجعفرًا ثقتى عند ملم الخطوب والنوب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما أخى لأمى من بينهم وأبى
والله لا أخذل النبىّ ولا يخذله من بنىّ ذو حسب

فتذكر الرواة أن جعفراً أسلم منذ ذلك اليوم لأن أباه أمره بذلك وأطاع أمره . وأبوبكر لم يقدر على إدخال ابنه عبدالرحمن فى الإسلام ، حتى أقام بمكة على كفره ثلاث عشرة سنة . وخرج يوم أحد فى عسكر المشركين ينادى : أناعبد الرحمن بن عتيق هل من مبارز ! ! ثم مكث بعد ذلك على كفره حتى أسلم عام الفتح ، وهو اليوم الذى دخلت فيه قريش فى الإسلام طوعا وكرها ، ولم يجد أحد منها إلى ترك ذلك سبيلا .

وأين كان رفق أبى بكر وحسن احتجاجه عند أبيه أبى قحافة وهما فى دار واحدة ؟ هلا رفق به ودعاه إلى الإسلام فأسلم . وقد علمتم أنه بقى على الكفر إلى يوم الفتح فأحضره ابنه عندالنبى صلى الله عليه وآله وهو شيخ كبير رأسه كالثغامة[1] فنفر رسول الله صلى الله عليه وآله منه وقال : غيروا هذا . فخضبوه ثم جاءوا به مرة أخرى فأسلم . وكان أبو قحافة فقيرا مدقعا سيئ الحال وأبو بكر عندهم كان مثريا فائض المال ، فلم يمكنه استمالته إلى الإسلام بالنفقة والإحسان . وقد كانت امرأة أبى بكر أم عبد الله ابنه — واسمها نملة بنت عبد العزى بن أسعد بن عبد ود العامرية — لم تسلم وأقامت على شركها بمكة ، وهاجر أبو بكر وهى كافرة ، فلما نزل قوله تعالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » فطلقها أبو بكر . فمن عجز عن ابنه وأبيه وامرأته فهو عن غيرهم من الغرباء أعجز ، ومن لم يقبل منه أبوه وابنه وامرأته لا برفق واحتجاج ، ولا خوفاً من قطع النفقة عنهم وإدخال المكروه عليهم فغيرهم أقل قبولا منه ، وأقل خلافاً عليه .

---

(١) الثغام ، كسحاب : ضرب من النبات أبيض .

(١٠)

ص ٣١ — ٣٢ من العثمانية

أخبرونا من هذا الذى أسلم ذلك اليوم من أهل بيت أبى بكر ، إذا كانت امرأته لم تسلم وابنه عبد الرحمن لم يسلم وأبو قحافة لم يسلم ، وأخته أم فروة لم تسلم ، وعائشة لم تكن قد ولدت فى ذلك الوقت ، لأنها ولدت بعد مبعث النبى صلى الله عليه وآله بخمس سنين ، ومحمد بن أبى بكر ولد بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله بثلاث وعشرين سنة ، لأنه ولد فى حجة الوداع . وأسماء بنت أبى بكر التى قد روى الجاحظ هذا الخبر عنها كانت يوم بعث رسول الله صلى الله عليه وآله بنت أربع سنين ، وفى رواية من يقول : بنت سنتين . فمن الذى أسلم من أهل بيته يوم أسلم . نعوذ بالله من الجهل والكذب والمكابرة . وكيف أسلم سعد والزبير وعبد الرحمن بدعاء أبى بكر وليسوا من رهطه ولا من أترابه ولا من جلسائه ولا كانت بينهم قبل ذلك صداقة متقدمة ولا أنس وَكِيد . وكيف ترك أبو بكر عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة لم يدخلهما فى الإسلام برفقه وحسن دعائه ، وقد زعمتم أنهما كانا يجلسان إليه لعلمه وطريف حديثه . وما باله لم يُدخل جبير بن مطعم فى الإسلام وقد ذكرتم أنه أدَّبه وخرجه ، ومنه أخذ جبير العلم بأنساب قريش ومآثرها . فكيف عجز عن هؤلاء الذين عددناهم — وهم منه بالحال التى وصفنا — ودعا من لم يكن بينه وبينه أنس ولامعرفة إلا معرفة عيان . وكيف لم يقبل منه عمر بن الخطاب وقد كان شكله وأقرب الناس شبها به فى أغلب أخلاقه . ولئن رجعتم إلى الإنصاف لتعلمن أن هؤلاء لم يكن إسلامهم إلا بدعاء الرسول صلى الله عليه وآله لهم ، وعلى يديه أسلموا .

ولو فكرتم فى حسن التأتى فى الدعاء ليصِحنّ لأبى طالب فى ذلك — على شركه — أضعافُ ما ذكرتموه لأبى بكر ، لأنكم رويتم أن أبا طالب قال لعلى عليه السلام : يابنى الزمه فإنه لن يدعوك إلا إلى خير . وقال لجعفر : صل جناح ابن عمك . فأسلم بقوله ، ولأجله أصفق بنو عبد مناف على نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله

بمكة من بني مخزوم وبني سهم وبني جمح . ولأجله صبر بنو هاشم على الحصار في الشعب ، وبدعائه وإقباله على محمد صلى الله عليه وآله أسلمت امرأته فاطمة بنت أسد . فهو أحسن رفقا وأيمن نقيبة من أبي بكر وغيره . وما منعه عن الإسلام إن ثبت أنه لم يسلم إلا التقية . وأبو بكر لم يكن له إلا ابن واحد ، وهو عبدالرحمن ، فلم يمكنه أن يدخله في الإسلام ولا أمكنه إذ لم يقبل منه الإسلام أن يجعله كبعض مشركي قريش في قلة الأذى لرسول الله صلى الله عليه وآله وفيه أنزل : « والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أُخْرَج وقد خلت القرون من قبلي ، وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » .

وإنما يعرف حسن رفق الرجل وتأتيه بأن يصلح أولا أمر بيته وأهله ثم يدعو الأقرب فالأقرب ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله لما بعث كان أول من دعا زوجته خديجة ثم مكفوله وابن عمه عليا عليه السلام ، ثم مولاه زيدا ، ثم أم أيمن خادمته . فهل رأيتم أحداً ممن كان يأوي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله لم يسارع ؟ وهل التاث عليه أحد من هؤلاء ؟ فهكذا يكون حسن التأتي والرفق في الدعاء . هذا ورسول الله مقل ، وهو من جملة عيال خديجة حين بعثه الله تعالى ، وأبو بكر عندكم كان موسرا وكان أبوه مُقْتِراً[1] ، وكذلك ابنه وامرأته أم عبد الله . والموسر في فطرة العقول أولى أن يتّبع من المقتر . وإنما حُسن التأتي والرفق في الدعاء ما صنعه مصعب بن عمير لسعد بن معاذ لما دعاه ، وما صنع سعد بن معاذ ببني عبد الأشهل لما دعاهم وما صنع بريدة بن الحصيب بأسلم لما دعاهم ، قالوا : أسلم بدعائه ثمانون بيتا من قومه . وأسلم بنو عبد الأشهل بدعاء سعد في يوم واحد . وأما من لم يسلم ابنه ولا امرأته ولا أبوه ولا أخته بدعائه فهيهات أن يوصف ويذكر بالرفق في الدعاء ، وحسن التأتي والأناة .

---

(١) المقتر : القليل المال .

(١١)

ص ٣٣ — ٣٥ من العثمانية

أما بلال وعامر بن فهيرة فإنما أعتقهما رسول الله صلى الله عليه وآله .

روى ذلك الواقدى وابن إسحاق وغيرهما . وأما باقى مواليهم الأربع فإن سامحنا كم فى دعوا كم لم يبلغ ثَمَنهم فى تلك الحال لشدة بغض مواليهم لهم الإمائة درهم أو نحوها ، فأى فخر فى هذا ؟

وأما الآية فإن ابن عباس قال فى تفسيرها : « وأما من من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى » أى لأن يعود . وقال غيره : نزلت فى مصعب بن عمير .

(١٢)

ص ٣٥ — ٣٦ من العثمانية

أخبرونا على أى نوائب الإسلام أنفق هذا المال ، وفى أى وجه وضعه ، فإنه ليس بجائز أن يخفى ذلك ويدرس حتى يفوت حفظه ، وينسى ذكره .

وأنتم فلم تقفوا على شىء أكثر من عتقه بزعمكم ست رقاب لعلها يبلغ ثمنها فى ذلك العصر مائة درهم . وكيف يدعى له الإنفاق الجليل وقد باع من رسول الله صلى الله عليه وآله بعيرين عند خروجه إلى يثرب وأخذ منه الثمن فى تلك الحال ، روى ذلك جميع المحدثين .

وقد رويتم أيضا أنه كان حيث كان بالمدينة موسرا . ورويتم عن عائشة أنها قالت : هاجر أبو بكر وعنده عشرة آلاف درهم . وقلتم إن الله تعالى أنزل فيه : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى » .

قلتم : هى فى أبى بكر ومسطح بن أثاثة . فأين الفقر الذى زعمتم أنه أنفق حتى تخلل بالعباءة (١) .

---

(١) فى الأصل : « بالعباء » ، وأثبت ما فى ط .

ورويتم أن لله تعالى فى سمائه ملائكة تخللوا بالعباء وأن النبى صلى الله عليه وآله رآهم ليلة الإسراء فسأل جبريل عنهم فقال : هؤلاء ملائكة تأسّوا بأبى بكر بن أبى قحافة صديقك فى الأرض ، فإنه سينفق عليك ماله حتى يخلل عباءته فى عنقه .

وأنتم رويتم أيضا أن الله تعالى لما أنزل آية النجوى فقال : « يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلكم خير لكم » ، الآية . لم يعمل بها إلا على بن أبى طالب وحده ، مع إقراركم بفقره وقلة ذات يده ، وأبو بكر فى الذى ذكرنا من السعة أمسك عن مناجاته ، فعاتب الله المؤمنين فى ذلك فقال : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم » ، فجعله سبحانه ذنبا يتوب عليهم منه ، وهو إمساكهم عن تقديم الصدقة . فكيف سخت نفسه بإنفاق أربعين ألفا وأمسك عن مناجاة الرسول ، وإنما كان يحتاج إلى إخراج درهمين .

وأما ماذكرتم من كثرة عياله ونفقته عليهم فليس فى ذلك دليل على تفضيله ، لأن نفقته على عياله واجبة . مع أن أرباب السير ذكروا أنه لم يكن ينفق على أبيه شيئا ، وأنه كان أجيرا لابن جُدعان على مائدته يطرد عنها الذباب .

(١٣)

ص ٣٧ — ٣٩ من العثمانية

إننا لاننكر فضل الصحابة وسوابقهم . ولسنا كالإمامية الذين يحملهم الهوى على جحد الأمور المعلومة ، ولكننا ننكر تفضيل أحد الصحابة على على بن أبى طالب ولسنا ننكر غير ذلك — وننكر تعصب الجاحظ للعثمانية وقصده إلى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالرد والإبطال . وأما حمزة فهو عندنا ذو فضل عظيم ، ومقام جليل ، وهو سيد الشهداء الذين استشهدوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله .

وأما فضل عمر فغير منكر ، وكذلك الزبير وسعد ، وليس فيما ذكرنا ما يقتضى كون على عليه السلام مفضولا لهم أو لغيرهم إلا قوله « وكل هذه الفضائل لم يكن لعلى عليه السلام فيها ناقة ولا جمل » فإن هذا من التعصب البارد والحيف ، الفاحش .

وقد قدمنا من آثار على عليه السلام قبل الهجرة وماله إذ ذاك من المناقب والخصائص ماهو أفضل وأعظم وأشرف من جميع ما ذكر لهؤلاء . على أن أرباب السيرة يقولون : إن الشجة التي شجها سعد ، وأن السيف الذي سله الزبير هو الذي جلب الحصار في الشعب على النبي صلى الله عليه وآله وبني هاشم ، وهو الذي سير جعفرا وأصحابه إلى الحبشة . وسلّ السيف في الوقت الذي لم يؤمر المسلمون فيه بسل السيف غير جائز .

قال تعالى . « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله » فتبين أن التكاليف له أوقات ، فمنها وقت لا يصلح فيه سل السيف ، ومنها وقت يصلح فيه ويجب .

فأما قوله تعالى : « لا يستوى منكم من أنفق » فقد ذكرنا ما عندنا من دعواهم لأبي بكر إنفاق المال . وأيضا فإن الله تعالى لم يذكر إنفاق المال مفردا ، وإنما قرن به القتال . ولم يكن أبو بكر صاحب قتال وحرب ، فلا تشمله الآية . وكان على عليه السلام صاحب قتال وإنفاق قبل الفتح . أما قتاله فمعلوم بالضرورة ، وأما إنفاقه فقد كان على حسب حاله وفقره . وهو الذي أطعم الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً . وأنزلت فيه وفي زوجته وابنيه سورة كاملة من القرآن[1] ، وهو الذي ملك أربعة دراهم فأخرج منها درهما سراً ودرهماً علانية ليلا ، ثم أخرج منها في النهار درهماً سراً ودرهما علانية ، فأنزل فيه قوله تعالى « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية » .

وهو الذي قدم بين يدى نجواه صدقة دون المسلمين كافة .

وهو الذي تصدق بخاتمه وهو راكع ، فأنزل الله فيه : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » .

---

(١) هـذا من عظيم الافتراء . زعم ذلك بعض غلاة الشيعة . انظر فصل الخطاب ، لحسين ابن محمد تقي النوري الطبرسي ص ١٥٦ ، فقد أورد سورة مختلقة أولها « بسم الله الرحمن الرحيم . يأيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم » !

(١٤)

ص ٣٩ — ٤٠ من العثمانية

لا أشك أن الباطل خان أبا عثمان ، والخطأ أقعده ، والخذلان أصاره إلى الحيرة ، فما علم وعرف حتى قال ما قال . فزعم أن عليا عليه السلام قبل الهجرة لم يمتحن ولم يكابد المشاق ، وأنه إنما قاسى مشاق التكليف ومحن الابتلاء منذ يوم بدر ، ونسى الحصار فى الشعب ومامنى به ، وأبو بكر وادع رافه يأكل ما يريد ويجلس مع من يحب مخلّى سَربه طيبة نفسه ، ساكنا قلبه ، وعلىّ يقاسى الغمرات ويكابد الأهوال ، ويجوع ويظمأ ، ويتوقع القتل صباحا ومساء ؛ لأنه كان هو المتوسل المحتال فى إحضار قوت زهيد من شيوخ قريش وعقلائها سرا ، ليقيم به رمق رسول الله صلى الله عليه وآله وبنى هاشم وهم فى الحصار ، ولا يأمن فى كل وقت مفاجأة أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله له بالقتل ، كأبى جهل بن هشام ، وعقبة بن أبى مُعيط ، والوليد ابن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وغيرهم من فراعنة قريش وجبابرتها . ولقد كان يجيع نفسه ويطعم رسول الله صلى الله عليه وآله زاده ، ويظمئ نفسه ويسقيه ماءه ، وهو كان المعلل له إذا مرض ، والمؤنس له إذا استوحش ، وأبو بكر بنَجوة عن ذلك لا يمسه مما يمسهم ألم ، ولم يلحقه مما يلحقهم مشقة ، ولا يعلم بشىء من أخبارهم وأحوالهم إلا على سبيل الإجمال دون التفصيل ، ثلاث سنين محرمة معاملتهم ومناكحتهم ومجالستهم ، محبوسين محصورين ، ممنوعين من الخروج ، والتصرف فى أنفسهم .

فكيف أهمل الجاحظ هذه الفضيلة ونسى هذه الخصيصة ولا نظير لها . ولكن لا يبالى الجاحظ بعد أن يَسُوغ له لفظه وتَنْسق[1] له خطابته ماضيع من المعنى ورجع عليه من الخطأ .

فأما قوله « وعلموا أن العاقبة للمتقين » ففيه إشارة إلى معنى غامض قصده الجاحظ ، يعنى أن لا فضيلة لعلى عليه السلام فى الجهاد ؛ لأن الرسول كان أعلمه أنه

(١) كذا فى ط. وفى الأصل : « وتلشق » .

منصور ، وأن العاقبة له . وهذا من وساوس الجاحظ وهمزاته ولمزاته ، وليس بحق ما قاله ، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله أعلَمَ أصحابَه جملة أن العاقبة لهم ، ولم يُعلم واحداً منهم بعينه أنه لا يُقتل لا علياً ولا غيره . وإن صح أنه كان أعلمه أنه لا يقتل فلم يعلمه أنه لا يقطع عضو من أعضائه ، ولم يعلمه أنه لا يمسه ألم الجراح فى جسده ، ولم يعلمه أنه لا يناله الضرب الشديد .

وعلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أعلم أصحابه قبل يوم بدر ، وهو يومئذ بمكة ، أن العاقبة لهم ، كما أعلم أصحابه بعد الهجرة ذلك . فإن لم يكن لعلى والمجاهدين فضيلة فى الجهاد بعد الهجرة لإعلامه إياهم بذلك فلا فضيلة لأبى بكر وغيره فى احتمال المشاق قبل الهجرة ؛ لإعلامه إياهم بذلك . فقد جاء فى الخبر : أنه وعد أبا بكر قبل الهجرة بالنصر ، وأنه قال له : أُرسِلت إلى هؤلاء بالذبح وأن الله سيُغنِمنا أموالهم ويملكنا ديارهم . فالقول فى الموضعين متساو ومتفق[1] .

(١٥)

ص ٤١ — ٤٢ من العثمانية

ما نرى الجاحظ احتج لكون أبى بكر أغلظَهم وأشدهم محنة إلا بقوله : لأنه أقام بمكة مدة مقام الرسول صلى الله عليه وآله بها . وهذه الحجة لا تختص أبا بكر وحده ، لأن علياً عليه السلام أقام معه هذه المدة ، وكذلك طلحة وزيد وعبد الرحمن وبلال وخباب وغيرهم . وقد كان الواجب عليه أن يخص أبا بكر وحده بحجة تدل على أنه كان أغلظ الجماعة وأشدهم محنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله . فالاحتجاج فى نفسه فاسد .

ثم يقال له : ما بالك أهملت أمر مبيت على عليه السلام على الفراش بمكة ليلة الهجرة ، هل نسيته أم تناسيته ؟ فإنها المحنة العظيمة والفضيلة الشريفة ، التى متى امتحنها الناظر وأجال فكره فيها ، رأى تحتها فضائلَ متفرقة ، ومناقب متغايرة . وذلك

(١) فى ط : « ومتسق »

أنه لما استقر الخبر عند المشركين أن رسول الله صلى الله عليه وآله مُجمع على الخروج من بينهم للهجرة إلى غيرهم قصدوا إلى معاجلته ، وتعاقدوا على أن يبيتوه فى فراشه وأن يضربوه بأسياف كثيرة ، بيد كل صاحب قبيلة من قريش سيفٌ منها ؛ ليضيع دمه بين الشعوب ، ويتفرق بين القبائل ، ولا يطلب بنو هاشم بدمه قبيلة واحدة بعينها من بطون قريش ، وتحالفوا على ذلك تلك الليلة واجتمعوا عليها ، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وآله من أمرهم دعا أوثق الناس عنده وأمثلهم فى نفسه ، وأبذلهم فى ذات الإله لمهجته ، وأسرعهم إجابة إلى طاعته ، فقال له : إن قريشاً قد تحالفت على أن تبيتنى هذه الليلة ، فامض إلى فراشى ونم فى مضجعى والتف فى بردى الحضرمى ، ليروا أنى لم أخرج ، وإنى خارج إن شاء الله . فمنعه أولا من التحرز وإعمال الحيلة ، وصده عن الاستظهار لنفسه بنوع من أنواع المكايد والجهات التى يحتاط بها الناس لنفوسهم ، وألجأه إلى أن يعرض نفسه لظبات السيوف الشحيذة من أرباب الحنق والغيظة ، فأجاب إلى ذلك سامعاً مطيعاً ، طيبة بها نفسه ، ونام على فراشه صابراً محتسباً ، واقياً له بمهجته ينتظر القتل . ولا نعلم فوق بذل النفس درجة يلتمسها صابر ، ولا يبلغها طالب ، «والجود بالنفس أقصى غاية الجود[1]» . ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وآله علم أنه أهل لذلك لما أهله ، ولو كان عنده نقص فى صبره أو فى شجاعته أو فى مناصحته لابن عمه واختير لذلك ، لكان من اختاره منقوضاً فى رأيه ، مضراً فى اختياره ولا يجوز أن يقول هذا أحد من أهل الإسلام ، وكلهم مجمعون على أن الرسول صلى الله عليه وآله عمل الصواب ، وأحسن فى الاختيار . ثم فى ذلك إذا تأمله المتأمل وجوه من الفضل : منها أنه وإن كان عنده فى موضع الثقة فإنه غير مأمون عليه ألا يضبط السر فيفسد التدبير بإفشائه تلك الليلة إلى من يلقيه إلى الأعداء . ومنها أنه وإن كان ضابطاً للسر وثقة عند من اختاره فغير مأمون عليه الجبن عند مفاجأة المكروه ومباشرة الأهوال ، فيفر من الفراش ، فيفطن

---

(١) عجز بيت لمسلم بن الوليد وصدره :

* يجود بالنفس إن ضن الجواد بها *

لموضع الحيلة ويطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيظفر به ومنها أنه وإن كان ثقة ضابطاً للسر شجاعاً نجداً فلعله غير محتمل للبيت على الفراش ؛ لأن هذا أمر خارج عن الشجاعة إن كان قد قامه مقام المكتوف الممنوع ، بل هو أشد مشقة من المكتوف الممنوع ، لأن المكتوف الممنوع يعلم من نفسه أنه لا سبيل إلى الهرب وهذا يجد السبيل إلى الهرب وإلى الدفع عن نفسه ، ولا يهرب ولا يدافع . ومنها أنه وإن كان ثقة عنده ضابطاً للسر شجاعاً محتملا للبيت على الفراش فإنه غير مأمون أن يذهب صبره عند العقوبة الواقعة ، والعذاب النازل بساحته ، حتى يبوح بما عنده ويصير إلى الإقرار بما يعلمه ، وهو أنه أخذ طريق كذا ، فيطلب فيؤخذ . فلهذا قال علماء المسلمين : إن فضيلة على عليه السلام تلك الليلة لا نعلم أحداً من البشر نال مثلها ، إلا ما كان من إسحاق وإبراهيم عند استسلامه للذبح . ولولا أن الأنبياء لا يفضلهم غيرهم لقلنا إن محنة علىّ أعظم ، لأنه قد روى أن إسحاق تلكأ لما أمره أن يضطجع ، وبكى على نفسه ، وقد كان أبوه يعلم أن عنده فى ذلك وقفة ، ولذلك قال له : « فانظر ماذا ترى » ، وحال على عليه السلام بخلاف ذلك ، لأنه ما تلكأ ولا تعتع ولا تغير لونه ولا اضطربت أعضاؤه . ولقد كان أصحاب النبى صلى الله عليه وآله يشيرون عليه بالرأى المخالف لما كان أمر به وتقدّم فيه فيتركه ويعمل بما أشاروا به ، كما جرى يوم الخندق فى مصانعة الأحزاب بثلث تمر المدينة ، فإنهم أشاروا عليه بترك ذلك فتركه . وهذه كانت قاعدته معهم وعادته بينهم . وقد كان لعلى عليه السلام أن يعتل بعلة وأن يقف ويقول : يا رسول الله ، أكون معك أحميك من العدو ، وأذب بسيفى عنك ، فلستَ مستغنياً فى خروجك عن مثلى ، ونجعل عبداً من عبيدنا فى فراشك قائماً مقامك ، يتوهم القوم برؤيته نائماً فى بردك أنك لم تخرج ولم تفارق مركزك . فلم يقل ذلك ولا تحبّسَ ، ولا توقف ولا تلعثم ، وذلك لعلم كل واحد منهما صلى الله عليه وآله أن أحداً لا يصبر على ثقل هذه المحنة ، ولا يتورط فى هذه الهلكة ، إلا من خصه الله تعالى بالصبر على مشقتها ، والفوز بفضيلتها . وله من جنس ذلك أفعال كثيرة ، كيوم دعا عمرو بنُ عبد وَدّ المسلمين

إلى المبارزة ، فأحجم الناس كلهم عنه لما علموا من بأسه وشدته . ثم كرر النداء فقام على عليه السلام فقال : أنا أبرز إليه ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنه عمرو . قال : نعم وأنا على . فأمره بالخروج إليه ، فلما خرج قال صلى الله عليه وآله : برز الإيمان كله إلى الشرك كله . وكيوم أحد حيث حمى رسولَ الله صلى الله عليه وآله من أبطال قريش وهم يقصدون قتله ، فقتلهم دونه حتى قال جبريل عليه السلام : يا محمد ، إن هذه هى المواساة . فقال : « إنه منى وأنا منه » . فقال جبريل : وأنا منكما . ولو عددنا أيامه ومقاماته التى شرى فيها نفسه لله تعالى لأطلنا وأسهبنا .

(١٦)

ص ٤٢ — ٤٣ من العثمانية

أما كثرة المستجيبين فالفضل فيها راجع إلى المجيب لا إلى المجاب . على أنا قد علمنا أن من استجاب لموسى عليه السلام أكثر ممن استجاب لنوح عليه السلام ، وثواب نوح أكثر ، لصبره على الأعداء ومقاساة خلافهم وعنتهم .

وأما إنفاق المال فأين محنة الغنى من محنة الفقير ، وأين يعدل إسلام من أسلم وهو غنى إن جاع أكل وإن أعيا ركب ، وإن عرى لبس ، قد وثق بيساره واستغنى بماله ، واستعان على نوائب الدنيا بثروته — بمن لا يجد قوت يومه ، وإن وجد لم يستأثر به ، فكان الفقر شعاره ، وفى ذلك قيل : « الفقر شعار المؤمن » ، وقال الله تعالى لموسى : يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحباً بشعار الصالحين . وفى الحديث « إن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام » . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم احشرنى فى زمرة الفقراء » . ولذلك أرسل الله محمداً صلى الله عليه وآله فقيراً وكان بالفقر سعيداً ، فقاسى محنة الفقر ومكابدة الجوع ، حتى شد الحجر على بطنه . وحسبك بالفقر فضيلة فى دين الله لمن صبر عليه ، فإنك لا تجد صاحب الدنيا يتمناه ، لأنه مناف لحال الدنيا وأهلها ، وإنما هو شعار أهل الآخرة .

وأما طاعة على عليه السلام وكون الجاحظ زعم أنها كانت لأن فى عز محمد عزه وعز رهطه ، بخلاف طاعة أبى بكر ، فهذا يفتح عليه أن يكون جهاد حمزة كذلك ، وجهاد عبيدة بن الحارث ، وهجرة جعفر إلى الحبشة ، بل لعل محاماة المهاجرين من قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله كانت لأن فى دولته دولتهم ، وفى نصرته استجداد ملك لهم . وهذا يجر إلى الإلحاد ويفتح باب الزندقة ، ويفضى إلى الطعن فى الإسلام والنبوة .

(١٧)

ص ٤٤ من العثمانية

هذا فرق غير مؤثر ؛ لأنه قد ثبت بالتواتر حديث الفراش ، فلا فرق بينه وبين ما ذكر فى نص الكتاب ، ولا يجحده إلا مجنون أو غير مخالط لأهل الملة . أرأيت كون الصلوات خمساً ، وكون زكاة الذهب ربع العشر ، وكون خروج الريح ناقضا للطهارة ، وأمثال ذلك مما هو معلوم بالتواتر حكمه ، هل هو مخالف لما نص فى الكتاب عليه من الأحكام . هذا ما لا يقوله رشيد ولا عاقل . على أن الله تعالى لم يذكر اسم أبى بكر فى الكتاب ، وإنما قال : « إذ يقول لصاحبه » ، وإنما علمنا أنه أبو بكر بالخبر وما ورد فى السيرة . وقد قال أهل التفسير إن قوله تعالى : « ويمكر الله والله خير الماكرين » كناية عن على عليه السلام ، لأنه مكر بهم . وأول الآية « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » . أنزلت فى ليلة الهجرة ، ومكرهم كان توزيع السيوف على بطون قريش ، ومكر الله تعالى هو منام على عليه السلام على الفراش . فلا فرق بين الموضعين فى أنهما مذكوران كناية لا تصريحا . وقد روى المفسرون كلهم أن قول الله تعالى : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » أنزلت فى على عليه السلام ليلة المبيت على الفراش . فهذه مثل قوله تعالى : « إذ يقول لصاحبه » ، لا فرق بينهما .

(١٨)

ص ٤٤ — ٤٥ من العثمانية

هذا هو الكذب الصراح والتحريف، والإدخال فى الرواية ما ليس منها. والمعروف المنقول أنه صلى الله عليه وآله قال له: « اذهب فاضطجع فى مضجعى وتغش ببردى الحضرمى فإن القوم سيفقدوننى ولا يشهدون مضجعى، فلعلهم إذا رأوك يسكنهم ذلك حتى يصبحوا. فإذا أصبحت فاغد فى أمانتى » ولم ينقل ما ذكره الجاحظ، وإنما ولّده أبو بكر الأصم وأخذه الجاحظ ولا أصل له. ولو كان هذا صحيحاً لم يصل إليه منهم مكروه.

وقد وقع الاتفاق على أنه ضرب ورمى بالحجارة قبل أن يعلموا من هو حتى تضور، وأنهم قالوا له: رأينا تضورك، فإنا كنا نرمى محمدا ولا يتضور. ولأن لفظة « المكروه » إن كان قالها إنما يراد بها القتل، فهب أنه أمن من القتل كيف يأمن من الضرب والهوان، أو من أن ينقطع بعض أعضائه، وبأن سلمت نفسه. أليس الله تعالى قال لنبيه: « بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ». ومع ذلك فقد كسرت رباعيته وشج وجهه وأدميت ساقه، وذلك لأنها عصمة من القتل خاصة. وكذلك المكروه الذى أومن على عليه السلام منه — إن كان صح ذلك الحديث — إنما هو مكروه القتل.

ثم يقال له: وأبو بكر لا فضيلة له أيضاً فى كونه فى الغار؛ لأن النبى صلى الله عليه وآله قال له: « لا تحزن إن الله معنا »، ومن يكن الله معه فهو آمن لا محالة من كل سوء، فكيف قلت « ولم ينقل ناقل أنه قال لأبى بكر فى الغار مثل ذلك » فكل ما يجيب به عن هذا فهو جوابٌ عما أورده. فنقول له: هذا ينقلب عليك فى النبى صلى الله عليه وآله؛ لأن الله تعالى وعده بظهور دينه وعاقبة أمره، فيجب على قولك ألا يكون مثابا عند الله تعالى على ما يحتمله من المكروه ولا ما يصيبه من الأذى، إذ كان أيقن بالسلامة والفتح فى غده[1].

---

(١) ط: « عدته » أى وعده، وأثبت ما فى الأصل.

(١٩)

ص ٤٥ — ٤٧ من العثمانية

لقد أعطى أبو عثمان مقولا وحرم معقولا ، إن كان يقول هذا على اعتقاد وجِدّ ، ولم يذهب به مذهب اللعب والهزل ، أو على طريق التفاصح والتشادق ، وإظهار القوة والسلاطة ، وذلاقة اللسان ، وحدة الخاطر ، والقوة على جدال الخصوم .

ألم يعلم أبو عثمان أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان أشجع البشر ، وأنه خاض الحروب وثبت فى المواقف التى طاشت فيها الألباب وبلغت القلوب الحناجر . فمنها يوم أحد ووقوفه بعد أن فر المسلمون بأجمعهم ولم يبق معه إلا أربعة : على والزبير وطلحة وأبو دجانة ، فقاتل ورمى بالنبل حتى فنيت نبله ، وانكسرت سية قوسه ، وانقطع وتره ، فأمر عكّاشة بن محصن أن يوترها فقال : يارسول الله لايبلغ الوتر . قال : أوتر مابلغ . قال عكاشة : فوالذى بعثه بالحق لقد أوترت حتى بلغ وطويت منه شبراً على سية القوس ، ثم أخذها فما زال يرميهم حتى نظرت إلى قوسه قد تحطمت . وبارز أبى بن خلف فقال له أصحابه : إن شئت عطف عليه بعضُنا ! فأبى وتناول الحربة من الحارث بن الصمة ثم انتفض بأصحابه كما ينتفض البعير . قالوا : فتطايرنا عنه تطاير الشعارير(١) ! فطعنه بالحربة فجعل يخور كما يخور الثور . ولو لم يدل على ثباته حين انهزم أصحابه وتركوه إلا قوله تعالى : « إذ تُصعِدُون ولا تَلوُونَ على أحَدٍ والرَّسُولُ يدعوكم فى أخراكم » . فكونه عليه السلام فى أخراهم وهم يصعدون ولا يلوون هاربين دليل على أنه ثبت ولم يفر .

وثبت يوم حنين فى تسعة من أهله ورهطه الأدنين ، وقد فر المسلمون كلهم ، والنفر التسعة محدقون به : العباس آخذ بحكمة بغلته ، وعلى بين يديه مصلتٌ سيفه ، والباقون حول بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله يَمنة ويسرة ، وقد انهزم المهاجرون

---

(١) جمع شعرور ، وهو ما يجتمع على دبرة البعير من الذبان .

والأنصار ، وكلما فروا أقدم هو صلى الله عليه وآله ، وصمم مستقدما يلقى السيوف والنبل بنحره وصدره ، ثم أخذ كفا من البطحاء وحصب المشركين وقال : شاهت الوجوه ! !

والخبر المشهور عن على عليه السلام وهو أشجع البشر : « كنا إذا اشتد البأس وحمى الوطيس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله ولُذْنا به » . فكيف يقول الجاحظ : إنه ماخاض الحرب ولا خالط السيوف · وأى فرية أعظم من فرية من نسب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإحجام واعتزال الحرب ؟ ! ثم أى مناسبة بين أبى بكر ورسول الله صلى الله عليه وآله فى هذا المعنى ليقيسه الجاحظ به[١] وينسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب الجيش والدعوة ، ورئيس الإسلام والملة والملحوظ بين أصحابه وأعدائه بالسيادة ، وإليه الإيماء والإشارة ، وهو الذى أحنق قريشاً والعرب ، وورى أكبادهم بالبراءة من آلهتهم وعيب دينهم وتضليل أسلافهم ، ثم وترهم فيما بعد بقتل رؤسائهم وأكابرهم . وحق لمثله إذا تنحى عن الحرب واعتزلها أن يتنحى ويعتزل ، لأن ذلك شأن الملوك والرؤساء ، إذ كان الجيش منوطاً بهم وببقائهم ، فمتى هلك الملك هلك الجيش ، ومتى سلم الملك أمكن أن يبقى عليه ملكه وإن عطب جيشه بأن يستجد جيشاً آخر ، ولذلك نهى الحكماء أن يباشر الملك الحرب بنفسه ، وخطؤوا الإسكندر لما بارز فُورا[٢] ملك الهند ، ونسبوه إلى مجانبه الحكمة ، ومفارقة الصواب والحزم . فليقل لنا الجاحظ : أى مدخل لأبى بكر فى هذا المعنى ؟ ومن الذى كان يعرفه من أعداء المسلمين[٣] ليقصده بالقتل ، وهل هو إلا واحد من عرض المهاجرين حكمه حكم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما ، بل كان عثمان أنبه صيتاً[٤] وأشرف منه مركبا ، والعيون إليه أطمح ، والعدو عليه أحنق

---

(١) هذه الكلمة وسابقتها ساقطتان من المطبوعة .

(٢) ط : «قوسرا» صوابه فى الأصل . وفى معجم استينجاس ٩٤١ أن «فورا» راجا قنوج قتله الإسكندر .

(٣) ط : « الإسلام » .

(٤) ط : « أكثر منه صيتاً » .

وأكلَب . ولو قتل أبو بكر فى بعض تلك المعارك هل كان يؤثر قتله فى الإسلام ضعفا أو يحدث فيه وهنا ، أو يخاف على الملة لو قتل أبو بكر فى بعض تلك الحروب أن تندرس وتعفى آثارها وتنطمس منارُها ، ليقول الجاحظ إن أبا بكر كان حكمه حكم رسول الله صلى الله عليه وآله فى مجانبة الحروب واعتزالها . نعوذ بالله من الخذلان !

وقد علم العقلاء كلهم ممن له بالسير معرفة ، وبالآثار والأخبار ممارسة ، حال حروب رسول الله صلى الله عليه وآله كيف كانت ، وحاله عليه السلام فيها كيف كانت ، ووقوفه حيث وقف ، وحربه حيث حارب ، وجلوسه فى العريش يوم جلس ، وأن وقوفه صلى الله عليه وآله وقوف رياسة وتدبير ، ووقوف ظهر وسند ، يتعرف أمور أصحابه ويحرس صغيرهم وكبيرهم بوقوفه من ورائهم ، وتخلفه عن التقدم فى أوائلهم ، ولأنهم متى علموا أنه فى أخراهم اطمأنت قلوبهم ، ولم يتعلق بأمره نفوسهم فيشتغلوا بالاهتمام به عن عدوهم ، ولا يكون لهم فيئة يلجئون إليها ، وظهر يرجعون إليه ، ويعلمون أنه متى كان خلفهم تفقد أمورهم وعلم مواقفهم ، وآوى كل إنسان مكانه فى الحماية والنكاية ، وعند المنازلة فى الكرّ والحملة ، فكان وقوفه حيث وقف أصلح لأمرهم ، وأحمى وأحرس لبيضتهم ، ولأنه المطلوب من بينهم ، إذ هو مدبر أمورهم ووالى جماعتهم . ألا ترون أن موقف صاحب اللواء موقف شريف ، وأن صلاح الحرب فى وقوفه ، وأن فضيلته فى ترك التقدم فى أكثر حالاته . فللرئيس حالات :

الأولى حالة يتخلف ويقف آخرا ليكون سندا وقوة ، وردءاً وعدة ، وليتولى تدبير الحرب ، ويعرف مواضع الخلل .

والحالة الثانية يتقدم فيها فى وسط الصف ليقوى الضعيف ويشجع الناكص[1].

وحالة ثالثة وهى إذا اصطدم الفيلقان ، وتكافح السيفان ، اعتمد ما يقتضيه الحال من الوقوف حيث يستصلح ، أو من مباشرة الحرب بنفسه ، فإنها آخر المنازل ، وفيها تظهر شجاعة الشجاع النجد ، وفشالة الجبان المموه .

---

(١) ط : « الناكس » بالسين .

فأين مقام الرياسة العظمى لرسول الله صلى الله عليه وآله وأين منزلة أبى بكر ليسوى بين المنزلتين ، ويناسب بين الحالتين ؟ !

ولو كان أبو بكر شريكا لرسول الله صلى الله عليه وآله فى الرسالة ، وممنوحا من الله بفضيلة النبوة ، وكانت قريش والعرب تطلبه كما تطلب محمداً صلى الله عليه وآله وكان يدبر من أمر الإسلام وتسريب العساكر وتجهيز السرايا وقتل الأعداء ما يدبره محمد صلى الله عليه وسلم لكان للجاحظ أن يقول ذلك . فأما وحاله حاله وهو أضعف المسلمين جَنانا ، وأقلهم عند العرب تِرَة ، لم يرم قط بسهم ولا سلّ سيفاً ، ولا أراق دما ، وهو أحد الأتباع غير مشهور ولا معروف ، ولا طالب ولا مطلوب ، فكيف يجوز أن يجعل مقامه ومنزلته مقام رسول الله صلى الله عليه وآله ومنزلته . ولقد خرج ابنه عبد الرحمن مع المشركين يوم أحد فرآه أبو بكر فقام مغيظا عليه فسل من السيف مقدار إصبع يروم البروز إليه فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : يا أبا بكر ، شم سيفك وأمتعنا بنفسك ! ولم يقل له « وأمتعنا بنفسك » إلا لأنه ليس أهلا للحرب وملاقاة الرجال ، وأنه لو بارز لقتل .

وكيف يقول الجاحظ : لا فضيلة لمباشرة الحرب ولقاء الأقران وقتل أبطال الشرك . وهل قامت عمد الإسلام إلا على ذلك ؟؟ وهل ثبت الدين واستقر إلا بذلك ؟! أتراه لم يسمع قول الله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص» . والمحبة من الله تعالى هى إرادة الثواب . فكل من كان أشد ثبوتاً فى هذا الصف وأعظم قتالا ، كان أحب إلى الله ومعنى الأفضل هو الأكثر ثوابا . فعلى عليه السلام إذن هو أحب المسلمين إلى الله ، لأنه أثبتهم قدما فى الصف المرصوص لم يفر قط بإجماع الأمة ، ولا بارزه قرن إلا قتله .

وأتراه لم يسمع قول الله تعالى : « وفضَّلَ الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » وقولَه : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنةَ يُقاتِلون فى سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلون وَعْداً عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن» ، ثم قال سبحانه

مؤكداً لهذا البيع والشراء : « ومَنْ أَوْفَى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » . وقال الله تعالى : « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصَب ولا مَخْمَصَةٌ فى سبيل الله ولا يطؤون موطئا يَغيظ الكفّار ولا ينالون من عدوٍّ نيلا إلا كُتِب لهم به عمل صالح » .

فمواقف الناس فى الجهاد على أحوال ، وبعضهم فى ذلك أفضل من بعض . فمن دلَف إلى الأقران واستقبل السيوف والأسنة كان أثقل على أكتاف الأعداء لشدة نكايته فيهم ، ممن وقف فى المعركة وأعان ولم يقدم ، وكذلك من وقف فى المعركة وأعان ولم يقدم إلا أنه بحيث تناله السهام والنَّبل ، أعظم غناء وأفضل ممن وقف حيث لا يناله ذلك . ولو كان الضعيف والجبان يستحقان الرياسة بقلة بسط الكف وترك الحرب ، وأن ذلك يشاكل فعل النبي صلى الله عليه وآله ، لكان أوفر الناس حظا فى الرياسة وأشدهم لها استحقاقا حسان بن ثابت . وإن بطل فضل على عليه السلام فى الجهاد لأن النبي صلى الله عليه وآله كان أقلهم قتالا — كما زعم الجاحظ — ليبطلن على هذا القياس فضل أبى بكر فى الإنفاق ، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان أقلهم مالا .

وأنت إذا تأملت أمر العرب وقريش ، ونظرت السير وقرأت الأخبار ، عرفت أنها كانت تطلب محمداً صلى الله عليه وآله وتقصد قصده ، وتروم قتله ، فإنْ أعجزها وفاتها طلبت عليا عليه السلام وأرادت قتله ، لأنه كان أشبههم بالرسول حالا ، وأقربهم منه قربا ، وأشدهم عنه دفعا ، وأنهم متى قصدوا عليا فقتلوه أضعفوا أمر محمد صلى الله عليه وآله وكسروا شوكته ، إذ كان أعلى[1] من ينصره فى البأس والقوة والشجاعة ، والنجدة والإقدام والبسالة . ألا ترى إلى قول عتبة بن ربيعة يوم بدر وقد خرج هو وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة ، فأخرج إليهم الرسول نفراً من الأنصار فاستنسبوهم فانتسبوا لهم ، فقالوا : ارجعوا إلى قومكم ثم نادوا : يامحمد ،

---

(١) هذا ما فى ط . وفى الأصل : « على » .

أخرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا . فقال النبي صلى الله عليه وآله لأهله الأدنين : قوموا يا بني هاشم فانصروا حقكم الذي آتاكم الله على باطل هؤلاء ، قم ياعلى ، قم ياحمزة ، قم ياعبيدة . ألا ترى ما جعلت هند لمن قتله يوم أحد لأنه اشترك هو وحمزة في قتل أبيها يوم بدر ؟ ! ألم تسمع قول هند ترثي أهلها :

ما كان لى عن عتبةٍ من صبر   أبي وعمي وشقيقَيْ صدري
أخي الذي كان كضوء البدر   بهم كسرتَ يا على ظهري

وذلك لأنه قتل أخاها الوليد بن عتبة ، وشرِك في قتل أبيها عتبة . وأما عمها شيبة فإن حمزة تفرد بقتله

وقال جُبير بن مُطعم لوحشيٍّ مولاه يوم أحد : إن قتلت محمدا فأنت حر ، وإن قتلت حمزة فأنت حر ! فقال : أما محمد فسيمنعه أصحابه . وأما على فرجل حذر كثير الالتفات في الحرب ، ولكني سأقتل حمزة . فقعد له وزرقه بالحربة فقتله .

ولما قلناه من مقاربة حال على عليه السلام في هذا الباب لحال رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومناسبتها إياها ، وماوجدناه في السير والأخبار من إشفاق رسول الله صلى الله عليه وآله وحذره عليه ، ودعائه له بالحفظ والسلامة ، قال صلى الله عليه وآله يوم الخندق وقد برز على إلى عمرو ورفع يديه إلى السماء بمحضر من أصحابه : « اللهم إنك أخذت مني حمزة يوم أحد ، وعبيدة يوم بدر ، فاحفظ اليوم [على[1]] عليا ، ربِّ لا تذَرْني فَرداً وأنت خيرُ الوارثين » . ولذلك ضنَّ به عن مبارزة عمرو حين دعا عمرو الناسَ إلى نفسه مرارا ، في كلها يحجمون ويقدم على ، فيسأل الإذنَ في البراز حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : إنه عمرو ! فقال : وأنا على ! فأدناه وقبَّله وعممه بعمامته ، وخرج معه خطوات كالمودِّع له القلقِ لحاله ، المنتظر لما يكون منه . ثم لم يزل صلى الله عليه وآله رافعاً يديه إلى السماء مستقبلا لها بوجهه ، والمسلمون صموت حوله كأنما على رءوسهم الطير ، حتى ثارت الغبرة وسمعوا التكبير من تحتها

---

(١) التكملة من ط .

فعلموا أن عليا قتل عمرا ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكبر المسلمون تكبيرة سمعها مَن وراء الخندق من عساكر المشركين . ولذلك قال حذيفة بن اليمان : « لو قسمت فضيلة على عليه السلام بقتل عمرو يوم الخندق بين المسلمين بأجمعهم لوسعتهم » . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : « وكفى الله المؤمنين القتال » قال : بعلى بن أبى طالب .

(٢٠)

ص ٤٧ من العثمانية

فيقال للجاحظ : فعلى أيها كان مَشْى على بن أبى طالب إلى الأقران بالسيف ؟ فأيّما قلتَ من ذلك بانت عداوتك لله تعالى ولرسوله . وإن كان مشيه ليس على وجه مما ذكرت وإنما كان على وجه النصرة والقصد إلى المسابقة إلى ثواب الآخرة ، والجهاد فى سبيل الله وإعزاز الدين ، كنت بجميع ما قلتَ معاندا ، وعن سبيل الإنصاف خارجاً ، وفى إمام المسلمين طاعنا . وإن تطرق مثل هذا بوهم على عليه السلام ليتطرقن مثلُه على أعيان المهاجرين والأنصار أرباب الجهاد والقتال ، الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وآله بأنفسهم ، ووقَوه بمهجهم ، وفدَوه بأبنائهم وآبائهم . فلعلّ ذلك كان لعلّة من العلل المذكورة ، وفى ذلك الطعنُ فى الدين ، وفى جماعة المسلمين .

ولو جاز أن يُتوهم هذا فى على عليه السلام وفى غيره لما قال رسول الله صلى الله عليه وآله حكاية عن الله تعالى لأهل بدر : « اعملوا ماشئتم فقد غَفرتُ لكم » ، ولا قال لعلى عليه السلام : « برز الإيمان كلُّه إلى الشرك كله » ، ولا قال : « أوجَبَ طلحة[1] » .

وقد علمنا ضرورة من دين الرسول صلى الله عليه وآله تعظيمَه لعلى عليه السلام تعظيما دينيا لأجل جهاده ونصرته ، فالطاعن فيه طاعن فى رسول الله صلى الله عليه

(١) أى عمل عملا أوجب له الجنة .

وآله ؛ إذ زعم أنه قد يمكن أن يكون جهاده لا لوجه الله تعالى ، بل لأمر آخر من الأمور التى عدّدها وبعثه على التفوه بها إغواء الشيطان وكيده ، والإفراط فى عداوةِ مَن أمر الله بمحبته ، ونهى عن بغضه وعداوته . أترى رسول الله صلى الله عليه وآله خفى عليه من أمر على عليه السلام مالاح للجاحظ والعثمانية ، فمدحَه وهو غير مستحق للمدح .

(٢١)

ص ٤٧ و ٤٨ من العثمانية

فيقال له : فلعل إنفاق أبى بكر كما تزعم أربعين ألف درهم لا ثواب له ، لأن نفسه ربما تكون غير معتدلة ، لأنه يكون مطبوعاً على الجود والسخاء ، ولعل خروجه مع النبى صلى الله عليه وآله يومَ الهجرة إلى الغار[١] لا ثواب له فيه ، لأن أسبابه كانت له مهيجة ، ودواعيه غالبة ؛ لحبِّهِ — كان — الخروجَ ، وبغضه — كان — المقام[٢] . ولعل رسول الله صلى الله عليه وآله فى دعائه إلى الإسلام ، وإكبابه على الصلوات الخمس فى جوف الليل ، وتدبيره أمر الأمة ، لا ثواب له فيه ، لأنه تكون نفسه غير معتدلة ، بل يكون فى طباعه الرياسة وحبها ، والعبادة والالتذاذ بها .

ولقد كنا نعجب من مذهب أبى عثمان أن المعارف ضرورة ، وأنها تقع طباعا . وفى قوله بالتولُّد ، وحركة الحجر بالطبع ، حتى رأينا من قوله ماهو أعجب منه ، فزعم أنه ربما يكون جهاد على عليه السلام وقتله المشركين لاثواب له فيه ، لأنه فعله طبعا . وهذا أطرفُ من قوله فى المعرفة وفى التولد[٣] .

(١) إلى الغار ، ساقطة من ط .
(٢) فى ط : « غالبة محبة الخروج وبغض المقام » .
(٣) انظر ما كتبت فى حواشى الحيوان ٤ : ٢٠٨ .

(٢٢)

ص ٤٩ — ٥٠ من العثمانية

هذا راجع على الجاحظ فى النبى صلى الله عليه وآله ، لأن الله تعالى قال له : « والله يعصمك من الناس » فلم يكن له فى جهاده كبير طاعة وكثير طاعة وكثير من الناس يروى عنه صلى الله عليه وآله : « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر » . فوجب أن يبطل جهادهما . وقد قال للزبير : « ستقاتل عليا وأنت ظالم له » فأشعره بذلك أنه لا يموت فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله . وقال فى الكتاب العزيز لطلحة : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده » قالوا : نزلت فى طلحة . فأعلمه بذلك أنه يبقى بعده . فوجب أن لا يكون لهما كبير ثواب فى الجهاد .

والذى صح عندنا من الخبر ، وهو قوله « ستقاتل بعدى الناكثين » أنه قاله لما وضعت الحرب أوزارها ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ووُضعت الجزية ودان العرب قاطبة .

(٢٣)

ص ٥٨ — ٥٩ من العثمانية

أمرُ عمرو بن عبد ود أشهر وأكثر من أن يحتج له ، فليتلمَّحْ كتب المغازى والسير ، ولينظر ما رثته به شعراء قريش لما قتل .

فمن ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق فى مغازيه قال : وقال مسافع بن عبد مناف ابن زهرة بن حذافة بن جمح ، يبكى عمرو بن عبد الله بن عبد ود ، حين قتله على بن أبى طالب عليه السلام مبارزة ، لما جزَع المذاد[1] — أى قطع الخندق .

---

(١) ط : « لحبة الحروج وبغض المقام » وصواب النص من الأصل . و « كان » تزاد بين المتلازمين .

(١) المذاد ، بالذال المعجمة : موضع بالمدينة حيث حفر الخندق . ط : « المزار » صوابه فى الأصل .

عمرو بن عبد كان أولَ فارس ... جزع المذاد وكان فارس يَلْيَل[1]
سَمْح الخلائق ماجد ذو مرة ... يبغى القتال بشِكّة لم ينكل
ولقد علمتم حين ولوا عنكم ... أن ابن عبد منهم لم يعجل[2]
حتى تكنفه الكماةُ وكلهم ... يبغى القتال له وليس بمؤتل
ولقد تكنفت الفوارسُ فارساً ... بجنوب سَلع غير نِكس أميل
سال النزال هناكَ فارسُ غالبٍ ... بجنوب سَلْع ليته لم ينزل
فاذهب علىُّ ما ظفرت بمثلها ... فخراً ولو لاقيت مثل المعضل
نفسى الفداء لفارس من غالب ... لاقى حمام الموت لم يتحلحل
أعنى الذى جزع المذاد ولم يكن ... فشلا وليس لدى الحروب بزمّل

وقال هُبيرة بن أبى وهب المخزومى ، يعتذر من فراره عن على بن أبى طالب وتركه عمراً يوم الخندق ويبكيه :

لعمرك ما وليت ظهرى محمداً ... وأصحابه جبناً ولا خِيفة القتل
ولكننى قلّبت أمرى فلم أجد ... لسيفى غَناء إن وقفت ولا نبلى
وقفت فلما لم أجد لى مقدما ... صدرت كضرغام هزبر أبى شِبل
ثنى عِطفه عن قِرنه حين لم يجد ... مجالا وكان الحزم والرأى من فعلى
فلا تبعدن يا عمرو حيا وهالكا ... فقد مِتَّ محمود الثنا ماجد الفعل
ولا تبعدن يا عمرو حيا وهالكا ... فقد كنت فى حرب العدى مرهف النصل
فمن لطراد الخيل تُقدع بالقنا ... وللبذل يوماً عند قرقرة البزل
هنالك لو كان ابن عمرو لزارَها ... لفرجها عنهم فتى غير ما وغل
كفتّك على لن ترى مثل موقف ... وقفت على شلو المقدم كالفحل
فما ظفرت كفاك يوماً بمثلها ... أمِنت بها ما عِشت من زَلّة النعل

---

(١) يليل هو وادى الصفراء ، دوين بدر .

(٢) ط : « فيهم لم يعجل » .

وقال هبيرة بن أبي وهب أيضاً يرثى عمرا ويبكيه :

لقد علمت عُليا لؤى بن غالب   لفارسُها عمرو إذا ناب نائب
وفارسها عمرو إذا ما يسوقه   على وأن الموت لا شك طالب
عشيةَ يدعوه علىٌّ وإنه   لفارسُها إذْ خام عنه الكتائب
فيا لهف نفسى إنّ عمرا لكائن   بيثرب لا زالت هناك المصائب
لقد أحرز العليا على بقتله   والخير يوما لا محالة جالب

وقال حسان بن ثابت الأنصارى يذكر عمرا :

أمسى الفتى عمرو بن عبد ناظراً   كيف العبورُ وليته لم ينظر
ولقد وجدت سيوفنا مشهورة   ولقد وجدت جيادنا لم تُقصَر
ولقد لقيت غَداة بدر عصبة   ضربوك ضرباً غير ضرب الحسر
أصبحت لا تدعى ليوم عظيمة   يا عمرو أو لجسيم أمر منكر

وقال حسان أيضاً :

لقد شقيت بنو جمح بن عمرو   ومخزومٌ وتيم ما نُقيل(١)
وعمرو كالحسام فتى قريش   كأن جبينه سيف صقيل(٢)
فتى من نسل عامر أريحى   تطاوله الأسنة والنصول
دعاه الفارس المقدامُ لما   تكشفت القنابل والخيول
أبو حسن فقنّعه حساما   جُرازاً لا أفلّ ولا نَكولُ
فغادره مكبًّا مُسْلحِبًّا   على عفراء لا بَعِدَ القتيلُ

فهذه الأشعار فيه ، بل بعض ما قيل فيه .

وأما الآثار والأخبار فموجودة فى كتب السير وأيام الفرسان ووقائعهم . وليس أحد من أرباب هذا العلم يذكر عمرا إلا قال : كان فارس قريش وشجاعها . وإنما قال له حسان :

---

(١) فى الأصل : « لقد شقيت » و « ما تقيل » .
(٢) هذا البيت ساقط من ط .

* ولقد لقيت غداة بدر عصبة *

لأنه شهد مع المشركين بدراً وقتل قوماً من المسلمين ، ثم فر مع من فر ولحق بمكة . وهو الذى كان قال وعاهد الله عند الكعبة ألا يدعوه أحد إلى واحدة من ثلاث إلا أجابه . وآثاره فى أيام الفجار مشهورة تنطق بها كتب الأيام والوقائع ، ولكنه لم يذكر مع الفرسان الثلاثة وهم عتيبة وبسطام وعامر ؛ لأنهم كانوا أصحاب غارات ونهب وأهل بادية ، وقريش أهل مدينة وساكنو مدر وحجر ، لا يرون الغارات ولا ينهبون غيرهم من العرب ، وهم مقتصرون على المقام ببلدتهم وحماية حرمهم ، فلذلك لم يشتهر اسمه كاشتهار هؤلاء .

ويقال له : إذا كان عمرو كما تذكر ليس هناك ، فما باله لما جزع الخندق فى ستة فرسان هو أحدهم فصار مع أصحاب النبى صلى الله عليه وآله على أرض واحدة ، وهم ثلاثة آلاف ، ودعاهم إلى البراز مراراً ، لم ينتدب أحد منهم للخروج إليه ، ولاسمح منهم أحد بنفسه ، حتى وبخهم وقرعهم وناداهم : ألستم تزعمون أنه من قتل منا فإلى النار ومن قتل منكم فإلى الجنة ؟ أفلا يشتاق أحدكم أن يذهب إلى الجنة أو يقدم عدوه إلى النار ؟ فجبنوا كلهم ونكلوا ، وملكهم الرعب والوهل . فإما أن يكون هذا أشجع الناس كما قيل عنه ، أو يكون المسلمون كلهم أجبن العرب وأذلهم وأفشلهم .

وقد روى الناس كلهم الشعر الذى أنشده لما نكل القوم بجمعهم عنه ، وأنه جال بفرسه واستدار ، وذهب يمنة ثم ذهب يسرة ، ثم وقف تجاه القوم فقال :

ولقد بححت من الندا ء بجمعهم هل من مُبارزْ
ووقفت إذ جُبن المشيَّـ ع وِقفةَ القِرن المناجز
وكذاك أنى لم أزل متسرعاً نحوَ الهزاهز
إن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائزْ

فلما برز إليه على أجابه فقال له :

لا تعجلن فقد أتا ك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيةٍ وبصـــيرة يرجو الغداةَ نجاة فائز
إنى لأرجو أن أقيــ م عليك نائحةَ الجنائز
مِن ضربة تَفنَى ويبــ قى ذكرها عند الهزائز

ولعمرى لقد سبق الجاحظ بما قاله بعضُ جهال الأنصار لما رجع رسول الله من بدر وقال فتى من الأنصار شهد معه بدرا : « إن قتلنا إلا عجائز صلعا ! » فقال له النبي صلى الله عليه وآله : « لا تقل ذلك يا ابن أخ ، أولئك الملأُ ! » .

(٢٤)

ص ٥٩ من العثمانية

كل مَن دوَّن أخبار قريش وآثار رجالها وصف الوليد بالشجاعة والبسالة ، وكان مع شجاعته أيِّداً يصارع الفتيان فيصرعهم ، وليس لأنه لم يشهد حربا قبلها ما يجب أن يكون بطلا شجاعا ، فإن علياً عليه السلام لم يشهد قبل بدر حربا ، وقد رأى الناس آثاره فيها .

(٢٥)

ص ٦٢ من العثمانية

أما ثباته يوم أحد فأكثر المؤرخين وأرباب السِّير ينكرونه ، وجمهورهم يروى أنه لم يبق مع النبي صلى الله عليه وآله إلّا علىّ وطلحة والزبير وأبو دُجانة . وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ولهم خامس ، وهو عبد الله بن عباس . ومنهم من أثبت سادساً وهو المقداد بن عمرو .

وروى يحيى بن سلمة بن كهيل قال : قلت لأبى : كم ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد ؟ فقال : اثنان . قلت : من هما ؟ قال : على وأبو دُجانة .

وهبْ أبا بكر ثبت يوم أحد كما يدعيه الجاحظ ، أيجوز له أن يقول : ثبت علىّ ، فلا فخر لأحدهما على الآخر ، وهو يعلم آثار علىّ عليه السلام ذلك اليوم وأنه

قتل أصحاب الألوية من بنى عبد الدار ، منهم طلحة بن أبى طلحة الذى رأى رسولُ الله صلى الله عليه وآله فى منامه أنه مردف كبشا فأوّله وقال : كبش الكتيبة نقتله[1] . فلما قتله علىّ عليه السلام مبارزة — وهو أول قتيل قتل من المشركين ذلك اليوم — كبر رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : هذا كبش الكتيبة !

وما كان منه من المحاماة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وقد فر الناس وأسلموه ، فتصمد له كتيبة من قريش فيقول : « يا علىّ ، اكفنى هذه » . فيحمل عليها فيهزمها ويقتل عميدها ، حتى سمع المسلمون والمشركون صوتا من قبل السماء :

لا سيف إلا ذو الفقا ... رِ ولا فتى إلا علىّ

وحتى قال النبى صلى الله عليه وآله عن جبرائيل ما قال .

أتكون هذه آثاره وأفعاله ثم يقول الجاحظ : لا فخر لأحدهما على صاحبه !

ربَّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .

(٢٦)

ص ٦٢ من العثمانية

ما كان أغناك يا أبا عثمان عن ذكر هذا المقام المشهور لأبى بكر ؛ فإنه لو تسمعه الإمامية لأضافته إلى ما عندها من المثالب ، لأن قول النبى صلى الله عليه وآله له : ارجع ، دليل على أنه لا يحتمل مبارزة أحد ، لأنه إذا لم يحتمل مبارزة ابنه ، وأنت تعلم حنو الابن على الأب وتبجيله له وإشفاقه عليه وكفه عنه ، لم يحتمل مبارزة الغريب الأجنبى . وقوله له « ومتعنا بنفسك » إيذان له بأنه كان يقتل لو خرج . ورسول الله كان أعرف به من الجاحظ . فأين حال هذا الرجل من حال الرجل الذى صَلِى بالحرب ، ومشى إلى السيف بالسيف ، فقتل السادة والقادة ، والفرسان والرجالة .

---

(١) ط : « فقتلته » .

(٢٧)

ص ٦٢ من العثمانية

أما قوله « إنه بذل الجهد » فقد صدق . وأما قوله « لا حال أشرف من حاله » فخطأ ، لأن حال من بلغت قوته أضعاف قوته فأعملها فى قتل المشركين ، أشرفُ مِن حال من نقصت قوته عن بلوغ الغاية . ألا ترى أن حال الرجل أشرف فى الجهاد من حال المرأة ، وحال البالغ الأيِّد أشرفُ من حال الصبي الضعيف .

* * *

قال ابن أبى الحديد :

فهذه جملة ما ذكره الشيخ أبو جعفر محمد بن عبد الله الإسكافى رحمه الله فى نقض العثمانية ، اقتصرنا عليها هنا . وسنعود فيما بعد إلى ذكر جملة أخرى من كلامه إذا اقتضت الحال ذكره .

* * *

وأنا أقول : قد تتبعت ما تلا هذا القول مما ورد فى أثناء الشرح من نصوص ، فوجدت أن ابن الحديد قد وقف عند هذا الحد ولم يورد فى كتابه نصاً آخر من نصوص رد الإسكافى يزيد عما نقله فى هذه المواضع التى حرصت على أن أقرنها هنا بالمواضع التى استدعت الرد .

(٢٨)

ص ١٠٧ — ١٠٨ من العثمانية

إن أباعثمان يجرُّ على نفسه مالاطاقةَ له به من مطاعن الشيعة . ولقد كان فى غُنْية عن التعلُّق بما تعلَّق به ، لأن الشيعة تزعم إنّ هذه الآية بأن تكون طعناً وعيباً على أبى بكر أولى من أن تكون فضيلة ومنقبة له ، لأنَّه لما قال له « لا تحزن » دلّ على أنه قد كان حزِنَ وقنط ، وأشفق على نفسه ، وليس هذا من صفات المؤمنين الصابرين .

ولا يجوز أن يكون حزنه طاعةً ، لأن الله تعالى لا ينهى عن الطاعة ، فلو لم يكن ذنباً لم ينه عنه . وقوله « إن الله معنا » أى إن الله عالم بحالنا وما نضمره من اليقين أو الشك ، كما يقول الرجل لصاحبه : لا تضمرنّ سوءاً ولا تنوينّ قبيحاً ، فإن الله تعالى يعلم ما نُسِره وما نعلنه وهذا مثل قوله تعالى : « ولا أدنَى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » . أى عالم بهم . وأما السكينة فكيف يقول إنها ليست راجعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم وبعدها قوله : « وأيّده بجنودٍ لم تروها » . أترى المؤيد بالجنود كان أبا بكر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وقوله « إنه مستغن عنها » ليس بصحيح . ولا يستغنى أحد عن ألطاف الله تعالى وتوفيقه وتأييده وتثبيت قلبه . وقد قال الله تعالى فى قصة حُنَين : « وضاقَتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبت ثمّ وليّتم مدبرين » . ثمّ أنزلَ الله سكينته على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما الصحبة فلا تدلّ إلاّ على المرافقة والاصطحاب . وقد تكون حيث لا إيمان ، كما قال تعالى : « قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك » .

ونحن وإن كنا نعتقد إخلاص أبى بكر وإيمانه الصحيح السليم ، وفضيلته التامة ، إلا أنّا لا نحتجّ له بمثل ما احتج به الجاحظ من الحجج الواهية ، ولا نتعلق بما يجرّ علينا دواهى الشيعة ومطاعنها .

(٢٩)

وهى مناقضة لم أعثر على النص الذى سيقت له من العثمانية

وقد جاءت فى شرح ابن الحديد عقب المناقضة رقم ١٨

قال الجاحظ :

وعلى أنّا لو نزّلنا إلى ما يريدونه جعلنا الفراش كالغار وخلصت فضائل أبى بكر فى غير ذلك عن معارض .

***

قال شيخنا أبو جعفر رحمه الله :

قد بيّنّا فضيلة المبيت على الفراش على فضيلة الصحبة فى الغار بما هو واضحٌ لمن أنصف . ونزيد هنا تأكيداً بما لم نذكره فيما تقدم فنقول :

إن فضيلة المبيت على الفراش على الصحبة لوجهين :

أحدهما أنّ عليّاً عليه السلام قد كان أنس بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وحصل له بمصاحبته قديماً أنس عظيم ، وإلف شديد ، فلما فارقه عدِم ذلك الأنس وحصل به أبو بكر ، فكان ما يجده عليه السلام من الوحشة وألم الفرقة موجباً زيادة ثوابه ، لأنّ الثواب على قدر المشقة .

وثانياً : أن أبا بكر كان يؤثر الخروج من مكة ، وقد كان خرج من قبل فرد ، فازداد كراهية للمقام ، فلما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وافق ذلك هوى قلبه ومحبوب نفسه ، فلم يكن له من الفضيلة ما يوازى فضيلة من احتمل المشقة العظيمة ، وعرّض نفسه لوقع السيوف ، ورأسه لرضخ الحجارة ، لأنّ على قدر سهولة العبادة يكون نقصان الثواب .

تمت المناقضات

الفهـــارس

١ — فهرس القرآن الكريم

٢ ـ فهرس الحديث

٣ — فهرس الأمثال

٤ — فهرس الشعر

٥ ــ فهرس الأعلام

٦ — فهرس القبائل والجماعات

٧ـ فهرس البلدان والمواضع ونحوها

٨ ـ فهرس الأبحاث المتعلقة بالاعلام والطوائف

عمر بن الخطاب :

مسطح بن أثاثة :

هارون عليه السلام :

٩ — فهرس الأبحاث المتعلقة بالمعارف العامة

آية :

اجماع :

احاديث :

مؤلفات وتحقيقات عبد السلام هارون

آمالي الزجاجي ـــ مجلد	الزجاجي
الأساليب الانشائية في النحو العربي	
الألف المختارة من صحيح البخاري ١/٢	
الاشتقاق ١/٢	الامام ابن دريد
البيان والتبيين ١/٤ ـــ مجلد	الجاحظ
البرصان والعرجان والعميان والحولان	الجاحظ
تحقيقات وتنبيهات في معجم لسان العرب ـــ مجلد	
الحيوان ١/٨ ـــ مجلد	الجاحظ
شرح ديوان الحماسة ١/٤	المرزوقي
الكتاب ١/٥	سيبويه
العثمانية	الجاحظ
فهارس المخصص	ابن سيده
مجموعة المعاني	
مجموعة رسائل الجاحظ ١/٤	

معجم مقاييس اللغة ١/٦	ابن فارس
المفضليات الخمس	
همزيات أبي تمام	
وقعة صفين	ابن مزاحم